السماء من القرآن الكريم إلى لغة العرب

د. محمد نايف الدليمي
الموصل – العراق

نسمع بكلمة السماء فيتبادر إلى الذهن أنها السماء المعروفة، لأنّ كثيراً من الناس لا يدركون أنّ المفردة العربية لا تنحصر في معنى واحد، بل تتعدد فيها المعاني، وإن كان الجذر واحداً، فليس هناك مفردة في اللغة العربية تقف عند معنى واحد، والسماء واحدة من المفردات التي تتعدد فيها المعاني، فتأتي بمعنى السماء المظلة، وتأتي بمعنى السحاب، والمطر، والعشب وعلى وفق ما سيتوضح في هذا البحث.

السَّماء، اسم لكل ما علاك فأظلّك، وسمَا الشيء يسمو سموًا فهو سامٍ، ارتفع، وكل سقف فهو سماء[1].

تَـلُـفُّـهُ الأرواح والسُّمِـيُّ
فـي دِفءِ أَرطـاةٍ لَـهَـا حَـنِـيُّ

وقال ابن النحاس: السماء تجمع على ستة أوجه، جمعان مسلمان، وجمعان مكسوان لأقل العدد، وجمعان لأكثر العدد، سماوات، وسماءات، وأسمية، وسمايا، وسميّ، وأسْمٍ[2].

لقد وردت لفظة سماء بصيغة المفرد في القرآن الكريم مئة وعشرين مرة، في اثنتين وسبعين مرّة منها جاءت بمعنى السماء المظلة للأرض، وفي سبع وعشرين مرّة وردت بمعنى السحاب، وست مرّات ارتبطت بالرزق، وأربع مرات بالكسف، وثلاث مرات بالرِّجْز، ومرّة واحدة بالحجارة، ومرّة واحدة بالحسبان.

وإذا عدّنا إلى السماء المظلة للأرض، التي قلنا: إنها وردت اثنتين وسبعين مرّة، وجدنا أنها ارتبطت بالأرض ستًا وعشرين مرّة، وفي كُلٍّ جاءت تحمل دليلاً على وجود الخالق سبحانه وتعالى وأنه الموجد لكل شيء، فالعبادة لا تكون إلا له وحده، لأنّه المسخّر كلَّ شيء لبني البشر، وإنّ الأرض التي ارتبطت بالسماء. تعني أرضنا هذه التي نحيا عليها ليس غير، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾[3]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا

خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[٤]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ...﴾[٥]. وكذلك بقية الآيات التي ارتبطت السماء فيها بالأرض.

ومن جانب آخر فإنّ لفظة سماء حيثما وردت في كتاب الله المجيد، فإنها معرفة بأل إلا في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي﴾[٦]. وقد جاء في تفسيرها أنَّ الأرض والسماء نوديتا بما ينادى به أولو، العلم، وأمرتا بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع، الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر لامتثال أمره، مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه... وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعيِّن في نفسه، مستغنٍ عن ذكره،إذ لا يذهب الوهم إلى غيره، للعلم بأنّ مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار[٧].

وقد أرى أنَّ السماء هنا تعني المطر، وأنَّ الأمر في قوله تعالى: ﴿أَقْلِعِي﴾ جاء خطابًا للمؤنث؛ لأنَّ السماء مؤنثة.

والثانية قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا..﴾[٨]. وقد جاء في تفسير أوحى في كل سماء أمرها، أي شأنها وما يتأتى منها، بأنْ حملها عليه اختيارًا أو طبعًا، وقيل، أوحى إلى أهلها بأوامره ونواهيه[٩].

كما أنَّ السماء المظلة للأرض ارتبطت ببعض المفردات التي وردت إما صفة لها أو حالة من حالاتها التي هي عليها، أو وظيفة من وظائفها، أو ما ستؤول إليه مستقبلاً، وهذه المفردات على وفق تسلسل أفعالها: بَرجَ، بَنى، حَبَكَ، رَجَعَ، زَيَنَ، شَقَقَ، فَرَجَ، فَطَرَ، كَشَطَ، مَوَرَ، وسنتناول كل مفردة بصورة مختصرة لتوضيح ارتباطها بمفردة السماء.

بَرجَ: البُروج:

يقول المعجم العربي: كل ظاهر مرتفع فقد برج، بل قيل للبروج بروج لظهورها وبيانها وارتفاعها[١٠]. والبروج في اللغة، الحصون والقصور، وبرج سور المدينة والحصن؛ بيوت تبنى على السور، وتسمى البيوت تبنى على أركان القصور بروجًا[١١]. وبهذا المعنى اللغوي ورد قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[١٢]. والبرج في المصطلح؛ واحد من بروج الفلك، وهي اثنا عشر برجًا، ولكل برج منزلتان، وثلث المنزلة من منازل القمر الثماني والعشرين، تحل الشمس في البرج وتمكث فيه شهرًا شمسيًا، ثم تغادره إلى الذي يليه، وحلولها في البرج عادة في كل عشرين من الشهر، ويمكث القمر في البرج يومين وثلث اليوم، فيكون حلوله في المنزلة يومًا واحدًا، ثم يتحول إلى التي تليها[١٣].

لقد ورد ذكر البروج بمعناها الاصطلاحي في القرآن الكريم ثلاث مرات، بصيغة الجمع، ولم ترد بصيغة المفرد، ففي فاتحة سورة البروج، ورد وصف للسماء بأنها ذات الكواكب، أو ذات القصور، قال الفراء: اختلفوا في البروج فقالوا: هي النجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجًا، وقالوا : هي القصور في السماء[١٤]. وفسّر الزَّجَّاج البروج في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[١٥]. بالكواكب العظام[١٦]. وهو هكذا عند المفسرين[١٧].

أما قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً﴾[١٨]. فقد ذهب المفسرون في تفسير البروج في الآية إلى

السماء من القرآن الكريم إلى لغة العرب

المعاني التي ذكرناها سابقًا في البروج، إلا أنَّ الذي عندي أن الله سبحانه وتعالى قد فصل الشمس والقمر عن البروج، لأنهما ليسا تابعين لبرج واحد، إذ إنّ حركة الشمس وحركة القمر تشتملان على كل البروج، وإنهما ينتقلان من برج إلى برج في وقت مقدر معلوم، على خلاف الكواكب والنجوم الأخرى، وعلى سبيل المثال فإنّ الشرطين هي المنزلة الأولى من منازل القمر، إلا أنَّ هذه المنزلة هي من برج الحمل، وكذلك البُطين، وإنَّ الثريا مقسومة بين برجي الحمل والثور فثلثها للحمل وثلثاها الآخران للثور، وهكذا بقية المنازل، بالإضافة إلى بقية الكواكب والنجوم التي يحتويها كل برج على خلاف الشمس والقمر اللذين لا يحتويهما برج واحد.

بَنَى: البِنَاءُ:

البِنَاءُ: واحد الأبنية، وهي البيوت التي تسكنها العرب في الصحراء، وهي على أنواع، فمنها الطِّرَاف، والخِبَاءُ، والبِنَاء، والقبَّة، وأبنية العرب طِراف وأخبية، فالطراف من أدمٍ ليس له كِفَاء، والخباء صوف أو أدمَ، ولا يكون من شعرٍ[١٩]. والقبة: تكون من الأدم خاصة، والقبة من الخيام: بيت صغير مستدير من بيوت الأعراب[٢٠].

لقد ارتبطت لفظة السماء بالبناء ست مرات، وهي على وفق تسلسل سورها الآية /٢٢ من البقرة، و٦٤/ من غافر، و/٦ من ق، و/٤٧ من الذاريات، و/٢٧ من النازعات، و/٥من سورة الشمس. ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء...﴾[٢١]. اختلفت آراء المفسرين في لفظة بناء، فمن قائل إنه وَضْعُ لَبِنَةٍ على لبنةٍ، أو وضع شيء على شيء، فتكون متماسكة كي لا تقع على الأرض[٢٢]. وقائل في البناء إنه قبة مضروبة، والبناء مصدر سُمِّيَ به المبني بيتاً كان أو قبة أو خباء[٢٣]، وقائل بأنه سقف كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً﴾[٢٤].

والذي يبدو أنّ السقف هو التفسير الأقرب دلالة للبناء لأسباب؛ منها ما حكيناه عن أبنية العرب وكيفيتها، ومنها أنَّ القرآن العظيم نزل بلغتهم، وبما يعرفونه ويحيط بهم، وهم في هذه المفاوز والمجاهيل التي فرضت عليهم هذا الضرب من البناء غير المستقر الذي هو الخباء، ولذلك قالوا، بنى الرجل على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها بناءً جديدًا، وهذا ما يعرفونه عن البناء، على خلاف أهل الحضر الذين تكون بيوتهم من طين ومدر؛ لأنها ثوابت مستقرة، مثل مكة المكرمة، فإنها تسمى البَنِيَّة لثبوتها واستقرارها.

والبناء في العادة يكون له سقف والسقف له جوانب، وتمسكه العمد، والسقف مما لهم دراية ومعرفة به، ودلالته عندهم الارتفاع والسموك، والسماء سقف على الأرض، كما تقول المعاجم[٢٥]. وبهذا المعنى من العلو والارتفاع ورد قوله تعالى مبيناً كيفية البناء، فقال سبحانه: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾[٢٦]. وكذلك قوله جل وعلا: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾[٢٧].

فالسَّمْكُ يجيء في موضع السَّقفِ، والسَّماءُ مَسموكَةٌ، أي مرفوعة كالسَّمْكِ على ما قاله الخليل بن أحمد الفراهيدي[٢٨]. وقد روي عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اللهم رب المسمكات السبع، ورب المدحوات[٢٩]. وعلى هذا المعنى ورد لفظ البناء في آيات التنزيل العزيز.

حَبَكَ: الحُبُك:

حَبَكَ الثوب يَحْبِكُهُ حَبْكًا: أجاد نسجه، وحَسَّنَ أَثَرَ الصنعة فيه، وثوب حَبِيكٌ: محبوك.

والحَبِيكَةُ، كُلُّ طريقة من خُصَلِ الشعر، والجمع

حَبيك، وحَبَائِك وحُبُك، والحَبَائك؛ الطُّرُقُ، سواء التي تنسجها الرياح على الماء أو على الرمال[٣٠].

قال زهير بن أبي سلمى يصف غديرًا[٣١]:

مُكَلَّلٌ بأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ

رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ

وحُبُكُ السَّماء؛ طَرَائِقُها، واحدتها حَبِيكَة، وخَصَّ ابنُ فارس هذه الطرائق بطرائق النجوم[٣٢]. وفي القرآن الكريم: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**﴾[٣٣]. قال أهل الغريب في تفسير الحبك: ذات الطرائق الحسنة[٣٤]، ونُقِل عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها: ذات الخلق الحسن المحكم[٣٥]. وقول المفسرين في تفاصيل تفسيرهم للحبك ما يتطابق مع قول اللغويين، ومن كلمة لعمرو بن مرَّة في مدح النبي ﷺ[٣٦]:

لأَصْبَحْتَ خَيْرَ النَّاسِ نَفْسًا وَوَالِدًا

رَسُولُ مَلِيكِ النَّاسِ فَوْقَ الحَبَائِكِ

رَجَعَ: الرَّجْعُ:

رَجَعَ يَرْجِعُ رَجْعًا ورُجُوعًا ورُجْعَى ورُجعانًا ومَرْجِعًا؛ انصرَفَ. أو عَادَ، وفي التنزيل العزيز: ﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾[٣٧]. وفيه أيضا: ﴿**إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعا..**﴾[٣٨]. أي رجوعكم وعودتكم.

والرَّجْعُ؛ المَطَرُ، وهو واحد من معانيه المتعددة، بل سُمِّيَ المطر رجعاً؛ لأنه يرجع مرة بعد مرة[٣٩]. وقد وصفت السماء في القرآن بذات الرجع في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾[٤٠]. لأنها ترجع بالمطر سنة بعد سنة على رأي ثعلب، وقال الفراء: تبتدي بالمطر ثم ترجع به كل عام[٤١]. وعند الزجاج ذات المطر لأنه يجيء ويرجع ويتكرر[٤٢]، وقال ابن فارس: فأما الرجع؛ فالغيث؛ وهو المطر في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾ وذلك أنها تغيث وتصب ثم ترجع فتغيث وأنشد:

وَجَاءَتْ سِلْتِمٌ لاَ رَجْعَ فِيهَا

وَلاَ صَدْعٌ فَتَحْتَلِبَ الرِّعَاءُ[٤٣]

زَيَنَ: الزِّيْنَة:

الزينة: اسم جامع لكل شيء يتزَّين به، زانهُ الحسن يزينه زينًا، وازدانت الأرضُ بعشبها، وازَّيَّنَتْ وتزَّيَّنَتْ، إذا حَسَّنَها عشبها[٤٤]. وفي القرآن الكريم: ﴿**حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ**﴾[٤٥]. أي تزينت بأصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروس أخذت من ألوان الثياب والزينة[٤٦].

وردت لفظة زينة في القرآن العظيم مرتبطة بالسماء، وما يتعلق بها خمس مرات، وفي كُلٍّ جعلت النجوم والكواكب والبروج هي التي تزين السماء، ومن الجدير أن نشير هنا إلى أنّ العرب قبل نزول القرآن الكريم وبعده ينظرون إلى الكواكب والنجوم نظرة وظيفية، فيجعلون لها ثلاث وظائف هي زينةً للسماء، ورَميًا لمسترق السمع، واهتداءً بها، حتى إنَّ اللغويين والمفسرين نقلوا عن قتادة قوله: خلق الله النجوم لثلاث، زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا عِلْمَ له به[٤٧]. وهذه الوظائف الثلاث هي التي ورد ذكرها في كتاب الله العزيز، ولم يرد لغيرها ذكر فيه، ويكاد الإجماع ينعقد عليها.

ارتبطت لفظة زينة بالبروج في التنزيل العزيز مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**﴾[٤٨]. إذا إنَ البروج تختلف أشكالها وتتباين هيئاتها، وقد

يستطيع الناظر إليها والمدقق فيها أن يشكل مما تحتويه من النجوم والكواكب ما يشاء من الأشكال والصور والهيئات ما تبهره فيها صنعة الصانع القادر المقتدر الذي لا يعجزه شيء.

وارتبطت بالمصابيح مرتين في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[٤٩]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[٥٠]. وجاء في تفسير المصابيح بأنها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بإيقاد المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة، وإن التنكير في لفظة المصابيح ورد للتعظيم[٥١]. غير أن المعجمات العربية فسرت المصابيح بأنها أعلام النجوم[٥٢]. وكلا المعنيين متقارب وإن كان التعميم عند المفسرين والتخصيص عند اللغويين، فالمراد الكواكب، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[٥٣].. أي إنه سبحانه وتعالى قد زان الكواكب وحسَّنها، لأنها إنَّما زينت السماء لحسنها في أنفسها على ما ورد من خلاف إعرابي للفظة الكواكب في حالات الرفع والنصب والجر.

والذي يبدو من ظاهر النصوص القرآنية أنّ السماء الدنيا وحدها هي التي تزينت بالكواكب، وأنّ السماوات الست الأُخر خلو من الزينة ومن الكواكب، لأنَّ الناظر لا يبصرها، وما دامت الأعين تكل عن رؤيتها فهي ليست بحاجة إلى زينة أو إلى ما سوى الزينة.

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾[٥٤]. فإنّ لفظة زينة وردت من غير أن ترتبط بشيء، لوضوح الدلالة فيها، إذ المراد زَيَّنَّاها بالكواكب أو بالنيرات.

شَقَقَ/ الشَّقُّ:

الشَّقُّ، مصدر قولك: شَقَقْتُ العودَ شَقًّا، والشَّقُّ، الصَّدْع البائنُ، وقيل: غير البائن، أو هو الصدع عامة، في عود أو حائط أو زجاج أو غير ذلك[٥٥].

وردت لفظة التشقق بهذا المعنى في القرآن الكريم مرتبطة بالسماء أربع مرات وهي على وفق تسلسل السور في الآية:٢٥من الفرقان، و٣٧من الرحمن، و١٦من الحاقة، وفاتحة سورة الانشقاق.

ففي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً﴾[٥٦]. قال المفسرون إنَّ انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها، فجعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء، كما تقول: شققت السنام بالشفرة فانشق بها، والمعنى أنَّ السماء تتفتح بغمام أبيض يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد[٥٧].

وقد لا تختلف الدلالة اللغوية للشق في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[٥٨]. وقوله سبحانه: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[٥٩]. وقوله جلَّ وعلا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾[٦٠]. إذ كلها تتحدث عن الحدث عند قيام الساعة.

فَرَج: الفُرُوج:

الفروج جمع فَرْج، وهو الخلل بين الشيئين، لا يكسر على غير ذلك، ومنه قول أبي ذؤيب يصف الثور[٦١]:

فَانْصَاعَ مِنْ فَزَعٍ وَسَدَّ فُرُوجَهُ
غُبْرٌ ضَوَارٍ وَافِيَانِ وَأَجْدَعُ

والفُرجةُ بالضمّ، فرجة الحائط وما أشبهه، يقال: بينهما فرجة؛ أي انفراج، وفي الحديث الشريف في صلاة الجماعة: (ولا تذروا فُرُجات

للشيطان)، وهو الخلل الذي يكون بين المصلين في الصلاة[٦٢].

وردت لفظة فرج مرتبطة بالسماء في آيتين من التنزيل العزيز، في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٦٣]. ق-٦-، وقد جاء في تفسير الفروج: أنها الفتوق والشقوق، أي أنها (السماء) سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل، بأنْ خَلَقَها ملساء متلاصقة الطباق[٦٤]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ﴾[٦٥]. قيل في فُرِجَتْ فُتِحَتْ فكانت أبوابًا[٦٦]. وأحسب أنَّ المراد عند قيام الساعة.

فَطَرَ: الانفِطَارُ:

فَطَرَ الشيءَ يَفطُرُهُ فَطْرًا فانْفَطَر، وتفطَّر الشيءُ تشقَّقَ، والفَطْرُ: الشَّقّ،

وجمعه فطور، انشد ثعلب[٦٧]:

شققت القلب ثمَّ ذررت فيه

هواكِ فليمَ فالتأم الفُطورُ

وفطر الله الخلق يفطرهم: خَلَقَهُم وبدأهُمْ، والفِطْرَةُ: الابتداء والاختراع، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال: أنا فطرتها، أي ابتدأت حفرها[٦٨].

وردت لفظة فطر بهذين المعنيين مرتبطة بالسماء في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، في أربع آيات منها وردت بمعنى الشق، وهي في الآية /٩٠ من سورة مريم، و/٣ من الملك، و/١٩ من المزمل، وفاتحة سورة الانفطار، وفي سبع آيات جاءت بمعنى الابتداء والاختراع، وهي الآية/١٤ من سورة الأنعام، و/١٠١ من يوسف، و/١٠ من إبراهيم، و/٥٦ من الأنبياء، وفاتحة سورة فاطر، و/٤٦ من الزمر، و/١١/ من الشورى.

ففي قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[٦٩]. قال المفسرون في يتفطّرن، يتشققن مرة بعد أخرى، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو بكر، يتفطرن، قال ابن خالويه: والحجة لمن قرأه بالتخفيف أنه أخذه من قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ﴾، ودليله قوله: ﴿السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ﴾، والحجة لمن قراه بالتشديد انه أخذه من تفطرت السماء تتفطّر، وهما لغتان فصيحتان معناهما التشقق. ومنه قولهم: تَفَطّر الشَّجر إذا تشقق ليورق، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[٧٠]. وقال البيضاوي: ويتفطرن أبلغ؛ لأنَّ التفعُّل مطاوع فعَّل، والانفعال مطاوع فَعَلَ، ولأن أصل التفعُّل التكلف[٧١].

وفي قوله عز وجلّ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[٧٢]. قالوا في فاطر السماوات: إنه مبدعها وخالقها[٧٣]، وبهذه الدلالة ورد اللفظ في بقية الأبيات.

كَشَطَ: الكَشْطُ:

كَشَطَ الغطاءَ عن الشيء، والجِلْدَ عن الجزُور، والجِلَّ عن ظهر الفرس يكشِطُه كَشْطًا: قَلَعهُ ونزعه وكشفه عنه[٧٤]. والكشط: رَفْعُك شيئًا عن شيء قد غطاه وغشيه من فوقه، كما يكشط الجلد عن السنام وعن المسلوخة[٧٥].

ورد الكَشْطُ مرتبطًا بالسماء في التنزيل العزيز مرةً واحدة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ﴾[٧٦]. وقد جاء في تفسيرها: أنها قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، وعند الزجاج أنها قُلعت كما يقلع السقف[٧٧].

مَوَرَ: المَوْرُ:

مارَ الشيءُ يَمُورُ مَوْرًا: إذا جعل يَذهَبُ ويجيءُ ويَتَرَدَّدُ، وكذلك إذا اضطرب وتحرك، ومارت الناقة في سيرها مورًا: ماجت وترددت، وهي أيضا السهلة السير السريعة[٧٨]. قال عنترة يصف ناقة[٧٩]:

خَطَّارَةٌ غِبَّ السُّرى مَوَّارَةٌ
تَطِسُ الإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِيْثَمِ

ومَارَ يَمُور مَوْرًا: جَرَى، والمَوْرُ: الدَّورانُ أيضًا، وقد ورد المور مرتبطًا بالسماء في القرآن العظيم مرة واحدة في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً﴾[٨٠]، وفسر الأخفش وأبو عبيدة من اللغويين لفظة تمور في الآية بأنها تتكفأ كما تتكفأ النخلة[٨١]. وقال الجوهري: تَمُوجُ مَوْجًا[٨٢]. وقال أهل التفسير في المور إنه تردد في المجيء والذهاب، وقيل تتحرك في تموج وتضطرب، وقال النسفي: تدور كالرحى مضطربة وتتحرك[٨٣]، والذي قاله المفسرون ذهب إليه أهل الغريب أيضا، وهو يتفق مع ما قاله اللغويون من معنى المور.

تسمياتها:

أطلق العرب على السماء المظلة للأرض مسميات عدّة، وكل اسم من هذه الأسماء له دلالة ترتبط بواقعهم، وبما حولهم من الأشياء ، أو بما هو في مرأى عيونهم، ومن هذه الأسماء ما ورد على وجه التشبيه، أو على الصورة التي هي عليها في الليل والنهار، ومن هذه التسميات:

برْقع:

البُرْقُع والبُرْقَعُ: ما تضعه المرأة على وجهها، وفيه خرقان للعينين، والبُرْقُع: غرة الفرس الآخذة جميع وجهه، غير أنه ينظر في سواد، وقد جاوز بياض الغرة سفلاً إلى الخدين من غير أن يصيب العينين[٨٤]. وبِرْقِع بكسر الباء والقاف، من أسماء السماء، قيل هي السماء الدنيا، وقيل: الرابعة، وقيل السابعة[٨٥]. قال أميَّة بن أبي الصلت[٨٦]:

فَكَأنَّ بِرْقِعَ والملائكُ حوْلَها
سَدِرٌ تَوَاكَلَهُ الْقَوائِمُ أجْرَدُ

قال ابن بري شَبَّهَ السماءَ بالبحر لملاستها لا لجَرَبِها، ألا ترى قوله: تواكله القوائم، أي تواكلته الرياح فلم يتموج، فلذلك وصفه بالجرد، وهو الملاسة[٨٧].

الجَرْبَاءُ:

الجَرَبُ: بَثْر يعلو أبدان الناس والإبل، تقول: جَرِبَ يَجْرَبُ جَرَبًا، فهو جَرِبٌ وأجْرَبُ وجَرْبَانُ، والأنثى جَرْباء[٨٨].

والجَرْبَاءُ: من أسماء السماء، أطلقت عليها هذه التسمية تشبيهاً بما يثور في جلد الجرباء، وهي تسمية مختصة بالليل دون النهار، وذلك من أجل كواكبها وقيل: لموقع المجرة منها، كأنها جربت بالنجوم[٨٩]، قال أسامة بن حبيب يصف ثورًا وحشيًا[٩٠]:

أرَتْهُ مِنَ الجَرْبَاءِ في كُلِّ مَنْظَرٍ
طِبَابًا فَمَثْوَاهُ النَّهَارَ المَرَاكِدُ

وتوصف بالجَرِبَةِ القَرَاح أيضا، وجِرْبَةُ النجوم، وفيها يقول الأعشى[٩١]:

وَخَوَتْ جِرْبَةُ النُّجُومِ فَمَا تَشْـ
رَب أرْوِيَةً بِمَرْيِ الجَنُوبِ

الخَضْرَاءُ:

الخضرة: من الألوان، معروف، والخضرة في

كلام العرب من الأضداد، تطلق على الأخضر وعلى الأسود، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ❁ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ❁ مُدْهَامَّتَانِ﴾[92]، والجنة لاتكون دهماء، بل شدة خضرتها تجعل الناظر إليها يراها كأنها على هذه الصفة لكثافتها وكثرة ريها، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى×فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى﴾[93]، والأحوى: من الحوة، وهي السواد.

والذي يبدو أنَّ العرب لا تعرف الزرقة في السماء ولا تقول به، وهو عندهم من الألوان غير المحببة، ففي التنزيل ورد قوله تعالى:: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾[94]، فقد وصفهم سبحانه وتعالى بالزرقة لكلاحة وجوههم من شدَّة العطش والحرارة، وفي كلام العرب قول امرىء القيس[95]:

أَيَقْتُلنِي والْمَشْرِفيُّ مُضَاجِعِيْ
وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأَنْيَابِ أَغْوَالِ

ولذلك فإننا لا نجد في مادة (زرق) من المعجم العربي أيَّة أشارة إلى السماء أو إلى لونها، على خلاف مادة (خضر)فإننا نقرأ فيها: ومن أسماء السماء الخضراء للونها، وفي حديث المصطفى ﷺ في أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: ما أظلت الخضراء، ولا حملت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر[96]، وفي الشعر قول ذي الرمّة[97]:

قطعت اعتسافاً والثريَّا كأنَّها
عَلَى قِمَّةِ الرَّأْسِ ابنُ مَاءٍ محلِّقُ
يَدُبُّ عَلَى آثارِها دَبَرَانُها
فَلا هُوَ مَسْبُوقٌ ولاَ هُوَ يَلْحَقُ
بِعشْرِينَ مِنْ صُغْرَى النُّجُومِ كأنَّها
وإيَّاهُ في الخَضْرَاءِ لَوْ كَانَ يَنْطقُ
فُرادَى وأَشْتَاتاً وَحَادٍ يَسُوقُهاَ
إلَى المَاءِ من قرنِ التَّنُوفَةِ مُطْلِقُ

أما الزرقة التي نراها، فإنَّ للفيزياويين فيها تعليلاً إلى استطارة ضوء الشمس، حيث إنّ الهواء يمتاز باحتوائه على دقائق، أقطارها تساوي الطول الموجي للأزرق بكثرة، فتعمل هذه الدقائق على امتصاص بعض الأطوال الموجية في المنطقة الزرقاء من الطيف الشمسي، ثم تبثها بكافة الاتجاهات، فتبدو السماء زرقاء[98].

الخَلْقَاءُ:

الخَلْقُ: تقدير الشيء وابداعه، والخالق من صفات الله سبحانه وتعالى، لأنه المبدع للشيء المخترع على غير مثال سبق، وهو أحد أصلي معني خلق[99]، والأصل الآخر الخَلَقُ، وهو الأملس المستوي من كل شيء تقول: سحابة خَلَقَة؛ إذا كانت مستوية مخيلة بالمطر، وصَخْرةٌ خلقة؛ إذا لم يكن فيها وصم ولا كسر، وهي بينة الخلقِ، والأخلَق: الأملس المُصْمَت[100].

والخلقاء، من أسماء السماء، أطلقت عليها هذه التسمية لملامستها عند فقد الكواكب منها بضوء النهار، فكما أطلقوا عليها الجرباء بالليل لنجومها، أطلقوا عليها الخلقاء في النهار؛ لانمحاق نجومها بضوئه، فترى ملساء لا صدع فيها ولا شق[101].

الرَّقيعُ:

رقَعَ الثوبَ والأديمَ بالرِّقاع يَرْقَعُه رَقْعًا؛ ألحَمَ خَرْقه، وكل ما سددت من خَلَّة، فقد رَقَعْتَ ورَقَّعْتَ، والرقعة: ما رقع به، والجمع، رُقَع ورِقاع، والرقعة: الخِرقة[102].

والأرقع والرقيع اسمان للسماء الدنيا، لأنَّ الكواكب رقعتها أي إنها مرقوعة بالنجوم، وقيل: رقعت بالأنوار التي فيها، وقيل: كل واحدة من

السماوات رقيع للأخرى، والجمع أرقعة، والسماوات السبع يقال إنها سبعة أرقعة، كل سماء منها رقعت التي تليها، فكانت طبقًا لها، كما ترقع الثوب بالرقعة، وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال لسعد بن معاذ حين حكَّمَهُ في بني قريظة. لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعةِ أرْقِعةٍ[١٠٣]. وقيل الرقيع؛ اسم سماء الدنيا، فأعطى كل سماء أسمها[١٠٤].

السَّقْفُ:

السقف من أسماء السماء، بسطنا فيه القول قبل.

الصَّاقُورَةُ:

الصَّقْرَةُ؛ شِدَّةُ وقع الشمس وحِدَّة حَرّها، وقيل: شدة وقعها على الرأس، صَقَرَتْهُ تَصْقُره صَقْرًا؛ آذاه حرّها[١٠٥].

والصَّاقُورَة؛ باطن القحف المشرف فوق الدماغ[١٠٦]، وصاقورة والصَّاقورة؛ اسم السماء الثالثة في شعر أمية بن أبي الصلت إذ قال في قصيدة له:

لِمُصَفَّدِينَ عَلَيْهِمُ صَاقُوْرَةٌ
صَمَّاءُ ثَالِثَةٌ تُمَاعُ وَتُجْمَدُ

وعدّه أحمد بن فارس من الشاذ، فقال: ما أحسب ذلك من صحيح كلام العرب، وفي شعر أمية أشياء[١٠٧]، إلا أنَّ دلالة المفردة، وكون بعض معانيها باطن القحف المشرف على الدماغ، يوحي بأنَّ الصاقورة من صحيح كلام العرب، أُخذ معناه من هذا المعنى، والعربية تقبل الاستعارة كما تقبل الاشتقاق، بالإضافة إلى كون السماء سقفًا.

كَحْلَةُ:

الكَحْلُ؛ شدة المَحْل، يقال: أصابهم كَحْلٌ ومَحْلٌ، السنة الشديدة، يقال: صَرَّحَت كَحْلُ؛ إذا لم يكن في السماء غَيْم، قال سلامة بن جندل[١٠٨]:

قَوْمٌ إذا صَرَّحَتْ كَحْلُ بُيُوتُهُمُ
عِزُّ الذَّلِيلِ وَمَأْوَى كُلِّ قُرْضُوبِ

والكُحْلُ: الذي يُكْتَحَلُ به معروف، كَحَلَ العينَ يَكْحَلُها كَحْلاً، فهي مَكْحُولة، والكَحَلُ في العين؛ أن تَسْوَدَّ مواضع الكحل.

وكَحْلَةُ؛ من أسماء السماء[١٠٩]، قال الكميت[١١٠]:

إذَا ما المَرَاضِيعُ الخِماصُ تأوَّهَتْ
وَلَمْ تَنْدَ مِنْ أَنْوَاءِ كَحْلِ جُنُوبُها

والذي يبدو أنَّ تسمية السماء بكحلة جاءت من الكُحْل الذي يكتحل به، والكحل أسود، والأسود كما ذكرنا في الخضراء من الأضداد. ويدلل على أنَّ السماء ليست زرقاء.

٢- السَّمَاءُ بِمَعْنَى السَّحَاب:

وردت لفظة السماء التي بمعنى السحاب في القرآن الكريم سبعًا وعشرين مرّة توزعت على أربع وعشرين سورة وهي على التوالي: الآيات ١٩، ١٢٢، ١٦٤، من سورة البقرة، و٩٩ من الأنعام، و١١ من الأنفال، و٢٤ من يونس، و١٧ من الرعد، و٣٢من إبراهيم، و٢٢ من الحجر، و ١٠، ٦٥ من النحل، و٤٥ من الكهف، و٥٣ من طه، و٦٣ من الحج، و١٨ من المؤمنون، و٤٣ من النور، و٤٨ من الفرقان، و٦٠ من النمل، و٦٣ من العنكبوت، و٢٤ من الروم، و١٠ من لقمان، و٢٧ من فاطر، و٢١ من الزمر، و١٢ من غافر، و١١ من الزخرف، و٦ من الجاثية، و٩ من ق.

وقد جاءت السماء في جميع هذه الآيات مقترنة بلفظتي أنزل ونَزَّلَ المتلوتين بحرف الجر (من)

إلا في الآية ١٩ من سورة البقرة إذ ورد فيها اللفظ على التشبيه فلم يقترن بأنزل أو نزَّل، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، وكأني به على تقدير أنزل بعد لفظة صيب، وأنه لم يذكر لوضوح الدلالة.

ولمّا كان السحاب سببًا في نزول المطر، فقد باشرت لفظة سماء التي وردت بمعنى السحاب لفظة ماء، إلا في قوله تعالى: ﴿ومَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[١١١]، فقد فصل بين لفظتي السماء والماء حرف الجر (من) الذي جاء في تفسيره أنه لبيان الجنس، لأنّ ما ينزل من السماء مطر وغيره[١١٢]، وما ضربه الله سبحانه وتعالى مثلاً وورد على التشبيه المركب في قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ...﴾[١١٣]، وسبق فيه الماء لفظ السماء.

فمن السماء التي بمعنى السحاب قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾[١١٤]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾[١١٥].

يقول اللغويون: تَنَزَّله وأنزله ونزَّله بمعنى، قال سيبويه: وكان عمرو - يعني ابن العلاء - يفرق بين نَزَّلتُ وأنزلتُ، ولم يذكر وجه الفرق، وقال أبو الحسن الأخفش: لا فرق عندي بين نزَّلت وأنزلت إلا صيغة التكثير في نزل في قراءة ابن مسعود: وأُنْزِلَ المَلائِكَةُ تَنْزِيلا[١١٦]، أُنْزِلَ كَنُزِّلَ[١١٧]، وقد نشير هنا إلى أنّ من معاني النُّزلِ السحاب، وكذلك المطر[١١٨].

٢- السماء بمعنى المطر:

ورد ذكر السماء التي بمعنى المطر في ست آيات من القرآن العظيم، هي على وفق تسلسل السور الآية ٦ من سورة الأنعام، والآية ٩٦ من الأعراف، والآيتان ٤٤، ٥٢ من هود، والآية ١١ من القمر، والآية ١٢، من سورة نوح.

تقترن لفظة السماء التي بمعنى المطر في التنزيل العزيز بأرسل، وبركَ، وفَتَحَ، وما يشتق منها، وقد أوردت معاجم اللغة أنّ من معاني الفتح المطر، ومن معاني البركة المطر.

فمن السماء التي بمعنى المطر قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾[١١٩]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[١٢٠]، وشاهد البركة التي بمعنى المطر قول أوس بن حجر[١٢١]:

يَنْزِعُ عَنْهَا الحَصَى أَجَشُّ مُبْتَرِكٌ
كَأَنَّهُ فَاحِصٌ أَوْ لاَعِبٌ دَاحِي

وشاهد الفتح الذي بمعنى المطر قول الشاعر[١٢٢]:

كَأَنَّ تَحْتِي مُخْلِفًا قَرُوحَا
رَعَى غُيُوثَ العَهْدِ والفُتُوحَا

وفي السماء التي بمعنى المطر الحديث الشريف: صلى بنا رسول الله ﷺ إثر سماء من الليل، أي إثر مطر[١٢٣]. وفي الشعر قول معاوية بن مالك الذي يعرف بمعود الحكماء من قصيدة[١٢٤]:

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
رَعَيْنَاهُ وإِنْ كَانُوا غِضَابَا

وقول العجاج[١٢٥]:

تَلُفُّهُ الأَرْوَاحُ والسُّمِيُّ
فِي دِفْءِ أَرْطَاةٍ لَهَا حُنِيُّ

وقول الطرماح بن حكيم[126]:

وَمَحَاهُ تَهْطَالُ أَسْمِيَةٍ
كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ تَرِدُهْ

ومن معاني الرزق المطر، وقد ورد اللفظ مقترنًا بالسماء التي بمعنى السحاب ست مرات هي على التوالي: الآية ٣١ من سورة يونس، والآية ٦٤ من سورة النمل، والآية ٣ من سورة فاطر، والآية ١٣ من سورة غافر، والآية ٥ من سورة الجاثية، والآية ٢٢من سورة الذاريات.

يقول اللغويون في الرزق الذي بمعنى المطر: إنه اتساع في اللغة، وفسَّروا قول لبيد بن ربيعة العامري[127]:

رُزِقتْ مَرَابِيعَ النُّجُومِ وَصَابَهَا
وَدْقُ الرَّوَاعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا

بأنه جعل الرزق مطرًا، لأنَّ الرزق عنه يكون[128]. وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾[129]، قال المفسرون في آياته: إنها الرياح والسحاب والرعد والبرق والصواعق وغيرها، وفسروا الرزق بالمطر، لأنه سبب في الرزق ومراعاة لمعايش العباد[130]، وكذلك فُسِّر الرزق المرتبط بالسماء في التنزيل العزيز.

وارتبطت السماء بالكسف أربع مرات في القرآن الكريم مرة بتسكين السين وهي الآية ٤٤ من سورة الطور، وثلاث مرات بفتحها وهي الآية ٩٢ من الإسراء، والآية ١٨٧ من الشعراء، والآية ٩ من سبأ.

والكِسْفُ والكِسَفَةُ والكسيفةُ: القطعة مما قطعت، وكِسْفُ السَّحابِ وكِسَفُهُ بسكون السين وفتحها: قطعُه، وقيل إذا كانت عريضة فهي كِسْفٌ[131]. ففي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾[132]، قال المفسرون في الكسف: إنها القطع، جمع كسفة، أي يجعله منبسطًا يأخذ وجه السماء مرة، ويجعله قطعًا غير منبسطة مرة[133]، وهو المعنى الذي ذهب إليه اللغويون أيضًا، وعن قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُوم﴾[134]، قالوا: إنَّ المشركين لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطنا عليهم قطعًا من السماء لقالوا: هذا سحاب قَدْ رُكِم، أي جمع بعضه على بعض يمطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب، وقد جاء جوابًا لقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾[135]، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[136].

كما ارتبطت السماء بالرِّجْز في ثلاث آيات في التنزيل العزيز هي الآية ٥٩ من سورة البقرة، والآية ١٦٢ من الأعراف، والآية ٣٤ من العنكبوت. وأصل الرجز: القذر وهو العذاب، والعمل الذي يؤدي إلى العذاب[137]، والرجز في القرآن الكريم: العذاب المقلقل لشدته، ففي قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[138]، قال المفسرون في الرجز: إنه عذاب مقدر من السماء بسبب فسقهم، والمراد به الطاعون[139]، وبهذا المعنى جاء تفسير الآيات الأُخر التي ورد فيها لفظ الرجز.

والحجارة ارتبطت بالسماء في آية واحدة هي قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء﴾[140]، يعني المشركين الذين أنكروا ما جاء به النبي ﷺ من القرآن الكريم، ومن هؤلاء المشركين النضر

ابن الحارث حين قال: إنْ هَذَا إلَّا أسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وقول النبي ﷺ له: ويلك، إنه كلام الله فقال ذلك، إذ أنكر أن يكون الكلام منزلاً[١٤١].

والحُسْبَان لفظ له دلالة تقترن بما ينزل من السماء. والحُسبان بضم الحاء ورد عند اللغوين على معانٍ متعددة، منها العذاب والبلاء، ومنها المرامي وهي السهام الصغيرة التي يرمى بها، ومنها النار والجراد، والصواعق والحساب وغير ذلك[١٤٢].

ورد الحُسبان في القرآن العظيم مرتبطًا بالسماء مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿**إن تَرَنِ أنَا أقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّي أن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً**﴾[١٤٣]، وقد ذهب المفسرون واللغويون في معنى الحسبان في الآية إلى الحساب الذي قدر الله وحسبه، وهو الحكم بتخريبها، على ما كسبت يد صاحبها، وقالوا: مرامي، والواحدة حسبانة وهي الصواعق[١٤٤].

٤- السماء بمعنى العشب:

لم يرد هذا المعنى في كتاب الله العزيز، ولكنه ورد في كلام العرب، وقد قال فيه اللغويون: إنه اتساع في اللغة، لأنَّ العشب يكون من السماء الذي هو المطر، كما سموا النبات ندى، لأنه يكون عن الندى الذي هو المطر،وفسروا قول الشاعر:

فلمَّا رأى أنَّ السَّماءَ سَمَاؤُهُمْ

أتى خُطَّةً كانَ الخُضوع نكيرها

بأنه رأى العشب عشبهم، فخضع لهم ليرعى إبله فيه[١٤٥].

السماوات

في إحصائية مبسّطة للفظة السماوات بصيغة الجمع في القرآن العظيم سنجدها قد تكررت مئة وتسعين مرة، وكلها جاءت تحمل معنى السماء المظلة للأرض، في مئة وثمانين مرّة منها ارتبطت بالأرض وعلى وفق الآتي:

١- السماوات والأرض: الفاصل بينهما واو العطف،[١٢٤] مرة كقوله تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، وقوله سبحانه: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾.

٢- ما في السماوات وما في الأرض: الفاصل بينهما الاسم الموصول ما المتبوع بحرف الجر في، الذي يفيد الظرفية[٢٨] مرة، كقوله تعالى: ﴿**لله ما في السَّمَاوَاتِ وما في وَالأَرْضَ**﴾ أي خلقًا وملكًا.

٣- من في السماوات ومن في الأرض: الفاصل بينهما الاسم الموصول من، المتبوع بحرف الجر في، (٤) مرات، كقوله سبحانه: ﴿**ألا انَّ لله من في السَّمَاوَاتِ ومن في الأَرْضَ**﴾ أي من المخلوقين من ملائكة وجن وإنس، واستخدام (من) هنا لمن يعقل على خلاف قوله جل وعلا: ﴿**ما في السَّمَاوَاتِ وما في الأَرْض**﴾ فإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيدًا لا يصلح أحد منهم للربوبية، فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ندًا أو شريكًا[١٤٦].

٤- في السماوات وفي الأرض: الفاصل بينهما حرف الجر (في) الذي يفيد الظرفية في آيتين، كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ**﴾[١٤٧]، أي إنه سبحانه وتعالى، لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، كقولك: رميت الصيد في الحَرَمِ إذا كنت خارجه والصيد فيه[١٤٨].

٥- توسط (لا) النافية المتبوعة بحرف الجر

السماء من القرآن الكريم إلى لغة العرب

(في) بين السماوات والأرض في أربع آيات، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾[١٤٩]، وهو نفي مؤكد، وتنبيه على أنَّ ما يعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي، ولا شيء من الموجودات فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم، ولا يخفى ما في النص من تقريع وتهكم بهم وبما يشركون، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾، لأنَّ آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضية كالأصنام، أو لأنَّ الأسباب القريبة للشر والخير سماوية وأرضية[١٥٠].

٦- تقدمت الأرض على السماوات في خمس آيات. كقوله سبحانه ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾، وقد تقدمت الأرض على السماوات، لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السماوات العلى[١٥١]، وإنَّ الأشياء على الأرض عند مرأى بصر المشاهد وسمعه، ومجال التحقق بما فيها أكثر من رؤية السماوات.

٧- رب السماوات ورب الأرض، وقد فصل بين السماوات والأرض لفظة (رب) مرّة واحدة، في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي خالقهما ومالكهما، وقد قال اللغويون: لا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة[١٥٢]، وقد ورد ها هنا مضافًا،وأقدر أنه للتفرد بالوحدانية، لأنَّ تعددية الآلهة عند المشركين تبعدهم عن أن يكون واحد من هذه الآلهة ربًّا للسماوات أو ربًّا للأرض، أو ربًّا للعالمين، ولذلك تكرر لفظ الرب؛ وتكراره يفيد تجزئة الكون إلى سماوات وأرض وعالم، وإن عجز إله من آلهتهم أن يكون ربًّا لواحد من هؤلاء الأجزاء الثلاثة، فكيف إذا اجتمعت؟ وهو تدليل قاطع ودامغ على أن الله، سبحانه وتعالى، هو الخالق والمالك، وهو رب السماوات والأرض والعالمين، وليس لما يعبدون من دون الله حول ولا قوة ولا ملك.

٨- ارتبطت السماوات بالانفطار، والأرض بالتشقق في آية واحدة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[١٥٣]، هو رد على من قال اتخذ الرحمن ولدًا، وقول الرحمن: (تكاد) توحي بمنتهى الرأفة والحلم واللطف في خلقه، لأنَّ السماوات لم يتفطرن، ولم تنشق الأرض، ولم تخر الجبال، على الرغم من هول الحدث والقول، فإنَّ ابتداء النص بفعل المقاربة كاد هو نفي ضمني على ما يسميه النحويون، لأنَّ الآية الجليلة توحي بأنَّ الفعل لم يقع، قال الأخفش: إنك إذا قلت كاد يفعل، إنما تعني قارب الفعل ولم يفعل، وقال ابن الأنباري قال اللغويون: كدت أفعل، معناه عند العرب قاربت الفعل ولم أفعل[١٥٤].

٩- التماثل في العدد في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ....﴾[١٥٥]، وظاهر النص الجليل يقول بوجود سبع أرضين، وقد اختلف في أين هذه الأرضين، وهل أنَّ عليها حياة أو ليس عليها حياة، وأنّ علم الفلك المعاصر لايزال يبحث عن حياة على هذا الكوكب أو ذاك، ولا يزال يحدس ويتكهن.

وقد نجد في القرآن العظيم إلماحة قد تكون خفية، وقد تفضي إلى شيء من خلال قرينة تجدها في أثناء آي القرآن، ففي قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١٥٦]، ورد في أثناء هذا النص القرآني: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً﴾، فلو قال النص الجليل والأرض جميعها لتخصص القول بأرضنا هذه ومن عليها بوجود الضمير العائد دون غيرها، إلا أنه حذف الضمير العائد، وكأنه إلماح خفي إلى الأرضين السبع،وقد جاء في تفسير الأرض جميعًا، أنه تأكيد الأرض بالجميع؛ لأنَّ المراد بها الأرضون السبع، فهو يشهد لذلك قوله: جميعًا، وقوله السماوات؛ ولأنَّ الموضع موضع تعظيم، فهو مقتض للمبالغة، وزاد البيضاوي: الأرضون السبع، أو جميع أبعاضها البادية والغائرة[١٥٧]، وعلى وفق هذا فإنَّ الأرضين سبع، ويبقى أين هي...

إنَّ مسألة الأرضين السبع هي مما يشغل علماء الفضاء في تاريخنا المعاصر، ولا يزال البحث عن عوالم أخرى على كواكب أخرى غير أرضنا الشغل الشاغل لعلماء الفلك، وقد نقرأ خبرًا هنا وهناك يتكهن به هذا العالم أو ذاك، وآخره ما تكهنوا به من أنه ثمة حياة كانت على كوكب المريخ بقرائن وحسابات ودلائل هي محض قول ليس إلا.

ونحن المسلمين نؤمن بأن القرآن الكريم لا يحكي نظريات قد تتغير بوجود نظرية أخرى تغيرها، بل فيه قوانين ثابتة ودقيقة لا تتغير بتقادم الزمن، ولا يدخل عليها تعديل فعندما يقول القرآن الكريم بوجود سبع أرضين، يُقِرُّ به الإنسان المسلم المؤمن، وقد قال القرآن الكريم ذلك وآمنا به، وهو بعد ذلك قانون لا يجري عليه التغيير ولا التعديل. بيد أنَّ القرآن العظيم لم يقل بالتصريح بمواقعها، ولا إن كان عليها حياة، أو ليس هناك حياة، ربما لأنَّ ذكرها لا يهم الإنسان الذي على الأرض، وقد يكون أنه لا وجود لإنسان آخر بمفهوم الإنسان على أرض أخرى، إلا أننا لا نعدم رأيًا عند هذا المفسر أو ذاك العالم الجليل من علمائنا في هذه المسألة، وإن كان هذا الرأي غير قطعي، لأنَّ أحدًا من العالمين لا يقدر أن يقطع في هذه المسألة، لأنها لا تقوم على المشاهدة والعيان ولا اللمس ولا التحسس، فالراغب الأصفهاني ذهب في تفسير الأرضين السبع إلى القول بأنَّ كل سماء من السماوات السبع هي سماء لما تحتها وأرض لما فوقها، فالسماء الدنيا سماء لأرضنا هذه، وأرض للسماء الثانية، والسماء الثانية سماء للسماء الأولى، وأرض للسماء الثالثة وهكذا.

وإذا عدنا إلى كتاب الله العزيز، فإننا قد نقف على إشارات غير مباشرة، وإلماحات تعطي شيئًا من التشجيع على البحث والتقصّي والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[١٥٨]، وإذن يمكن أن تكون هناك إشارة إلى هذه المسألة، ولا يشترط أن تكون هذه الإشارة أو الإلماحة في آية صريحة، فمن هذه الإلماحات أنَّ القرآن الكريم يذكر سبعة من المخلوقات المتنفسة هي الإنسان والحيوان، والنبات، والجن، والملائكة، والحور العين، والولدان المخلدون، أربعة من هذه المخلوقات غير مرئية، نؤمن بوجودها؛ لأنَّ القرآن الكريم ذكرها، وليس هناك منفعة متبادلة بينها وبين الإنسان على أرضنا هذه، كالذي بين الإنسان والحيوان والنبات، ومن جانب آخر فإنَّ القرآن العظيم يتحدث عن سجود كل شيء لله عز وجل: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[١٥٩]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

السماء من القرآن الكريم إلى لغة العرب

﴿فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[16].

والسجود؛ وضع الجبهة على الأرض بتطامن وذل. وكل ما ذل فقد سجد، ومن معانيه طأطأة الرأس والانحناء والخضوع[17]، ولما كان حديثنا ينحصر في سجود المخلوق المتنفس، فإننا نخرج سجود الموات، وهي الجمادات فإنَّ لها سجودًا وتسبيحًا لانفقهه، وكذلك الحال مع الطير والدواب، وهذا ينبغي الإيمان والاعتراف بقصور أفهامنا عنه.

ولمّا كان كل شيء يسجد فإنَّ الملائكة والحور العين والولدان المخلدون لها سجود، ولا بدَّ للسجود من موضع، بالنظر إلى وضع الجبهة على الأرض بتطامن، فلا بدَّ أن تكون أرض، فقد تكون السماء أرضًا لما فوقها وسماءً لما تحتها على ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني والله أعلم.

ومن جانب آخر فإنَّ كل الآيات التي وردت فيها لفظة السماوات بصيغة الجمع، وردت معها الأرض بصيغة المفرد، ولم ترد مجموعة أبدًا، وقد ارتبطت بها (١٨٠) مئة وثمانين مرّة، وهذا الرقم يشكل نصف قطر دائرة مقدارها (٣٦٠) درجة، ذكرتها كونها مجرد ظاهرة برزت من خلال البحث قد تعني شيئًا عند أصحاب الحساب. ■

●●●

الحواشي

١- كتاب العين: ٣١٩/٧، ولسان العرب:/سما:١٢١/١٩ و١٢٢.

٢- المذكر والمؤنث:١٢٠، والأنواء والأزمنة:٢٢.

٣- البقرة:٢٢.

٤- الأنبياء:١٦.

٥- فاطر: ٢.

٦- هود: ٤٤.

٧- تفسير البيضاوي:٤٥٨/١.

٨- فصلت:١٢.

٩- البيضاوي:٢٥٠/٢.

١٠- لسان العرب/برج٣٣/٢.

١١- كتاب العين: برج٣٣/٣.

١٢- النساء: ٧٨.

١٣- لتفصيل أكثر عن هذه المسألة ينظر: الأنواء في مواسم العرب:١٢٤. والأنواء والأزمنة:٢٧.

١٤- معاني القرآن: ٢٥٢/٣.

١٥- الحجر: ١٦.

١٦- لسان العرب/برج٣٤/٢.

١٧- الكشاف: ٢٢٤/٤. وتفسير النسفي:٣٤٤/٤.

١٨- الفرقان: ٦١.

١٩- لسان العرب: بنى١٠٢/١٨، وخبأ:٥٦/١، وطرف:١٢٣/١١.

٢٠- نفسه/ قبب ١٥٢/٢.

٢١- البقرة:٢٢.

٢٢- الجامع لأحكام القرآن:٢٢٩/١، والبحر المحيط:١٥١/١ و١٥٩.

٢٣- تفسير البيضاوي:٣٧/١، والتحرير والتنوير: ٣٣١/١ - ٣٣٢.

٢٤- الأنبياء: ٣٢، وينظر: تفسير ابن كثير:٩٩/١-١٠٠، وتفسير النسفي:٢٩/١.

٢٥- لسان العرب/سقف ٥٦/١١.

٢٦- النازعات: ٢٧-٢٨.

٢٧- الطور: ٥.

٢٨- كتاب العين:٣١٨/٥.

٢٩- تهذيب اللغة/ سمك ٨٤/١٠.

٣٠- أساس البلاغة:٧٢.

٣١- ديوانه:١٧٦.

٣٢- مقاييس اللغة: ٢/ ١٣٠.

٣٣- الذاريات:٧.

٣٤- مفردات الراغب الأصفهاني:٢/١٥٣.

٣٥- الكشاف: ٤/٣٩٥ -٣٩٦، والجامع لأحكام القرآن:١٧/ ٣١ -٣٢ بتفصيل أزيد.

٣٦- لسان العرب/حبك:١٢/٢٨٩.

٣٧- العلق: ٨.

٣٨- المائدة: ٤٨، و ١٠٥.

٣٩- الصحاح/رجع:٣/١٢١٧، والمحكم والمحيط الأعظم/رجع/١٩٤.

٤٠- الطارق: ١١.

٤١- معاني القرآن:٣/٢٥٥.

٤٢- معاني القرآن وإعرابه:٥/٣١٢، وينظر الكشاف:٤/٢٤٢.

٤٣- مقاييس اللغة :٢/٤٩١. وينظر: كتاب العين: ٤/٢٢٧، وقد فسر السلتم بالسنة الشديدة.

٤٤- كتاب العين/٧/٢٨٧، ومقاييس اللغة:٣/٤١.

٤٥- يونس: ٢٤.

٤٦- تفسير البيضاوي:١/٣٣٢-٤٣٣.

٤٧- الكشاف:٤/١٣٥، وتفسير النسفي:٤/٢٧٤، ولسان العرب/رجم ١٥/١١٨.

٤٨- الحجر: ١٦.

٤٩- فصلت:١٢.

٥٠- الملك:٥.

٥١- تفسير النسفي: ٤/٢٧٤، وتفسير البيضاوي :٢/٥١٠.

٥٢- لسان العرب، صبح/٣/٣٢٨.

٥٣- الصافات:٦.

٥٤- ق: ٦.

٥٥- مقاييس اللغة:٣/١٧٠، ولسان العرب/شقق:١٢/٤٨.

٥٦- الفرقان:٢٥.

٥٧- تفسير النسفي :٣/١٦٤، وتفسير البيضاوي: ٢/١٣٩.

٥٨- الرحمن:٣٧.

٥٩- الحاقة: ١٦.

٦٠- فاتحة سورة الانشقاق.

٦١- ديوان الهذليين:١/١٢.

٦٢- جزء من حديث طويل رواه أبو داؤد في سننه. ينظر عنه رياض الصالحين:٣٣٩.

٦٣- ق: ٦.

٦٤- جامع البيان: ٢٦/٩٥، والكشاف:٤/٣٨١، وتفسير البيضاوي:١/٤٢١.

٦٥- المرسلات:٩.

٦٦- ينظر: تفسير النسفي:٤/٣٢٢، وتفسير البيضاوي:٢/٥٥٧.

٦٧- لسان العرب/ فطر/٦/٣٦١.

٦٨- تفسير النسفي:٢/٥، وتفسير البيضاوي:١/٢٩٥، ولسان العرب/فطر: ٦/٣٦٢

٦٩- مريم: ٩٠.

٧٠- الحجة في القراءات السبع:٢٣٩.

٧١- تفسير البيضاوي:٢/٤٠.

٧٢- سورة الأنعام:١٤.

٧٣- الكشاف:٢/١٧، وتفسير النسفي: ٢/٥، وتفسير البيضاوي:١/٢٩٥.

٧٤- لسان العرب/ كشط ٩/٢٦٢.

٧٥- كتاب العين ٥/٢٨٩. وتهذيب اللغة/ كشط ١٠/٧.

٧٦- التكوير:١١.

٧٧- تفسير النسفي:٤/٣٣٦، وتفسير البيضاوي:٢/٥٧٣.

٧٨- لسان العرب/مور ٧/٣٦.

٧٩- شرح القصائد التسع المشهورات:٢/٤٨٠.

٨٠- الطور: ٩.

٨١- لسان العرب/ مور: ٧/٣٦.

٨٢- الصحاح/مور:٥/٣٨.

٨٣- الكشاف: ٤/١٩٦، تفسير النسفي:٤/١٩٠، وتفسير البيضاوي:٢/٤٣٤.

٨٤- لسان العرب/برقع/٩/٢٥٥، والقاموس المحيط/برقع ٣/٤.

٨٥- الأزمنة وتلبيه الجاهلية/٨٦، ومقاييس اللغة:١/٣٣٤، وفيه الباء زائدة والأصل الراء والقاف والعين؛ لأن كل سماء رقيع.

٨٦- ديوان أمية بن أبي الصلت:٣٥٨.

٨٧- لسان العرب/برقع/٣٥٦.

٨٨- لسان العرب/ جرب /١/٢٥٢، تاج العروس/ جرب /١/١٧٨.

٨٩- الأنواء في مواسم العرب/١٢٩، والمخصص:٦/٩، ولسان العرب/جرب:١/٢٥٢.

٩٠- ديوان الهذليين:٢/٢٠٢، يريد ان الأُتُنَ ادخلن العير مضايق، فليس يرى من السماء إلا قطعة صغيرة، وهي الطبابة، وأصل الطبابة ما تثنيه الخارزة على مجمع الأديمين.

٩١- ديوان الأعشى:٣٣٥.

٩٢- الرحمن: ٦٢، ٦٣، ٦٤.

٩٣- الأعلى: ٤، ٥.

٩٤- طه: ١٠٢.

٩٥- ديوان امرىء القيس:٢٨.

٩٦- لسان العرب/خضر:٥/٣٢٨.

٩٧- ديوان ذي الرمة: ١/٢٥١.

٩٨- هذه المعلومة وافانا بها السيد عصام عبد يحيى الاختصاصي التربوي لمادة الفيزياء في مديرية الإشراف الاختصاصي/ تربية نينوى.

٩٩- مقاييس اللغة: ٢/٢١٣ -٢١٤.

١٠٠- لسان العرب/ خلق: ١١/٢٧٢، والقاموس المحيط/خلق: ٣/٢٢٨-٢٢٩.

١٠١- الأنواء والأزمنة:٢١.

١٠٢- لسان العرب/رقع: ٩/٤٩٠-٤٩١.

١٠٣- الحديث مفصّل في صحيح مسلم:٣/١٣٨٨-١٣٨٩، ولم يرد فيه سبعة أرقعة، وهو في مقاييس اللغة: ٢/٤٢٩، والأنواء والأزمنة:٢١، ولسان العرب/رقع:٩/٤٩١.

١٠٤- لسان العرب/رقع:٩/٤٩١.

١٠٥- لسان العرب/صقر:٦/١٣٦.

١٠٦- كتاب العين:٥/٦٠.

١٠٧- مقاييس اللغة:٥/١٦٣.

١٠٨- ديوان سلامة بن جندل:١١٧.

١٠٩- الأزمنة وتلبية الجاهلية:٨٦، وكتاب العين:٥/٦٠، ولسان العرب/كحل:١٤/١١٥.

١١٠- شعر الكميت بن زيد: ١/١٢٤.

١١١- البقرة:١٦٤.

١١٢- الجامع لأحكام القرآن :٢/١٩٦، والكشاف:١/٢١٠، وتفسير النسفي:١/٨٦.

١١٣- يونس:٢٤.

١١٤- البقرة:٢٢.

١١٥- ق:٩.

١١٦- الفرقان:٢٥، والرسم القرآني: ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ ولقراءة ابن مسعود ينظر: السبعة في القراءات :٤٦٤، والحجة في القراءات:٢٦٥.

١١٧- لسان العرب/نزل:١٤/١٧٩.

١١٨- مقاييس اللغة: ٥/٤١٧، وأساس البلاغة: ٤٥٣.

١١٩- الأنعام:٦.

١٢٠- الأعراف: ٩٦.

١٢١- ديوان أوس بن حجر:١٦، ضمن قصيدة منسوبة إلى عبيد بن الأبرص أيضًا، وهي في ديوانه:٣٥.

١٢٢- لسان العرب/فتح:٣/٣٧٣.

١٢٣- صحيح مسلم:١/٨٣، ضمن حديث طويل، والموطأ:١٣٠.

١٢٤- لسان العرب/سما:١٩/١٢٤.

١٢٥- ديوان العجاج:٣٢٥.

١٢٦- لسان العرب/سما:١٩/١٢٤.

١٢٧- شرح القصائد التسع المشهورات:١/٣٦٤.

١٢٨- تهذيب اللغة /رزق: ٨/٤٥٩، ولسان العرب/رزق:١١/٤٠٥.

١٢٩- غافر:١٣.

١٣٠- تفسير النسفي:٤/٧٣، وتفسير البيضاوي: ٢/٣٣٦.

١٣١- تهذيب اللغة /كسف:١٠/٧٥، لسان العرب/كسف:١١/٢٠٩.

١٣٢- الروم:٤٨.

١٣٣- الكشاف:٣/٣٨٢، وتفسير النسفي:٣/٢٧٥، وتفسير البيضاوي:٢/٢٢٣.

١٣٤- الطور:٤٤.

١٣٥- الإسراء: ٩٢.

١٣٦- الشعراء: ١٨٧، وينظر الكشاف :٤/١٩٨، وتفسير البيضاوي: ٢/٢٢٣.

١٣٧- لسان العرب/رجز: ٧/٢١٩.

١٣٨- البقرة: ٥٩.

١٣٩- الكشاف:١/٢٨٣، وتفسير الفخر الرازي:٣/٩١، وتفسير ابن كثير:١/١٠٠-١٠١.

١٤٠- الأنفال: ٣٢.

١٤١- لتفصيل أكثر ينظر: تفسير البيضاوي:١/٢٨٢.

١٤٢- لسان العرب/حسب:١/٣٠٦.

١٤٣- الكهف: ٤٠.

١٤٤- الكشاف:٢/٤٨٥، وزاد المسير:٣/٩٠-٩١، وتفسير البيضاوي:٢/١٢.

١٤٥- لسان العرب/سما:١٩/١٢٤.

١٤٦- تفسير البيضاوي:١/٤٤١.

١٤٧- الأنعام:٣.

١٤٨- تفسير النسفي:٢/٣،وتفسير البيضاوي:١/٢٩٣.

١٤٩- يونس:٨.

١٥٠- تفسير البيضاوي:١/٤٢١، و٢/٢١٠ في تفسير الآية:٢٢ من سورة سبأ.

١٥١- تفسير البيضاوي :٢/٤٣، في تفسير الآية : ٤ سورة طه.

١٥٢- لسان العرب/ربب/١/٣٨٤.

١٥٣- مريم:٩٠.

١٥٤- لسان العرب/كيد/٤/٣٨٨، وتنظر مادة /كود أيضا/٣٨٦.

١٥٥- الطلاق:١٢.

١٥٦- الزمر: ٦٧.

١٥٧- تفسير النسفي:٤/٦٦، وتفسير البيضاوي:٢/٣٣١.

١٥٨- سورة الأنعام: ٣٨.

١٥٩- الرعد:١٥.

١٦٠- النحل: ٤٧، ٤٨.

١٦١- مقاييس اللغة:٣/١٣٢، لسان العرب:٤/١٨٧.

المراجع العربية:

- **الأزمنة وتلبية الجاهلية**، لمحمد بن المستنير قطرب، ت٢٠٦هـ، تح. د. حنا جميل مراد، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- **أساس البلاغة**، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت٥٣٨هـ، تح. عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- **أمية بن أبي الصلت**، حياته وشعره، دراسة وتحقيق د. بهجة عبد الغفور الحديثي ، ط٢، بغداد، ١٩٩١م.
- **الأنواء في مواسم العرب**، لابن قتيبة الدينوري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨م.
- **الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم**، لعبد الله بن عاصم الثقفي، ت ٤٠٣، تح. د. نوري حمودي القيسي، ومحمد نايف الدليمي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، لعبد الله بن عمر البيضاوي، ت٦٩١هـ، يعرف بتفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ت١٢٠٥هـ، مصر، ١٣٠٦-١٣٠٧هـ.
- **تفسير البحر المحيط**، لأبي حيان، أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي، ت ٧٥٤هـ، مطابع النصر الحديثة بلا سنة طبع، الرياض - المملكة العربية السعودية.
- **تفسير القرآن العظيم**، لإسماعيل بن عمر بن كثير. ت ٧٧٤هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ت٣٦٩هـ، تح. عبد السلام هارون وآخرين، القاهرة، ١٩٦٤م.
- **جامع البيان في تفسير القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. ت ٣١٠ هـ، الأميرية، بولاق (١٣٢٣).
- **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت٦٧١هـ، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- **الحجة في القراءات**، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، ت ٣٧٠هـ، تح. عبد العال سالم مكرم، ط٢، دار الشروق، بيروت، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- **ديوان الأعشى الكبير**، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجيّة، مصر، (د.ت).
- **ديوان امرئ القيس**، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية، مصر، (د.ت).
- **ديوان أوس بن حجر**، تح. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة، ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م.
- **ديوان ذي الرمة**، تح. عبد القدوس أبو صالح، دمشق، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٣م.
- **ديوان سلامة بن جندل**، برواية الأصمعي والشيباني، تح. فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب، ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م.
- **ديوان الطرماح**، تح. د.عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.
- **ديوان عبيد بن الأبرص**، تح. حسين نصار، البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.

- **ديوان العجاج**، برواية الأصمعي، تح. د. عزة حسن، دار الشروق، ١٩٧١م.
- **ديوان علقمة الفحل**، شرح الأعلم الشمنتري، تح. لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩م.
- **ديوان الهذليين**، نشرته الدار القومية للطباعة والنشر، دار الكتب المصرية، (د.ت).
- **السبعة في القراءات**، لأحمد بن موسى بن مجاهد، ت ٣٢٤هـ. تح. د. شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، (د.ت).
- **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، شرح ثعلب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- **شرح القصائد التسع المشهورات**، لأبي جعفر النحاس، ت٣٣٨، تح. أحمد خطاب، دار الحرية للطباعة، وزارة الإعلام، بغداد، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- **الصحاح**، تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، ت ٣٩٣هـ، تح. أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٦م.
- **صحيح مسلم**، لأبي حسين مسلم بن الحجاج القشيري، ت٢٦١هـ، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- **القاموس المحيط**، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت٨١١هـ، مطبعة النوري، دمشق، (د.ت).
- **كتاب التكملة**، للحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبي علي الفارسي، ت٣٧٧هـ، تح. ودراسة كاظم بحر المرجان، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- **كتاب العين**، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ت ١٧٥، تح.د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد وزارة الثقافة والإرشاد، العراق، ١٩٨٠-١٩٨٥م.
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل**، للزمخشري، البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٥هـ١٩٦٦م.
- **لسان العرب**، لمحمد بن المكرم ابن منظور، ت٧١١هـ، مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**، لعلي بن إسماعيل، ت ٤٥٨هـ، تح. د. حسين نصار وآخرين، البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٧م.
- **المخصص**، لابن سيدة، بولاق، ١٣٠٦هـ.
- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، لعبد الله بن أحمد النسفي، ت٧١٠هـ، عيسى البابي الحلبي، يعرف بتفسير النسفي.
- **معاني القرآن**: ليحيى بن زياد، الفرّاء، ت٢٠٧ه، ط٢، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٠م.
- **معاني القرآن وإعرابه**، لإبراهيم بن السري الزجاج، ت٣١١هـ تح. عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب، (د.ت).
- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح. عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- **المفردات في غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني، أعده للنشر د. محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م.
- **الموطأ**، للأمام مالك بن أنس، ت ١٧٩هـ، إعداد أحمد راتب عمروش، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

المصادر الأجنبية

Abstract

**The Sky from the Holy Quran
To Arab Language**

The research aiming to give an idea about the sky and its' relation with the earth or the reverse through the Holy Quran texts supported by the Arabic language who is connected with it's poetry, describing the relation between the Holy Quran and the Arabic language as a fundamental relation.

In The other hand the research gives an opinion that "God allocated the earth for human to live on, and there is no other life on any other planet, as well he gives an explanation about the seven lands, and skies nomination in Arab land, although he describes its' color, and improve that it's not blue as the viewer sees, all that through the Holy texts, Arab language, and (Hadith Shareef), because the Holy Quran speaks about this issues directly or by the hints which the research found.

مقالات

انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر)

قراءة سوسيولوجية

د. علاوة عمارة
قسنطينة - الجزائر

في بداية القرن السادس الهجري، أصبح الانتماء الجغرافي لبلاد الغرب الإسلامي بمنزلة المعيار الأساسي لتحديد مالكية ساكنه، وهذا بفضل الانتشار الكبير لفقه إمام دار الهجرة. لكن هذا لم يكن سهلاً أمام بقية الجماعات الفقهية والعقدية الأخرى، التي كانت السباقة إلى التموقع في عاصمة ولاية إفريقية خلال العهد الأموي ثم السنين الأولى لخلافة بني العباس. ومن هنا نتساءل عن الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى تقبل مجتمعات المغرب الأوسط للآراء الفقهية المالكية: هل لأنّ طبائع أهله البدوية تتلاءم مع أسس مذهب أهل الحجاز الذي نشأ في بيئة تقليدية قريبة من طبائع سكان المغرب كما زعم ابن خلدون؟ أو هو نتيجة إرادة للسلطة السياسية والمجموعات الاجتماعية الفاعلة؟ أو أنه راجع إلى مجهودات حملة أفكار المذهب، وعلى رأسهم من انتموا إلى الجيل الأول؟

هذه التساؤلات تقودنا للحديث عن الطبيعة السوسيولوجية للمجتمعات القبلية ببلاد المغرب، وتتبع ظاهرة نشأة الجماعات الدينيّة وأفولها، السنية منها والخارجية، للوصول في الأخير إلى دراسة كيفيّة تحوّل مجموعة اجتماعية ذات صبغة فقهية من أقليتها إلى غالبية عظمى في المجتمع.

ثلاثة قرون من التيه والصراع

بعد أكثر من سبعين سنة من عمليات الفتح، تمكنت الخلافة الأموية من بسط نفوذها على قسم كبير من بلاد المغرب. وجعلت من إفريقية مركز ثقل الوجود الإسلامي بالمنطقة، في حين بقيت بلاد البربر التي ستعرف ثلاثة قرون من بعد ذلك باسم المغربين الأوسط والأقصى - تعيش على هامش الأحداث التي جرت في دار الإسلام إلى غاية النصف الأول من القرن الثاني الهجري، أين وصلت إليها الأفكار السياسية الثورية الخارجية،

التي وجدت في المجتمعات القبلية الريفيّة المناخ المناسب لتكوين حركة معادية لنظام الخلافة الأموية القائم على أساس أفضلية العنصر العربي[1]. لقد اعتنقت العناصر والقبائل البربرية أفكار الخوارج الصفرية والإباضية للمطالبة برفع الضرائب المفروضة عليهم من قبل ممثل نظام الخلافة بالقيروان والمشاركة في تسيير شؤونهم. إن تعود المجتمعات الريفيّة البربرية على العيش بحرية، وعلى رفض نظام الدولة المركزية، كانت من أسباب الإقبال الواسع لها على اعتناق مذاهب المعارضة الخارجية. لقد تحولت المجموعتان السياسيتان الإباضية والصفرية إلى تحالفات شعبية قبلية، واستطاعتا أن تكسبا تأييدًا شعبيًّا واسعًا بفعل مناداتهما بتطبيق مبدأ الشورى والمساواة الاجتماعية بين العرب والبربر. وتحول نضال المجتمعات القبلية الريفيّة إلى حركة مسلحة ضد رموز نظام الخلافة بإفريقية والمغرب الأوسط (الجزائر)، بعد إخفاق بعض المساعي السلمية لمجموعة الصفرية؛ لحمل الخلافة على مراجعة سياستها ببلاد المغرب ومحاسبة الولاة المتهمين بممارسة السياسة الحديدية ضد الرعية[2]. ولهذا أعلن الزعيم الصفري المطغري ميسرة السقاء الجهاد ضد ممثلي سلطة أهل " السنة والجماعة"، فدخلت بذلك بلاد المغرب الأوسط وإفريقية في فوضى عارمة، عصفت بأركان ولاية إفريقية الأموية، وأبادت أشراف العرب بنواحي الشلف، وأدخلت المنطقة في جو رهيب متميز بغياب سلطة حاكمة وانتشار الفوضى. وانفصلت بلاد المغرب عن سلطة العباسيين الذين خلفوا بني أمية في الحكم، ولم تتمكن بغداد العباسية من الحفاظ على الوجود السني، ولو من الناحية السياسية، إلا بإفريقية، بفضل أسرة الأغالبة[3]، التي تحكمت في الأمور ودافعت عن نظام الخلافة.

سارت الأمور بالمغرب الأوسط في اتجاه آخر، حيث تمكنت التيارات المعارضة من بسط نفوذها، وتبنت العديد من المجتمعات القبلية أفكارها، بل نجح بعضها في تكوين كيان سياسي، تمثل في حكم أسرة الرستميين بتاهرت[4]، التي ما لبثت أن أحرقت الفكرة الإباضية بفعل تحويل أبناء عبد الرحمن بن رستم لنظام الإمامة الشوري إلى وراثي، وتمكن العلويون الطالبيون من تكوين نظام الإمارة - المدينة في عدة مدن بالمغرب الأوسط وعلى الخصوص بحمزة (البويرة)، ومتيجة، والخضراء، ومليانة، وتلمسان[5]....... وبهذا حقق تيار التشيع الزيدي نجاحًا في وسط المجتمعات الحضرية، في حين لقي معارضة من طرف المجتمعات الريفيّة الفلاحيّة، المعتادة على رفض الحكومات المركزية، والمستعدة للثورة دفاعًا عن حريتها، وهذا ما وجدته في أفكار تيارات الخوارج. لقد أصبحت بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري فسيفساء من المجموعات السياسية والعقدية، من إباضية، وصفرية، وواصلية، ومعتزلة، وزيدية. وشكلت بذلك المعقل الرئيس لتيارات المعارضة لمجموعات " أهل السنة والجماعة".

وفي خضم هذا التشتت المذهبي والسياسي وصلت إلى القيروان وبلاد الزاب أفكار المذاهب الفقهية المقربة من نظام الحكم السني، وهذا عن طريق الشخصيات المشرقية التي وردت إلى بلاد المغرب وبوساطة رحلات العلم والحج[6]. ويعدّ المذهب الحنفي السباق من الناحية الزمنية، وهو ما أشار إليه القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م) في كتابه "ترتيب المدارك وتقريب المسالك

لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك". لقد انتشرت الرؤية الحنفية في الفقه بالقيروان، وبواحات بنطيوس ببلاد الزاب، لكن النخب المشكلة لهذه المجموعة الفقهية، التي عاشت في ظل دولة الأغالبة الأحناف، سرعان ما تنكرت لمذهب العراق، ولفكرة دولتهم، التي سقطت في يد الإسماعيليين الشيعة، واعتنقت التشيع الإسماعيلي، وهو مذهب الدولة الجديدة، وهي الخلافة الفاطمية[٧]. لقد انهار البناء الفقهي الحنفي، ولم يبق من أوفياء له في نهاية القرن الخامس الهجري إلا أهل تهودة (سيدي عقبة)[٨].

لم يكن المذهب الحنفي وحده من واجه الجماعات السياسية والعقدية المعارضة بالمغرب الأوسط، بل تسلل إلى هذا الأخير العديد من الأفكار التي أدّت إلى تشكيل مجموعات عقدية، تركت بصماتها في التاريخ. وتعدّ المعتزلة[٩] والواصلية من بين هذه التيارات التي وجدت ضالتها في التجمعات السكانية المجاورة لتاهرت الإباضية، حيث تمكن حملة أفكارهم من التغلغل في المغرب الأوسط في عهد الإمارات العلوية، بعدما تمكن إدريس بن عبد الله من تشكيل حكم سياسي مركزي بالمغرب الأقصى[١٠]. ويعدّ عبد الله بن حارث من أوائل دعاتهم، الذين وفدوا من المشرق إلى بلاد المغرب[١١]. وقد قوبل مذهب الاعتزال وأفكار واصل بن عطاء برفض مطلق من طرف القيادات الفقهية المالكية والحنفية، ويعدّ كل من عبد الله بن الفروخ الفارسي (ت١٨٥هـ/٨٠١م) وعبد الله بن غانم (ت١٩٠هـ/٨٠٦م) من رواد المالكية المغربية، ممن اشتهروا بمقاومة تيار الاعتزال[١٢].

ولئن تمكنت المذاهب السنية من الانتشار بحواضر السلطان بإفريقية، فإنَّ المغرب الأوسط عرف انتشارًا ملحوظًا لأفكار المعتزلة والواصلية، حيث تركزوا بنواحي تاهرت، حيث اعتنقت أقسام من المجتمعات الريفيّة المنتمية لبطون زناتة ومزاتة هذه المذاهب[١٣]. كما تمكنت بعض أفكار الواصلية من الانتشار في واحدة من الواحات الثلاث المكونة لبنطيوس[١٤]، وبلاد مصعب (ميزاب)، إلى غاية سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م، حيث تمكن أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي من إقناعهم باعتناق الإباضية الوهبية[١٥]. وسبق لبعض المجموعات القبلية الوفية للاعتزال أن تفككت بفعل قيام الجيوش الفاطمية بإخضاع الكثير من مناطق المغرب الأوسط، وقضت بذلك على نفوذ قيادات الاعتزال في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

لقد وجدت القيادات المالكية في الأشعرية خير منهج عقدي في الدفاع عن عقيدة " أهل السنة والجماعة"، ولهذا نجد أنَّ ابن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م)، وأبا الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٢م) يستقبلان بحفاوة أفكار أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤/١٠٣٢م)، وهذا ما أعطى للمالكية القروية ديناميكية لمقاومة "الأهواء والبدع")[١٦]. إنَّ انتشار العقيدة الأشعرية في الوسط المالكي جعلها عرضة لانتقام الجماعات الإباضية، التي أبادت جماعة من الأشاعرة بواحات وارجلان في مطلع القرن السادس الهجري[١٧].

إخفاق المشروع الفكري الإسماعيلي

حمل أعضاء التنظيم الإسماعيلي[١٨] ببلاد المغرب اسم الروافض، وهو من إطلاق مجموعات أهل السنة. وتمكن أبو عبد الله الإسماعيلي من نشر مذهبه ببلاد كتامة، بعيدًا عن السلطة السياسية الأغلبية وجماعات الأحناف والمالكية بالقيروان. وبعد صراع مسلح تمكن من تكوين

انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر)

نظام سياسي إسماعيلي - نصب على رأسه عبد الله المهدي- الذي حكم بلاد المغرب إلى غاية سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م، عندما قرر المعزّ لدين الله - رابع الخلفاء - الرحيل والاستقرار بمصر، وكان هذا بسبب رفض المجتمعات القبلية الريفيّة والمجتمع الحضري بإفريقية فكرة التشيع[١٩].

وتعدّ ثورة أبي يزيد المحتسب الملقب بصاحب الحمار (ت٣٣٦هـ/٩٤٧م) أهم حركة بربرية مقاومة لتيار التشيع، تحت لواء المذهب الإباضي النكاري. وقد حظيت هذه الثورة بدعم جناح المالكية الثورية بقيادة الفقيه الممسي والعديد من رفاقه، بعدما نجح هذا الثائر الإباضي في السيطرة على مدينة القيروان التاريخيّة[٢٠]. ولم يخف القاضي النعمان بن محمد، أشهر قضاة إفريقة الإسماعيليين، ومستشار خلفائهم، غضبه تجاه سكان القيروان، الذين "ورثوا"، حسب زعمه، المذهب المالكي[٢١]. ولم يستثن إلا المجموعات القبلية التابعة لكتامة وصنهاجة بمساندتهم شبه المطلقة للخلفاء الفاطميين إلى غاية استقرارهم بالقاهرة[٢٢].

لقد أدّت مقاومة الفكرة الإسماعيلية إلى انتشار محدود لها، على الرغم من من نجاحها السياسي والعسكري، واقتصر نفوذها على حاضرة الخلافة، وبلاد كتامة، ونفطة وبعض واحات بلاد قسطيلية[٢٣].

نتج عن رحيل الفاطميين إلى مصر تقتيل مجموعات الإسماعيلية ببلاد المغرب، بداية من المجازر التي ارتكبها ضدهم القائد حماد بن بلكين الصنهاجي (٣٩٥-٤١٩هـ/ ١٠٠٤-١٠٢٩م)، مؤسس السلالة الحمادية بالقلعة[٢٤]، ثم انتقلت المجازر إلى مدن إفريقية كالقيروان والمهدية[٢٥]، وهذا بمباركة القيادات الفقهية المالكية والسلطة السياسية الصنهاجية. هذا الوضع أدى بفقيه تونس الشهير أبي إسحاق إلى رفض أسلوب التقتيل الجماعي، ودعا إلى التفريق بين "الروافض" الذين لا ينكرون سياسة خلفاء الرسول(ﷺ) ويرون أنَّ علي بن أبي طالب أولى بالخلافة وبين الذين يطعنون فيهم، ومن ثمَّ تحريم القتل الجماعي لمجموعات الإسماعيلية. وهذا ما جعل أبا إسحاق التونسي عرضة لانتقادات المرجعيات المالكية بالقيروان والأندلس والمشرق[٢٦].

تواصلت المجازر ضد الإسماعيليين طوال الربع الأول من القرن الخامس الهجري، وفرَّ الكثير من هؤلاء إلى جبال الأوراس، ولم يمض وقت طويل حتى لاحقتهم الإبادة الجماعية سنة ٤٠٩هـ/١٠١٩م، وهذا بمدينة باغاية، وقتل بها الكثير، منهم الشاعر الإسماعيلي البربري ميمون بن عبد الله الهواري[٢٧]. ويعدّ الرقيق القيرواني أشهر مؤرخي بلاد المغرب خلال خمسة القرون الأولى للهجرة، آخر ضحية لعمليات التصفية الجسدية لحملة الفكرة الإسماعيلية، حيث أعدم سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، بقرار من الأمير المعز بن باديس الصنهاجي لتنتهي بذلك إحدى صفحات التشيع ببلاد المغرب[٢٨].

الوحدة المذهبية: المالكية من النخبوية إلى المذهب الرسمي للدولة

من الخطأ عدّ الحنفية المذهب الغالب في بلاد المغرب قبل حدوث القطيعة المذهبية بين الأمير الصنهاجي المعز بن باديس وخليفة القاهرة الإسماعيلي، كما ذهب إلى ذلك الإخباري الأمير عز الدين بن شداد الصنهاجي (ت بعد ٦٠٠هـ/١٢٠٤م)[٢٩]؛ لأنَّ جماعات المالكية بدأت بإرساء قواعدها بفضل جهود جيل من الفقهاء الأوائل من أمثال علي بن زياد (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م)،

وابن أشرس (ت١٧٠هـ/٧٨٧م)، والبهلول بن راشد (ت١٨٣هـ/٧٩٩م)، وأسد بن الفرات (ت٢١٣هـ/٨٢٨م). على الرغم من أنَّ السلطة السياسية بالقيروان (الأغالبة) كانت في هذه الحقبة حنفية، والسلطات المتمركزة بالمغرب الأوسط تراوحت بين الإباضية بتاهرت والزيدية بالعديد من المدن، وخصوصًا بحمزة وتلمسان. لقد انتشر المذهب المالكي تدريجيًّا عن طريق تدريس موطأ مالك بن أنس، وأخذ بعدًا أكثر أهمية لدى النخب الحضرية زمن سحنون بن سعيد التنوخي (ت٢٤٠هـ/٨٥٥م) عندما تمكن من شغل منصب قاضي إفريقية لفائدة العائلة الحنفية الحاكمة، وقرر اعتماد المذهب المالكي، ومنع الإفتاء بآراء المذاهب الأخرى. لقد ساهم بمدونته في إعطاء دفع كبير لسكان المغرب قصد التشريع بمذهب الإمام مالك. ويعدّ ابن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) بمنزلة الناشر الحقيقي لأفكار المالكية في الأوساط الشعبية من خلال تكوينه للعديد من التلاميذ وتأليفه " للرسالة" و"النوادر والزيادات" اللتين أعطتا ديناميكية كبيرة في مواجهة تيار التشيع. تمكن ابن أبي زيد، بوصفه من السكان الأصليين للمنطقة (بربر نفزة)، من توطيد أركان مذهب مالك وراعى خصوصية المجتمعات القبلية الريفية، من خلال قبوله للعرف المحلي مصدرًا للتشريع للكثير من المجتمعات الريفيّة القبلية[٣٠].

بعد الحضور الضعيف لمجموعات المالكية بتيهرت الرستمية، عمل أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت٤٠٢هـ/١٠١٢م) - صاحب كتاب الأموال- على نشر مبادئ المذهب المالكي بمدن المسيلة وتنس وتلمسان، وهو ما سمح بوضع أسس صلبة للمالكية ببلاد المغرب الأوسط[٣١]. لقد ساهمت الهزيمة العسكرية للإباضية في مواجهة الجيوش الفاطمية في تحول الكثير من المجتمعات القبلية نحو مذهب إمام دار الهجرة، وأصبح المغرب نهاية القرن الرابع الهجري في معظمه مالكيًّا، كما تدل على ذلك شهادة الرحالة المقديسي (ت بعد ٣٧٧هـ/٩٨٨م)[٣٢]. لقد أعطت نشاطات فقهاء المالكية وتآليفهم، الديناميكية الأساسية لحمل نظام الحكم الصنهاجي على إحداث قطيعة سياسية ومذهبية مع القاهرة الإسماعيلية سنة ٤٤٣هـ/١٠٥٢م[٣٣].

ويمثل فترة بناء قلعة بني حماد زمن الاستقرار النهائي للمذهب المالكي في معظم مدن المغرب الأوسط، نتيجة للإرادة السياسية للسلطة الحمادية من جهة ومجهودات فقهاء المالكية، وعلى رأسهم أبو حفص عمر بن الحسين الصابوني من جهة ثانية، الذي أصبح رأس المدرسة المالكية بالمنطقة[٣٤]. وحدث خلال هذه المدة تقارب بين السلطة السياسية والعسكرية الممثلة بالعائلة الحمادية وسلطة الفقهاء من خلال توظيف الكثير منهم في الوظائف القضائية.

تشكلت المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط في عهد الحماديين بوساطة التمازج الذي حدث بين القيادات الفقهية، التي نزحت من القيروان، واستقرت بقلعة بني حماد، وبين طلبة المغرب الأوسط، الذين درسوا بمدينة سبتة على يد الفقيه ابن العجوز السبتي. وقد تزعم عبد الجليل الربعي القيرواني التيار الأول، في حين اشتهر من المجموعة الثانية كل من أبي حفص عمر بن الحسين الصابوني المالكي وأبي القاسم بن أبي مالك. وبعد بناء قلعة بني حماد سنة ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م انتشر المذهب المالكي بشكل واسع في بلاد زواوة (القبائل الكبرى) بعد استقرار العديد

من القيادات الفقهية المالكية بالمدينة كعبد الحق الإشبيلي، المعروف بابن الخراط (٥٨١هـ/ ١١٨٥م)، الذي أصبح "شيخ المنطقة"[٣٥].

بعد الانتشار في شمال المغرب الأوسط واصلت المالكيّة اكتساحها لمعاقل جماعات الإباضية، حيث نجحت تدريجيًّا في ضم الكثير من القبائل الإباضية إلى صفوفها في بلاد الزاب وقسطيلية وورجلان، وخير دليل على ذلك اعتناق سكان مدينة الحامة ببلاد الجريد جماعيًّا المذهب المالكي، بعدما كانوا إباضية نكارية[٣٦]. ولم ينجح أتباع مذهب جابر بن زيد إلا في الحفاظ على جزء صغير من نفوذهم بوارجلان وأسوف (واد سوف)، و خصوصًا ببلاد مصعب (ميزاب)، حيث لجأوا إلى هناك، وبنوا مدن العطف وبنورة وبني يسجن وغرادية ومليكة[٣٧].

إن قراءة كتب النوازل الخاصة ببلاد المغرب الأوسط تبيّن لنا كيف تمكن فقهاء المالكية من فرض أنفسهم وسط مجتمعات بربرية ريفيّة، وبالتوفيق بين مبادئ المذهب و" العادة" أو "العرف"، وبهذا أصبح العرف مصدرًا للتشريع بالمغرب الأوسط. لدينا مثال مهم، هو أن العرف أقصى المرأة البربرية من كل حق إرث في القرن الخامس الهجري، ولم تحتج على ذلك المرجعيات الفقهية المالكية ببجاية، إلى أن أصدر الفقيه التلمساني أبو سالم إبراهيم العقباني فتوى أنكر فيها موقف الفقهاء المالكية من إسقاط حكم شرعي[٣٨]. وبهذا يرجع نجاح المالكية في الانتشار إلى تدريس تآليفها، وإلى دعم جهاز الحكم لهذا المذهب، حيث التقليد أحد سماته، وأخيرًا عدم الاعتراض أحيانًا على التشريع العرفي، ومن ثمَّ المحافظة على خصوصية المجتمعات الريفيّة البربرية. ■

•••

الحواشي

١- هناك عدّة دراسات أنجزت حول حركات البربر الخوارج بمقاربات تراوحت بين تقليدية ومادية جدليّة، مثال على ذلك، المغرب الإسلامي من بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج،الخوارج في المغرب الإسلامي.

٢- الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٥.

٣- أنجزت عدة دراسات حول الأسرة الأغلبية بإفريقية منها دراسة محمود إسماعيل، الأغالبة وعلاقاتهم الخارجية ودراسة كل من محمد الطالبي وفارنهاردايم. انظر:

M. Vonderheyden, La Berberie orientale sous la dynastie des Benom- l-Arlab (800-909), Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1924; Mohamed Talbi, L'Emirat oghlabide (184-296L800-909), histoire politique, Paris, Librairie d'Amerique et d'Orient Andreien Maisonneuve, 1966.

٤- الدولة الرستمية (١٦٠-٢٩٦/٨٧٧ -٩٠٩)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، وينظر كذلك:
Brahim Zarouki, L'Imamat de Tahart, premier Etat musulman dm Maghreb (144-296 de l'hegire).

٥- كتاب البلدان: ٣٥١، جمهرة أنساب العرب:٣٩.

٦- حول دور رحلة طلب العلم، انظر الدراسة الأنثروبولوجية والتاريخيّة لهواري تواتي.

Houari Touati, Islam et voyage am Moyen Age, Paris, Seuil. 2000.

٧- Hady Roger Idris, "Contibution a l'histoire de la vie religieuse en iffiqiya zinde X-XIe secles" dans Melanges Louis Massignon, Damas, Institut francais de Damas, 1957, voll, P.327-359.

٨- المسالك والممالك، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب:٧٣

٩- من أقدم التعريفات للمعتزلة نجد ما كتبه عبد القاهر البغدادي ، الملل والنحل، وقد درس من طرف المستشرق الفرنسي هنري لاووست.

Henri Laoust, " La classification des sects dans le Farq d' al ñ Baghdadi" dans Revne des Etudes Islamiques, XXXIX-1,(1961) p.32.

ويعدّ دانيال جيماري من بين أهم من درسوا الاعتزال، وله العديد من الدراسات منها:

Daniel Gimaret, " Les Usul al-khamsa du Qadi' Abd al-Gabbar et leurs commentaries" dans Amales islamologiques,XV, (1947) p. 47-96.

١٠- كتاب المقالات في مجموع، كتاب فضائل الاعتزال وطبقات المعتزلة :١٠٩-١١٠، الملل والنحل:٢٢، حول الإمارة الإدريسية ، انظر كتاب أعلام الأعلام فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط:١٨٨-٢١٧.

١١- كتاب طبقات المعتزلة :٣٢.

١٢- لمزيد من التفاصيل حول الاعتزال بإفريقية والمغرب ينظر: الصراع المذهبي بالقيروان وتفاعله مع واقعها الاقتصادي والاجتماعي إلى منتصف القرن ٥هـ/١١م، حوليات الجامعة التونسية، ٤٤: ١٨١.

Mohamed Talbi , " De I'I'tizal en hfiqiya au III/IXe secle" dans Revue tunsirne des sciences socials, 40-43,(1975),p. 45-85.

١٣- كتاب صورة الأرض:٩٤.

١٤- المسالك والممالك

١٥- Allaous Amara, Pauvoir, economie et societe dans le Moghreb hommadide (395-547/1004-1152), These de doctorat, Universite Paris I Sorbonne,2002, vol. II,p. 579-581.

١٦- Hady Rger ibris, La Berberie arientale sous les Zirides X-XIIe Siecles, Paris, Maisonneuve, 1962, voll. II,p.700-721; Id " Essai sur la diffu-sion de l'as arisme en Ifri" dans de Tunisie.2, (1953) p.139.

١٧- كتاب طبقات المشائخ بالمغرب:٢/٤٧٢-٤٧٣. كتاب السير:٤٣٨.

١٨- ينتمي المذهب الإسماعيلي القائم ككل الفرق الشيعية على أساس الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد لخص أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجستاني في كتابه الافتخار، المبادئ العامة لهذا المذهب.

١٩- Hanz Haim, The Empire of the Mahdi the Rise of the Fatimids, traduit de l'allaemand par M. Bonner, Leyde, e.J. Brill, P. 315-323; Michael Brett, The Rise of the Fatimnids, The World of the Medikerranean and middle East in the Fourth Century of the Hijra, Teath Ceatury C E, Leyde-Boston-Koln, Brill, 2001.

٢٠- حول هذه الثورة انظر على سبيل المثال، مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، أعمال الملتقى الأول لتاريخ وحضارة المغرب :١١٣-١٢٩.

Wilfred Madelung," The Religions Policy of the Fatimids toward their Sunni Subjects in the Maghrib" dans L' Egypt fatimide, san art et son histoire, Actes du colloque organize organize a Paris les 28,29 et 3o mai 1998, Paris, Oresses de l' Universite de paris - Sorbonne, 1999, p.97-101, Roger Le Tournean ," La revolte d'Abu Yazid an Xe siecle" dans Cahiers de Tunisie, II (1953), p.103-125; Marius Canard , " Une famille de partisans, puis d' adversaries des Fatimides em Afrique du Nood" dans Melanges d'histoire et de archeologie de l' Occident musulman (Hommage a Georges Marcais), Paris, Imprimerie officelle, 1957, vol II, p.33.

٢١ المجالس والمسايرات: ٩٧.

٢٢- المصدر نفسه: ٩٦.

٢٣- الروض المعطار في خير الأقطار: ٥٧٨.

٢٤- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر:٦/ ١٧١.

٢٥- الكامل:٩/ ٢٩٤ -٢٩٥.

٢٦- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك:٢/ ٧٦٦ -٧٦٨.

٢٧- أنموذج الزمان في شعراء القيروان:٢/ ٢٨٦-٢٨٨.

٢٨- الرقيق القيرواني وبلورة الفكر التاريخي ببلاد المغرب، التاريخ العربي :١١١-١٤٤.

٢٩- ينحدر هذا الأمير من البيت الباديسي بالمهدية، عاصر آخر أمرائه ثم رحل إلى صقلية النورمانية وشارك في فتح تونس مع عبد المؤمن بن علي، ثم استقر بدمشق، وتقرب من السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأصبح من أمراء الجيش الذين قادو العمليات الجهادية ضد النصارى الصليبيين. له من الكتب " الجمع والبيان في أخبار القيروان" الذي اعتمد عليه كل من ابن الأثير وابن خلكان والذهبي والمقريزي والصفدي في كتابه تاريخ المغرب والحديث عن انتماء أهله للمذهب الحنفي. للمزيد من التفاصيل يراجع مقالنا" ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط" مجلة التاريخ العربي:٢١/ ٦٧-٩٦.

٣٠- وهذا ما نلمسه من خلال قراءتنا للرسالة وللعديد من النوازل التي حفظت في جامع مسائل الأحكام للبرزلي والمعيار للونشريسي. وانظر صورة ابن أبي زيد لدى أحد معاصريه المشارقة، وهو ابن النديم في الفهرست: ٢٥٠، وصورته لدى مشرقي آخر متأخر: الذهبي في كتابه الموسوم بالعبر في خبر من غبر:٣/٤٣-٤٤.

٣١- ترتيب المدارك: ٢/ ٦٢٣، فهرسة ابن خير:١/١٠٧.

٣٢- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم:٢٣٦.

H.R. Idris, " L'aube du Malekisme ifriqien" dans Studia Islamica, XXXIII (1971),p. 40. Mohamed Talbi, "Kairouan et le Malikisme espagnol" dans Etudes d'orientalisme dediees a la memoire de Levi ñProvencal, Paris, 1962, reed. Dans Ettudes d'histoire ifriqieune et de civilization musulmane medievale, Tunis, Publications de l'Universite de Tunis, p.302 -308.

٣٤- ترتيب المدارك:٧٧٨/٢.

٣٥- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية:٤١.

٣٦- كتاب طبقات المشائخ بالمغرب: ٢/ ٤٨٤.

٣٧- حسب الروايات الإباضية تمّ بناء هذه المدن بين ١٠١٢/٤٠٢ و ١١٢٢/٥٠٠. لمزيد من التفاصيل ينظر : وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية: ٦٦-٦٧، وقد تطرق العديد من المستشرقين إلى هذه النقطة.

M.Mercier," Mzab" dans Encyclopedie de I'Islam, nouvello edition, Leyde, Brill, vol. VII, p.827- 829; Jean Despois, " Ghardaya" dans Encyclopedie de I'Islam, nouvello edition, Leyde, Brill, vol. VII, p.1033- 1034.

٣٨ فتوى أبي سالم إبراهيم العقباني في المعيار للونشريسي:١١/ ٢٩٣ -٢٩٤.

المراجع العربية:

- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، لأبي عبد الله محمد المقديسي، نشر دوجيوج، فرانكفورت، ١٩٩٢م.
- **الافتخار**، لأبي يعقوب إسحاق بن أحمد السجستاني (ت ٩٧١/٣٦١)، تح. إسماعيل بانوولة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**، لابن رشيق القيرواني (ت ١٠٦٨/٤٦٠)، جمع محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦م.
- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، للقاضي عياض السبتي (ت ١١٥٠/٥٤٤)، تح. بكير محمود، ج٢، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧م.
- **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم الأندلسي (ت ١٠٦٤/٤٥٦)، نشر ليفي بروفنسال، مطبعة المعارف ، القاهرة، ١٩٤٨م.
- **الخوارج في المغرب الإسلامي**، لمحمود إسماعيل، مكتبة مدبولي، دار العودة، ١٩٧٦م.
- **ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط**، لعلاوة عمارة، التاريخ العربي، ٢١(٢٠٠٢): ٦٧ -٩٦.
- **الدولة الرستمية** (١٦٠-٢٩٦/٨٧٧-٩٠٩)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، لإبراهيم بحاز، لافوميك، الجزائر، ١٩٨٥م.
- **الصراع المذهبي بالقيروان وتفاعله مع واقعها الاقتصادي والاجتماعي إلى منتصف القرن٥هـ/١١م**، لنجم الدين الهنتاتي، حوليات الجامعة التونسية (٢٠٠٠):١٧٥-٢١٣.
- **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء المائة السابعة ببجاية**، لأبي العباس أحمد الغبريني (ت ١٣٠٤/٧٠٤)، نشر عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م.
- **الفهرست**، لأبي الفرج محمد بن إسحاق ابن النديم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م.
- **الفهرسة**، لابن خير الإشبيلي (ت ١١٧٥/٥٧٥)،نشر إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م.
- **الكامل في التاريخ**، لعز الدين ابن الأثير (ت١٢٣٣/٦٣٠)، ج٩، دار بيروت، بيروت، ١٩٨٣م.
- **كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام**، لابن الخطيب السلماني (ت١٣٧٥/٧٧٦)، نشر القسم الخاص بالمغرب، أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م.
- **كتاب البلدان**، لليعقوبي (ت٢٨٤/٩٩٨)، نشر دوجواز، ط٢، معهد العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٩٢م.
- **كتاب صورة الأرض**، لابن حوقل النصيبي (ت بعد ٩٧٨/٣٦٧)، بيروت.
- **كتاب طبقات المعتزلة**، لحسن أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠/ ١٤٣٧)، نشر زوزان ديوالد ويلزر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١م.
- **الروض المعطار في خبر الأقطار**، لابن عبد المنعم الحميري (ق ٨هـ)تح. إحسان عباس، دار الحياة، بيروت، ١٩٨٠م.
- **الرقيق القيرواني وبلورة الفكر التاريخي ببلاد المغرب**، لعلاوة عمارة، التاريخ العربي، ٢٥(٢٠٠٣): ١١١-١١٤.
- **كتاب طبقات المشائخ بالمغرب**، لأبي العباس أحمد

- الدرجيني (ت٦٧٠/١٢٧١) نشر إبراهيم طلاي، قسنطينة، ١٩٦٤م.
- كتاب السير، لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي (ت٩٢٨/١٥٢١)، طبعة حجرية، قسنطينة، ١٨٨٣م.
- كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، لعبد الرحمن ابن خلدون (ت٨٠٨/١٤٠٦)، مؤسسة جمال للنشر، ج٦، بيروت.
- كتاب المقالات، لأبي القاسم عبد الله البلخي (ت٣١٩/٩٣١)، تح. فؤاد سيد، في مجموع كتاب فضائل الاعتزال وطبقات المعتزلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار التونسية للنشر، الجزائر، ١٩٨٦م.
- المجالس والمسايرات، للقاضي النعمان بن محمد (ت٣٦٣/٩٧٤)، نشر محمد الحبيب هيلة وآخرين، جامعة تونس، تونس، ١٩٧٨.
- المسالك والممالك، لأبي عبيد البكري (ت٤٨٧/١٠٩٤)، نشر للجزء الخاص بالمغرب دوسلان، ط٢، المغرب في ذكر بلاد المغرب إفريقية والمغرب، فرانكفورت، ١٩٩٣م.
- مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، أعمال الملتقى الأول لتاريخ وحضارة المغرب، لإحسان عباس، تونس ١٩٧٩ : ١١٣ - ١٢٩.
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والمغرب، لأحمد بن يحيى الونشريسي (ت٩١٤/١٥٠٨)، نشر عبد الرحمن حجي وآخرين، ج١١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.
- المغرب الإسلامي من بناء معسكر القرن حتى نهاية ثورات الخوارج، لموسى لقبال، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨١م.
- العبر في خبر عبر، لشمس الدين الذهبي (ت٧٨٤/١٣٤٧) نشر فراد سيد، الكويت، ١٩٦١م.
- الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٤٥٨/١١٥٣)، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨١م.
- وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، لبكير بن سعيد أوعشت، المطبعة العربية، غرداية، ١٩٩١م.

المراجع الأجنبية:

* Amara Allaoua, Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395-547/1004-1152), Thése de doctorat, Université Paris Sorbonne, 2002,2 vol.
* Brett (Michael), The Rise of the Fatimids, The world of the Mediterranean and the Middle East in the Fourth Century of the Hijra, Tenth Century C E, Leyde-Boston-Koln, Brill, 2001.
* Canard (Marius), "Une famille de partisans, puis d'adversaire des fatimides en Afrique du Nord" dans Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman (Hommage a Georges Marcais), Paris, Imprimerie officielle, 1957, vol. II, p.33-49.
* Despois (Jean), "Ghardaya" dans Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, Leyde, Brill, vol. II, p. 1033-1034.
* Gimaret (Daniel), "Les Usul al-khamsa du Qadi Abd al-Gabbar et leurs commentaires" dans Annales islamologique, XV, (1947) p. 47-96.
* Idris (Hady Roger), "Contribution a l'histoire de la vie religieuse en ifriqiya ziride X-XIe siecle" dans Melange Louis Massignon, Damas, Institut FranÁais de Damas, 1957, vol.II, p.327-359.
* Id, "Essai sur la diffusion de l'as arisme en Ifriqiya" dans Cahiers de Tunisie., 2, (1953) p. 126-140.
* Id,†"L'aube du Malekisme ifriqien" dans Studia Islamica, XXXIII (1971), p. 19-40.
* Laoust (Henri), "La classification des sectes dans la farq d'al-Baghdadi" dans Revues des études islamiques, XXIX-1, (1961) p. 19-69.
* Le tourneau (Roger), "La revolte d'Aby Yazid au Xe siécles" dans Cahiers de Tunisie, II (1953), p.103-125.
* Madelung (Wilfred), "The religion Policy of the Fatimids toward their Sunni Subjects in the Maghreb" dans l'Egypte Fatimide, son art et son histoire, actes du colloque organize a Paris les 28, 29 et 30 mai 1998, Paris, Presses de l'Université de Paris-Sorbonne, 1999, p.97-101.
* Mercier (M), "Mzab" dans Encyclopédie de l'Islam, nouvelle Edition, Leyde, Brill, vol.VII,p. 827-829.
* Talbi (Mohammed), L'Emirate aghlabide (184-296/800-909), histoire politique, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient Andreien Maison neuve, 1966.
* Id, "Kairouan et le Malikisme espagnol" dans Etudes d'orientalisme dédiées a la mémoire de Levi-Provencal, Paris, 1962, reed. Dans Etudes d'histoire ifriqienne et de civilisation musulamn medievale, Tunis, Publications de l'université de Tunis, 1982, p. 302-308.
* Id, "De l'i'tizal en Ifriqiya au III/IXe siËcle" dans revue Tunisienne des sciences sociales, 40-43, (1975), p. 45-85.
* Touati (Houari), Islam et voyage au Moyen Age, Paris, Seuil, 2000.
* Vonderheyden (M.), La berberie orientale sous la dynastie des Benou l-Arlab (800-909), Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1924.
* Zarouki (Brahim), L'Imamat de Tahart, premier état musulman du Maghreb (144-296 de l'heritage), Paris, l'Harmattan, 1987.

منهج التحقيق والتوثيق في مختصر الأغاني لأبي الربيع سليمان الموحدي

د. محمد سعيد حنشي
الرباط - المغرب

مقالات

١- توطئة:

عادة ما يؤرقنا نحن معشر المتأخرين مدح المتقدمين بالسبق في العلم والفضل، من نحو قولهم: " ما ترك المتقدم للمتأخر"، فنقول انتصارًا لأنفسنا، وتمليقًا لكبريائنا، كم ترك المتقدم للمتأخر، هم رجال ونحن رجال، أصابوا حظهم من العلم وأصبنا، وحازوا قصب السبق فيه فأكملنا، لكنّا حين نطرد عنا مخايل الزور، وحبائل الغرور، ونمعن في الأمر بنظرة المنصف المعترف بالفضل لأهله، نقر أن فضل المتقدم السابق، على التالي اللاحق لا ينكر، وسيظل أبد الدهر يذكر فيشكر، لأنهم كانوا حجة في الفصاحة والبلاغة، وعمدة في التحقيق والتوثيق، وقدوة في الشرح والتحليل، ومرجعًا في البيان والتحصيل. وكلما أتحفنا محقق مدقق، أو مؤسسة نشر محترمة، بإخراج نص من نصوصهم الغميسة، تبينا صدق هذا القول، وعلمنا أننا بحاجة ماسة إلى إعادة قراءة تراثهم قراءة جديدة، تبرز أهميته وقيمته العلمية الكبيرة، والتلمذة على منهجهم وسمتهم في التأليف.

ومن السخافة التي تستحق الرثاء أن يوصف أي نص من نصوصهم، سواء كان شرحًا لمتن، أو حاشية على شرح، أو تعليقًا على حاشية، بالعقم وعدم الجدوى، وأنه إبداع من الدرجة الثانية، وأرشيف هامشي لا يصلح إلا أن يكون حبيس الرفوف، ورهين الصناديق والكهوف، لا يقرأ، ولا يتداول، ولا يلتفت إليه أحد.

والأثر الذي اخترته في هذا البحث، وإن كان مختصرًا من مطول، وفرعًا من أصل، يعدُّ خير نموذج لما سبق أن أشدت به من فضل السلف على الخلف، وجهودهم في خدمة النصوص وتحقيقها تحقيقًا علميًا، وهو كتاب مختصر الأغاني المنسوب لأبي الربيع سليمان الموحدي (ت٦٠٤هـ). وقد اعتمد صاحبه، أثناء اختصاره

ومقابلته، على نسخ متعددة من كتاب الأغاني، كما اعتمد أثناء إنجاز شروحاته وتعليقاته وتحقيقاته، على مكتبة غنية لا يملكها إلا خاصة الخاصة، بعض غررها لم يصلنا.

وسنعرض في هذا البحث نماذج من هذه الحواشي والطرر التي وشح بها هذا المختصر، مرتبة حسب موضوعاتها، ونبرز مدى الدقّة العلمية التي تمتاز بها. وقبل ذلك، سنعرض بإيجاز لمكانة كتاب الأغاني في المكتبة العربية، ونعرف بالمؤلِّف، والمؤلَّف، ومنهجه في الاختصار.

أما موضوع المداخلة فسيكون إن شاء الله " منهج التحقيق والتوثيق في مختصر الأغاني المنسوب لأبي الربيع سليمان الموحدي".

٢- مكانة كتاب الأغاني في المكتبة الأدبية العربية :

يُعدُّ كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني من ذخائر المكتبة الأدبية العربية، وقد وقع الاتفاق على " أنه لم يعمل في بابه مثله"[١]. فهو كتاب لا يداني في منزلته وغزارة مادته... وقد استوعب ثقافة عصره، وحصيلة معارفه، وحوى عيون النثر والشعر والقصص والأخبار والتاريخ والاجتماع والمجون والجد والغناء وتراجم الأدباء"[٢]. فهو "للزاهد فكاهة وعبرة، وللعالم فائدة وزيادة، وللمتأدب بضاعة وتجارة، وللبطل رجلة وشجاعة، وللمطرب رياضة وصناعة، .. فلله در أبي الفرج، فقد أبقى له ذكرًا لا ينسى، وبسط منه نمرقة لا تبلى، ولقد جمل الدنيا بفضله الذي أظهره في كتابه، فهو حقيق بتسمية الحاوي لا كتاب الأغاني"[٣].

ويقول ابن العربي مبرزًا قيمة هذا المؤلف: " هذا الكتاب جليل القدر، غزير العلم، لم يؤلف قط مثله، وإنما أخلّ به اسمه"[٤]. وقد كان الأغاني من ضمن مروياته التي رجع بها من المشرق كما يدل على ذلك ما ورد في مختصر كتاب الأغاني المنسوب لأبي الربيع: " كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني يرويه أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي[٥] الفقيه الحافظ المحصل الأجلّ، ويرويه أيضًا ببغداد الشيخ أبو المعالي ثابت بن بندار[٦]، وقال سمعته يقرأ على القاضي أبي القاسم علي بن المحسن[٧]، بسند متصل إلى أبي الفرج الأصفهاني"[٨].

ويقول عنه ابن خلدون أيضًا: " ولعمري إنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها"[٩].

ولقد لقي كتاب الأغاني اهتمامًا كبيرًا من لدن المشارقة، وإقبالاً منقطع النظير من لدن الأندلسيين والمغاربة. فقد حكي عن الصاحب بن عباد " أنه كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما وصل إليه كتاب الأغاني، لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه، استغناء به عنها"[١٠].

وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة: " لم يكن كتاب الأغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا في حضره، وإنه كان جليسه الذي يأنس إليه، وخدينه الذي يرتاح نحوه"[١١].

ويروي المقري أن الحكم المستنصر (ت٣٦٦هـ) " بعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق"[١٢]، وهذه النسخة - كما جاء

في الصفحة الأخيرة من هذا المختصر ظلّت تتناقلها أيدي الملوك والأمراء إلى أن وصلت إلى المعتمد بن عباد، فانتزعها منه يوسف بن تاشفين وانتهت إلى يعقوب المنصور نجم الموحدين[١٣]، ولا نشك في أن المؤلف اطلع عليها واعتمدها في إنجاز هذا الاختصار.

وقد أصبح كتاب الأغاني على عهد ملوك الطوائف نموذجًا يحتذى في التأليف "فقد عارضه أسلم بن عبد العزيز بكتابه أغاني زرياب، بل إنه أصبح من محفوظ بعض الأدباء في الأندلس كما يفهم من حكاية أوردها صاحب المعجب[١٤]. وبقي الكتاب متداولاً في المغرب إلى عصور متأخرة شاهد ذلك ما وصلنا من نسخ خطيّة منه متفرقة في أهم الخزائن المغربية[١٥].

وقد اختصره وجرده أكثر من مؤلف، ومن أهم مختصرات كتاب الأغاني المغربية التي وصلتنا: مختصر الأغاني المنسوب إلى أبي الربيع سليمان الموحدي (ت ٦٠٤هـ) وكتاب إدراك الأماني من كتاب الأغاني[١٦] للأديب السلوي عبد القادر بن عبد الرحمن الأندلسي(ت ١١٨٠هـ)، قدمه مؤلفه هدية للسلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله والذي كان مولعًا بهذا الكتاب أشد الولع.

٣- مختصر كتاب الأغاني المنسوب لأبي الربيع سليمان الموحدي:

يُعدُّ مختصر كتاب الأغاني من نوادر المخطوطات المغربية، وقد كان في الأصل من ممتلكات خزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، ثم نقل إلى خزانة القرويين، ومنها إلى الخزانة العامة بالرباط قسم الأوقاف، ولا يعرف، حسب مبلغنا من العلم، من هذا الكتاب إلا السفر الأول، ويقع في ٣٢٢ صفحة. كتب بخط أندلسي جميل بمداد أسود، وكتبت عناوينه بخط غليظ أسود داكن، وهو مصحح، ومشكول، ومقابل بعدة أصول، على ورق من الحجم الكبير. مقياسه ٢٩×١٩سم، مسطرته: ١٧س، وفي كل سطر نحو عشر كلمات، أما ناسخه فمجهول، ولم يرد في ثنايا المخطوط ما يدل على هويته. تملك هذه النسخة محمد بن محمد بن ناصر الدرعي المتوفى سنة (١٠٨٥هـ)، وهو من كبار علماء المغرب، ومن أفاضل شيوخ الزاوية الناصرية[١٧].

- أوله:

" الحمد لله خالق اللوح والقلم، ومفضل العرب على العجم، وجاعل الأمة الحنيفية خير الأمم... أما بعد فإنه لما كان علم الأدب حلية للمَجالس، وأُنسًا للمُجالس..." [١٨].

- آخره:

وقيل إنما سمي مدرج الريح لقوله {الكامل}

أعرفت رسمًا من سَبيَّة باللوى
دَرَجَتْ عليه الريح بعدك فاستوى

كمل السفر الأول من مختصر كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني بحمد الله وعونه، وذلك بمراكش حرسها الله سنة سبع وستمائة، ويتلوه في السفر الثاني شعر ابن عريض"[١٩].

ويضم هذا السفر تراجم وأخبار الشعراء الآتية أسماؤهم:

- أبو قطيفة المعيطي.
- معبد.
- عمر بن أبي ربيعة.
- ابن سريج.
- نصيب بن رباح.
- ابن محرز
- العرجي

- مجنون ليلى قيس بن ذريح
- عدي بن زيد
- الحطيئة
- ابن عائشة
- ابن أرطاة المحاربي
- ابن ميادة المري
- حنين بن بلوع الحيري
- الغريض
- الحكم بن عبدل الأسدي
- قيس بن الخطيم
- هلال بن الأسعر المازني
- عروة بن الورد
- ذو الإصبع العدواني
- فيل مولى العبلات
- زيد بن عمرو بن نفيل
- ورقة بن نوفل
- مدرج الريح.

والملاحظ أن المؤلف حافظ على نفس الترتيب الموجود في كتاب الأغاني.

وهذا المختصر منسوب لأبي الربيع سليمان بن عبد المؤمن بالله بن علي الزناتي الكومي[٢٠] في الغصون اليانعة وفي المغرب. يقول ابن سعيد في الأول: " وقد اشتهر اختصاره للأغاني، وديوان شعره مجموع بأيدي الناس"[٢١]، وقال أيضًا في الثاني، والنص لصاحب نفح الطيب:" وكان كاتبًا شاعرًا أديبًا ماهرًا، وشعره مدون ... وله مختصر كتاب الأغاني"[٢٢].

وأبو الربيع أمير وابن أمير وحفيد خليفة عظيم من الخلفاء الذين زهي بهم العالم الإسلامي، وكان واليًا على بجاية، وقد تربى منذ طفولته بين أحضان العلم والعلماء، فلم يكن في أمراء الموحدين له مثيل[٢٣].

وهو من مفاخر بني عبد المؤمن، ومحله منهم محل ابن المعتز من بني العباس، وكان قديرًا على النظم، حافظًا للأدب، جوادًا لمن يتعلق بأدنى سبب يجب رعيه[٢٤]. وقد ولي بجاية، ولم يمكث فيها طويلاً، حتى استولى عليها ابن غانية[٢٥]، فانحاز بعد انهزامه إلى تلمسان" واستقر بها ... فريدًا من جنده، عاريًا إلا من أدبه ومجده"[٢٦]. ثم تولى تلمسان وسجلماسة آخر حياته، وكان في الأندلس قد تولى بلنسية ومرسية وقرطبة كما ذكر صاحب واسطة العقدين[٢٧]. وكان قصره، سواء في الأندلس والغرب، منتدى للشعراء، والكتاب، ورجال العلم. وقد أحيا، كما يقول محمد بن عبد الحق الغساني، " من العلوم ما كان مواتًا، ونشر في دارسها ما صير الزمن جديده رفاتا... السيد الأجل الأكمل، الهمام الأمجد الأفضل، أبو الربيع بن السيد الأجل المعظم، الملك المكرم، بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين أدام الله سعده، وأثل عزه ومجده،...

فقد كانت حضرته مجتنى الآداب، ومحط رحال ذوي الحجى والألباب، في فنون النظام وغرر النثروالكلام، فكان أبقى الله بركته، وفسح أمده ومدته، المجلي في ذلك الطلق، الحائز لخصل السبق، لا جرم أن الكتب كانت تعرض عليه، فيتصفحها تصفح مغض عن زللها، ساتر لخطئها وخطلها، وغير مؤنب على زلة، ولا منبه على فهمة، ولا زالت المعارف تجنى من مقامه، والعوارف تقتنى من جوده وإنعامه"[٢٨]، وقد كانت وفاة أبي الربيع - في أغلب المصادر التي ترجمته - في رابع عشر صفر عام أربع وستمائة[٢٩].

وقد شكك الأستاذ محمد بن شريفة في نسبة

الكتاب لأبي الربيع، معتمدًا قول ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة، أثناء ترجمة ابن عبد ربه الحفيد- وهو أحد كتَبَةِ هذا الأمير- " وله اختصار حسن في أغاني الأصبهاني ورد على ابن غرسية في رسالته الشعوبية ، ولم يقصر فيه عن إجادة"[٣٠]. فرأى أنه" ربما يكون من قبيل العبث أن يقوم كاتب الأمير باختصار الكتاب، ويقوم الأمير باختصار آخر. وإذن، فالأقرب إلى المنطق أن يكون كاتب الأمير هو الذي تولى الاختصار"[٣١].

٤- منهج المؤلف في الاختصار:

صدر المؤلف مصنفه بمقدمة تكشف في جانبها المضموني عن الضبط المنهجي الذي كان يتمتع به، ذلك أنه حدد بوضوح الأسباب التي حدت به إلى عمل هذا الاختصار، وذكر منهجه فيه:

- أما أسباب الاختصار، فأولها عام يتمثل في تقريب المطولات في الأدب، وتيسيرها على الناس. والثاني خاص بكتاب الأغاني الذي رأى فيه تكرارًا كثيرًا يجب حذفه منه، وتلزم إزالته عنه، لأنّ ذلك يقلق متصفحه، ويكدر فكر متأمله[٣٢]، فعمد إلى ما يلي:
- حذف الأسانيد الطويلة التي أوردها أبو الفرج في كتابه جريًا على سنن المؤلفين القدماء، والاكتفاء براويها الأول.
- حذف بعض الأخبار التي لا تتعلق بصاحب الترجمة.
- حذف كل ما يتعلق بصناعة الغناء، وتقييد الألحان بثقيل وخفيف وخنصر وبنصر، وسبابة ووسطى، والاقتصار على ما له صلة وثيقة بالأدب.
- جمع ما تفرق من أخبار المترجمين وأشعارهم في هذا الكتاب في موضع واحد.
- مقابلة المتن النثري بنسخ متعددة من كتاب الأغاني، والنصوص الشعرية بالدواوين الأصلية للشعراء، لإصلاح تصحيف النساخ وتحريفهم. وسنفصل القول في هذه النقطة في العنصر التالي الخاص بفوائد طرر هذا المختصر، أما فيما عدا هذا، فقد كان المؤلف ينقل نص الأغاني بلفظه، ولا يغير منه شيئًا.

وقد ختم المؤلف مقدمته بالاعتذار عما يكون قد اعترى عمله هذا من نقص أو تقصير، كما اعترف تواضعًا منه بفضل المتقدم السابق، على التالي اللاحق، وذكر بأن اختصاره لا يمكن أن يرقى بحال إلى مستوى كتاب الأغاني الذي يدل " على اطلاع كثير، وبحث عظيم، وعلم بأيام الناس وسيرهم، ووقوف على قديم وحديث من خبرهم"[٣٣].

وتعكس المقدمة في جانبها الشكلي أسلوب المؤلف السلس الذي يطغى عليه السجع وتكثيف المعاني، ذلك أنه يجمع الكثير مما يريد في القليل مما يقول، وجاءت ديباجة الكتاب على الطريقة الموحدية، فبعد " التحميد والصلاة على النبي ﷺ والترضية على الصحابة ثم إمامهم المهدي يؤتى على المقصود ويختم بالسلام"[٣٤].

٥- فوائد طرر هذا المختصر وبيان أنواعها:

لم يتوقف مجهود المؤلف عند الاختصار فحسب، بل أسهم إسهامًا كبيرًا في تحقيق هذه النسخة المختصرة من كتاب الأغاني، إذ شرح غريب اللغة، ووثق جملة من الأخبار وصححها، وقابل مجموعة مهمّة من الأشعار وشرحها،

وعرف بالأعلام، والأماكن، والقبائل، والطوائف، وأيام العرب، وذكر ذلك في مقدمته بقوله:" ووشحنا كتابنا هذا بطرر في شرح كلمة شاردة، وتعليق على نكتة وإشارة إلى فائدة، مما رجونا معه تحقيق ما أردناه، وتحذيق ما قصدناه، وتحسين ما اختصرناه"[٣٥]. وقد سخَّر المؤلف من أجل بلوغ هذا الهدف نسخًا كثيرة من كتاب الأغاني، ودواوين متعددة للشعراء، ومكتبة ضخمة لا يملكها إلا خاصة الخاصة، ومن بين مصادرها:

١- كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، المتوفى سنة ١٧٥هـ.

٢- حماسة ابن تمام المتوفى سنة ٢٣١هـ.

٣- طبقات ابن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٢٣هـ.

٤- أغاني إسحاق الموصلي المتوفى ببغداد سنة ٢٣٥هـ.

٥- إصلاح المنطق، ليعقوب بن إسحاق الشهير بابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤هـ.

٦- المحبر، لابن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥هـ.

٧- كتاب الرخصة في الغناء للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ.

٨- أنساب قريش، لمصعب بن عبد الله الزبيري المتوفى سنة ٢٥٦هـ.

٩- كتاب المعارف، لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦هـ.

١٠- كتاب اللهو، لابن خرذادبه المتوفى سنة ٢٨٠هـ.

١١- كتاب النبات، لأبي حنيفة أحمد بن داود بن ونند الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ.

١٢- الكامل، للمبرد المتوفى سنة ٢٨٦هـ.

١٣- كتاب الزاهر، لابن الأنباري محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨هـ.

١٤- العقد الفريد، لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ.

١٥- كتاب الياقوتة، لأبي عمر الزاهد الشهير بغلام ثعلب المتوفى سنة ٣٤٥هـ.

١٦- أمالي أبي علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦هـ.

١٧- النوادر، لأبي علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦هـ.

١٨- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى بعد سنة ٣٥٦هـ.

١٩- التذكرة، لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧هـ.

٢٠- كتاب مختصر العين، لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، المتوفى سنة ٣٧٩هـ.

٢١- أفعال ابن طريف الأندلسي النحوي اللغوي، المتوفى سنة ٤٠٠هـ.

٢٢- شرح إصلاح المنطق، لابن سيدة، المتوفى سنة ٤٨٧هـ.

٢٣- كتاب معجم ما استعجم، للبكري، المتوفى سنة ٤٨٧هـ.

٢٤- كتاب الكشاف عن حقائق التنزيل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة ٥٣٨هـ.

ومجموعة هامة من الدواوين الشعرية منها:

- ديوان زهير بن أبي سلمى.
- ديوان الحطيئة.
- ديوان حسان بن ثابت.
- ديوان ضابئ بن الحارث بن أرطاة
- ديوان كثير عزة.

منهج التحقيق والتوثيق في مختصر الأغاني لأبي الربيع سليمان الموحدي

- ديوان جميل بن معمر (بأكثر من رواية).

- ديوان عمر بن أبي ربيعة .

- ديوان قيس بن الخطيم.

- ديوان المجنون

بالإضافة إلى مجموعة هامة من المصادر الأدبية واللغوية التي أخذ منها ولم يذكرها، كالإكليل للهمداني... وجمهرة الأنساب، لابن الكلبي، والبيان والتبيين للجاحظ، والكتاب لسيبويه، والمنجد لكراع النمل، والاستيعاب، لابن عبد البر، وغيرها.

ويمكن تقسيم هذه الطرر من حيث طبيعتها إلى اثني عشر نوعاً، أما عددها في المخطوط كله، فألف وخمسون طرة . وسنحاول في هذا البحث عرض وتحليل نماذج منها مرتبة حسب مواضيعها:

١- طرر في شرح اللغة:

يعدُّ شرح غريب اللغة من أهم الوسائل التي يعتمد عليها المحقق لتقريب النص للقارئ، ووعيًا من المؤلف بأهمية هذا الجانب، خصص عددًا كبيرًا من الطرر لشرح المفردات الغريبة وتلك التي تطرح إشكالاً في بنائها النحوي أو الصرفي، وقد اعتنى المؤلف ببعض الكلمات اعتناء كبيرًا، حيث تتبع وجوه ورودها في أكثر من مصدر لغوي، في حين اكتفى بشرح وجيز أو إعطاء مرادف لكلمات أخرى دون الإحالة إلى مصدر. وتبعًا لهذا، تفاوتت هذه الطرر، من حيث الأهمية، ومن حيث الحجم. ومن الكلمات التي شرحت شرح اعتناء قوله في شرح كلمة " الظرف":

" ابن الأنباري في الزاهر عن ثعلب قال : قال الكسائي: الظرفُ في اللسان، وقال الأصمعي: الظرف في الوجه واللسان، وقولهم فلان ظريف: أي حسن جميل فصيح: وفي حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إذا كان اللص ظريفًا لم يقطع) أي فصيحًا. وفي كتاب الياقوت: الظريف الذي قد امتلأ ظرفه خلقًا حسنًا وكرمًا ونبلاً، وفلان ظريف عفيف. وفي مختصر العين: ظرُف الرجل ظرفًا إذا برع. وقال ابن طريف رحمه الله: ظرف الغلام والجارية ظرفًا وظرافة برعا وأدبا، صفة لهما لا للشيوخ"(٣٦).

هكذا يلاحظ أن المؤلف اعتمد أكثر من مصدر لغوي في شرح هذه الكلمة، وتتبع وجوه استعمالها حتى انتهى إلى قوله إن الظرف صفة أليق بوصف الغلمان والجواري منها بوصف الشيوخ. ولم يكتف المؤلف بضبط المفردات المشروحة بالحركات، بل ضبطها بالنص أيضًا، كقوله بفتح أوله وكسر ثانيه إلخ...

ومن الكلمات التي شرحها اعتمادًا على المعاني القرآنية قوله موضحًا نصًا ورد في الأغاني:" جُوفٌ لا يشبعن، وهِيمٌ لا ينفعن، وصُمٌّ لا يسمعن"(٣٧). وقولها صم لا يسمعن من طريف كلام العرب، وذلك أنه يقال لكل صحيح البصر ولا يعمل بصره أعمى، وإنما يراد بذلك أنه حلّ محل العمي، وكذلك يقال للسميع الذي لا يقبل أصَمّ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء﴾(٣٨).

وقال تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٣٩)(٤٠).

وقد أثار المؤلف في بعض الطرر، أثناء شرحه للغة، بعض القضايا النحوية التي وجدها في نص الأغاني، منها قوله معلقًا على بيت ذي الإصبع العدواني:

{البسيط}

لاه ابن عمك لا أفضلتَ في حسب

شيئًا ولا أنت دَيَّاني فتَخزوني(٤١)

"قوله لاه ابن عمك، أراد: لله ابن عمك، فحذف الألف واللام وأضمر لام الحفض، ولا يكون هذا إلا في ضرورة الشعر كما يستعمل العباس وعباس، وقد يقطع في النداء، فيقال: يا ألله. وقولهم لاه أبوك: إنما يريدون لله أبوك، فحذفوا الألف واللام، وليس هكذا طريقة الكلام ولا سبيله؛ لأنّ ليس من كلامهم أن يضمروا الجار. قال سيبويه، وقال أبو سعيد السيرافي: من الحذف الشاذ قولهم لاه أبوك، يريدون لله أبوك، فحذفوا اللامين وقد كانوا حذفوا منه ألف الوصل، واللامان المحذوفتان عند سيبويه لام الجر واللام التي بعدها. وقال المبرد: لام الجر هي اللام المبقاة، وكانت أولى بالتبقية، لأنها دخلت لمعنى، وفتحت لام الجر، لأنها في الأصل مفتوحة"[٤٢].

ومن الطرر التي وجدنا فيها اهتمامًا بقضايا صرفية قوله في وزن جيرون:" وجيرون فعلون أو فيعول من جَرنَ على الأمر أي مَرَنَ، ومن قال: وزن جيرون فعلون فهو من لفظ جير. والأقرب في ذلك إلى الصواب، والله أعلم، قول من قال: وزنه فيعول من جرن على الأمر أي مرن. قال ابن جني: وتلزم النون الفتحة، فتكون في الرفع جيرون، وفي النصب والجر جيرين، فتقول: هذه جيرون، ورأيت جيرين، ومررت بجيرين ولا يلتفت إلى زيتون لشذوذه على أنه قد قيل إن وزنه فيعول"[٤٣].

ومعرفته التامة بأسرار العربية ساعدته أيضًا على ترجيح رواية دون أخرى من متن الأغاني، يقول مثلاً في المفاضلة بين رواية استطرفته واستطرقته اعتمادًا على معناها اللغوي: "استطرفته بالفاء في بعض الأصول، ومعناه استوهبته بالنكاح طرفًا، والطرف الفرس الكريم وكذلك الرجل، واستطرقته بالقاف في أكثر الأصول ومعناه أمرته أن يطرقني ليلاً، وهو الصواب إن شاء الله تعالى"[٤٤].

ويقول أيضًا معلقًا على إحدى الروايات الشعرية الواردة في بعض نسخ الأغاني:

{الطويل}

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا

لي الليلُ هَرَّتني إليك المضاجع[٤٥]

" قوله هرتني معناه كرهتني فنبت بي، وهزتني بالزاي تصحيف لا معنى له"[٤٦]

ويقول مرجحًا رواية لبيت آخر للمجنون:

{الطويل}

تحملن من وادي الأراك وأومضت

لهن بأطراف العيون المدامع

" لعله بأطراف البنان الأصابع"[٤٧].

وهكذا يلاحظ أن المؤلف عمد إلى استخدام وسيلة من أهم وسائل خدمة النص أثناء التحقيق وهي شكل ما أشكل، وشرح الغريب وما غمض معناه، والتنبيه إلى ما ينبغي التنبيه إليه أثناء عملية المقابلة والتصحيح، وترجيح وتصحيح ما ينبغي ترجيحه أو تصحيحه من روايات بعض الأخبار الأدبية اعتمادًا على معرفة أسرار اللغة.

٢- طرر في شرح الأمثال:

توجد في هذا المختصر أيضًا مجموعة من الطرر في شرح الأمثال، أو ما سرى في كلام العرب مسرى المثل، ويعتمد المؤلف في شرحه هذا على مجموعة هامة من المصادر العربية في هذا الضرب من التأليف، كالأمثال السائرة، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ومجمع الأمثال للميداني، وجمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، يقول مثلاً في شرح المثل العربي " أجمل من ذي العمامة": " كان سعيد بن العاصي يعرف (ذو العصابة أو ذو

العمامة معًا)، سمي بذلك لأنه كان إذا اعتم لم يعتم قرشي عمامة على لونها وهيئتها إعظامًا له وإجلالاً.

قال الجاحظ:" لعل هذا أن يكون مقصورًا في بني عبد شمس. وزعم بعض أصحاب المعاني أن هذا اللقب إنما لزم سعيد بن العاصي كناية عن السيادة، قال: وذلك لأنَّ العرب تقول:فلان معمم، يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني من تلك القبيلة والعشيرة فهي معصوبة برأسه، فإلى مثل هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاصي ذا العصابة وذا العمامة. وكان إذا خرج من منزله لا تبقى امرأة إلا برزت للنظر إليه من جماله، وبه يضرب أهل مكة المثل فيقولون" أجمل من ذي العمامة"[48]...

ويقول في شرح المثل المتضمن في قول قيس بن الخطيم:

{الطويل}

إذا ما اصطبحتُ أربعا خَطَّ مئزري

وأَتْبَعْتُ دلوي في السماح رشاءها[49]

"إذا ما شربت، كذا وقع في الحماسة، وخط مئزري: جررته من الخيلاء، والرشاء: السقاء، مثل يقال: (أتبع الدلو رشاءها، وأتبع الفرس لجامها، والناقة زمامها) تضرب مثلا للذي يقضي معظم أمره وتبقى عليه بقية لم يقضها، فأراد هذا بقوله. وأتبعت دلوي رشاءها أنه لم يبق عليه شيء من السماح إلا وقد قضاه"[50].

ويقول أيضًا شارحًا المثل المتضمن في قول نصيب بن رباح:

{الطويل}

وقد خرجت منك إليك فلا تكن

بموضع بيضات الأنوق من الوكر[51]

" هذا مثل يضرب في طلب الشيء الممتنع، والأنوق ذكر الرخم، يقال إن بيضه لا يكاد يوصل إليه ولا يؤخذ لأنه في صدوع الصخر من الجبال الشامخة، ولا منفعة فيه، ولا يصاب إلا بمشقة ونيل مكروه"[52].

٣- طرر في التعريف بالأعلام:

تعدُّ أسماء الأعلام من الأمور التي يدخلها الكثير من التصحيف والتحريف على أيدي النساخ، وإذا تركت دون ضبط وتعريف، تشوش على القارئ، وتكدر فكره، والمتصفح لهذا الكتاب يلاحظ الاهتمام الكبير الذي أولاه المؤلف للتعريف بالأعلام من خلال طرره، رغبة منه في إكمال خدمته لنص الأغاني، ويمكن تقسيم هذه الطرر إلى قسمين: الأول خاص بالأعلام العامة، والثاني خاص بالشعراء.

- فمن الأول، قوله في التعريف بوالد عمر بن أبي ربيعة: " قال أبو عمر بن عبد البر، رحمه الله: اختلف في اسم أبي ربيعة، فقيل عمرو، وقيل: حذيفة، وقيل: بل اسمه كنيته، والأكثر على أن اسمه عمرو ابن المغيرة، وكان عبد الله بن أبي ربيعة من أشراف قريش في الجاهلية، وأسلم يوم الفتح، وكان من أحسن الناس وجهًا، وأوفرهم عقلاً، وهو الذي استجار بأم هانئ، بنت أبي طالب يوم الفتح، ومعه الحارث بن هشام فأراد علي بن أبي طالب قتلهما فمنعته منهما أم هانئ ثم أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبرته بذلك فقال: قد أجرنا من أجرت"[53].

- ومن الثاني قوله معرفًا بابن أبي عتيق:" ابن

أبي عتيق هو عبد الله بن عبد الرحمان ابن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وكان من أهل الطهارة والعفاف ونقاء الثوب، ومن أفاضل أهل زمانه علمًا وأدبًا وعفافًا، وكان أحلى الناس فكاهة، وأظرفهم مزاجًا ونادرة، وهو شاعر غزل وصاف فمن سمع كلامه توهم أنه من أجرأ الناس على فاحشة، وإلى مذهبه في النسيب، وأخلاقه في الغزل كان يذهب ابن أبي ربيعة، وعلى منواله نسج، وبه اقتدى، ومن بحره اغترف"[٥٤]. ولم يكتف المؤلف بالتعريف بالأعلام وذكر بعض أخبارهم فقط، بل كان يذكر أحيانًا بعض الطرائف المتعلقة بكناهم وألقابهم، كقوله في سبب تكنية عبد الملك بن مروان بأبي ذباب أو ذبان: "سمي عبد الملك بن مروان أبا ذباب وأبا ذبان لأنه كان به بخر شديد يكثر ولوج الذبان في فمه إذا تكلم ، وقيل: كان الذباب يمر على فمه إذا تكلم فيقع ميتًا لشدة بخره"[٥٥].

- أو قوله في سبب تلقيب حذيفة بن المغيرة بزاد الركب: "حذيفة بن المغيرة هو زاد الركب، ويكنى أبا أمية، سمي زاد الركب بقول أبي طالب يرثيه في كلمة له فقال:

{الطويل}

وقد أيقن الركب الذي أنت فيهم
إذا أرملوا يومًا فإنك عاقر"[٥٦]

- ويقول أيضًا في سبب تكنية عمرو بن عقبة بن أبي معيط بأبي قطيفة: "لقب أبا قطيفة لأنه كان كثير شعر الجسد والوجه. ذكر ذلك إسحاق بن إبراهيم الموصلي"[٥٧].

هذه نماذج فقط من هذه الطرر، وهناك نماذج أخرى لا يتسع المجال لعرضها، منها طرر ترجم فيها بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وسرد فيها ما يستطرف من أخبارهم وأحاديثهم، وطرر أخرى تحوي طائفة هامة من أخبار بعض الشعراء، والأمراء، والوزراء، والولاة، والقضاة، والمغنين والمخنثين.

٤- طرر للتعريف بالأماكن:

يضم هذا المختصر مجموعة لا بأس بها من الطرر التي تعرف ببعض الأماكن والبلدان، ومعظمها مأخوذة من كتاب معجم ما استعجم للبكري، وتنقسم هي بدورها من حيث الحجم إلى طويلة ومتوسطة وقصيرة حسب أهمية المكان وما وقع فيه من أحداث تاريخية:

- فمن الأولى قوله في التعريف بعكاظ: عكاظ بضم العين المهملة والظاء المعجمة آخره، صحراء مستوية لا علم فيها ولا جبل، إلا ما كان من الأنصاب التي كانت بها في الجاهلية، وبها من دماء البدن كالأرحال العظام، وهي على نجد قريب من عرفات. وبعكاظ هذه رأى رسول الله ﷺ - قسّ بن ساعدة وحفظ كلامه، وقد ذكر في أخبار قسّ بن ساعدة من هذا الكتاب، وكانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا لمكة في الجاهلية، فكان سوق عكاظ يقوم صبح هلال ذي القعدة عشرين يومًا، وتقوم بعده مجنة عشرة أيام، وتقوم سوق ذي المجاز هلال ذي الحجة. واتخذت عكاظ بعد عام الفيل بخمسة عشر عامًا، وتركت عام خرجت الحرورية بمكة مع المختار بن عوف سنة تسع وعشرين ومائة إلى هلم جرا"[٥٨]. والنص بلفظه في معجم البكري[٥٩]، باستثناء ما تعلق بخبر رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم لقس بن ساعدة وحفظ كلامه، فهو مأخوذ من الأغاني[٦٠].

ومنها أيضًا قوله في التعريف بتبالة: "تبالة:

منهج التحقيق والتوثيق في مختصر الأغاني لأبي الربيع سليمان الموحدي

بفتح التاء المعجمة باثنتين من فوقها بعدها باء بواحدة وباللام على وزن سحابة، بلدة صغيرة من بلدان اليمن من أعمال مكة، وهي قريبة من الطائف، وهي بلاد مخصبة لبني مازن سميت بتبالة بن جناب من العماليق. وقال الكلبي: إنما سميت بتبالة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام. وهي التي يضرب بها المثل، فيقال:" أهون من تبالة على الحَجَّاج"(٦١). وهو من أمثال أهل الطائف، وذلك أول عمل وليه الحَجَّاج، فلما قرب منها قال للدليل: أين تبالة؟ قال تسترها عنك هذه الأكمة. فقال الحَجَّاج: أهون عليّ بعمل بلدة تسترها عني أكمة ورجع من مكانه"(٦٢).

ومن الطرر المختصرة قوله معرفًا بالجرير وكساب:" الجرير بضم الجيم وبراءين مهملتين على لفظ التصغير موضع بنجد. وكساب بفتح أوله وبالسين المهملة وبالباء المعجمة بواحدة في آخره جبل هناك وكلها متدانية"(٦٣).

ومما يلاحظ، من خلال استعراض هذه النماذج، حرص المؤلف على ضبط رسم الكلمات نصًا دون الاكتفاء بضبطها بالحركات، ولم يكن المؤلف يكتفي أحيانًا بالتعريف بأسماء الأماكن فقط، بل كان يشير إلى ما اشتهرت به من أحداث وأخبار تاريخية مهمة.

٥- طرر في التعريف بالقبائل:

وردت في هذا المختصر بعض الطرر التي عرف فيها المؤلف بقبائل العرب وأنسابها، وما اشتهر من أخبارها، من ذلك قوله في سبب تسمية العباديين بذلك في ترجمة عدي بن زيد العبادي:".{...}(٦٤) قال أبو جعفر بن النحاس: العبادي صنف من العبادة، مشتق من قول العرب عابد إذا دان للملك وأطاعه، وحكى أحمد بن أبي يعقوب أنه إنما سمي نصارى الحيرة ومن جاورهم العباديين والعباد، لأنه وفد على كسرى منهم خمسة نفر، فقال للأول: ما اسمك؟ قال: عبد الله،وقال للثاني: ما اسمك:؟ قال: عبد ليل، وقال للثالث: ما اسمك؟ قال عبد عمرو، وقال للرابع ما اسمك؟ قال عبد ياسوع، وقال للخامس: ما اسمك قال عبد الله، فقال لهم أنتم عباد كلكم، فسموا العباد. قال، وقد قيل: إنهم كانوا في حرب فكان شعارهم: يا عباد الله، فسموا العباد"(٦٥).

ويقول أيضًا معقبًا على نص أبي الفرج: "وريطة التي عناها هي أم بني المغيرة... وهي بنت سعيد بن سعد بن سهم"(٦٦). لم يذكر المصعب بن عبد الله الزبيري سعدًا في نسب ريطة هذه، وذكره الأمير ابن ماكولا في عدّة مواضع فيه، ولم يخل به حيثما وقع ذكر هذا النسب" (٦٧).

وقد اعتمد المؤلف أحيانًا على معرفته بالأنساب ليشير إلى ما وقع فيه أبو الفرج نفسه من هنات في علم الأنساب، قال معلقًا على قول أبي الفرج:" قيس بن عيلان بن مضر بن نزار..." في ترجمة الحطيئة:" قال ابن حبيب : لم يكن عيلان بأبٍ لقيس، وإنما هو قيس بن مضر بن نزار، ولكن عيلان فرس لقيس بن مضر، وكان مشهور العتق في العرب، وكان قيس بن مضر يسابق عليه، وكان رجل من بجيلة يقال له: قيس بن الغوث له فرس مثل فرس قيس عيلان يقال له: كبة، وكانا متجاورين، فكان الرجل إذا سأل عن قيس أو ذكر قيسًا قيل له: أقيس عيلان أو قيس كبة؟ فبقي قيس بن مضر لا يعرف إلا لعيلان، فلذلك قالت العرب: قيس عيلان على الإضافة إلا أن يضطر شاعر، فيقول قيس بن عيلان، وكل من قال في النسب ابن عيلان دون اضطرار فقد أخطأ لأنه ابن مضر. انتهى كلام ابن حبيب"(٦٨).

ومن ذلك أيضًا قوله معقبًا على نص أبي

الفرج: ثم اشترت سلامة أم النصيب امرأة من خزاعة ضمرية حاملاً بنصيب فأعتقت ما في بطنها"[٦٩] هذا محال امرأة خزاعية ضمرية وما يجمع بين اليمن ونزار؟ بل بين كنانة وخزاعة؟ والصواب فيه امرأة ضمرية من خزاعة أي اشترت المرأة الضمرية من خزاعة أم النصيب والله ورسوله أعلم"[٧٠].

٦- طرر تاريخيّة وأدبيّة:

تتخلل هذا المختصر عدة طرر ذات فوائد عامة، تاريخية كانت أم أدبية. ذلك أنه كلما أتيحت للمختصر فرصة لإظهار تمكنه من مسألة يتدخل لحسمها، وعندما يحس بغموض أخرى يتدخل لبيانها وشرحها، ويقول مثلاً معلقًا على نص أبي الفرج الآتي: " واختلف في قاتل أبي معيط، فقيل إن علي بن أبي طالب تولى قتله، وقيل قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح" "الصحيح أن الذي قتله صبرًا هو ثابت بن أبي الأقلح"[٧١].....

أو كقوله في التعريف بوقعة الحرة وزمانها ومكانها:" كانت وقعة الحرة على يدي مسلم بن عقبة المري في حرة واقم وهي شرقي المدينة، وكان يزيد بن معاوية هو الذي وجه مسلم بن عقبة المري على قتل أهل المدينة فأوقع بهم في الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وستين من الهجرة، فسمي مسلم بن عقبة من يومئذ مسرفًا ومجرمًا لما فعله بأهل المدينة"[٧٢]. وهاتان الطرتان نموذج فقط من طرر أخرى كثيرة تتعلق بمعلومات تاريخيّة عامة.

أما الطرر ذات الطابع الأدبي فكثيرة، منها قوله معلقًا على أبيات للمجنون:" قال إسحاق الموصلي: حدثني أبو عبد الله الزبيري، قال: كان أبو السائب المخزومي مع حسن بن زيد بن علي رضي الله عنهم بالأنبار، وكان له مكرمًا، وذلك في ولاية أبي العباس، فانشده ليلة حسن بن زيد أبياتا لمجنون بني عامر:

{الطويل}

وخَبَّرتُماني أن تيماء منزل
لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فما لشهور الصيف أمست قد انقضت
وهذي النوى ترمي بليلى المراميا

الأبيات....

قال: فطرب أبو السائب لها {....}[٧٣]، فلما انصرف إلى منزله، تذكرها فأخطأ بعضها، فرجع أدراجه إلى الحسن بن زيد، فلما وقف على الباب، صاح بأعلى صوته: إنا لله، إنا لله، فسمع ذلك الحسن، فقال: افتحوا لأبي السائب، لقد دهاه أمر، فلما دخل عليه قال له الحسن: أجاء من أهلنا أحد، أو طرأ منهم خبر؟ قال أعظم من ذلك، قال: ما هو ويحك يا أبا السائب؟ قال:

وخبرتماني أن تيماء منزل

قد أخطاني بعضها فردها علي حتى أحفظها. ففعل الحسن. قال: وكان أبو السائب حبرًا فاضلاً، وكان مستهترًا بالغناء والغزل والدعابة"[٧٤].

- وقال أيضًا بعقب بيت عمر بن أبي ربيعة:

{الطويل}

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل
أبوها وإما عبد شمس وهاشم

"حدثني محمد بن يحيى بن أبي عمران قال: قال زيد بن عيسى بن زيد بن علي - وكان أفوه - ليس تتركون معشر قريش بغضكم لنا، وسوء رأيكم فينا، قال وما ذاك فديتك؟ قال: قال صاحبكم عمر بن أبي ربيعة" بعيدة مهوى القرط إما لنوفل "

منهج التحقيق والتوثيق في مختصر الأغاني لأبي الربيع سليمان الموحدي

فجعلنا آخرهم. قلت: فديتك إن قصيدته على الميم يقول فيها:

نظرت إليها من المُحَصّب من منى
ولي نظر لولا التحرج عارم

فهي كما ترى على الميم، لا يمكنه إلا ذلك في جميعها، فقال: ما للشاعر لا يحسن أن يحتال؟ قلت: فاحتل أنت فديتك، فقال: يقول:

بعيدة مهوى القرط إما لهاشم
أبوها وإما عبد شمس ونوفل ميم

فتركته وانصرفت وقد غلبني الضحك حتى ما أتمالك"(٧٥).

٧- طرر في شرح الشعر:

حظي شرح الشعر في هذا المختصر باهتمام خاص من لدن المؤلف، وقد اعتمد في شرحه، كعادة القدماء، على جانبين أساسيين: جانب موضوعي، واستند فيه على ثقافته الواسعة في علم اللغة، والنحو، والصرف، والبلاغة، والعروض، وجانب ذاتي اعتمد فيه على خبرته ودربته في قراءة النصوص وتذوقها. ويمكن تقسيم الشروح الشعرية في هذا المختصر إلى قسمين:

- الأول: شرح عادي يقتصر فيه على إيراد المعنى الظاهر للبيت ونماذجه في الكتاب متعددة منها قوله في شرح بيت نصيب الآتي:

{الطويل}

فلا خير في ودّ امرئ متكارهٍ
عليك ولا في صاحب لا توافقه

" يقول لا أرضى من صديقي إلا بالإنصاف كرمًا وأنفةً من الظلم. وقوله " متكاره عليك ولا في صاحب لا توافقه "، وإنما يسترغب فيمن يبذل لك مودته بطيب نفسه فيوافقك وتوافقه"(٧٦).

- والثاني شرح طويل يعتمد فيه على ذوقه الشعري وثقافته الأدبية الواسعة من ذلك قوله في شرح بيت لنصيب من نفس القصيدة:

{الطويل}

وما ضر أثوابي سوادي وتحته
لباس من الياء بيض بنائقه

أشار إلى قوله بيض بنائقه إلى ابيضاضه كله، لأنَّ بنائقه إذا ابيضت ابيض سائره. وإنما ذكر البنائق للقافية، وضرب القميص مثلاً. وقوله وما ضر أثواب سوادي: أي ليس جمال الثوب في لون الجلد وإنما جماله أن يشتمل من صاحبه على عقل وفضل، فإذا اختبر طاب خبره فمثله مثل المسك إن لم يحسن لونه لسواده فقد طاب مخبره بطيب رائحته"(٧٧).

وكان المؤلف كلما وجد استعمالاً شاذًا في مجال النحو واللغة والعروض، أو سياقًا شعريًا يحتاج إلى حجة من حجج النحاة لإثبات صحته، يستطرد في شرحه ويسوق مجموعة من مبررات استعماله، يقول معلقًا على البيت التالي:

{الخفيف}

كُلَّ قصر مُشَيَّدٍ ذي أواس
يَتَغَنَّى على ذُراهُ الحمامُ(٧٨)

" الأواسي: السواري، واحدها آسية مخففة، وقال أبو العباس المبرد: الأواسي واحدها آسية، وهي أصل البناء بمنزلة الأساس، والأواسي ياؤها مشددة في الأصل وتخفيفها يجوز، ولو لم يجز في الكلام لجاز في الشعر، وكل مثقل فتخفيفه في القوافي جائز"(٧٩).

ومنه كذلك قوله معلقًا على البيت الآتي: {الطويل}

وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى

بلين بلى لم تَبْلهُنَّ رُبُوعُ

"قوله لم تبلهن ربوع غلط من الشاعر أو من الرواة، والصواب لم تبله ربوع أي لم تبل ذلك البلا ربوع، إلا أن يكون اضطر إلى ذلك ليصح الوزن. والمعنى مفهوم من فحوى الكلام"[٨٠].

٨- طرر في نقد الخبر الأدبي شعره ونثره:

توجد في هذا المختصر مجموعة من الطرر في نقد الأخبار والأشعار، ويمكن تقسيمها إلى نوعين:

- الأولى: وهي عبارة عن أحكام عامة انصبت على الخبر الأدبي جملة، شعره ونثره، مثل قوله بإثر خبر منسوب للمجنون: "هذا خبر مصنوع وشعر مولّد فاتر ما أبعده من نفس المجنون"[٨١].
- والثانية هي عبارة عن أحكام انصبت على أشعار بعينها وهي أنواع:

١- **أحكام قيميه:** على بيت بعينه كقوله معلقًا على بيت عمر بن أبي ربيعة: {الخفيف}

كل وصل أمسى لَدَيَّ لأنثى

غيرها وصلها إليها أداء

" هذا مما أجاد فيه ابن أبي ربيعة في صدق الصفاء"[٨٢].

ويقول معلقًا على بيت للمجنون {الطويل}

ألا إنما غادرت يا أم مالك

صدىً أينما تذهب به الريح يذهب

" هذا البيت من أعجب ما قيل في النحافة" ومن هذا الباب قوله أيضًا {الطويل}

فأصبحتُ في أقصى البيوت يَعُدْنَني

بقية ما أنضين نصلاً يمانيًا

يعدن مريضًا هن هيجن ما به

ألا إنما بعض العوائد دائيا

ومما يستظرف في هذا الباب قول ابن أبي ربيعة: {الطويل}

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيضحى وأما بالعشي فيخصر

أخا سفر جواب أرض تقاذفت

به فلوات فهوا أشعث أغبر

قليل على ظهر المطية ظله

سوى ما نفى عنه الرداء المحبر[٨٣]

٢- أحكام نقدية خاصة بقصائد بعينها مثل قوله في التعليق على قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي مطلعها : {الطويل}

أمن آل نعم أنت غاد فَمُبكِرُ

غداة غد أم رائح فَمُهجِّرُ؟

" اقتص ابن أبي ربيعة في هذه القصيدة خبره مع تكلف عقد النظم بما لا يستطيع أحد أن يزيده بيانًا بمنثور الكلام. مع عذوبة اللفظ ورونق الطبع. وكذلك قصيدته التي أولها: {لطويل}

ألم تسأل الأطلال والمتربعا [٨٤]

٣- يلجأ المختصر في بعض الأحيان إلى مقارنة معنى معين عند شاعرين أو أكثر، من ذلك قوله معلقًا على أبيات نصيب التالية: {الطويل}

منهج التحقيق والتوثيق في مختصر الأغاني لأبي الربيع سليمان الموحدي

أقول لركب صادرين لقيتهم

قفا ذات أوشالٍ ومولاك قاربُ

قفوا خبروني عن سليمان إنني

لمعروفه من أهل وَدَّان طالبُ

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله

ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقالوا عهدناه وكل عشية

بأبوابه من طالبي العُرْفِ راكبُ

" ليس شعر نصيب هذا في المدح بأجود من قول الفرزدق في الفخر، وإنما يفاضل بين الشيئين إذا تناسبا.. وقول نصيب في هذا المدح متجاوز ومبتدع لم يسبق إليه، على أن أحد همدان قد قال في عصره في غير المدح: {الطويل}

يمرون بالدَّهْنَا خفافًا عيابهم

ويخرجن من دارينَ بُجْرَ الحقائب

وهذا هو معنى قول نصيب في المدح وأجاد فيه كل الإجادة"[٨٥].

٤- النوع الرابع خصصه المؤلف للحديث عن السرقات الشعرية والانتحال، يقول بعقب أبيات عمر ابن أبي ربيعة: {الطويل}

وناهدة الثديين قلت لها اتكي

على الرمل في ديمومة لم تُمَهَّدِ

فقالت على اسم الله أمرك طاعة

وإن كنت قد كلِّفتُ ما لم أعوَّدِ

فبتنا دُوَيْنَ الحي يضربنا الندى

نلذ كما شئنا وإن لم نُجَرَّدِ

فلما دنا الإصباح قالت فضحتني

فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

" أخذ ابن أبي ربيعة من قول الأول وهو امرؤ القيس: {الطويل}

تقول وقد جردتها من ثيابها

كما رعت مكحول المدامع أتلعا

أجدك لو شيء أتانا رسوله

سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

فأين تراه منه وإن كان لم يبق غاية[٨٦].

ويقول أيضًا بعد أن أورد البيتين الشهيرين المنسوبين إلى جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا

وشلاً بعينك لا يزال معينا

غيَّضْن من عبراتهن وقلن لي

ماذا لقيت من الهوى ولقينا

" هذان البيتان للمعلوط بن كنيف السعدي، وانتحلهما جرير"[٨٧].

٩- طرر في جمع الشعر من مظانه:

لقد لجأ المؤلف في عدّة مواضع من هذا الكتاب إلى جمع ما تفرق من أبيات بعض القصائد، إمّا لإعجابه بها، أو رغبة منه في إتمام معنى لم يتم منها، أو لإبراز اختلاف رواياتها، ونماذج ذلك كثيرة، منها قوله مثلاً بإثر خمسة أبيات أوردها أبو الفرج للمجنون: " أول هذه القصيدة : {الطويل}

سأصرمُ ليلى حبلَ وصْلِكِ مُجْمِلاً

وإن كان صرم الحبل منك يروع

وإن مسني للضر منك كآبة

وإن نال جسمي للفراق خشوع[٨٨]

... وهي قصيدة طويلة وردت كاملة في أمالي القالي :١/١٣٦-١٣٧.

أو كقوله معلقًا على بيت أبي قطيفة من القصيدة التي مطلعها: {الخفيف}

ليت شعري وأين مني ليت

أعلى العهد يَلْبَنٌ فبَرَام[٨٩]

كان أشهى إليَّ قربُ جوار

من نصارى في دورها الأصنام

" يتصل بقوله:

يضربون الناقوس في كل فجر

ببلادٍ تنتابها الأسقامُ

حال من دون أن أحل به النأ

ي وصرف النوى وحرب عَقَامُ

ولَحَيٌّ بين العريض فسلع

حيث أرسى أوتاده الإسلام

كان أشهى إليَّ قرب جوار

من نصارى في دورها الأصنام[٩٠]

إلى غير ذلك من النماذج التي توجد في هذا المختصر، وتعد شاهدًا آخر على الثقافة الواسعة التي كان يتمتع بها المؤلف.

١٠- طرر في توثيق النصوص:

إن الطرر التي تلفت النظر حقًا في هذا المختصر تلك التي تتعلق بتوثيق النص النثري والشعري للأغاني، فقد بذل المؤلف في سبيل إنجاز هذا العمل مجهودًا مضنيًا، واعتمد في توثيق الأخبار والأشعار، على معرفته التامة بكتاب الأغاني، ومراجعة متأنية لكتب الأدب العامة، هذا فضلاً عن دواوين الشعراء وكتب الاختيارات الشعرية.

- فمن نماذج توثيق النص النثري قوله معلقًا على خبر ورد في الأغاني ١/٢٩-٣٠. "لم يقع هذا الخبر في كتاب أنساب قريش"[٩١] للمصعب الزبيري.

وقوله أيضًا معلقًا على خبر رواه أبو الفرج عن ابن الأعرابي الذي قال:" حجت أم محمد بن مروان بن الحكم"[٩٢]. "ذكر المبرِّد أنها أم عمر بنت مروان بن الحكم"[٩٣].

ومن نماذج توثيق النص الشعري قوله معلقًا على أبيات نسبها أبو الفرج إلى ابن سيحان:" في أخبار ابن سيحان إنَّ هذه الأبيات لخالد بن عقبة وهو الصحيح. وذكر ذلك أيضًا الزبير بن بكار في كتاب أنساب قريش"[٩٤].

- ويقول أيضًا في توثيق بيت منسوب إلى كثير عزة:" لم يقع في ديوان شعر كثير عزة، وقد بحثت عليه جهدي في جملة من دواوين شعر كثير، فلم أجده فيها"[٩٥].

فلم يكتف بالرجوع إلى نسخة واحدة من ديوان كثير، بل تجشم الرجوع إلى نسخ متعددة منه كي يقطع الشك باليقين.

- ويقول أيضا معلقًا على قصيدة منسوبة إلى عمر بن أبي ربيعة مطلعها : {الكامل}

يا راكبًا نحو المدينة جَسْرَةً

أُجُدًا تلاعب حلقةً وزِمَامَا

" لم تقع هذه الأبيات في ديوان شعر عمر بن أبي ربيعة، وليس له على هذه القافية المنصوبة إلا مقطوعة واحدة في الثريا"[٩٦]، ومثل هذا الحكم يدل على استقصاء تام ، لشعر عمر بن أبي ربيعة.

- ويقول أيضًا معلقًا على قصيدة منسوبة إلى عمر بن أبي ربيعة مطلعها : {البسيط}

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا

إذا أقول صحا يعتاده عيدا

" جاء في أخبار يزيد بن الحكم بن أبي العاصي الثقفي أنّ هذه الأبيات له يمدح بها سليمان بن عبد الملك انظره هناك. وفي آخره قال أبو الفرج من الناس من ينسب هذه الأبيات إلى عمر بن أبي ربيعة وذلك خطأ، وذكر إسحاق الموصلي أيضًا أن هذه الأبيات ليزيد بن الحكم، والأبيات التي فيها مدح سليمان بن عبد الملك من هذه القصيدة ...:

سُميتَ باسم امرئ أشبهت شيمته

فضلاً وعدلاً سليمان بن داوودا

أحْمدْ به في الورى الماضين من ملك

وأنت أصبحت في الباقين محمودا

لا يبرأ الناس من أن يحمدوا ملكًا

أولاهم في الأمور الحلم والجودا[٩٧]

- ويعلق أيضًا على أبيات نسبها أبو الفرج إلى كثير عزة:" لم تقع هذه الأبيات في ديوان شعر كثير عزة، وبحثت عليها جهدي في جملة دواوين من شعره فلم أجدها والصحيح أنها لكثير بن كثير بن أبي وداعة السهمي".
- ويقول أيضًا في توثيق أبيات منسوبة إلى عمر بن أبي ربيعة:" وقعت هذه الأبيات كلها في ديوان شعر جميل. وذكر ذلك أبو الفرج في أخبار جميل وأنها من قوله، وهو الصحيح . ويقال إنها لأبي دهبل الجمحي، ولم تقع في ديوان شعر عمر بن أبي ربيعة.[٩٨]. إلى غير ذلك من النماذج التي نجدها في هذا الكتاب.

١١- طرر في مقابلة المتن النثري والشعري لكتاب الأغاني:

وردت نماذج كثيرة ومتعددة من المقابلة في هذا المختصر، ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

- مقابلة المتن النثري: لم يقتصر المؤلف على إبراز مقابلته للمتن النثري للأغاني بالرمز المتعارف عليه بين أهل التحقيق، وهو وضع دائرة صغيرة تتوسطها نقطة في نهاية كل فقرة، بل أرفق ذلك بعدة عبارات ورموز في الهامش مثل قوله: عن رجل من بني مخرزوم في بعض النسخ"[٩٩] . "واستلوت في خ"[١٠٠]. ، وقوله:" ابن تركة كذا في بعض النسخ حيثما وقع اسمه"[١٠١]. أو قوله:" الحجبي في بعض الأصول فانطره"[١٠٢] . "يصنعان له هلالاً"، "كذا في أصح النسخ"[١٠٣].... كل هذا يؤكد أن مقابلة المتن النثري أُنجزت على أكثر من نسخة لكتاب الأغاني.
- مقابلة نص الأغاني بغيره من الكتب، والأمثلة في هذا الباب كثيرة نقتصر على إيراد نموذجين منها فقط، الأول قوله معلقًا على نص الأغاني:" ولله در جنادة العذري"[١٠٤].... نجبة بن جنادة في النوادر وفي أغاني إسحاق الموصلي"[١٠٥].

ويقول أيضًا معلقًا على خبر رواه أبو الفرج، عن ابن الأعرابي، عن أبي الحسن المدائني، عن جرير:" جرير هكذا جاء في أغاني إسحاق الموصلي في كل موضع يذكره فيه، وقيده تقييد اعتناء وضبطه. وفي بعض المواضع منه حريز المدني"[١٠٦].

- مقابلة المتن الشعري: وفيه أنواع:

أ- مقابلة المتن الشعري بالاعتماد على نسخ أخرى من كتاب الأغاني مثل قوله:" وهل طائف من نائم في أخرى". وآثرت أعيار ابن وردان في خ"....

مقالات

ب- مقابلة المتن الشعري بالاعتماد على دواوين الشعراء كقوله معلقًا على بيت عمر بن أبي ربيعة

أشارت بمدراها وقالت لأختها
أهذا المغيري الذي كان يذكر
قفي فانظري يا أسم هل تعرفينه
أهذا المغيري الذي كان يذكر.

كذا في شعره"[١٠٧]

- ويعلق على بيت عمر بن أبي ربيعة:

وذيول معصفة الرياح تجرها
فيها فأصبحت العراص يبابا
وذيول معصرة الرياح فرسمها
خَلَقٌ تُشَبِّهُهُ العيونُ كِتَابا
كستِ الرياحُ جَديدها من ثوبها
دِقًا فأصبحت العراصُ يبابا

كذا وقعا في شعره[١٠٨].

" أمكنت للشارب الغدر" هكذا في ديوان شعره[١٠٩]، وورد في الديوان والأغاني من شعر قيس بن الخطيم:" إذا ما اصطبحت أربعًا خط مئزري

إذا ما شربت كذا وقع في الحماسة[١١٠].

ج- وقد وردت نماذج من مقابلة المتن الشعري دون ذكر الأصل الذي قوبلت عليه، كقوله:" وهذاك العقيق في بعض الأصول[١١١].

ويروي الحلب وهو الضعيف"[١١٢]، : أصادقًا وصف المجنون أم كذبا رواية"[١١٣].

وهكذا يلاحظ أن المؤلف لم يقتصر في إنجاز مقابلته على نسخة واحدة من كتاب الأغاني، أو أصل واحد من الأصول الأدبية والتاريخية، أو من دواوين الشعراء لكي يقدم لنا في الأخير نسخة محققة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

١٢- طرر مالك النسخة:

توجد في هذا الاختصار أيضًا مجموعة من الطرر لمالكها محمد بن محمد بن ناصر الدرعي، ما يدل على أن الرجل هو أيضًا قرأ هذا الكتاب قراءة متأنية، ويمكن تقسيم هذه الطرر إلى ثلاثة أنواع:

- الأولى: حملته عليها غيرته الدينية على آل البيت الذين يستهزئ بهم أبو الفرج في أخباره الماجنة، وهذا ما دفعه مثلاً إلى التشطيب على اسم سكينة بنت الحسين من خبر لابن أبي ربيعة، وعلق على فعله هذا في الهامش بقوله:" هذا مما لا ينبغي أن يسمع، ولا أن يقرأ أصلاً فليضرب عن قوله فيه، وعن كلام عمر بن أبي ربيعة كله[١١٤].
- والثاني: حمله عليه فضوله العلمي، وهو نوعان كذلك:
- إما معلومات وردت في الأغاني يذكرنا بها، كقوله معلقًا على لقب العرجي:" العرجي نسبة إلى حائط كان في وسط بلاد بني نصر بن معاوية"[١١٥].
- أو يفسر معلومات تحتاج إلى تفصيل وردت في طرر المختصر، من ذلك قوله معلقًا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :" انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، وأتوني به. والحديث يطول[١١٦]. وهذه الحكاية ذكرها المفسرون منهم صاحب الكشاف في سورة الممتحنة في أولها، وصاحبة الظعينة سارة مولاة عمرو بن صيفي بن هاشم، بعثها حاطب بن أبي بلتعة

بكتاب إلى أهل مكة يحذرهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فنزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره، فبعث إليها مولاة علي ومن ذكر معه إلخ فلتراجع هناك إن شاء الله:(١١٧).

- والثالث: وهو عبارة عن أحكام عامة يعلق بها على أخبار أبي الفرج الأصفهاني، من ذلك قوله في النصيب الذي نهى ابنه عن تزوج ابنة سيده، وضربه ضربًا مبرحًا أمام قومه: " هذه أحكام عادل تقي رحمه الله".
- ومن ذلك أيضًا قوله في مقتل محمد وإبراهيم ابني هشام، وخالد القسري:" مقتل ابني هشام، كمقتل العرجي هذا بذاك، ومات معهما خالد القسري"(١١٨).

خاتمة

تعكس هذه الطرر التي قدمنا نماذج منها فقط، الثقافة المتنوعة التي كان يتمتع بها المؤلف في مجالات معرفية متعددة (لغة، أدب، تاريخ)، وهي تقيم الدليل على أن الرجل ممن طلب فأدمن، وحفظ فأتقن، وحقق فدقق، ولا نبالغ إذا قلنا : إن هذه الطرر تعدُّ نموذجًا فريدًا في الشرح والتحليل، ومثالاً يحتذى في التحقيق والتوثيق، وتدل على المجهود الجبار الذي بذله المختصر في شرح ما أشكل، وتصويب ما اختل، من نص الأغاني، الشيء الذي دفعه إلى الرجوع إلى أكثر من نسخة من هذا الكتاب، وأكثر من مصدر لغوي وأدبي وتاريخي لتحقيق هذه الغاية، كما رجع إلى مجموعة مهمة من الدواوين الشعرية، لمقابلته الأشعار وتوثيق نسبتها. وكان يعتمد أحيانًا أكثر من نسخة للديوان أو الواحد، كما بينا، وهذا النوع من التحقيق مستحيل في وقت لا نظفر فيه بنسخة واحدة للديوان، أو بالأحرى أن نحلم أن نحقق ونقابل على نسخ متعددة منه . أضف إلى ذلك أنه تتبع تتبعًا دقيقًا مجموعة من التصحيفات والتحريفات التي وقعت في النص النثري والنص الشعري للأغاني، ولاسيما ما تعلق بأسماء الأعلام، واستطاع تصحيحها، وهذا أيضًا منال تقف دونه طاقة مجموعة من محققينا. ولا شك أن نسخة بهذه الدرجة من الضبط والتحقيق تعدُّ من النسخ النادرة لكتاب الأغاني. ■

●●●

الحواشي

١- وفيات الأعيان: ٣/٣٠٧.

٢- مصادر التراث العربي: ١٠٨.

٣- مختصر الأغاني:٣٢٢.

٤- مختصر الأغاني:٣٢٢.

٥- أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عربي ت ٥٤٣هـ ترجمته في المغرب:١/٢٥١، وفيات الأعيان: ٤/٢٩٦، نفح الطيب:٢/٢٥.

٦- أبو المعالي ثابت بن بندر البغدادي البقال المتوفى سنة ٤٩٨هـ ترجمته في تذكرة الحفاظ:١٢٢٢، سير أعلام النبلاء ١٩/٢٠٤، غاية النهاية في القراء: ١/١٨٨، شذرات الذهب: ٣/٤٠٨.

٧- أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي القاضي المتوفى سنة ٤٤٧هـ ترجمته في :معجم الأدباء:١٤/١١٠، سير أعلام النبلاء:١٧/٦٤٩، وفيات الأعيان:٣/٦٠.

٨- مختصر الأغاني :٢.

٩- مقدمة ابن خلدون: ٥٤٤.

١٠- وفيات الأعيان: ٣/٣٠٧-٣٠٨.

١١- معجم الأدباء:١٣/٩٨.

١٢- نفح الطيب:١/٣٩٦.

١٣- مختصر الأغاني:٣٢٢-٣٢٣-٣٢٤.

١٤- المعجب في تلخيص أخبار المغرب:١٣٣-١٣٥.

١٥- يعدُّ كتاب الأغاني من الكتب الواسعة الانتشار في المغرب وتوجد منه نسخ خطيّة كثيرة في الخزانات العامة والخاصة وقد اطلعنا على معظمها وسنفردها ببحث خاص إن شاء الله.

١٦- توجد منه نسخة خطية بالخزانة الملكية.

١٧- اشتهر هذا الرجل بنسخ الكتب وشرائها فاجتمعت له خزانة عظيمة ما زال كثير من دررها محفوظًا إلى الآن بخزانة الزاوية النصرية بتمكروت، تنظر ترجمته: في الدرر المرصعة خ، وخلاصة الأثر:٢٣٩/٤، هدية العارفين: ٢٩٤/٢، شجرة النور الزكية: ٣١٢، الأعلام: ٧/ ٦٣ -٦٤.

١٨- مختصر الأغاني:١.

١٩- مختصر الأغاني/ ٣٢١.

٢٠- تنظر ترجمته: في المعجب: ٣٩٠، قلائد الجمان: خ ٦٩/٣، رايات المبرزين:٢٤١، الغصون اليانعة:١٣١، والمغرب في حلي المغرب: ٢٤٧/١، البيان المغرب - قسم الموحدين - ١٧٦ - ١٧٧، الوافي بالوفيات: ٣٩٦/١٥، تاريخ ابن خلدون: ٣٣٤/٦، وتاريخ الدولتين للزركشي:١١، ونفح الطيب: ٩٨/٢، وواسطة العقدين: خ ٣٢٧/١، الاستقصا: ١٥٩/٢، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان:١١٥/٥، والأعلام: ١٢٨/٣، والأمير الشعر مقدمة ديوان شعره: ٣-١٦.

٢١- الغصون اليانعة: ١٣٠.

٢٢- نفح الطيب: ١٠٨/٢.

٢٣- ديوان شعره: ٢.

٢٤- الغصون اليانعة: ١٣١ -١٣٢.

٢٥- علي بن إسحاق بن محمد المسوفي المعروف كأسلافه بابن غانية المتوفى سنة ٥٨٥هـ ترجمته في المعجب: ٢٦٧ - ٢٦٩، البيان المغرب - قسم الموحدين- ١٧٥، تاريخ ابن خلدون: ٣٣٤/٦، الأعلام: ٢٦٣/٤.

٢٦- البيان المغرب - قسم الموحدين-١٧٧.

٢٧- واسطة العقدين: خ ٣٢٧/١.

٢٨- ديوان شعره: ١٧-١٨ -١٩.

٢٩- هناك من لم يحدد تاريخًا معينًا لوفاته مثل السرخسي الذي قال إنه توفي بعد الستمائة، وتبعه في ذلك المقري، أما الصفدي، فقد قال إن تاريخ وفاته كان سنة ٦١٠هـ.

٣٠- الذيل والتكملة: ٤٨٧/٦.

٣١- ابن عبد ربه الحفيد فصول من سيرة منسية:٥٧. لا يتسع المقام هنا لبسط كل الآراء في هذا الموضوع، وقد سبق لنا أن ناقشنا إشكالية نسبة هذا الكتاب بإسهاب في مقدمة تحقيقًا لهذا الكتاب سنة ١٩٩٦.

٣٢- مختصر الأغاني: ٢.

٣٣- مختصر الأغاني:٣.

٣٤- صبح الأعشى: ٤٤٣/٦.

٣٥- مختصر الأغاني:٣.

٣٦- مختصر الأغاني:٢٨٣

٣٧- الأغاني: ٩٥/٣ -٩٦.

٣٨- النمل :٨٠.

٣٩- محمد:٢٤.

٤٠- مختصر الأغاني: ٣٢١.

٤١- البيت من قصيدة طويلة تنظر في : المفضليات: ١٦١الأغاني:١٠٤/٣، أمالي القالي: ١/ ٢٥٥.

٤٢- مختصر الأغاني:٣١٥.

٤٣- مختصر الأغاني: ٨.

٤٤- مختصر الأغاني: ٣٠٦.

٤٥- البيت للمجنون وهو في الأغاني: ٤٥/٢.

٤٦- مختصر الأغاني: ١٤٦.

٤٧- مختصر الأغاني: ١٤٨.

٤٨- مختصر الأغاني: ١٠ والنص مأخوذ من البيان والتبيين:١١٦/٣، ومجمع الأمثال:٣٣٥.

٤٩- ديوان شعره:٦.

٥٠- مختصر الأغاني: ٢٧٥

٥١- الأغاني: ٣٧٥/١.

٥٢- مختصر الأغاني:١١٦.

٥٣- مختصر الأغاني: ٢٨.

٥٤- مختصر الأغاني: ٣٣.

٥٥- مختصر الأغاني: ١١.

٥٦- البيت لأبي طالب عبد بن مناف بن عبد المطلب، ينظر في نسب قريش:٣٠٠، و مختصر الأغاني:٢٨.

٥٧- مختصر الأغاني: ٣.

٥٨- مختصر الأغاني: ٢٣.

٥٩- معجم ما استعجم:٩٥٩.

٦٠- الأغاني: ٢٣٦/١٥.

٦١- ينظر في مجمع الأمثال:٥٠٧/٣.

٦٢- ينظر معجم ما استعجم: ٢٠١/١.

٦٣- مختصر الأغاني: ٧١.

٦٤- طمس في الأصل لم نتبينه.

منهج التحقيق والتوثيق في مختصر الأغاني لأبي الربيع سليمان الموحدي

٦٥- مختصر الأغاني: ١٦٢.

٦٦- مختصر الأغاني: ٢٤.

٦٧- مختصر الأغاني: ٢٤.

٦٨- لم أقف على هذا النص في المحبَّر.

٦٩- الأغاني: ٩٨.

٧٠- مختصر الأغاني: ٩٨.

٧١- مختصر الأغاني: ٤.

٧٢- مختصر الأغاني: ٧٩.

٧٣- طمس في الأصل لم نتبينه.

٧٤- مختصر الأغاني: ١٥١.

٧٥- مختصر الأغاني:٩

٧٦- مختصر الأغاني: ١٠٨.

٧٧- مختصر الأغاني: ١٠٨.

٧٨- البيت لأبي قطيفة المعيطي ينظر في: الأغاني:١/٢٨، ومعجم البلدان: ٣٦٧/١.

٧٩- مختصر الأغاني: ٩.

٨٠- مختصر الأغاني: ١٤٤.

٨١- مختصر الأغاني: ١٥٦.

٨٢- مختصر الأغاني: ٤٨.

٨٣- مختصر الأغاني: ١٤١.

٨٤- مختصر الأغاني: ٣٠.

٨٥- مختصر الأغاني: ١٠٢

٨٦- مختصر الأغاني: ٥٤.

٨٧- مختصر الأغاني: ٨٠.

٨٨- مختصر الأغاني: ١٤٤.

٨٩- البيت لأبي قطيفة المعيطي، ينظر في نسب قريش:١٤٦، الأغاني: ٢٨/١، ومعجم ما استعجم:١٣٢٦، معجم البلدان: ٣٦٧/١.

٩٠- مختصر الأغاني: ٩.

٩١- مختصر الأغاني: ١٠.

٩٢- مختصر الأغاني: ٤٨.

٩٣- مختصر الأغاني: ٤٨.

٩٤- مختصر الأغاني: ١٢.

٩٥- مختصر الأغاني: ٢٦.

٩٦- مختصر الأغاني: ٢٧.

٩٧- مختصر الأغاني: ٦٩.

٩٨- مختصر الأغاني: ٥٣.

٩٩- مختصر الأغاني: ٥٥.

١٠٠- مختصر الأغاني: ٦٦.

١٠١- مختصر الأغاني: ٩٥.

١٠٢- مختصر الأغاني: ٦٢.

١٠٣- مختصر الأغاني: ١٧٢.

١٠٤- مختصر الأغاني: ٥٢.

١٠٥- مختصر الأغاني: ٥٢.

١٠٦- مختصر الأغاني: ٨٣.

١٠٧- مختصر الأغاني: ١٩.

١٠٨- مختصر الأغاني: ٧١.

١٠٩- مختصر الأغاني: ٦٣.

١١٠- مختصر الأغاني: ٢٧٥.

١١١- مختصر الأغاني: ٨.

١١٢- مختصر الأغاني: ١٢٦.

١١٣- مختصر الأغاني: ١٥٢.

١١٤- مختصر الأغاني: ٤٧.

١١٥- مختصر الأغاني: ١٢٧.

١١٦- مختصر الأغاني: ٥١.

١١٧- مختصر الأغاني: ٥١.

١١٨- مختصر الأغاني: ١٣٠.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية الإمام ورش.
- **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، لأحمد بن خالد الناصري، تح. جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب البيضاء، ١٩٥٤.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تح. علي محمد البجاوي، مكتبة النهضة ، مصر. د.ت.
- **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، تأليف خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط١٠/١٩٩٢م.
- **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية بالقاهرة ط ١٣٣٥هـ ١٩٢٧م.
- **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه

د.سمير جابر . دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٤/١٤٢٢هـ٢٠٠٢م.

- **الأمالي لأبي علي القالي ويليه الذيل والنوادر لنفس المؤلف**، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، د.ت.

- **الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي عصره حياته وشعره**، عباس الجراري، دار الثقافة البيضاء، ط٢/١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- **البيان والتبيين**، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تح. عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد ط٢/١٣٨٠هـ -١٩٦٠م.

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- قسم الموحدين- تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني**، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامه ، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط١/١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.

- **تاريخ ابن خلدون**، لعبد الرحمن ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر، ط١/١٤٠١هـ/١٩٨١

- **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تأليف الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، مطبعة الدولة التونسية، ط١/١٢٨٩هـ.

- **تذكرة الحفاظ للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي بإعانة وزارة المعارف للحكومة الهندية**، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

- **جمهرة الأمثال**، لأبي هلال العسكري، حققه وعلق على حواشيه محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ودار الفكر، ط٢/١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد المحبي**، دار صادر، بيروت. د.ت.

- **الدرر المرصعة بأخبار صلحاء درعة**، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

- **ديوان الأمير أبي الربيع سليمان ابن عبد الله الموحد**، تح. محمد ابن تاويت الطنجي، ومحمد بن العباس القباح، وسعيد أعراب، ومحمد بن تاويت التطواني، طبع بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي تحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث المغربية. د.ت.

- **ديوان قيس بن الخطيم**، تح. ناصر الدين الأسد، طبعة دار صادر، بيروت - لبنان، ط٣/١٤١١هـ - ١٩٩١م.

- **ديوان مجنون ليلى**، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، د.ت.

- **الذيل والتكملة لكتابَيْ الموصول والصلة**، تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي قسم الموحدين، تح. إحسان عباس ، دار الثقافة، بيروت - لبنان ط١/١٩٧٣.

- **رايات المبرزين وغايات المميزين**، لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تح. محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ط١/١٩٨٧م.

- **سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي**، تح. مجموعة من الأساتذة، مؤسسة الرسالة ط٧/١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، تأليف الشيخ محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،د.ت.

- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي عن نسخة المصنف المحفوظة بدار الكتب، دار المسيرة، بيروت، ط٢/١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تأليف أبي العباس أحمد ابن علي القلقشندي، النسخة المصورة عن الطبعة الأميرية بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر د.ت.

- **طبقات فحول الشعراء**، تأليف محمد بن سلام الجمحي قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

- **ابن عبد ربه الحفيد، فصول من سيرة منسية**، تأليف محمد بن شريفة ، دار الغرب الإسلامي ط١/١٩٢٢م.

- **غاية النهاية في طبقات القراء**، لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، عني بنشره برجستراسل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١/ ١٣٠٢ -١٩٨٢.

- **الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**، لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تح. إبراهيم الأبياري، صدر ضمن سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف ، مصر، ط٢/١٩٦٧م.

- **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان(خ) تأليف ابن الشعار الموصلي المبارك بن أحمد بن حمدان ت ٦٥٤هـ منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية**، جامعة فرانكفورت ألمانيا الاتحادية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- **مجمع الأمثال**، لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط١/ ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- **المحبر للعلامة محمد بن حبيب رواية أبي سعيد بن**

منهج التحقيق والتوثيق في مختصر الأغاني لأبي الربيع سليمان الموحدي

الحسين السكري صححته دة. إيلزة ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت.

- مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم لعمر الدقاق مكتبة دار الشرق بيروت.

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب، تأليف عبد الواحد المراكشي، ضبطه وعلق عليه محمد سعيد العريان، ومحمد بلعربي العلمي، دار الكتاب، البيضاء ط٧/١٩٧٨م.

- معجم الأدباء، لياقوت الحموي، راجعته وزارة المعارف العمومية ط.الأخيرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

- معجم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر ودار بيروت، بيروت - لبنان، ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تأليف عبد الله ابن عبد العزيز البكري حققه وضبطه مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- المفضليات للمفضل بن يعلى الضبي، تح. أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، بيروت - لبنان ، ط٦.

- مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون، دار القلم، بيروت - لبنان، ط٥، ١٩٨٤م.

- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وأنسابهم وبعض شعرهم للإمام أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، صححه وعلق عليه د. ف. كرنكو، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تأليف أحمد بن محمد المقري التلمساني، تح. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٨٢م.

- واسطة العقدين، مجهول المؤلف، نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط.

- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن تاويت، نشر وتوزيع دار الثقافة، ط١، الدار البيضاء، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تح. د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

مصادر ابن المستوفي (ت٦٣٧هـ) النحوية واللغوية في كتاب «النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام»

د. حليم حماد سليمان
جامعة الأنبار - العراق



إضاءات حول شخصية ابن المستوفي:

اسمه ونسبه[١]:

هو أبو البركات بن أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي الإربلي[٢] الكاتب، الملقب شرف الدين، والمعروف بابن المستوفي.

ولادته ونشأته[٣]:

ولد ابن المستوفي في النصف من شوال سنة أربع وستين وخمسمائة في إربل، وهو من بيت فضيلة وتقدم، والده ولّي الاستيفاء بـ (إربل) بعد والده إلى أن مات، وعمه أبو الحسن علي بن المبارك تأدّب وسمع الحديث.

أخلاقه ومكانته[٤]:

كان شرف الدين رئيسًا. جليل القدر، كثير التواضع، واسع الكرم، لم يصل إلى إربل أحد من الفضلاء إلاّ بادر إلى زيارته، وحمل إليه ما يليق بحاله... وخصوصًا أرباب الأدب، فقد كانت سوقهم لديه نافعة، وكان مواظبًا على العبادة كثير الصوم، دائم الذكر، متتابع الصدقات... وكان عنده في الديوان شراسة الخلق، ويلقي الناس في داره بوجه سهل طلق. قال عنه المنشئ الإربلي: " اللغوي النحوي المحدث الكاتب المؤرخ الثقة فارس الآداب.. " [٥]. وقال عنه المنذري:" كان فاضلاً، كثير المحفوظ... جيد الخط، وله شعر جيد ونثر جيد..." [٦].

ولابن المستوفي مكانة كبيرة عند شعراء عصره، لذلك مدحه الكثير من الشعراء، فممن مدحه سليمان بن بليمان الصائغ بقوله[٧]:

خَفِّضْ وَدَعْ عَنْكَ التَّعَلُّلَ بالمنى
واعدل إلى ربِّ الجنابِ الممرعِ

نَجْلِ ابنِ موهوب الوزير وماجدٍ
شادَ الفخارَ وذي المحلِّ الأرفعِ

جُبِلَتْ على حُسْنِ الفِعال طِباعُهُ
فأتت خلائقُهُ بغير تَطَبُّعِ

وممن مدحه أيضًا الشاعر عبد الله بن عمر الإربلي، بقصيدة مطلعها[٨]:

يا نسمةً تضوَّعَتْ بِنَدٍّ
ومُزْنَةً جادَتْ بماءِ وردِ

وهناك أشعار كثيرة في مدح ابن المستوفي[٩].

وظائفه وشخصيته[١٠]:

كان ابن المستوفي مستوفيًا للديوان سنة ست وعشرين وستمائة حين خرج هو من إربل، والاستيفاء منزلة عليّة، وهو تلو الوزارة، ثم ذلك تولّى الوزارة في سنة تسع وعشرين وستمائة وشكرت سيرته فيها... وكان عارفًا بعدة فنون، منها: الحديث وعلومه وأسماء رجاله، وجميع ما يتعلق به، وكان ماهرًا في فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم البيان وأشعار العرب وأخبارهم. بارعًا في علم الديوان وحسابه...

مؤلفاته[١١]:

١- النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام.

٢- تاريخ إربل.

٣- كتاب الأمثال والأضداد.

٤- ديوان شعر.

٥- إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصّل للزمخشري.

٦- كتاب أبو قماش.

٧- سر الصنعة.

٨- جامع الأوراق.

٩- تاريخ معرفة الدول.

١٠- مشارق الأنوار ومطالع الغدار.

١١- كتاب الخيل.

١٢- قناعة الناظر وكناية المحاضر.

١٣- كتاب نبّه فيه على مواضع من كتاب (الأنيس والجليس) تصنيف المعافى بن زكريا النهرواني.

١٤- كتاب حاجة الكاتب والشاعر من ضرورة الشعر وشيء من علم العروض والقوافي.

١٥- الممتع المؤنس.

١٦- رسائل ابن المستوفي.

١٧- موجبات الصبوة وغمائم السلوة.

شيوخه: ومن أبرزهم:

١- أبو عبد الله، موفق الدين الإربلي (ت٥٨٥هـ)[١٢].

٢- أبو ياسر بن أبي حبّة البغدادي (ت٥٨٨هـ)[١٣].

٣- أبو الحرم الماكسيني (ت٦٠٢هـ)[١٤].

٤- ابن طبرزد المؤدب (ت٦٠٧هـ)[١٥].

وفاته[١٦]:

أجمعت المصادر على أنَّ وفاته في الموصل يوم الأحد ٥ محرم سنة ٦٣٧هـ.

مصادره النحوية واللغوية

قبل الخوض في مصادره النحوية واللغوية، لابدَّ

من إلقاء نظرة على أمر يتعلق بها وهي مسألة النقل؛ إذ يُعَدُّ النقل من السمات البارزة في كتاب النظام؛ إذ حشد آراء العلماء ونصوصهم في مختلف علوم العربية. بحيث لم يدع مبحثًا أثاره النحاة واللغويون إلاّ تعرّض له، وقد نجح في إغناء مباحث كتابه بهذا التراث الثرّ الذي مثّل جهود أعلام العربية في مجال اللغة والنحو والصرف، مرتبًا آراءهم ونصوصهم بشكل مفيد ومبسّط ونافع للباحثين في هذا المجال، لذا سهّل علينا مطالعة آراء الشراح واللغويين في الكتاب، ويمكن أن نلتمس أساليبه من خلال ما يأتي:

١- النقل المباشر وغير المباشر.

٢- النقل بالنص والنقل بالمعنى.

النقل المباشر وغير المباشر:

أ- **النقل غير المباشر:** نقل ابن المستوفي عددًا من الآراء والتوجيهات بطريقة النقل غير المباشر، أي: النقل عن الأصل بوساطة كتاب آخر نقل عن الأصل ذاته، ومع أنّ هذه الطريقة لم تكن كثيرة عنده، إلاّ أنّه اعتمدها في مواضع عدّة من كتابه. ومن الأمثلة عليها عند شرحه قول المتنبي:

يُذْري اللُّقان[١٧] غبارًا في مناخرها

وفي حناجِرِها مِنْ آلُسٍ[١٨] جُرَعُ

قال :" قال الواحدي: قال ابن جني:" لا تستقر فتشرب، وإنما كانت تختلس الماء اختلاسًا؛ لما فيها من مواصلة السير..."[١٩].

وعند شرحه قول المتنبي:

ليتَ الملوكَ على الأقدارِ مُعطيةٌ

فلم يكن يدني عندها طَمَعُ

قال:" قال أبو الفتح: قرأت على أبي علي في نوادر أبي زيد يقال: دَنُأَ الرجل دناءة، وقد دَنَأَ يدنأ، إذا كان لا خير فيه فهذا كما ترى مهموز.."[٢٠].

وعند شرحه قول أبي تمام:

ألا يا خليليَّ اللذين كلاهما

بلبيكَ عندَ النائباتِ يُجيبُ

قال:" قال الجوهري: قال يونس بن حبيب: لبيك: ليس بمثنى، وإنما هو مثل عليك وإليك..."[٢١].

ب- النقل المباشر:

مَثَّلَ هذا النقل أهم سمات نقله، حيث كان ابن المستوفي ينقل من المصدر بشكل مباشر دون الاعتماد على مصدر آخر نقل من الأول، وذلك في أغلب النصوص والآراء التي نقلها، وسأضع بين يدي القارئ بعض الأمثلة لتوضيح نقله المباشر من المصادر وعن العلماء من شراح ونحاة ولغويين.

وعند شرحه قول أبي تمام:

بدَلَتْ عَبْرَةً مِنَ الإيماضِ

يومَ شَدُّوا الرحالَ بالأغراضِ

قال:" قال الجوهري: أومضت المرأة، إذا سارقت النظر..."[٢٢].

وعند شرحه قول أبي تمام:

أثيثٌ إذا استَعتَبْتَ مُعصِفَةً به

تَملأتَ عِلمًا أنها سوف تُعتِبُ[٢٣]

قال: " قال أبو العلاء: أثيث، أي: كثير الصوف في باطنه، والمعصفة: الريح الشديدة، وهي مثل العاصف"[٢٤].

٢- النقل بالنص والنقل بالمعنى:

من خلال تصفح كتاب النظام لم أجد ابن المستوفي ينقل عن غيره بالمعنى، وإنّما كان ينقل

بالنص مع بعض التغييرات التي على النص، وهذه التغييرات إمّا طفيفة أو كبيرة بعض الشيء، فعند شرحه قول أبي تمام:

بحسبكَ من نيلِ المناقبِ أن ترى
عليمًا بأن ليست تُنال مناقبُه

قال: "قال ابن دريد: المنقبة: هي ما في الرجل من الخصال الجميلة"[٢٥].

وعند رجوعي إلى كتاب الجمهرة لابن دريد وجدت النص بتمامه، إلاّ أنني في هذا الجانب وجدت كثيرًا من النصوص قد أجرى عليها تغييرات متباينة، إمّا بزيادة لفظ أو حذفه، أو بتقديم أو تأخير من غير الإشارة إلى ذلك التغيير، كنقله عن التبريزي في كتابه الموضح[٢٦]. ونقله عن الجوهري في الصحاح[٢٧].

أمّا نسبة الآراء والنصوص فقد دأب ابن المستوفي على نسبة الأقوال والنصوص والتوجيهات إلى أصحابها، وذلك في أغلب المواضع التي نقل فيها كلام الآخرين، ونلاحظه في أغلب الأحيان يكتفي بنسبة النص أو الرأي إلى صاحبه من دون ذكر الكتاب الذي نقل منه نحو: قال الصولي[٢٨]، ونراه أحيانًا ينسب القول أو النص إلى صاحبه. ويذكر معه اسم الكتاب الذي ورد فيه النص، نحو: قال أبو عبيد في الغريب المصنف[٢٩]. وفي مواضع قليلة جدًّا اكتفى بذكر الكتاب بمفرده دون ذكر اسم مؤلفه، نحو: جاء في اللسان[٣٠]، والملاحظ على ابن المستوفي في الأغلب أنه يذكر لقب المؤلف أو كنيته أو اسمه الذي اشتهر به، فمن أمثلة ذكر لقبه قوله: قال المرزوقي[٣١]، ومن الأمثلة على ذكر كنيته قوله: قال أبو زكريا[٣٢]، ومن أمثلة ذكر الاسم، قوله: قال عبد الواحد بن زكريا[٣٣]. وقد يذيل ابن المستوفي النصوص التي ينقلها أحيانًا بعبارات تدل على نهايتها كقوله مثلاً : انتهى كلامه[٣٤].

مصادره اللغوية والنحوية في كتاب النظام

كان المعين الذي استقى منه ابن المستوفي مسائلة النحوية واللغوية يتألف من ضربين:

١- الكتب.

٢- الشخصيات.

أولاً: الكتب:

ذكر ابن المستوفي في كتابه مجموعة من الكتب التي أفاد منها في مجال النحو واللغة، وقد كانت متنوعة في أفانين شتى، على وفق تنوع المعارف والعلوم التي عرض لها في كتابه، فتوزعت على كتب النحو واللغة ومعاني القرآن وإعرابه وغريبه والحديث، وهنا أود أن أشير إلى أمرين:

١- أني اقتصرت على الكتب التي نقل منها مسائل تندرج ضمن المباحث النحوية واللغوية.

٢- أنَّ نقله من الكتب جاء على طريقتين:

أ) كتب صرح بالنقل منها وذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها.

ب) كتب نقل منها، لكنه لم يذكر أسماءها بل اكتفى بذكر أسماء مؤلفيها.

ومن هذه الكتب التي نقل منها:

١- النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري (ت٢١٥هـ).

٢- غريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ).

٣- غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام.

٤- الجمهرة في اللغة لابن دريد (ت٣٢١هـ).

٥- تهذيب اللغة للأزهري (ت٣٧٠هـ).

٦- الموضح في شرح شعر المتنبي لأبي زكريا التبريزي(ت٥٠٢هـ).

٧- درة الغواص في أوهام الخواص للحريري (ت٥١٦هـ).

٨- لسان العرب لابن منظور (ت١٠١٧هـ).

ومن الأمثلة على نقله من الكتب، ما نقله عن أبي زيد الأنصاري، إذ نقل عنه في موضعين مصرحًا بكتابه (النوادر)، فعند شرحه قول المتنبي:

وبآبائك الكرامِ التأسِّي

والتسلِّي عَمَّن مضى والتعازي

قال:" قال أبو الفتح: التعازي: جمع تعزوة، وحكى ذلك أبو زيد في نوادره، فتعازٍ على هذا جمع مثل جوازٍ، وليست مصدرًا مثل تقاضٍ"[٣٥].

ومن الأمثلة على نقله من كتاب الجمهرة لابن دريد، عند شرحه قول أبي تمام:

لله ليلتنا وكانت ليلةً

ذَخرت لنا بينَ اللِّوى والعُلَيبِ[٣٦]

قال:" قال ابن دريد في الجمهرة: يقال في العليب عليب، وما جاء على وزن عليب مثله"[٣٧].

ومن الأمثلة على نقله من كتاب الجمهرة دون أن يصرح به عند شرحه قول المتنبي:

إذا نُكِبَتْ كنائِنُهُ استَبَنَّا

بأنصلِهَا لأنصُلِهَا نُدُوبا[٣٨]

قال:" قال ابن دريد: نكبت الإناء أنكُبُه نكبا إذا صببتُ مافيه..." [٣٩].

ومن الأمثلة أيضًا: نقله من كتاب الموضح لأبي زكريا التبريزي، فعند شرحه قول المتنبي:

كذا فلْيَسرِ مَنْ طَلَبَ الأعادي

ومثلَ سُراك فليكنِ الطِّلابُ

قال: " في كتاب أبي زكريا: كذا: في موضع نصب بقوله: فليسر، وقوله: مثل سراك، نصب، لأنه خبريكن، وهذا من عجيب كلامهم؛ لأنَّ الفاء إنما تعطف أو تكون في الجواب، فإذا تقدم المفعول والخبر جاءوا بها؛ ليُعْلِمُوا أنَّ الخبر وضع في غير موضعه، وكان بعض الكوفيين إذا قال: (أخاكَ فاُضرب) نصب (الأخ) بفعل مضمر كأنّه قال: أقصد أخاك أو اعهد أخاك فاضرب ونحو ذلك ، وهذا يحسن أن يعتقد في المفعول، فأمّا في الخبر فبعيد هذا التأويل"[٤٠].

ونقل من كتاب درة الغواص للحريري في موضع عند شرحه قول المتنبي:

مضى الليلُ والفضل الذي لك لا يمضي

ورؤياك أحلى في العيون من الغمضِ

والصحيح أن يقول : سررت برؤيتك؛ لأنَّ العرب تجعل الرؤية لما يرى في اليقظة، والرؤيا لما يرى في المنام، قال سبحانه وتعالى إخبارًا عن يوسف عليه السلام: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾[٤١][٤٢]،

ونقل من كتاب لسان العرب لابن منظور في موضعين، فعند شرحه قول أبي تمام:

خَلَقَ اللهُ لحيةً لكَ لو تُحْـ

لَقُ لَمْ يُدرَ ما غلاءُ المُسُوح

قال: " المسوح: ثوب من الشعر الغليظ، وهو البَلاس، والبلاس: المِسح، قال هذا صاحب اللسان"[٤٣].

ثانيًا: الشخصيات:

وضع ابن المستوفي يده على المذاهب النحوية وآراء النحاة على اختلاف مذاهبهم وتفاوت

آرائهم، فعايشهم في كتابه، ونسب إليهم آراءهم. ونقل عنهم نقولاً كثيرة، فأخذ عن نحاة المدرسة البصرية مجتمعة، وعن كبار أئمة النحو البصري مثل: الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، ويونس بن حبيب، كما أخذ عن نحاة المدرسة الكوفية مجتمعة، وعن كبار أئمة النحو الكوفي مثل: الفراء، وثعلب، ونقل أيضًا عن المدرسة البغدادية بوجه عام، وعن نحاة بغداد ممن غلبت عليهم النزعة الكوفية نحو: أبو بكر ابن الأنباري، كما أخذ عن نحاة العرب وما يليه من جهة الشرق أو ما يقاربه من جهة الغرب نحو: أبي سعيد السيرافي، والتبريزي، والزمخشري، وأبي البقاء العكبري.

ولعل من المفيد أن أذكر أربعة أمور في نقله عن هذه الشخصيات:

١- سأذكر هنا أسماء الشخصيات التي نقل عنها الآراء النحوية و اللغوية، مستبعدًا قسمًا كبيرًا منهم لم يكن ميدانهم اللغة والنحو.

٢- أن من سيرد ذكرهم من الشخصيات لا شك في أنَّ ابن المستوفي قد نقل آراءهم عن طريق مؤلفاتهم أو مؤلفات غيرهم، إلاّ أنّه قد أغفل ذكر تلك المصنفات مكتفيًا بنسبة النصوص إليهم.

٣- سوف أذكر أسماء الشخصيات التي صرح بأسمائها، مرتبًا إياهم على وفق سني وفياتهم، وأشير إلى بعض مواضع إيراده ذلك النقل.

٤- ليس من شأني أن أتناول الشخصيات كلّها أو آراءهم كلها، ولكني سأنتخب بعضًا منها؛ لأنَّ استيفاء مواضع النقل كلها وللشخصيات كلها أمر من شأنه أن يطيل البحث كثيرًا.

وهذا سرد بأسماء الشخصيات التي نقل عنها في جانب اللغة والنحو:

ابن عباس (ت ٦٨هـ). سعيد بن جبير (ت٩٥هـ)، عكرمة (ت١٠٤هـ)، الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ). سيبويه (ت١٨٠هـ).

يونس بن حبيب (ت١٨٢هـ)، الكسائي (ت١٨٩هـ)، النضر بن شميل (ت٢٠٤هـ)، قطرب (ت٢٠٦هـ)، الفراء (ت٢٠٧هـ)، أبو عبيدة (ت٢٠٩هـ)، الأخفش (ت٢١٥هـ)، أبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ)، الأصمعي (ت ٢١٦هـ)، أبو عبيد (ت٢٢٤هـ)، ابن الأعرابي (ت٢٣١هـ)، ابن السكيت (ت٢٤٤هـ)، المازني (ت٢٤٨هـ)، المبرد (ت٢٨٥هـ)، ثعلب (ت ٢٩١هـ)، الزجاج (ت٣١١هـ)، ابن دريد (ت٣٢١هـ)، أبو بكر الأنباري (ت٣٢٨هـ)، الصولي (ت٣٢٨هـ)، ابن درستويه (ت٣٤٧هـ)، الخارزنجي (ت٣٤٨هـ)، أبو سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ)، ابن جني (ت٣٩٢هـ)، ابن فارس (ت٣٩٥هـ)، الجوهري (ت٣٩٨هـ)، أبو الفضل العروضي (ت ٤١٦هـ)، المرزوقي (ت٤٢١هـ)، المعري (ت٤٤٩هـ)، ابن فورجه (كان موجودًا سنة ٤٥٥هـ)، ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)، الواحدي (ت٤٦٨هـ)، الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، أبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ).

ومن الأمثلة على ذلك نقله عن الخليل عند شرحه قول أبي تمام:

وقد سَدَّ مندوحةَ القاصعاءِ

منهم وأمسك بالنافقاء

قال:" قال المرزوقي: قال الخليل:.... والنافقاء: موضع يرققه اليربوع في جحره، فإذا أُخِذ من قبل القاصعاء[٤٤] ضرب النافقاء برأسه فانتفق منها"[٤٥].

ونقل عن سيبويه كثيرًا، فعند شرحه قول أبي تمام:

بَسَطَتْ إليك بنانة أسروعا

نصف الفراق ومقلة يُنْبوعا

قال: "حكى سيبويه في (يفعول) أنه يكون صفة واسمًا، ومثل الصفة: يرتوع، ويخصور ويحموم"[٤٦].

ونقل عن الكسائي في موضعين، فعند شرحه قول أبي تمام:

قَمَرٌ تَبَسَّمَ عن جُمانٍ نابتٍ

فَظِلْتُ أرمُقُه بعينِ الباهت

قال: "بَهِتَ الرجلُ بالكسر: إذا دهش وتحيَّر وبَهُتَ بالضم مثله، وأفصح منها بُهِتَ، كما قال جلّ ذكره: "فَبُهِتَ الذي كفر"[٤٧].

وعند شرحه قول أبي تمام:

قَسَمَ الزَّمانُ رُبُوعَها بين الصَّبا

وقبولِها ودبورِها أثلاثا

قال: "قال النضر بن شميل: القبول: ريح بين الصبا والجَنوب.." [٤٨].

ونقل ابن المستوفي عن الأصمعي في أكثر من عشرين مرّة، فعند شرحه قول أبي تمام:

يا موضعَ الشدنيّةِ الوجناءِ

ومُصارعَ الإدلاجِ والإسراءِ

قال: "الوجناء: العظيمة الوجنات، قال الأصمعي: هي صلبة مأخوذة من الوجين: هو ما صَلُب من الأرض"[٤٩]، وعند شرحه قول أبي تمام:

بِيدٍ لِنَسْلِ العيدِ في إمليدِها

ما ارتِيدَ مِن هِيدٍ ومِن عُدَاواءِ[٥٠]

قال: "قال الأصمعي: العُدواء على وزن الغلواء: المكان الذي لا يطمئن من قعد عليه"[٥١].

وعند شرحه قول المتنبي:

ولاحَ لها صَوَرٌ والصَّباح[٥٢]

ولاحَ الشَّغُورُ لها والضُّحى

قال: "قال أبو عمر الجُرَمي: صورى: اسم ماء"[٥٣].

ونقل عن أبي الأعرابي عند شرحه قول أبي تمام:

بجودِكَ تَبيَّضُ الخُطُوبُ إذا دَجَتْ

وترجعُ في ألوانها الحجيجُ الشهبُ[٥٤]

قال: "قال ابن الأعرابي: الشهباء: ليس فيها مطر، ثم البيضاء ثم الحمراء، والشهباء خيرٌ من البيضاء، والحمراء شر من البيضاء"[٥٥]. ونقل عنه أيضًا عند شرحه قول المتنبي:

سربٌ محاسِنُهُ حُرِمْتُ ذواتها

داني الصفاتِ بعيد موصوفاتها

قال: "قال ابن الأعرابي: الماشية كلها يقال لها: سرب"[٥٦].

ونقل عن ابن السكيت في كتابه (إصلاح المنطق) و (تهذيب الألفاظ) فمن أمثلة نقله من إصلاح المنطق، عند شرحه قول أبي تمام:

أقْبَلْتُهُ فَخْمةً جأواءَ لستَ ترى

في نزمِ فرسانِها أمتًا ولا عوجًا

قال: "قال الجوهري: الأمت: المكان المرتفع، وكل ما كان منتصبًا كالحائط، والعود قيل فيه: عَوَج بفتح العين، والعِوج: ماكان في أرض أو دين أو معاش قاله ابن السكيت"[٥٧]. ونقل من كتاب تهذيب الألفاظ عند شرحه قول المتنبي:

نُغْجٌ محاجِرُهُ دُعْجٌ نواظِرُه

حُمْرٌ غفائِرُهُ سُودٌ غدائِرُهُ

مصادر ابن المستوفي (ت٦٣٧هـ) النحوية واللغوية في كتاب «النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام»

قال:" الغفائر: جمع غفارة، قال ابن السكيت: هي الشُّنْتُقَة، خِرقَة تكون على رأس المرأة تُوَقِّي بها الخمار من الدهن"(٥٨).

ونقل عن ثعلب ثلاث مرات، فعند شرحه قول أبي تمام:

وشِعْرٍ مَدَحْتُ به الكَرْكَدَنَّ

بين القريضِ وبين الرقَى

قال:" قال ثعلب: الكركدن: هو دابة عظيمة تحمل الفيل على رأسها، وبعض الفرس يزعم أنها طائر"(٥٩).

وعند شرحه قول أبي تمام:

آثار أموالك الأدثارِ قد خَلُقَتْ

وَخَلَّفَتْ نِعَمًا آثارُها جُدُدُ

قال:"قال أبو زكريا التبريزي: أدثار: جمع داثر كما قالوا: شاهد وأشهاد، قال أبو سعيد السيرافي: الأشهاد جمع شهيد، مثل: شريف أشراف، يتيم أيتام"(٦٠).

ونقل عن ابن فارس خمس مرات، فعند شرحه قول أبي تمام:

لها مِنْ لوعةِ البينِ التدامُ

يُعيدُ بنفسجًا وَرْدَ الخُدودِ

قال : "قال ابن فارس في كتابه: اللدم: ضرب الحجر بالحجر، والتدم النساء: ضَرَبْنَ وجوههنّ وصدورهنّ في النياحة"(٦١).

ونقل عن الجوهري في مواضع كثيرة، فعند شرحه قول أبي تمام:

ما سرني بخداجها من حُجَّةٍ

ما بين أندلسٍ إلى صنعاءِ

قال:" قال الجوهري: خدجت الناقة تخدج خداجًا فهي خدوج، والولد: خديج إذا ألقت ولدها قبل تمام الأيام وإن كان تام الخلق، وأخدجت الناقة: إذا جاءت بولدها ناقص الخلق، وإن كانت أيامه تامّة فهي مُخْدِج والولد مُخْدَج.." (٦٢). وعند شرحه قول أبي تمام:

فَكَمْ جِزْعِ وادٍ جَبَّ ذروةَ غاربٍ

وكان قديمًا اتْمَكَتْهُ مذانبُه(٦٣).

قال:" قال الجوهري: الغارب: ما بين السنام والعنق.."(٦٤).

ونقل عن ابن فورجة عند شرحه قول المتنبي:

قلقُ المليحةِ وهي مسكٌ هتكها

ومسيرُها في الليل وهي ذُكاءُ

قال:" قال ابن فورجة: قلقها يعني: حركتها في مشيها. وهتكها: مصدر هتك فلانٌ الستر هتكًا..."(٦٥).

بعد هذه الجولة مع مصادره النحوية واللغوية، لابدَّ من تسجيل بعض الملاحظات ومنها:

١. أنه لم يقتصر في نقله على أعلام مصر معين، بل شمل نقله علماء من أماكن مختلفة.

٢. كان جل اعتماده على الكتب النحوية واللغوية العامة والمعجمات العربية وكتب التفسير ومعاني القرآن وغريب الحديث.

٣. أنّ ابن المستوفي كان دقيقًا في نقله من مصادره، أمينًا في نسبة الآراء إلى أصحابها، ويتجلى هذا الأمر بوضوح لمن أمعن النظر في كتابه، وخرّج النصوص التي نقلها، سواء كان نقله من الكتب أم عن الشخصيات. ■

الحواشي

١. ترجمته في : التكملة لوفيات النقلة:٣/٥٢٢، وفيات الأعيان:٤/١٤٧، سير أعلام النبلاء: ٢٣/٥٠، البداية والنهاية:١٣/١٥٠، بغية الوعاء:٢/٢٧٢، شذرات الذهب: ٥/١٨٧، الأعلام: ٦/١٤٩، معجم المؤلفين: ٨/١٧٠، ١٧١.

٢. نسبه إلى إربل وهي اسم مدينة في ولاية الموصل، وهي باللغة الدارجة إربيل. ينظر : معجم البلدان: ١/١٣٧-١٣٩، تقويم البلدان: ٤٣١، دائرة المعارف الإسلامية:١/٥٧٦، وما بعدها.

٣. التكملة:٣/٥٢٢، وفيات الأعيان:٤/١٤٧، تاريخ الأدب العربي :٥/١٧٦.

٤. التذكرة الفخرية/ ١٠٤، وفيات الأعيان :٤/١٥١، سير أعلام النبلاء: ٢٣/٥٠.

٥. التذكرة الفخرية:١٠٤.

٦. التكملة:٣/٥٢٣.

٧. قلائد الجمان: ٣/٣١-٣٢، نقلاً عن رسائل ابن المستوفي(جمع وتحقيق): الأستاذ هلال ناجي، مجلة المورد، ع٣، ١٩٩٨، ص:١٠٤.

٨. المصدر نفسه: ٣/١٩٤ -١٩٥.

٩. ينظر: رسائل ابن المستوفي: ١٠٥-١٠٨.

١٠. وفيات الأعيان: ٤/١٤٧ -١٥١.

١١. وفيات الأعيان:٤/١٤٧، سير أعلام النبلاء : ٢٣/٥٠، بغية الوعاة: ٢/٢٧٢، شذرات الذهب: ٥/١٨٧، تاريخ الأدب العربي: ٥/١٧٦.

١٢. ترجمته في: وفيات الأعيان:٥/٩ -١٢، شذرات الذهب:٤/٢٨٤.

١٣. ترجمته في شذرات الذهب:٤/٢٩٣.

١٤. ترجمته في: معجم الأدباء:١٩/١٧١ -١٧٣، وفيات الأعيان: ٥/٢٧٨-٢٨٠، شذرات الذهب:٥/١١.

١٥. ترجمته في: شذرات الذهب:٥/٢٦.

١٦. التكملة: ٣/٥٢٢، وفيات الأعيان: ٤/١٥١، سير أعلام النبلاء: ٢٢/٥٠، شذرات الذهب: ٥/١٨٧.

١٧. اللقان: موضع ببلد الروم. النظام: ١٠/٢٢١.

١٨. أليس نهر في الروم. النظام: ١٠/٢٢١.

١٩. النظام: ١٠/٢٢٣.

٢٠. المصدر نفسه: ١٠/٣٥٢.

٢١. المصدر نفسه: ١٠/٢٣٦.

٢٢. النظام: ١٠/١٠٢.

٢٣. رواية الصولي (مَصقعةٌ).

٢٤. النظام: ٣/١٩٣.

٢٥. النظام : ٢/٧٥، الجمهرة:١/٣٢٣.

٢٦. النظام: ٤/١٤٨.

٢٧. المصدر نفسه: ١/٤٥٨.

٢٨. المصدر نفسه: ١/٢٤٠.

٢٩. المصدر نفسه: ١٠/١٠٢.

٣٠. المصدر نفسه: ٢/١٢٤.

٣١. المصدر نفسه: ٦/١٢٣.

٣٢. المصدر نفسه: ٦/٦٤.

٣٣. المصدر نفسه: ٦/٤١٦.

٣٤. المصدر نفسه: ٣/٢٣٦.

٣٥. المصدر نفسه: ٩/١٧٤.

٣٦. رواية التبريزي (فالتريب) مكان (والعُليب) ورواية الصولي (فالعليب).

٣٧. النظام:٢/١٠٩، الجمهرة:٨/٣٣١ (علب).

٣٨. انفرد ابن المستوفي برواية (كنائنه) أما غيره من الشراح، فعندهم (كتائبه).

٣٩. النظام: ٤/١٩٤، الجمهرة:١/٣٢٧ (نكب).

٤٠. النظام:٤/٣٨، الموضح:١/٢٤٧.

٤١. يوسف:١٠.

٤٢. النظام:١٠/١٤٠، درة الغواص:١١.

٤٣. النظام :٥/٢١١، لسان العرب: ٦/٢٩ -٣٠.

٤٤. القاصعاء: فم جحر اليربوع، ينظر: مختصر العين: ١/١١٥.

٤٥. النظام: ١/٢٧٨، العين: ٥/١٧٨ (نفق).

٤٦. النظام: ١٠/٢٦٤.

٤٧. البقرة: ٢٥٨.

٤٨. النظام:٥/٨٨.

٤٩. المصدر نفسه: ١/ ٢٠٧.

٥٠. رواية الصولي (في أملودها ما شئت من عيد ومن عدواء) ورواية التبريزي (ما ارتيد من عيد ومن عدواء).

٥١. النظام: ١/٢٥٢.

٥٢. الشغور: اسم موضع.

٥٣. النظام:١/٤٦٠.

٥٤. رواية الصولي (عن ألوانها) مكان (في ألوانها).

٥٥. النظام: ٢/٣٠٩.

٥٦. المصدر نفسه: ٥/٢١.

٥٧. المصدر نفسه: ٥/١٢٤، إصلاح المنطق: ١٦٤، الصحاح: ١/٢٤١ (أمت).

٥٨. النظام:٩/٨٩، تهذيب الألفاظ:٦٦٣-٦٦٤.

٥٩. النظام: ١/٤٧١.

٦٠. المصدر نفسه: ٥/٤٧٢.

٦١. المصدر نفسه: ٦/٢٩، مجمل اللغة: ٣/٨٠٦ (لدم).

٦٢. النظام: ١/٢١٢، الصحاح:١/٣٠٨-٣٠٩ (خدج).

٦٣. رواية التبريزي (جذع) مكان (جرع).

٦٤. النظام:٣/٥٢، الصحاح:١/١٩٣ (غرب).

٦٥. النظام:١/٣٧٤، الفتح على أبي الفتح:٤٤.

المصادر والمراجع

- **إصلاح المنطق**، لابن السكيت، شرح وتحقيق : أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، ط٤، دار المعارف، القاهرة.
- **الأعلام**، لخير الدين الزركلي، ط٣.
- **البداية والنهاية**، لابن كثير، دقق أصوله وحققه: د. أحمد أبو ملحم، ود. علي تحسين عطوي وآخرون، ط٣، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٧م.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، للسيوطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
- **تاريخ الأدب العربي**، لبروكلمان، نقله إلى العربية د. رمضان عبد التواب، ط٢، القاهرة.
- **التذكرة الفخرية**، للمنشئ الإربلي، تح.د. نوري القيسي، ود. حاتم الضامن، طبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٤م.
- **تقويم البلدان**، عماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء، دار الطباعة السلطانية، باريس.
- **التكملة لوفيات النقلة**، لزكي الدين أبو محمد المنذري، تح. د. بشار عواد، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م.
- **تهذيب الألفاظ**، لابن السكيت، شرح الخطيب التبريزي، ضبطه وجمع رواياته الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٨٩٥م.
- **جمهرة اللغة**، لابن دريد، دار صادر، بيروت، ١٣٤٥هـ.
- **رسائل ابن المستوفي (جمع وتحقيق)**، الأستاذ هلال ناجي، مجلة المورد، ع٣، ١٩٩٨م.
- **سير أعلام النبلاء**، الإمام شمس الدين الذهبي، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)**، للجوهري، تح. أحمد عبد الغفور عطار، ط١، دار العلم للملايين، القاهرة، ١٢٧٦هـ- ١٩٥٦م.
- **العين**، للخليل، تح. د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، ١٩٨٢م.
- **الفتح على أبي الفتح**، لابن فورجة، تح. عبد الكريم الدجيلي، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.
- **مختصر العين**، لأبي بكر الزبيدي، تح. د. صلاح مهدي الفرطوسي، ط١، دار الشؤون الثقافية، ١٩٩١م.
- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.
- **الموضح في شرح شعر المتنبي**، لأبي زكريا التبريزي، دراسة وتحقيق: د. خلف رشيدج نعمان، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٠، ٢٠٠٤م.
- **النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام**، لابن المستوفي، دراسة وتحقيق، د.خلف رشيد نعمان، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩ -٢٠٠٢م.
- **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، تح. د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

أثر الفلسفة اليونانية في شعر المتنبي

ياسر محمود الأقرع
حمص - سوريا

مقدمة:

لم يعرف تاريخ النقد العربي شاعرًا أثار جدلاً مثلما فعل المتنبي، فقد أثير حول هذا الشاعر العباسي من النقد ما لم يُثر حول غيره من الشعراء، وتنازعت فيه الآراء منذ القديم، فانقسم الناس بعامة والنقاد بخاصة بين معجب إلى حد المبالغة ومبغض إلى حد الإسراف.

ومن أهم النقاط التي تستوقف الباحث عند مطالعته للكتب التي تناولت المتنبي بالدراسة والنقد، هي مسألة (السرقات)، فقد أخذ النقّاد يبحثون وراء كل كلمة وخلف كل فاصلة فيما قاله المتنبي عن جذورها وعن الأرض التي نبتت فيها، محاولين إظهار سرقاته وعيوبه بشيء من النزاهة أحيانًا، وبكثير من التعسف والحقد في أحيان أخرى.

والأمر الذي نأسف له أن منهج أكثر نقادنا في دراسة السرقات كان جزئيًا؛ أي أنهم ألغوا النظرة الجمالية الكلية، وكأن الغاية عندهم تتركز في الإبانة عن سعة محفوظ الناقد وقدرته على رد المعاني إلى أصحابها، ومع ذلك فقد طرح تطور مسيرة النقد الأدبي مصطلحات ومفاهيم جديدة أقامت بنيانها على تراثنا النقدي القديم أحيانا، والثقافة الغربية أحيانًا أخرى، وظهر ما يسمى بـ"التناص".

ونستطيع أن نقول إنَّ انقلابًا جذريًّا أصاب النقد الأدبي في هذه النقطة تحديدًا، فقد كان اكتشاف المؤثرات الثقافية والوصول إلى التكهن بمنابعها سببًا من أسباب إدانة النص واتهام صاحبه بالسرقة.

أما الآن فقد أكدت الحركة النقدية الحديثة، في ظلّ التناص، أنه كلما اكتشفنا المزيد من المؤثرات الثقافية في النص كان ذلك مدعاة لإثارة إعجابنا بالنص وصاحبه.

ومن هنا كانت فكرة العودة إلى البحث في أثر الفلسفة اليونانية في شعر المتنبي، ولطالما أشير إلى هذا الموضوع في الكتب النقديّة قديمها، وحديثها. بدأ ذلك في عصر المتنبي واستمر حتى يومنا هذا، تصريحًا وتلميحًا، تأكيدًا ونفيًا. ومما يؤسف له أن هذه الإشارات لم تكن في غالبيتها إلا إشارات سطحية غايتها إدانة المتنبي واتهامه بالسرقة، ولم تبذل جهدًا يذكر في محاولة الوصول إلى عمق تجربته في تعامله مع الفلسفة. من هنا كان لا بدَّ من إلقاء ضوء النقد على هذه التجربة بشكل أكثر عمقًا، آملين أن نخرج بجديد يذكر وألاّ نقع في دوّامة التكرار.

المحصول الفكري للمتنبي:

لقد آلت الخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري على صعيد السياسة إلى دور من أدوار الضعف لم تشهده من ذي قبل، وكذلك لم تكن الحالة الاقتصادية بأحسن حالاً.

لكن هذه الظروف لم تكن لتؤثر سلبًا على صعيد الحياة العلمية والثقافية، فالعلوم والثقافات التي استقبلتها الخلافة العباسية في عصر ازدهارها تخمرت وأينعت، حتى إذا وصلت إلى القرن الثالث كانت قد بدأت تعطي ثمارها. فمن (الناحية العلمية والثقافية كان العصر متقدمًا حقًا، تم فيه امتزاج الثقافات. هؤلاء الفرس والهنود يتثقفون الثقافة العربية وينتجون فيها. وهؤلاء وثنيو حرّان والسريانيون يغرقون البلاد بالثقافة اليونانية. وهؤلاء الخلفاء يشجعون الطب والتنجيم أولاً لحاجتهم إليها، ثم ينفُذُ العلماء منها إلى أبواب الفلسفة الأخرى، هذا عدا الفلسفة نفسها، ونشطت حركة الترجمة من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية نشاطًا غريبًا. وهذه كلها كانت بدائية في العصر الأموي والعباسي الأول، ثم نضجت في القرن الرابع وأخذ العلماء يقتبسون منهم ما حلا لهم)[1].

وإذا كانت الفلسفة قد دخلت في العلوم كلها، واستعان بها علماء القرن الرابع ومثقفوه على اختلاف اختصاصاتهم واهتماماتهم، كان لا بدّ للأدب أيضًا من أن يتأثر بهذه الفلسفة. فالأدب غير منفصل عن الحركة الثقافية العامة، بل لعلّه الصورة الأوضح والأصدق التي تستطيع أن تنقل لنا تلك التغيرات، الثقافية التي طرأت على المجتمع آنذاك. وكان الشعر إحدى المرايا التي انعكست عليها التغيرات فنزع الشعر العربي نحو التجديد محاولاً رسم صورة صادقة للحياة والمجتمع. ولئن كانت هذه المحاولات مقصودة أحيانًا، فإنها في أكثر حالاتها جاءت بطريقة عفوية.

كان لابدّ للشاعر الذي ينشأ في هذه البيئة المفعمة بكل أنواع الثقافة إذن أن يعمل على درسها واستيعابها إذا أراد لنفسه أن يكون شاعرًا مبدعًا متميزًا، تلهج بذكره الألسن على مر الزمان. وكان حريًا بالمتنبي، وهو الذي أرقته فكرة الإبداع والتميز والتجديد، أن يتزود بثقافة واسعة تتيح له أن يأخذ مكانه في قائمة الشعراء المجددين المبدعين، أمثال بشار بن برد وأبي نواس وأبي تمام. وقد استطاع المتنبي أن يلم بثقافة واسعة أعانته - إضافة إلى موهبته الفكرية في تقديم نماذج شعرية اجتمع فيها الطبع إلى جانب الصنعة، تنم عن ثقافة وعلم، كما تنم عن موهبة فطرية.

فمن أين استقى الشاعر زاده الثقافي الذي أعانه فيما بعد في إبداعه الشعري...؟

ولد أحمد بن الحسين الجعفي الشهير بالمتنبي بالكوفة سنة (٣٠٣هـ) بحارة بني كنده لأسرة

متواضعة ولحظ أبوه فيه مخايل الذكاء فألحقه بإحدى المدارس العلوية[٢]. (ولسنا في حاجة - كما يقول طه حسين - إلى أن نطيل البحث لنعرف ماذا كان يتلقى المتنبي في هذه المدرسة التي اختلف إليها أيام صباه. فالراجح بل المحقق أنه تعلم فيها الكتابة والقراءة، وقرأ فيها القرآن كلّه أو بعضه، وتلقى فيها من علوم اللغة والأدب بوجه عام)[٣].

انتقل به أبوه بعد ذلك إلى بادية السماوة بين العراق وتدمر، وظل بها عامين أتاحا له أن ينهل من منابع اللغة الأصيلة، ثم عاد مع أبيه إلى الكوفة، وقد تفتحت ملكته الشعرية[٤].

ويقال إنه (وقع إلى أحدٍ يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوسه وأضلّه كما ضلّ)[٥]. ويرى بلاشير أنه :" إذا كان من المحتمل أنّ أبا الطيب عرف كما يدّعي بعضهم، الفلسفة اليونانية، لا سيما آثار أرسطوطاليس، فهو مدين بتلك المعرفة إلى ابن بلده أبي الفضل"[٦].

ترك المتنبي الكوفة بعد ذلك إلى بغداد سنة (٣١٦هـ)، ثم ارتحل إلى الشام، وفي خلال تجواله في بلاد الشام (يلمع أمام عينيه أمير عربي شيعي، كان يحارب الروم حربًا عنيفة، باعثًا في حاضرته حلب نهضة أدبيّة، علمية رائعة، هو سيف الدولة.. ويلقاه سنة (٣٣٧هـ) فيجد عنده كل ما كان يأمله... وعاش نحو تسع سنوات ..يحظى بمنزلة رفعيه من سيف الدولة، وينعم بلقاء من جذبهم إليه من الفلاسفة والعلماء أمثال الفارابي وابن جني. ولا نشك (كما قال شوقي ضيف): في أنه أفاد من محاضرات الأول في الفلسفة، وقد انعقدت صلة متينة بينه وبين الثاني فروى عنه ديوانه وشرحه شرحًا مشهورًا إعجابًا به وافتتانًا بفنه)[٧].

رحل المتنبي بعد ذلك إلى مصر نازعًا نحو ملك يملّكه إياه كافور، أو ولاية يوليه إياها. لكنّ العبد كان يؤمله ولا ينوله. فآثر العودة إلى العراق، لكنه في طريق عودته يخرج عليه بعض قطاع الطرق فيقاتلهم، ويقتل هو وابنه وغلامه مفلح في أواخر رمضان سنة (٣٥٤هـ)[٨].

لقد أتاحت حياة المتنبي لصاحبها أن يجمع قدرًا كبيرًا من الثقافة، بدأ تحصيلها منذ صباه، واستمر يسعى إلى جني هذه الثقافة على تنوعها في مراحل حياته كلّها. ومن جملة الثقافات التي اطلع عليها المتنبي الثقافة اليونانية، وخاصة الفلسفة، ولعلّ ذلك مرجعه كما ذكرنا إلى لقائه بأبي الفضل الكوفي، وقد كان عارفًا بالفلسفة، إضافة إلى لقائه الفارابي في حلب فقد (كان لسيف الدولة شرف حماية الفارابي الفيلسوف المشهور... والرجل الوحيد في زمنه الذي اطّلع أكثر على فلسفة أرسطو)[٩].

لا شك في أنَّ المتنبي قد اطلع على الكتب اليونانية المترجمة إلى العربية، ولعله لم يطلع عليها بلغتها الأصلية، إذ ليس هناك مصدر موثوق يؤكد أنّ المتنبي كان يعرف اللغة اليونانية.

لقد أدرك المتنبي أنَّ الموهبة وحدها لا تصنع شاعرًا مجيدًا، إذ لا بد من الإلمام بثقافات متعددة ومتنوعة، " وخاصة أنَّ عصره هو عصر التمام للثقافة العباسية، وعصر التطلّع من المتأخرين إلى مجاراة الأولين، وإذا بالمتنبي أوسع الشعراء في زمانه باللغة وآدابها وبالثقافة الأجنبية التي انتقلت إليها[١٠].

الفلسفة عند المتنبي:

توصلنا من خلال حديثنا عن المحصول الفكري للمتنبي إلى أنَّ الشاعر قد تثقف بثقافات

عصره، ومن هذه الثقافات كانت الثقافة اليونانية، والفلسفة بشكل خاص. ولنا أن نتساءل الآن عن الدوافع التي جعلت المتنبي يلجأ إلى الفلسفة اليونانية ليستعين بها فيما ينظمه من الشعر؟

يمكن أن نقسم هذه الدوافع إلى قسمين:

١- دوافع إرادية (واعية)؛ أي تمّت بوعي من المتنبي.

٢- دوافع غير إرادية (لا واعية)، وهي التي استمدها من معارفه الفلسفيّة، ولم تظهر في شعره بمحض إرادته ووعيه.

الدوافع الإرادية:

١- السعي وراء التجديد:

وصل الشعر العربي إلى بداية القرن الرابع الهجري بعد أن مرّ بزعماء التجديد (بشار - أبو نواس- أبو تمام) وكأن هؤلاء لم يتركوا لشاعرٍ يأتي من بعدهم أن يقدّم جديدًا مبتكرًا، فقد أجاد أرباب التجديد وأبدعوا، وحين جاء الشعراء من بعدهم إذا بهم يدورون في فلك الأوائل، يعيدون ويكررون محاولين الإتيان بالجديد المبتكر، وقلما كان لهم ذلك . وكان على الشاعر الذي يريد أن يسطع نوره في سماء الشعر العربي في هذه الفترة من الزمن أن يستمد ضوءه من منابع ثقافية مختلفة تضفي على شعره سمة من سمات التجديد والإبداع.

ولعلّ المتنبي وجد ضالته في الفلسفة اليونانية لما كان لها من صدى وتأثير كبيرين في أوساط المثقفين والعلماء، فحاول أن (يستوعب الأفكار والصيغ الفلسفية في قصائده ونماذجه؛ حتى يتخلص قليلاً من صيغ الفن الثابتة وقوالبه العتيقة)(١١). لقد راح المتنبي يبحث عن التجديد والابتكار، وقد وجد أمامه - كما يقول د. شكري عياد :" ثروة طائلة من المعاني التي طالما تعب في البحث عنها سابقوه: ثروة الفلسفة اليونانية نفسها، ولكنه كان حريصًا على أن يصب هذه المعاني في قوالب شعرية مختلفة، فلا يصدم أحدًا من أنصار القديم، ولا يُشعر أحدًا أنه فارق (عمود الشعر)(١٢).

٢- انتزاع الإعجاب من علماء عصره ومثقفيه:

وهذه ظاهرة عامة في شعر المتنبي غير مرتبطة بالفلسفة على وجه التحديد، وكان أول من يسعى المتنبي إلى انتزاع إعجابه هو الممدوح، لذا كان يخاطبه بما يحب، وبما يميل إليه من ثقافة وعلوم، فكيف إذا كان الممدوح محوطًا بكوكبة من العلماء، في الفلسفة والطب، وغير ذلك، وهذا هو حال سيف الدولة أمير حلب، إذ كان بلاطه يضم خيرة العلماء والمثقفين في وقته، وكان على المتنبي وقد يمَّم وجهه شطر سيف الدولة أن ينال إعجاب هؤلاء ويرضي أذواقهم. وقد كانت الفلسفة إحدى الطرق التي سلكها المتنبي لتحقيق هذه الغاية، وكيف لا يفعل وقد ضمّ بلاط سيف الدولة أكبر فلاسفة المسلمين، (أبو نصر الفارابي)، الذي عرف عند العرب ((المعلم الثاني)) بعد أرسطو ((المعلم الأول))(١٣)، بل لعل سيف الدولة نفسه - كما يرى طه حسين " قد ألم شيئًا باليونانية وثقافة اليونانيين؛ لاتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان وشؤون اليونان"(١٤). من هنا كان لا بدَّ للمتنبي - إرضاءً لسيف الدولة ومن حوله - من أن يستمد من ينابيع الفلسفة اليونانية ما يزيّن به قصائده، ويزداد به قربًا واستحسانًا من سيف الدولة. والأمر الذي يؤيد ما نذهب إليه من أنَّ لجوء المتنبي إلى الفلسفة هو وسيلة من وسائل الصنعة، أن أثر الفلسفة في شعره كان حكرًا على قصائده المطوّلة التي يفترض فيها وجود الصنعة،

في حين تخلو مقطعاته الشعرية التي لا تتجاوز عدة أبيات من أي أثر فلسفي، والمقطعات في أغلب حالاتها كانت قد قيلت ارتجالاً.

الدوافع اللاإرادية:

١ - تحول الفلسفة إلى جزء من تكوينه الثقافي:

من المعلوم أنَّ الثقافات التي يكتسبها المرء خلال مراحل حياته، تصبح جزءًا من تكوينه الثقافي لا ينفصل عنه، فإذا ما علمنا أنَّ الشاعر أو الأديب هو مجموع الثقافات التي اطلع عليها واستوعبها، أدركنا أنه لو كان باستطاعتنا أن نرد كل نص إلى منابعه التي نهل منها مادته لتبين لنا أنَّ الأديب لم يقم بـ(اختراع وإنما قام بـ(التأليف)، والتأليف قائم- كما يبدو من هذه الكلمة - على الجمع والتنسيق والمؤالفة بين الأشياء لا على الخلق. وهذا لا ينفي جوهر الإبداع طبعًا، ذلك أن التأليف يخرج عبر العمل الأدبي (شعرًا كان أم نثرًا) وكأنه خلق لساعته. ومن هنا أصبحت الفلسفة اليونانية التي استوعبها المتنبي جزءًا لا يتجزأ من تكوينه الثقافي والفكري، استعان بها (واعيًا) مرة و (دون وعي مباشر) مرات ومرات، وفي كلتا الحالتين تركت بصماتها (الواضحة) في الحالة الأولى و(الخفيّة) في الحالة الثانية. ولو عددنا ذلك من عيوب الشعر لما خلا شاعر على الإطلاق من هذا العيب.

٢- موافقة بعض الحكم اليونانية لحياة المتنبي:

إنَّ المتتبع لحياة المتنبي، يدرك إلى أي مدى عاش الشاعر حياة مليئة بالتناقضات في عصر هو عصر التناقضات. لقد فرضت طبيعة الحياة عليه أن ينهج نهجًا قائمًا على التمرد والرفض والثورة. لذا حاول المتنبي في ظل هذه الظروف أن يبني لنفسه صرحًا من الكبرياء، عماده السلطة والأموال، فسعى للأمرين سعيًا دؤوبًا لكنه في النهاية إنما بنى صرح الكبرياء بشعره ونبوغه. وكان لا بدَّ لهذه الظروف من أن يكون للمتنبي فلسفة خاصة، فلسفة تبنى من واقع الحياة ومشكلات المجتمع، ولأنَّ الفلاسفة لم يتركوا أمرًا من أمور الحياة والمجتمع إلا تعرضوا له، كان لا بد لحكمة الفلاسفة من أن تجد في حياة المتنبي موقعًا لها وليس عند المتنبي فقط، بل عند الناس جميعًا، ذلك أنَّ الفلاسفة استمدوا فلسفتهم من واقع الحياة ومن تجاربهم الحياتية ثم صاغوها حكمًا، وبقيت الحياة تقدم التجارب للبشر ولا تقتصر في ذلك على الفلاسفة. فالفلسفة والحالة هذه ليست حكرًا على الفلاسفة (فلكل منا فلسفته في هذه الحياة، وكل إنسان فيلسوف بطبعه على تفاوت في ذلك ... فالفلسفة عنوان وجود الإنسان ما دام له عقلٌ واعٍ، ومشاكل ملحة وواقع متمرد غير مطواع)[١٥].

ومن هنا يمكننا أن نثبت أنَّ كثيرًا من الحكم التي نطق بها المتنبي - شعرًا - إنما هي وليدة تجاربه وخبرته في الحياة ويمكننا في الآن ذاته إثبات وجودها في الفلسفة اليونانية.

تجليات الفلسفة اليونانية في شعر المتنبي

من خلال استقراء ديوان المتنبي والاطلاع على العديد من المؤلفات التي تناولت هذا الموضوع بالبحث والدراسة يمكننا أن نقسم أثر الفلسفة اليونانية في شعر المتنبي إلى قسمين:

الأول: هو الأثر الواضح الذي تجلّى على صعيد النصوص الشعرية بذكر المتنبي للمذاهب والمصطلحات، والمعاني الفلسفية التي اجتلبها من الفلسفة، ليدلل من خلالها على عمق ثقافته أحيانًا؛ لإعطاء المعنى قوة وعمقًا. وإلى هذا النوع من التأثر تنبه أكثر الباحثين والنقّاد قديمهم وحديثهم.

الثاني: وهو الأثر الخفيّ أو لنقل الأقل وضوحًا، ولكنه في الوقت ذاته (الأكثر أهمية) وهو الأثر الذي تركته الفلسفة في فكر المتنبي وقيمه، والذي يحتاج من الدارس إلى الكثير من التأمل والبحث بغية الوصول إلى نتائج ملموسة تقوم على الحجة والبرهان لا على التكهن والظن، وسنتحدث الآن بشيء من التفصيل عن هذين النوعين من التأثير، مستندين في إثبات ذلك إلى شعر المتنبي ذاته.

١- **التأثير الواضح:** ويتجلى في عدّة أمور:

أولاً: الإشارة إلى أسماء الفلاسفة:

وقد آثرنا أن نبدأ بهذه النقطة لأنها الأكثر وضوحًا وجلاءً في شعر المتنبي، وهي التي لا تدع مجالاً للشك في أنَّ المتنبي قد عرف شيئًا عن فلاسفة اليونان. يقول المتنبي مادحًا أبا الفضل محمد بن العميد[١٦]:

مَن مُبلِغُ الأعرابِ أني بعدها
شاهدتُ رسطاليسَ والإسكندرا
وسمعتُ بطليموس دارس كتبه
مُتملِّكًا ... مُتبدِّيًا ... مُتحضِّرًا

يقول العقاد عن هذين البيتين: "إنَّ إشارة المتنبي إلى مصادر الفلسفة - هي - إشارة قارئ متعمق يعرف من أين جاءت المذاهب، التي كان المرددون لأقوال الفلاسفة على السماع ينسبونها تارة إلى أرسطو وتارة أخرى إلى أفلاطون، وحقيقة ما نسب إلى أفلاطون وأرسطو أنه من عمل الإسكندر الأفروديسي تلميذ أفلوطين"[١٧].

لكننا في الحقيقة لا نرى فيما قاله المتنبي في هذين البيتين دليلاً على تعمقٍ في الفلسفة؛ إذ ليس فيهما سوى ذكر أسماء فلاسفة يريد المتنبي تشبيه الممدوح بهم، وليس في الأبيات ما ينم عن كشف حقيقة ما ينسب إلى أرسطو أو أفلاطون.

يقول المتنبي[١٨]:

يَموتُ راعي الضَأنِ في جَهلِه
مِيتةَ جالينُوسَ في طِبِّهِ

ويقول في موضعٍ آخر[١٩]:

عَلَّم بُقراطَ فِصادَ الأكحَلِ
فَحالَ ما لِلقَفزِ لِلتَجَدُّلِ

"جالينوس" و"بقراط من أطباء اليونان وفلاسفتهم.

فالمتنبي كما رأينا يذكر بعض أسماء فلاسفة اليونان في شعره، ليدلل على معرفته بهذه الفلسفة وأعلامها وعلومها، " جالينوس" و " بقراط" طبيبان وفيلسوفان في الآن ذاته، فإن دلَّ ذلك على معرفته بهم وهي نقطة إيجابية، فإن توظيف هذه المعرفة لم يكن موفقًا جدًا، فبقيت هذه الإشارات الفلسفية دخيلة على الأبيات، فيها استعراض لثقافة المتنبي ومعرفته بهؤلاء معرفة شكلية لا عمق فيها.

ثانيًا: ذكر المذاهب والنحل والعقائد الفلسفية:

وقد ورد ذكرها في كثير من أشعار المتنبي (تصريحًا وتلميحًا)، وهي لا تكاد تخرج عما ذكرناه في الفقرة السابقة من أنها كانت محاولة من الشاعر لإظهار ثقافته الفلسفية، ولربما وظّفت هنا بطريقة أكثر عمقًا وأكثر فائدة مما هي عليه في ذكره لأسماء الفلاسفة كما رأينا في الفقرة السابقة. ومن إيراد المتنبي لبعض المذاهب الفلسفية (تصريحًا) قوله يهجو كافورًا[٢٠]:

فإنه حجةٌ يؤذي القلوب بها
مَنْ دينُهُ الدهرُ والتعطيلُ والقِدَمُ

فهاهو يصرح ببعض المذاهب الفلسفية التي

كانت معروفة في عصره و" وهؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا: كما قال الله تعالى عنهم: ﴿قالوا وما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾، وقالوا: إنَّ العالم دائم لم يزل، لا يتغير ولا يزال ولا يضمحل" هو قديم بغير حاجة إلى فاعل"[٢١].

لاحظنا مما سبق كيف أنَّ المتنبي كان يصرح باسم المذهب الفلسفي محاولاً من خلال ذلك تأكيد سعة ثقافته واطلاعه على الفلسفة، ومحاولاً في الآن ذاته أن يعبر عن معاني كثيرة يكاد يجمعها ذكر هذا المذهب أو ذاك.

وقد أشار المتنبي أيضًا إلى بعض هذه المذاهب والنحل الفلسفية دون أن يصرح باسم المذهب، من ذلك قوله يرثي فاتكًا"

هوّنْ على بَصَرٍ ماشَقَّ منظره

فإنما يقظاتُ العين كالحُلُمِ

وهذا - كما يرى صاحب خزانة الأدب - هو مذهب السوفسطائية[٢٢]، ولا يؤمن أصحاب هذا المذهب بوجود المحسوسات[٢٣]. ويقول:

يا أيها الملكُ المصفى جوهرًا

من ذاتِ ذي الملكوت أسمى مَن سما

نورٌ تظاهر فيك لاهوتيةً

فتكادُ تعلمُ علمَ ما لن يُعلما

يرى طه حسين أننا هنا إزاء رأي صريح في الحلول، ثم يرجع ذلك إلى قرمطية المتنبي[٢٤]، والحقيقة التي يمكن أن نتلمسها هنا هي أنَّ القصيدة قيلت في مديح (أبي الفضل الكوفي). وهو كما أسلفنا فيلسوف سكن الكوفة ولقنها المتنبي في صباه، ولئن كان القرامطة يؤمنون بالحلول فإنهم قد استمدوا هذا المبدأ من الفلسفة، وما لجأ المتنبي إلى طرق هذا المعنى إلا ليمدح هذا الفيلسوف بما يحب ويهوى.

ولنا هنا أن نشير إلى أنَّ الحلول (يراد به حلول الله ذاته أو روحه في شخص من البشر، وحلول الجزء الإلهي أو القوة الإلهية بقسم خاص أو معين من البشر، وإنما هي فلسفة هندية يونانية مسيحية ثم إسلامية)[٢٥]. ومن إشارات المتنبي إلى بعض النحل الفلسفية قوله:

تمتع من سُهادٍ أو رقاد

ولا تأمل كرَى تحت الرِّجام

فإنَّ لثالثِ الحالينِ معنى

سوى معنى انتباهكَ والمنام

" وهو يشير بثالث الحالين إلى التناسخ الذي لا يقع فيه - كما يقول من يؤمنون به - موت ولا نوم"[٢٦].

" والتناسخ يعتبر شرعًا فرعًا من مبدأ الحلول نادت به الديانات القديمة في الهند وفارس وفي اليونان... وهو رد الروح إلى بدن غير البدن الأول، والتناسخ بين البشر أو الحيوان إنما هو فلسفة هندية يونانية مسيحية"[٢٧].

لعلّ في الأمثلة التي طرحناها دليلاً واضحًا على معرفة المتنبي ببعض المذاهب الفلسفية وبأهم الأفكار والمبادئ التي قامت على أساسها تلك المذاهب وصحيح أنّ - هذه المذاهب تبدو كمذاهب دينية، لكن الحقيقة تقول:

" إنَّ الحدود غير واضحة بين الفلسفة والدين، بل هناك تداخل مستمر بينهما، حتى ليذهب أحد فلاسفة الحضارة في الوقت الحاضر إلى أنّ التمييز بين النظرة الكونية الدينية وبين النظرة الكونية الفلسفية تمييز سطحي تمامًا"[٢٨].

ثالثا: ذكر المصطلحات والألفاظ الفلسفية:

أدخلت الفلسفة اليونانية إلى المعجم العربي الكثير من المصطلحات والألفاظ الفلسفية التي لم يكن للعرب عهد بها، وربما أضافت في بعض الأحيان مدلولات جديدة ذات مرجعية فلسفية إلى بعض الكلمات المعروفة لدى العرب، ولعلّ المتنبي قد وقف من تلك المصطلحات والألفاظ - شأنه في ذلك شأن كثير من معاصريه - موقف القبول والإعجاب، وإذا به يضمها إلى معجمه اللغوي الذي استقاه من فصاحة الأعراب، فأضاف بهذا الوافد الثقافي روحًا جديدة إلى لغته، أضفت على شعره فيما بعد - سمة التجديد. وأعطته الكثير من النضارة والبهاء. ولسنا ننكر هنا أنَّ استخدام المتنبي لهذه المصطلحات والألفاظ الفلسفية لم يكن موفقًا في أغلب الأحيان، لكننا إذا ما علمنا أن هذا هو مذهب (التصنع) الذي قام على أساسه الشعر العربي في ذلك العصر، أدركنا ما لهذه التجربة من أهمية جعلت المتنبي - في أيامه - رمزًا للشاعر المثقف المبدع. وها نحن نقدم طائفة من أبياته الشعرية التي استخدم فيها بعض مصطلحات الفلاسفة وألفاظهم. يقول:

تناهى سكونٌ في حركاتها

وليس لراءٍ وجهَها لم يمتْ عذرُ

فهو يستعير هنا لفظتي السكون والحركة[٢٩]. وهاتان اللفظتان من ألفاظ الفلاسفة تردان كثيرًا في الفلسفة الطبيعية[٣٠]. ويقول أيضًا:

بشرٌ تصوَّرَ غايةً في آيةٍ

تنفي الظنونَ وتُفسدُ التقييسا

والقياس الفاسد مصطلح فلسفي[٣١]. ويسمى أحيانًا المغالطة في القياس، وهي إما أن تقع في اللفظ أو في المعنى أو في صورة القياس أو في مادته، وإما أن تكون غلطًا أو مغالطة[٣٢].

هذه الألفاظ والمصطلحات الفلسفية التي حشدها المتنبي في أشعاره ما هي إلا أثر من آثار الفلسفة اليونانية في الشعر العربي عامة في ذلك العصر، وشعر المتنبي بشكل خاص.

رابعًا: تضمينه معاني الفلاسفة في شعره:

لقد وجد المتنبي في الحِكَم اليونانية صدى لحياته المفعمة بالأحداث، ووجد فيها ضالته من معاني الحكمة. ذلك لأنه مولع بالحكمة يرسلها تارة هنا وتارة هناك، وقد وجد في فلسفة اليونان نبعًا من الحكمة لا ينضب، فراح ينهل مضيفًا إليه موهبته الكبيرة و" حرفنته الشعرية" إن صح التعبير. وقه تنبّه الكثير من النقاد وشرّاح ديوان المتنبي إلى أثر أقوال أرسطو ومعانيه في بعض شعر المتنبي، وطالما ترددت على ألسنتهم عبارة: (وهذا من قول الحكيم) ويقصدون أرسطو طبعًا. ولعلّ في هذه النقطة ما يستحق التوقف قليلاً، إذ من الملفت للنظر أن يحاول النقاد الكشف عن أثر أقوال أرسطو دون سواه من الفلاسفة في شعر المتنبي، فأين أقوال سقراط وأفلاطون وأين أقوال الذين جاؤوا بعد أرسطو كالإسكندر الأفروديسي مثلاً. ولماذا لم يأخذ المتنبي من أقوال هؤلاء، في حين أنه تأثر بواسطة العقد (أرسطو). وإذا كان المتنبي فعلاً قد أخذ من أرسطو فقط دون سائر الفلاسفة - ونحن نشك في ذلك- فيمكننا إرجاع هذا الأمر إلى سببين:

الأول: أنَّ أرسطو هو (أعظم فيلسوف جامع لكل فروع المعرفة الإنسانية في تاريخ البشرية كلّها)[٣٣]. وعلى الرغم من أنّ أرسطو قد سُبِقَ بظهور بعض الفلاسفة أمثال سقراط وأفلاطون، إلا أنّه أمتاز على هؤلاء بأنه (يمثل إلى أعلى درجة

كل المذاهب السابقة)[٣٤]. وليس هذا فحسب، بل امتد تأثير هذا الفيلسوف إلى كل المذاهب الفلسفية التي جاءت بعده، وقد تجلّى ذلك من خلال الفلاسفة الذين جاؤوا بعده، إذ كانوا في غالبيتهم شرّاحًا لأرسطو، مرددين لأقواله، مكررين لآرائه، إلا في القليل النادر. فبقي أرسطو بذلك هو (المعلم الأول)[٣٥].

الثاني: وهو ما يتعلق بعملية الترجمة من الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، التي كانت في أكثر حالاتها منصبة على مؤلفات أرسطو دون غيره من الفلاسفة[٣٦]. حتى إذا انتقلت هذه الفلسفة من طور الترجمة إلى طور الاستيعاب ثم التمثل برز اهتمام الفلاسفة العرب بأرسطو في أوضح صوره، فقد (سلكوا كلّهم طريقة أرسطوطاليس في جميع ما ذهب إليه وانفرد به سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي أفلاطون والمتقدمين)[٣٧].

ومن هنا كان لا بدّ للأثر الكبير الذي خلفه أرسطو في نفوس الفلاسفة المسلمين وآرائهم، لا بدّ أن ينتقل إلى المتنبي. لكن المسألة ليست كذلك فقط فيما نظن؛ ذلك أن مكانة أرسطو لم تمنع الفلاسفة المسلمين من أن يترجموا لغيره من فلاسفة اليونان، ولو نظرنا في ترجمات العرب لرأينا - على الرغم من الاهتمام بأرسطو- الكثير من الكتب المترجمة لغيره، وليس من المعقول أن يطلع المتنبي على ترجمات أرسطو دون سواه، إذ لا مبرر لذلك فيما نعتقد. ولعلّ ما يؤكد هذا القول ما أوردناه من الأمثلة التي تبين اطلاع المتنبي على المذاهب الفلسفية المختلفة، التي تدل على اطلاع واسع غير مقتصر على أرسطو ومذهبه وآرائه. ففكرة التناسخ مثلاً التي وردت في شعر المتنبي كانت معروفة لدى الفيثاغوريين وكانوا يؤمنون به[٣٨]. وكذلك كان أفلاطون يقول بالتناسخ، وهؤلاء سابقون لأرسطو، كما أنَّ الأفلاطونية المحدثة كانت تقول بالتناسخ وهي لاحقة بأرسطو[٣٩]. وفكرة التناسخ ليست الفكرة الوحيدة التي قال بها عدد من الفلاسفة، بل هناك الكثير من الأمور المشتركة التي عرفتها فلسفة اليونان على اختلاف الاهتمام بها بين فيلسوف وآخر، فالحديث عن الفضائل الأربع، والقول بقدم العالم، وأنّ الجواهر هي أول الأشياء، وتداولهم لفكرة البقاء والفناء... إلخ كلها موضوعات مشتركة في الفلسفة لا يمكن نسبتها إلى فيلسوف بعينه.

وقد تنبه الناقد الكبير (إحسان عباس) إلى هذا الأمر في كتابه (ملامح يونانية في الأدب العربي، وذلك خلال حديثه عن الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة، ثم أورد بعض الأمثلة على ذلك، وردَّ بعض الأقوال التي نسبها الحاتمي إلى أرسطو إلى غيره من الفلاسفة مثل (أفلاطون وسقراط.. وغيرهما)[٤٠].

إضافة إلى ذلك يمكن أن نلاحظ أنَّ بعض المعاني التي ضمنها المتنبي شعره والتي نسبت في أصلها إلى الفلسفة اليونانية، يمكن أن يجد المرء لها أصولاً خارج هذه الفلسفة، ومن ذلك قول المتنبي:

أرى أناسًا ومحصولي على غنمٍ

وذكرَ جودٍ ومحصولي على الكَلمِ

فقد رأى الحاتمي أنه مأخوذ من قول أرسطو: من كان همه الأكل والشرب والنكاح فهو بطبع البهائم، لأنَّ البهائم متى خُلّي بينها وبين ما تريده لم تفعل شيئًا غير ذلك[٤١]. في حين يرى بلاشير أنّ هذا التقارب مصطنع ووهمي، فلربما (لم يكن

أثر الفلسفة اليونانية في شعر المتنبي

بيت أبي الطيب إلا اقتباسًا من الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وهو بالتأكيد معنى متداول[٤٢].

يقول المتنبي أيضًا:

وما الحسنُ في وجهِ الفتى شرفٌ له

إذا لم يكن في فِعلهِ والخلائقِ

يرى الحاتمي أنَّ المتنبي أخذه من قول الحكيم: "قال الحكيم وقد نظر إلى غلام حسن الوجه فاستنطقه فلم يجد عنده علمًا، فقال نعم البيت لو كان فيه ساكن"[٤٣].

لا شك في أن بين ما قاله المتنبي وقول أرسطو تشابهًا واضحًا، ولكنه من المعاني المتداولة، التي لا يمكن إرجاع أصلها إلى أرسطو،وربما أخذه المتنبي من قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "إني لأرى الرجل فيعجبني فأسأل هل له صنعة فإن قيل: لا سقط من عيني". وبيت المتنبي هو أقرب من حيث المعنى إلى قول عمر بن الخطاب منه إلى قول أرسطو. فأرسطو يسأل عن علم الفتى، وعمر يسأل عن عمله، والمتنبي يقول: إذا لم يكن في " فعله والخلائق، ولا شيء يمنع من قوله: في " علمه" إذ إن الوزن لا يضطرب، بل قد يكون المعنى أكثر قوة إذ يجمع بين العلم والخلق، وهما قوام شخصية المرء. فنحن والحالة هذه لا نستطيع أن نجزم بأنّ المتنبي أخذ المعنى من أحدهما دون الآخر.

على أية حال يجب أن نتذكر أنّ الفلسفة اليونانية، وبخاصة فلسفة أرسطو التي كانت أكثر واقعية من سواها، إنما عالجت جلّ أمور الحياة، ومن هنا، لو حاولنا أن نتقصى المعاني التي وردت في شعر المتنبي، والتي نجد لها مشابهًا في الفلسفة، اليونانية لاستطعنا بشيء من التعسف أن نرد الكثير منها إلى تلك الفلسفة.

٢ - التأثير الخفي (الأقل وضوحًا):

لقد تنبه معظم الباحثين إلى تأثر المتنبي بفلسفة أرسطو، وقد حصروا هذا التأثر فيما ذكرناه من ذكر المتنبي لأسماء الفلاسفة ومذاهبهم ومصطلحاتهم، ونقل بعض المعاني الفلسفية إلى الشعر. لكننا نرى أن أثر هذه الفلسفة في شعر المتنبي قد تعدّى هذا الأثر الظاهر إلى أثر أعمق، تركته الفلسفة في فكره أولاً وفي شعره ثانيًا.

ومن أهم هذه المظاهر التي تبين ما ذهبنا إليه:

أ- تقديس العقل:

لقد درج الفلاسفة اليونانيون، ومن بعدهم فلاسفة الإسلام، على تعظيم دور العقل وإكبار صحة التفكير وسداد الرأي، فالفلسفة تقوم في أساسها على الدور الكبير الذي يقوم به العقل بغية الوصول إلى جوهر الأمور وحقيقتها. " بل لقد ذهب اليونان في تقديس العقل إلى حد تكذيب مالا يتفق معه، ولو أيّده الحس، فالمنطق يخطئ وشاهد العقل معصوم عن الخطأ"[٤٤]. وقد رأى أرسطو أنَّ الفضيلة العليا هي فضيلة التأمل والتعقل[٤٥]. "وجعل الفكر أنبل شيء في الإنسان وفي الوجود"[٤٦]. ذلك أنّ " عالم العقول هو عالم أبدي شريف، لا يدخل في مقولة الزمان ولا يقبل التغير والفساد"[٤٧].

وقد تركت هذه المسألة فيما نظن أثرها عند المتنبي، فنراه في كثير من أبياته يعظم دور العقل

ويجلّه. فمن أهم صفات الممدوح مثلاً أن يكون سديد الرأي، حكيم العقل والتفكير. ولئن كان الممدوح شجاعًا، وفيًا، كريمًا، فإن الأهم من ذلك كلّه في رأي المتنبي صحة العقل وسداد الرأي يقول[٤٨]:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ

هُوَ أوَّلٌ وَهْيَ المحلُّ الثاني

وهذا ما كان يراه الفلاسفة حين رأوا أن الرأي أهم من الشجاعة في شخصية المرء، فالرأي السديد هو الذي يحدد الشجاعة[٤٩].

ويقول أيضًا[٥٠]:

أفي الرأي يُشبَه أم في السخا

ءِ أم في الشجاعةِ أم في الأدبْ

وهذا استفهام إنكار، فالممدوح لا يشبهه أحد في صفاته، وعلى رأس هذه الصفات "سداد الرأي".

لقد كان المتنبي يؤمن بالدور الريادي الذي يقوم به العقل، لذلك كان له مكانة خاصة في قصائده المدحيّة، وهذا الرأي الذي يهتم به المتنبي ليس ككل الآراء، بل هو الرأي ذاته الذي يحض عليه الفلاسفة ويجلّونه ويعدونه أساس شخصية الإنسان. يقول المتنبي[٥١]:

عربيٌّ لسانُهُ، فلسفيٌّ

رأيُهُ، فارسيّةٌ أعيادُه

ب- تعظيم شأن النفس:

اهتم الفلاسفة اهتمامًا كبيرًا بالنفس الإنسانية، فغاصوا في أعماقها وحاولوا الوصول إلى جوهرها، لأنهم يرون أنَّ الهدف الأخير للفلسفة، إنما هو السعادة التي يجب أن تغمر النفس الإنسانية، حتى أفرد لها الفلاسفة مؤلفات خاصة[٥٢]، أو تحدثوا عنها حديثًا فيه استفاضة وتفصيل[٥٣]. ولسنا الآن بصدد التفصيلات التي عالجها الفلاسفة في النفس البشرية، ذلك أن هذه التفصيلات لا تغني بحثًنا في شيء، لكن من يطالع في كتب الفلسفة يدرك إلى أي مدى كان اهتمام الفلاسفة بالنفس ودراستها والحديث عنها.

ومن هنا كان افتراضنا أنّ المتنبي ربما انتقلت إليه عدوى الاهتمام " بالنفس" من فلسفة اليونان وإلا فما معنى أن يمتلئ الديوان بهذه اللفظة حتى نكاد نعتقد أنه لم تتكرر في ديوانه كلمة أخرى مثل هذه الكلمة[٥٤].

يقول المتنبي[٥٥]:

وكلٌّ يرى طُرْقَ الشجاعةِ والندى

ولكنَّ طبعَ النفسِ للنفسِ قائدُ

فالنفس التي طبعت على الشجاعة هي التي تقود صاحبها في سبل الشجاعة والإقدام، ويقول أيضًا[٥٦]:

إنما الجِلْدُ ملبسٌ وابيضاضُ النـ

فسِ خيرٌ من ابيضاضِ القباءِ

ولن نعرض المزيد من الأمثلة، فديوان الشاعر مليء كما أسلفنا بهذه اللفظة التي تتكرر في القصيدة الواحدة أكثر من مرّة أحيانًا، بل ربما تكررت في البيت الواحد مرتين أو ثلاث مرات. انظر في قوله[٥٧]:

ونفسي له نفسي الفداءُ لنفسه

ولكنَّ بعضَ المالكينَ عنيفُ

ج- الطبع والتطبع:

وهي القضايا التي طالما ألحَّ الفلاسفة في ذكرها، وأدخلوها في شؤون الحياة كلّها، فكل شيء، يرد إما إلى الطبع وإما إلى الاعتياد والتطبع،

فيرى أرسطو مثلاً: " أنَّ الدولة هي من عمل الطبع، وأنَّ الإنسان بالطبع هو كائن اجتماعي"[٥٨]، ويرى أنّ " الموجود الحي هو مركب من روح ومن جسم، وكان أحدهما بالطبع ليأمر والآخر ليطيع" بل يرى أرسطو خلال حديثه عن الرق والعبودية أنَّ " البعض هم أحرار والآخرين بالطبع عبيد"[٥٩]، وبقدر إلحاح الفلاسفة على هذه القضية، نجد اهتمام المتنبي بها أيضًا اهتمامًا واضحًا جليًّا، فكأنها استولت على فكره، فراح يرسلها في شعره بين الحين والآخر. يقول[٦٠]:

وإذا الحِلْمُ لم يكنْ في طِباعٍ

لم يُحَلِّمْ تقدُّمُ الميلادِ

ونرى أن نذكر هنا أن " الفضيلة - عند أرسطو - صنفان: منها فكرية، ومنها خلقية؛ فالفكرية كونها وتزيّدها في أكثر الأمر يكون بالتعليم، ولذلك تحتاج إلى دربة طويلة ومدّة من الزمان، والخلقية تكتسب من العادة، فالفضائل إذن ليست تكون لنا بالطبع، ولكنا مطبوعون على قبولها، ونكمُلُ بها وتتم بالعادة"[٦١].

والحلم في بيت المتنبي السابق يكون في الطباع أي إن الممدوح يكون مطبوعًا على قبول الحلم. وإذا كان أرسطو يرى أنّ الفضائل الخلقية تكتسب من العادة مع وجود الاستعداد الفطري لقبولها فإنّ:

لكل امرئٍ مِنْ دهره ما تعوَّدا

وعاداتُ سيفِ الدولةِ الطَّعنُ في العدا[٦٢]

ويقول أيضًا[٦٣]:

وأسرعُ مفعولٍ فعلتَ تَغَيُّرَا

تَكَلُّفُ شيٍ في طِباعك ضِدُّهُ

أي إن المرء أحيانًا يتقبل بعض الأمور ويعتاد عليها على الرغم من عدم ائتلافها مع طبعه وفطرته.

نلاحظ مما قدمناه أن أثر الفلسفة اليونانية في شعر المتنبي تعدى ما أشار إليه الدارسون، من تأثيرها في الناحية الشكلية والصياغة إلى تأثيرها في فكر المتنبي وآرائه، وهو - برأينا- الأثر الأبعد والأعمق الذي تركته الفلسفة في شعره.

خاتمة البحث

لعل فيما قدمناه دليلاً واضحًا على تأثر المتنبي بهذه الفلسفة، وهذا ينفي جملة الآراء التي ذهبت إلى تبرئة المتنبي من التأثر بهذه الفلسفة، فعلّلوا هذا التشابه بين شعره وبعض أقوال الفلاسفة بما يسمونه (توارد الخواطر)، والطريف في الأمر أنَّ الحاتمي وهو صاحب " الرسالة الحاتمية في ما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة" لم يجزم بأن المتنبي قد استقى بعض معانيه من فلسفة أرسطو يقول:"... فإن كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق في درس العلوم، وإن يك ذلك منه على سبيل الاتفاق، فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة والألفاظ الغريبة، وهو في الحالتين على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل"[٦٤]. وفي حين أن الحاتمي لم يجزم بأخذ المتنبي من فلسفة أرسطو، يقف معظم الباحثين مع الرأي القائل بتأثر الشاعر بالفلسفة اليونانية عمومًا، وفلسفة أرسطو بشكل خاص. يقول شوقي ضيف:" من أهم الوسائل التي كان يستخدمها المتنبي وغيره من الشعراء في هذه العصور وسيلة الفلسفة والثقافة اليونانية"[٦٥].

ويقول إحسان عباس:"... الأمثلة كثيرة على مدى صلة المتنبي بالمصطلح الفلسفي والأفكار الفلسفية واستغلال كل ذلك في شعره"[٦٦].

ويقول محمود شاكر: "نحن لا ننفي عن أبي الطيب التأثر بالفلسفة .. وكيف يكون ذلك؟ والدنيا يومئذ موج متلاطم بالجدل والخصام، والعلماء يومئذ كثيرون وأصحاب المذاهب الغريبة متوافرون، وأصحاب الجدل مغرمون بإقامة الشبهة وردّها بالحجة والبرهان العقلي الذي اختلطت به الفلسفة وصارت أصلاً من أصوله"(٦٧).

ويقول شكري عياد: " شغف المتنبي بحكمة الفلاسفة أظهر من أن يبرهن عليه"(٦٨).

وإلى مثل ذلك يذهب بروكلمان فيقول: وقد تأثرت حكمه الشعرية التي نالت كبير الإعجاب، بالمحصول الفكري للفلسفة الإغريقية، التي كانت واسعة الانتشار في عصره"(٦٩).

وإذا كان معظم الباحثين قد اتفقوا على أنَّ المتنبي تأثر بفلسفة اليونان فإنهم قد اختلفوا وتباينت آراؤهم عند محاولة تقييم هذا التأثر على الصعيد الفني... فقد رأى صاحب يتيمة الدهر أن من معايب شعر المتنبي ومقابحه خروجه عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة(٧٠). وإلى مثل ذلك يذهب صاحب كتاب (الصبح المنبي) (٧١).

ويقول حسين المرصفي: " مسلم بن الوليد وحبيب بن أوس وأبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري قوم تكلفوا البديع، وأخضعوا المعنى للفظ، وتعمقوا في درس مذاهب الفلسفة، ولم يخلُ كلامهم من يونانية تباعد بينهم وبين مذاهب العرب البادين، فدرسهم خطل، والعناية بهم حمق، والإعراض عنهم إلى الشعراء المطبوعين إصابة وتوفيق"(٧٢). أما شوقي ضيف، فيقول: " وكان المتنبي يلفتنا إلى شيء مهم في العقلية العربية وقابليتها للتفكير اليوناني في أثناء القرن الرابع، فإنها تخلفت في كثير من جوانبها عن هذا التفكير، وبخاصة في هذا الجانب الفني من الشعر الذي نقرؤه عند المتنبي وأضرابه، إذ نرى الفلسفة لا تحدث طرافة ولا تنوعًا في الأفكار إلا آمادًا ضيقة إنما ينصبّ تأثيرها على جانب شكلي، جانب العبارات والأساليب"(٧٣).

إذًا فقد رأى هؤلاء الباحثون أنّ الفلسفة اليونانية إنما تركت أثرًا سلبيًا في شعر المتنبي فمالت به إلى التعقيد والإغراب، ومن ثمَّ ابتعد عن روح الشعر العربي.

على الطرف الآخر يقف جملة من الباحثين رأوا في تأثر المتنبي بالفلسفة وجهًا من وجوه الإبداع والعبقرية، إلى مثل ذلك ذهب صاحب الرسالة الحاتمية الذي رأى في هذا التأثر دليلاً على غزارة علم الشاعر وتعمقه واطلاعه، ومن ثمَّ دليلاً على نبوغه وشاعريته(٧٤).

ويقول بلاشير (وقد بالغ في تقييمه الإيجابي لهذا الأثر): " ومهما يكن من شيء فإن رسالة الحاتمي الأخيرة تتميز عن غيرها في الموضوع نفسه في أنها لفتت أنظار الجمهور إلى المظهر الوحيد الجذاب في أعمال المتنبي الشعرية وهو المظهر الفلسفي"(٧٥).

ونحن نرى من خلال ما قدمناه في هذا البحث أن الذين نظروا إلى تأثر المتنبي بالفلسفة على أنه عيب من العيوب، إنما ينطبق على ما ذكرناه من التأثر الواضح، وهو الذي يتعلق بالصياغة والأسلوب وبعض المعاني التي نقلها المتنبي إلى الشعر، نقلاً لم يضف إليها شيئًا من رونق الشعر وبهائه، فبدت كأنها مجتلبة بشكلها الفلسفي "المعقلن".

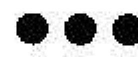
أما الذين رأوا في هذا الأثر الفلسفي دليلاً على

عبقرية المتنبي ونبوغه فيمكننا أن نقبل هذا الرأي إذا ما طبقناه على الأثر الخفي الذي تركته الفلسفة في فكر المتنبي وآرائه، وقد تحولت إلى جزء من تكوينه الثقافي فبدت في شعره وكأنها إبداع وخلق.

على أية حال كان المتنبي يمثل في ثقافته وتصنعه وجهًا من وجوه العصر العباسي في القرن الرابع الهجري، حيث وجدت الثقافات الأجنبية مكانًا لها عند الشعراء والمبدعين، فكان أن تمثل المتنبي هذه الثقافات وصبّها في قوالب شعرية فأجاد وقصّر، ولكنه في كلتا الحالتين كان صادقًا في التعبير عن طبيعة الفن الشعري في عصره، وكفى بها ميّزة تجعل منه شاعرًا عظيمًا لا يخبو ذكره مع الأيام ... أو ليس هو القائل:

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جرَّاها ويختصم



الحواشي

١- ظهر الإسلام (م١):٢/١١.
٢- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي:٢٠.
٣- مع المتنبي (من تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني (م ٣):٤٠.
٤- الفن ومذاهبه في الشعر العربي :٣٠٢-٣٠٤.
٥- خزانة الأدب: ٢/٣٤٨.
٦- أبو الطيب المتنبي: ٤٩.
٧- المصدر نفسه: ٣٠٦.
٨- المصدر نفسه: ٣٠٨.
٩- المصدر نفسه: ١٨٨.
١٠- تراث الإنسانية (م١):٥-٦.
١١- الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ٣٢٥.
١٢- كتاب أرسطوطاليس في الشعر:٢٨٤.
١٣- الأعلام (م٧): ٢٠.
١٤- مع المتنبي: ١٧٧.
١٥- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية:٢٨-٢٩.
١٦- ديوان المتنبي (م١):١/١٧٠.
١٧- تراث الإنسانية: (م١):١٢.
١٨- ديوان المتنبي(م١):١/٢١٣.
١٩- ديوان المتنبي (م٢):١/٢٠٨.
٢٠- ديوان المتنبي (م٢): ٢/١٥١.
٢١- إغاثة اللهفان:٢٥٥.
٢٢- خزانة الأدب (م٢): ٣٤٨-٣٤٩.
٢٣- تاريخ الفلسفة اليونانية: ٤٨.
٢٤- مع المتنبي :٤٨-٤٩.
٢٥- المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب :٦٢.
٢٦- الفن ومذاهبه في الشعر العربي :٣٠٩.
٢٧- المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب:٦٣-٦٤.
٢٨- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية:٢٦٣.
٢٩- المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب: ٢٢٧.
٣٠- تاريخ الفلسفة اليونانية: ١٤٠ - ١٤٧.
٣١- الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ٣٢٧.
٣٢- تاريخ الفلسفة اليونانية:١٣١.
٣٣- موسوعة الفلسفة:١/٩٨.
٣٤- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية:١/١٢٨.
٣٥- الملل والنحل: ١٨٧-١٩٨.
٣٦- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية: ٣٠٧-٣١٠.
٣٧- المصدر السابق:١٩٨.
٣٨- تاريخ الفلسفة اليونانية:٢٣.
٣٩- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية: ٢٤٠.
٤٠- ملامح يونانية في الأدب العرب:١٥٩.
٤١- الرسالة الحاتمية من كتاب (البديع في نقد الشعر) أسامة بن منقذ:٣٩٠.

٤٢- بلاشير .المتنبي: ٣٧٩.

٤٣- الرسالة الحاتمية:٣٧٧.

٤٤- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية:٧٥.

٤٥- ربيع الفكر اليوناني:٥٣.

٤٦- خريف الفكر اليوناني:٢٦-٢٧.

٤٧- المصدر السابق:٢٤٠.

٤٨- ديوان المتنبي : م٢، ٢/١٧٤.

٤٩- الجمهورية:١٢٥، الأخلاق:٤٠٤.

٥٠- ديوان المتنبي:م١، ١/٩٩.

٥١- ديوان المتنبي: م١، ٢/٤٩.

٥٢- انظر: محمد عبد الرحمن مرحبا، المصدر السابق:١٥٤. مؤلفات أرسطو. عبد الرحمن بدوي/ موسوعة الفلسفة:١/١٥٧، مؤلفات أفلاطون.

٥٣- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام: ٢٣٧، ٢٦١.

٥٤- وردت هذه اللفظة في الديوان:٢١٠ مرات.

٥٥- ديوان المتنبي:م١، ١/٢٧٦.

٥٦- ديوان المتنبي: م١، ١/٣٥.

٥٧- ديوان المتنبي: م١، ٢/٢٩٢.

٥٨- السياسة:٩٦.

٥٩- السياسة: ١٠١ -١٠٣.

٦٠- ديوان المتنبي: م١، ٢/٣٢؟

٦١- الأخلاق:٨٥.

٦٢- ديوان المتنبي: م١، ١/٢٨١.

٦٣- ديوان المتنبي: م١، ٢/١٩.

٦٤- ملامح يونانية في الأدب العربي:١٥٤.

٦٥- الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ٣٢٥.

٦٦- ملامح يونانية في الأدب العربي:١٦٣.

٦٧- المتنبي :١٨٨

٦٨- فن الشعر لأرسطو: ٢٨٤.

٦٩- تاريخ الأدب العربي بروكلمان:٢/٨٣-٨٤.

٧٠- يتيمة الدهر:١/١٧٢.

٧١- الصبح المنبي:٢٨٦.

٧٢- تجديد ذكرى أبي العلاء (من تاريخ الأدب العربي): م٢ /٣٦٦.

٧٣- الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ٣٣٣.

٧٤- ملامح يونانية في الأدب العربي:١٥٤.

٧٥- المتنبي: ٣٧٩.

المصادر والمراجع

- **أبو الطيب (الديوان) بشرح أبي البقاء العكبري**، للمتنبي، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- **الأخلاق**، لأرسطو، تر. إسحق بن حنين، تح. د. عبد الرحمن بدوي، ط١، وكالة المطبوعات - الكويت، ١٩٧٩.
- **الأعلام (قاموس تراجم)**، لخير الدين الزركلي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٨٠م.
- **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، لأبي عبد الله بن أبي بكر ابن قيّم الجوزيّة، تح. محمد حامد الفقي، ج٢، دار الفكر.
- **البديع في البديع في نقد الشعر**، لأسامة بن منقذ، تح. عبد آ. علي مهنا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٨٧.
- **تاريخ الأدب العربية**، لكارل بروكلمان، تر. د. عبد الحكيم النجار، ط٤، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار المعارف بمصر.
- **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام**، لمحمد علي أبو ريّان، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، ١٩٧٦.
- **تاريخ الفلسفة اليونانية**، ليوسف كرم، ط٥، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
- **خريف الفكر اليوناني**، لعبد الرحمن بدوي، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩.
- **خزانة الأدب ولب الألباب**، لعبد القادر بن عمر البغدادي، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **ربيع الفكر اليوناني**، لعبد الرحمن بدوي، ط٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- **السياسة**، لأرسطو، ترجمه من الفرنسية إلى العربية أحمد لطفي السيد،، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.
- **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، ليوسف البديعي، تح. مصطفى السقا، محمد شتا، عبده زيادة، ط٢، دار المعارف، ١٩٧٧.
- **ظهر الإسلام**، لأحمد أمين، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ١٩٤٥م.

أثر الفلسفة اليونانية في شعر المتنبي

- **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، لشوقي ضيف، ط١، (الطبعة الأولى عام ١٩٤٣)، دار المعارف، مصر.
- **في الشعر**، لأرسطو، تح. وتر. د. شكري محمد عياد، ١٩٥٢.
- **المتنبي**، لمحمود محمد شاكر، دار المدني (جدة) / مكتبة الخانجي (مصر) ١٩٨٧م.
- **المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب**، لعبد الرزاق محمد أسود، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت - لبنان، ١٩٨١.
- **مقالة ضمن سلسلة (تراث الإنسانية) صدرت عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، أصدرتها في سورية دار الرشاد الحديثة.
- **ملامح يونانية في الأدب العربي**، لإحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت ١٩٧٧م.
- **الملل والنحل**، لأبي الفتح الشهرستاني، عرض وتعريف: د. حسين جمعة. ط١، منشورات دار دانية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق / بيروت. ١٩٩٠م.
- **من تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)**، لطه حسين، ط٢، ١٩٧٨م.
- **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، لمحمد عبد الرحمن مرحبا، ط٣، منشورات عويدات، ديوان المطبعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣م.
- **موسوعة الفلسفة**، لعبد الرحمن بدوي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
- **النقد العربي القديم (قضايا وأعلام)**، لأحمد دهمان، منشورات جامعة البعث، ١٩٩٣م.
- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري الثعالبي، تح. محمد محيي الدين عبد الجبار، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م.





عمر الخيّام: شعره العربي

جمع وتحقيق ودراسة

د. يوسف بكّار
جامعة اليرموك - الأردن

القسم الأول: الدراسة

عاش الخيام في العصر السلجوقي، وكان من علماء المسلمين البارزين في القرن الخامس الهجري، ومن شعرائه كذلك. وهو واحد ممن يطلق عليهم في الأدب الفارسي " أصحاب اللسانين" الذين يتكلمون الفارسية والعربية ويكتبون بهما.

مما لا مرية فيه أن مردّ شهرة الخيام، في الأعصر الحديثة تحديدًا، هو رباعياته الفارسيّة التي لم يضمّها ديوان أو مجموع محدّد ولا يعرف - إلى الآن- عددها الحقيقي، وقد ترجمت بأعداد متفاوتة إلى ثلاثين لغة[1]، لا شكّ في أنها قد طغت على جوانبه العلميّة والمعرفيّة الأخرى، وصرفت الاهتمام عنها إلا في المسائل العلميّة المحضة.

لقد ثقف الحكيم - وهو أحد ألقابه الكثيرة- اللغة العربية وتعلّم بها وعلّم، وحاور بعض علماء عصره وناظرهم وأجاب عن أسئلتهم، ودوّن جلّ مؤلفاته العلميّة والفلسفيّة، وترجم منها إلى الفارسية، ونظم شعرًا عربيًّا، في حين أنه لم يشتهر كثيرًا في الأعصر القديمة بأنه شاعر، لا بما نظم من رباعيّات فارسيّة يكاد يوقن المحققون والباحثون الأثبات من الإيرانيين المحدثين أنها قليلة، ولا بشعره العربي القليل جدًّا، بل عرف كثيرًا واشتهر بعلوم الحكمة التي كانت تذهب آنذاك، إلى الفلك والرياضيّات والنجوم والطبيعيّات والفلسفة وما يتصل بها جميعًا[2].

وقد نُقل عن ظهير الدين البيهقي (٤٩٩-٥٦٥هـ) - في ما نقل - أن الخيّام " كان عالمًا باللغة والفقه والتواريخ"[3].

لربما حمل هذا القول، إلى جانب كتابات الخيّام العربية المتقنة كما وصلت إلينا، بعض المعاصرين من إيرانيين وعرب على الاعتقاد بأنه

كان " يجيد العربية إجادة الفارسية"[٤]، وأنه كان" متمكنًا في اللغة العربية"[٥]، ناهيك بأنّ لغة القرآن كانت وقتئذٍ لغة العصر. واللافت أنّ الزركلي وصفه بأنه " مستعرب"[٦].

-٢-

كان الخيّام يستفيد من حكماء عصره وعلمائه، كإفادته من الحكيم أبي الحسن الأنباري الذي قرّر له كتاب " المجسطي" في علم الفلك لبطليموس[٧].، وكجلوسه[٨] مستفيدًا بين يدي الإمام جار الله الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ) الذي قال:" وكان يجلس إلينا ويتسمّع الأوراد التي تُدرّس بين يديّ، وكان يقول لأصحابي: ألا أخبركم عن بصيرة وخبرة، إنَّ مثل هذا الترتيب والتحقيق لا يوجد في جميع المعمورة إلاّ في هذه الرقعة خاصة فاعلموا".

وتتلمذ، كذلك، على مؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا[٩]. وليس عليه شخصيًا كما فُهم خطأً[١٠] من قوله عن " الموجودات" في رسالة "الكون والتكليف": "..... ولعلي ومعلمي أفضل المتأخرين الشيخ الرئيس... قد أمعنا النظر فيها وانتهى بنا البحث إلى ما قنعت به نفوسنا.....".

ولقد كان للخيام، بإزاء ذلك، هؤلاء التلاميذ: الإمام الفيلسوف مشرف الزمان الإيلاقي[١١]، والحكيم علي بن محمد الحجازي[١٢] (ت٥٤٦هـ)، وأبو المعالي عبد الله بن محمد الميانجي[١٣].

إنّ ما ذكره البيهقي من تلامذة الخيام، إذًا يشي بسهمته وأثره في التعليم في زمانه، وإن فيه بعض المصادرة في هذا الأمر على قولته المتداولة كثيرًا عن الخيام" وله ضِنّة بالتصنيف والتعليم[١٤].

-٣-

إنَّ في أخبار الخيام في كتب التراث العربي القليلة التي عرضت له ما يؤكد مشاركته ومساهمته في معارف عصره وعلومه المختلفة سواء تلك التي خلّف فيها آثارًا مدوّنة أم التي لم يترك فيها إلا آثارًا شفوية تناقلتها الأخبار والمرويات.

لقد أنصفه - إلى حدّ كبير - مؤلفو هاتيك المصادر،وأشادوا بذكائه وفطنته وجهوده وفضله ومكانته العلميّة في العربية وعلومها كما يتجلّى في النقول الآتية:

- "كان تلو أبي علي (ابن سينا) في أجزاء علوم الحكمة"[١٥].
- " وأما أجزاء الحكمة من الرياضيّات والمعقولات فكان ابن بجدتها"[١٦].
- "وكان عديم القرين في زمانه في علم النجوم والحكمة، وبه يضرب المثل"[١٧].
- إمام خراسان وعلاّمة الزمان، يعلم علم يونان.."[١٨].
- "كان حكيمًا عارفًا بجميع أنواع الحكمة سيما نوع الرياضيّات"[١٩].
- "إذا عُدَّ حكماء خراسان فهو أزخرهم بحرًا، وأرفعهم قدرًا، وأطولهم في الرياضيات باعًا، وأقدرهم في القياسات الخطابيّة أنفاسًا"[٢٠].

-٤-

كان حُجة الحقّ - وذا لقب آخر مما لُقّب به قديمًا - موسوعيًا إذًا ككثيرين من علماء المسلمين القدامى. وقد أنجبت موسوعيته ومعرفته وتبصّره بعلوم العربية ضربين من آثاره باللغة العربية : شفوي لم يدوّن، بل دوّنت أخباره أو أخبار أكثره، وتواليف مدوّنة.

٤-١ :

فأما آثاره وإسهاماته الشفوية فتتمثل في:

أولاً:

يروى[٢١] أنه دخل يومًا على شهاب الإسلام الوزير[٢٢] عبد الرزاق بن أبي القاسم عبد الله بن علي بن أخي نظام الملكِ ترْب الخيام وصديقه، وكان عنده الفرّاء أبو الحسن ابن الغزال[٢٣] وهما يتكلمان في اختلاف القرّاء في آية، فقال الوزير: على الخبير سقطنا. فسئل الإمام عمر عن ذلك، فذكر وجوه اختلاف القرّاء، وعلّل كلّ واحد، وذكر الشواذ وعلّلها، وفضّل وجهًا واحدًا على سائر الوجوه. فقال الغزال: كثر الله في العلماء مثلك، اجعلني من أُدْمة[٢٤] أهلك، وارضَ عني، فإنني ما ظننت واحدًا من القرّاء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه فضلاً إلى واحد من الحكماء.

ثانيًا:

يروي البيهقي[٢٥] أنه هو نفسه دخل مع والده على الخيام فسأله عن بيت الحماسة:

ولا يَـرْعـوْن أكـنـاف الـهـوينـا
إذا حـلّـوا ولا أرض الـهُـدُونِ[٢٦]

وهو البيت السابع والأخير من حماسية لأبي الغول الطُّهوي من شعراء الدولة المروانية(٢٧)، فأجاب البيهقي: " الهوينا: تصغير لا تكبير له[٢٨] كالثّريا والحميّا. والشاعر يشير إلى عزّ هؤلاء ومنعتهم، يعني لا يسفون إذا حلّوا مكانًا، إلى التقصير ولا إلى الأمر الحقير، بل يقصدون الأسدَّ فالأسدَّ من معالي الأمور".

ثالثًا:

يذكر صاحب " تتمة صوان الحكمة[٢٩] عن القاضي الإمام عبد الرشيد بن نصر بن الحسن أنه اجتمع بالخيّام مرّة في مدينة "مرو"[٣٠]، فسئل عن معنى " المعوذتين" وسبب تكرار ألفاظهما، فاندفع يسرد كل قول نادر ويورد كل شاهد شارد، حتى أتى بما لو جُمع لبلغ حجم مجلد، ويعلّق : " هذا مقامه المحمود في التفسير مع أنه لم يمتط غاربه".

رابعًا:

تنبئ الأخبار عن مناظرات علمية له مع معاصريه ممن كانوا يتعاطون العلوم، كمناظراته مع " أبي حاتم المظفر الأسفزاري" وإن كان يغلب عليه " علوم الهيئة وعلم الأثقال والحيل[٣١].

أخيرًا:

يندرج في هذا ما كان يوجّه إليه من أسئلة علميّة في مناسبات عرَضيّة وإجاباته عنها، كالذي يقال إنَّ حجة الإسلام الغزالي سأله عن تعيين جزء من أجزاء الفلك القطبيّة دون غيرها[٣٢]. والذي يقال إنَّ الملك العادل علاء الدولة (فرامرز بن علي بن فرامرز) ملك الري الذي كان ينافح عن رأي الحكيم أبي البركات بن ملكا هبة الله بن علي (٤٨٠-٥٦٠هـ) الطبيب البغدادي[٣٣] صاحب كتاب " المعتبر"، سأل الخيام رأيه عن اعتراضات الحكيم على كلام ابن سينا، فأجاب " أبو بركات لا يفهم كلام أبي علي، وليست له رتبة الإدراك لكلامه، فكيف يكون له رتبة الاعتراض عليه وإيراد الشكوك على كلامه؟". بيد أن الملك لم يعجبه الجواب، فجعل يجادل الخيام معترضًا عليه بكلام غلامه (الدواتي) الذي كان يذهب إلى أن لابن ملكًا رتبة الاعتراض والإدراك والزيادة، وقال حنقًا " تتكلم بما لا يزيد به كلامك على كلام مملوك، ولا تميل إلى سفاهةٍ، غلامي أقدر عليها منك". فسكت الخيام[٣٤]!.

٢-٤ :

أما في التأليف، فقد خلّف عددًا من التواليف بالعربية في علوم الحكمة بالمعنى المصطلحي القديم كان لها، وما زال، أهميتها التي جعلت من

صاحبها عالمًا ذا جهود جليّة في علوم عصره في النظرية والتطبيق:

ففي العلوم الطبيعية ترك كتابًا في صنعة "ميزان الحكمة" أدرجه عبد الرحمن الخازني (من القرن السادس الهجري) في " كتاب ميزان الحكمة"[٣٦]. لمجموعة من الحكماء.

ويذكر البيهقي له " مختصرًا في الطبيعيّات"[٣٦]، إضافةً إلى " رسالة في الوجود" و"رسالة في الكون والتكليف" فقط. ويبدو أنّ هذه الآثار الثلاثة هي التي دعته إلى قولته " وله ضنّة بالتصنيف والتعليم".

وله في الرياضيات:

(١) رسائل الخيّام الجبريّة[٣٧].

(٢) رسالة في شرح ما أشكل من مصادرات كتاب إقليدس[٣٨].

(٣) في مقالة " الجبر والمقابلة ما يشي بكتاب مفقود خصّصه، كما يفهم من كلامه لاستخراج الجذر النوني والبرهان عليه[٣٩].

حسب الخيام بالإضافة إلى شهادات القدماء السالفة، شهادة عالم رياضيات حديث في مؤلفاته في الرياضيّات، فهي: من أهم آثار ما كتب بالعربية من رياضيات، ومن أبعدها صوتًا في تاريخ الفكر الإنساني، ومن ثم فهي من أجدر ما تحتويه كنوز السلف بالعناية والاهتمام"[٤٠].

وحسبه، كذلك، ما ألف في جبره من كتب حديثة، من مثل[٤١]: " جبر عمر الخيام" لداود .س. قصير (نيويورك ١٩٣١)، و"جبر عمر الخيام" لونتر وعرفات(١٩٥٠).

وكان مجليًّا في الفلك والنجوم، لكن آثاره المدوّنة فيها قليلة. فثمة خبر عن زيج ملكشاهي"[٤٢]، وهو كتاب يحسب منه سير الكواكب، ويستخرج التقويم أي حساب الكواكب لسنة سنة"[٤٣].

وتتناقل بعض المصادر العربية أخبارًا تنمّ على جهود علميّة له في علم النجوم. ففي عام ٤٦٧هـ كان أحد أعيان المنجمين الذين عملوا الرصد للسلطان ملكشاه السلجوقي[٤٤]، الذي أعطاه مالاً كثيرًا ليشتري به آلات الرصد؛ وظل الرصد دائرًا إلى أن مات السلطان عام ٤٨٥هـ[٤٥].

وكان ملكشاه ينزله منزلة الندماء ويجلّه، وكذلك كان الخاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه غاية التعظيم ويجلسه معه على سريره[٤٦].

ونسب إليه صاحب " تاريخ الألفي" كتاب (لوازم الأمكنة)"، وهو في فصول السنة وعلة اختلاف الجو في البلاد والأقاليم[٤٧].

وكان يتعاطى الطبّ، وربما كان يحتذي فيه آراء الرازي وابن سينا[٤٨]، وإن لم يصل إلينا أي مؤلف طبي له؛ لكن يروى أنه دخل يومًا على السلطان "سنجر"[٤٩]، وهو صبي قد أصابه الجدري. فلما خرج من عنده قال له الوزير مجير الدولة[٥٠]: كيف رأيته، وبأي شيء عالجته؟ قال عمر: الصبي مخوف. ففهم ذلك خادم حبشي ورفعه إلى السلطان. فلما برئ السلطان أضمر، بسبب ذلك، بغض الخيام، وكان لايحبّه[٥١].

-٥-

للخيام بالعربية جهود فلسفية أكثر مما له بالفارسية، علمًا أنه هو نفسه ينفي أن يكون فيلسوفًا في رباعية فارسية إن صحّت نسبتها إليه، ترجمتها[٥٢]:

غلط العدو إذ زعم أنني فيلسوف

فالله وحده يعلم أنني لست كما قال.

أو ليس يحقّ لي، في الأقل، أن أعرف من أنا

بعد أن وجدتني في دنيا غم وهم"؟!

غير أنَّ بعض الباحثين[٥٣]، وعددًا من مترجمي الرباعيات والدارسين العرب[٥٤] عدّوه فيلسوفًا، واستشفوا مناحي فلسفته من خلال العدد الكبير من الرباعيات المرفوعة إليه، وفي هذا ما فيه!! لأنَّ الرعبّات الخياميّة الأصلية لمّا تعرف!.

مهما يكن الأمر، فقد ترك في الفلسفة خمس رسائل: واحدة بالفارسيّة عنوانها "كليات وجود" (كليات الوجود) والأربع الأخرى بالعربية[٥٥]، هي:

(١) رسالة الكون والتكليف.

(٢) الجواب عن ثلاث مسائل: ضرورة التضاد في العالم والجبر والبقاء.

(٣) الضياء العقلي في موضوع العلم الكلي.

(٤) رسالة الوجود.

ويُسلك في الجهود الفلسفية ترجمة الخيام العربية "خطبة"[٥٦] لابن سينا وسمت بهذه العنوانات: "خطبة التوحيد" و"الخطبة الغراء" و"الخطبة التمجيدية" و"خطبة تفسير سبحان الملك القهار". وهي تدور على "التوحيد وتنزيه الخالق سبحانه عن أن يوصف بكيف فيُشابه ويُضاهى، ولا بكم فيُقدّر ويجرى"، وعلى خلق الله عزّ وجلّ، الكون وما فيه.

يقال إنَّ الخيام ترجمها عام ٤٧٢هـ تلبية لاستدعاء "جماعة من الإخوان بأصفهان" كما يقول. ويقال إنه لم يكتف بترجمة الأصل، بل كان يضيف بعض الشروح إلى كلّ بندٍ من بنودها[٥٧]!.

ذكر جلال الدين همائي أنَّ للخيام كتابًا خطيًّا بعنوان "شرح المشكل من كتاب الموسيقى"[٥٨]. قد يكون هو مخطوط "رسالة في الموسيقى" التي ذكرها الزركلي، وقال: "إنها ثلاث ورقات في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة[٥٩]؛ بيد أنَّ عبد المنعم الحنفي يذكر أنه لم يعثر عليها فيه[٦٠].

ويقود الكلام في الموسيقى إلى الخيّام الشاعر وشعره، فاللافت أنّه لم يذكر شاعرًا في المصادر القديمة جدًا، ربما لأنَّ معاصريه عدّوا شعره لا شيء بإزاء فضائله الأخرى[٦١]، وأنه هو نفسه لم يشر في أيّ من آثاره إلى أنه شاعر أو يورد شيئًا لا من رباعيته الفارسيّة ولا من شعره العربي. حتى تلميذه ومعاصره نظامي عروضي سمرقندي صاحب " جهار مقالة" (المقالات الأربع)[٦٢]، وهو أقدم مصدر ذكر الخيام، لم يتحدث عنه شاعرًا في المقالة الثانية "ماهية الشعر وصلاحية الشاعر"، بل تكلم عليه منجمًّا في المقالة الثالثة في علم النجوم وغزارة المنجّم فيه". ولربما التفت العماد الأصفهاني إلى هذا حين قال عن الخيام " وكان عديم القرين في زمانه في علم النجوم والحكمة".

كان العماد الأصفهاني (٥١٩-٥٩٧هـ) في "الخريدة" (قسم شعراء العجم، الذي ألفه في حدود عام ٥٧٠هـ - أي بعد ما يزيد بنحو خمس سنوات على نصف قرن من وفاة الخيام، كان أول من لفت الانتباه إلى الخيام الشاعر إذ أورد له مقطوعة عربية من أربعة أبيات أنشدها بأصفهان، مطلعها[٦٣]:

إذا رضيتْ نفسي بميسور بُلْغةٍ

تحصّلها بالكدّ كفّي وساعدي

وكان الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) أول من أورد له رباعية فارسيّة في رسالة " التنبيه على بعض الأسرار المودعة في بعض سور القرآن العظيم"[٦٤].

وجاء شمس الدين الشهرزوري (ت بعد عام ٦٨٧هـ) ليشير إلى أشعار للخيام بالفارسية والعربية بقوله له "أشعار حسنة بالفارسية

والعربية[٦٥]، وذكر بعض الأبيات العربية كما هو آتٍ، لكنه لم يذكر شيئاً من الأشعار الفارسية.

إنَّ كلّ هذا وشعر الخيام العربي يفنّد ظنّ بعض الخيّاميين العرب خطأً " أن كل أشعار الخيام مكتوبة باللغة الفارسية على بحر دوبيت"[٦٦].

المهم أنّ للخيام شعرًا بالعربية قد لا يعلم عنه كثيرون، هو الذي لاحقته في مصادر ترجمته القديمة والكتابات الحديثة عنه، وجمعت منه ما لم يتسنّ لأحد قبلي من الباحثين في الخيام ودارسيه إيرانيين وعربًا وأجانب وهم كثر، فتيسر لي منه واحد وثلاثون بيتًا، ناهيك بما ابتلي به من تصحيف وتحريف عند عدد منهم[٦٧]، ثمّ حقّقته تحقيقًا علميًّا كما هو آت.

يتوزع شعره العربي على قصيدة داليّة في سبعة أبيات، وخمس مقطوعات: واحدة في خمسة أبيات، وأخرى في أربعة، وكلّ من الثلاث الباقية في ثلاثة؛ وعلى ثلاث "نُتف" مجموعها ستة أبيات.

من ينعم النظر في هذه الأشعار لا يعدم أن يتبين أنّها مضمونيّة دلاليّة لما في بعضها من رموز وإشارات تاريخيّة تنم على سوءات عصر الشاعر، وعلى موقفه من الدولة الحاكمة آنذاك، ومن شكوى من الزمان وناسه، من حيث الكيد والغدر والتربص وقلة الوفاء؛ وإن لم يخلُ بعضها من جماليات الصور البيانيّة التشبيهيّة البسيطة كما هو شأن أشعار العلماء عادةً، ومن التأثير القرآني لفظًا ومعنىً.

فالنصّ الأول (أظلّت رياح الطارقات....) ترمز مصطلحاته الفلكيّة التي كان الخيّام ابن بجدتها، إلى ظلم الدولة واستبدادها، وهو ما يتجلى في البيت الأخير تحديدًا:

لذاك تمادت دولة اللؤم وانبرت

بنو الترك يبغون السماء مصاعدا

ولعل البيتين الرابع والخامس من النص الثاني (إذا رضيت نفسي...) يعزّزان هذا الموقف الذي حمل الشاعر على التغنّي بالقناعة والرضى بالكفاف وترك الدنيا الزائلة ومباهجها، وهو ما يتردد صداه في النص الخامس (العقل يعجب..)

فأما النص الرابع (تدير لي الدنيا...) فهو واضح الدلالة على طهر الخيّام وعفافه وإيمانه بالله، عزّ وجل، وتقواه وسلوكه القويم، وكلها سمات ومحامد تتعضّد بالبيت الأخير من النص السابع:

وقد علم الله اعتقادي وأنني

أعوذ به من شرّ ما أنا فيه!

فهذا جأر صراح من مكائد الناس ودسائسهم وحسدهم، لأنه كان سبّاقًا بفكره وتفوقه في العلوم الحكيمة المختلفة وبعلو همّته، وهي جميعًا كانت منارات للهدى في ليالي الآخرين المدلهمّة، الذين كانوا يدأبون على إطفائها والتصدي له والوقوف في وجه نجاحاته، كما يتجلى في النص الثامن (سبقت العالمين...).

إنَّ شعر الخيام العربي هذا - على قلّته- مهم ولافت، وحافز لمزيد من البحث عن حقيقة الخيام بالفارسية والعربية معًا، من حيث "عدد" الأشعار ومضامينها. فقضية الرباعيّات الحقيقية الأصلية ما زالت هاجس الخيّاميين الإيرانيين، وغير الإيرانيين. ولقد اجتهد كثيرون للوصول النسبي إليها اعتمادًا على مصادر وأصول أوثق وأقرب إلى عصر الشاعر، وعلى أخبار أدق وآثار أخرى له آكد. من هؤلاء: المستشرق الدانماركي آرثر كريستنسن[٦٨] Arthur Christensen، والخيّاميّون الإيرانيون: محمد علي فروغي والدكتور قاسم غني[٦٩]، وصادق هدايت[٧٠]، وعلي دشتي. فإذا ما راعينا ما توصلوا إليه أو بعضه عن أعداد

الرباعيات التي تقلّ عن المائتين عددًا عند أكثرهم دون أن تسلم من مظنّة الشكّ، ووضعنا في الحسبان الرباعيات الست والستين التي جعلها فروغي معيارًا لعدد رباعياته الـ(١٧٨) التي اصطفاها لمجموعته، إذا ما راعيناه نجد حدًّا أكثر من التناسب بين شعر الخيام العربي وبعض شعره الفارسي. حينئذ يغدو رأي علي دشتي في شعره الفارسي قابلاً للتطبيق على شعره العربي القليل. يقول" كان الخيام يجود، على اشتغاله بالفلسفة والرياضيات، بتأملاته الروحيّة وانفعالات خاطرة الفلسفية في قالب رباعيات بين الحين والحين، وأنه كان يصوغ هذه الرباعيات المعدودة، وهي مرآة نفس قلقلة متفكرة، مثلما يصوغ الشعراء أشعارهم ويدوّنها باسمه[٧١].

-٧-

يتجلى من آثار الخيام جميعًا بضربيها الشفوي والمدوّن ما كان له من سهمة كبيرة وخدمات جليلة في أكثر علوم العربية بالعربية نفسها، لاسيما العلوم الحكميّة التي كان يراها ضرورية جدًّا من حيث الحاجة إليها في نفسها، ومن حيث التوصل ببعضها إلى التثبت من مسائل كثيرة في الكون والإنسان. ولولا عوائق منيعة ألمع إليها الحكيم نفسه في شعره العربي، وفي مقدمات آثاره العلمية، لكانت جهوده أكبر وأوسع وأشمل. يقول في مقدمة" مقالة في الجبر والمقابلة: " واني، ولم أزل، كنت شديد الحرص على تحقيق جميع أصنافها (المجهولات العدديّة والمساحيّة) وتمييز الممكن من الممتنع في أنواع كلّ صنف ببراهين لمعرفتي بأنّ الحاجة إليها في مشكلات المسائل ماسة جدًّا.

ولم أتمكن من التجرد لتحصيل هذا الخير والمواظبة على الفكر فيه لاعتراض ما يكون يعوقني عنه من صروف الزمان. فإنّا مُنينا بانقراض أهل العلم إلاّ عصابةً قليلي العدد كثيري المحن، همّهم افتراص غفلات الزمان ليتفرغوا في أثنائها، إلى تحقيقٍ، وإتقان علم.

وأكثر المتشبهين بالحكماء في زماننا هذا يلبسون الحقّ بالباطل، فلا يجاوزون حدّ التدليس والترائي بالمعرفة، ولا ينفقون القدر الذي يعرفونه من العلوم، إلاّ في أغراض بدنيّة خسيسة، وإن شاهدوا إنسانًا معنيًّا بطلب الحقّ وإيثار الصدق، مجتهدًا في رفض الباطل والزور وترك المراءاة والخداع، استحمقوه وسخروا منه والله المستعان على كلّ حال وإليه المفزع".

ويقول في مقدمة " رسالة في شرح ما أشكل من مصادرات إقليدس:" إنَّ تحقيق العلوم وتحصيلها بالبراهين الحقيقية مما يفترض على طالب النجاة والسعادة الأبديّة، وخصوصًا الكليات والقوانين التي يتوصل بها إلى تحقيق المعاد وإثبات النفس وبقاياها، وتحصيل أوصاف واجب الوجود ، تعالى جدّه، والملايكة وترتيب الحقّ، وإثبات النبوة والسيد المطاع بين الخلق الآمر والناهي إياهم بإذن الله تعالى بحسب طاقة الإنسان...".

ويتبدّى منها ومن الأخبار التي واكبتها أنّ الخيام، بعكس ما هو شائع، أفاد من نَفَرٍ من خيرة علماء زمانه وحكمائه، وتلمذ لبعضهم مباشرة أو بقراءة أعمالهم؛ وأنه كان له هو عدد من التلاميذ والمريدين.

إذا ما تأملنا آثاره العربية جميعًا تأملاً مليًّا مشفوعًا بجلّ ما تناقلته مصادر التراث العربي عنه من أخبار وروايات نجد أنها - لا سيما الرسائل الفلسفية ومقدمات الرسائل العلمية وشعره العربي - هي التي قد تمثل عمر الخيام الأقرب إلى الحقيقة والواقع مما تصوره الأعداد الكثيرة من الرباعيات التي لا يعرف - حتى الآن -

عددها الصحيح، ولا الثابت النسبة منها إليه، وهي التي اعتمدها كثيرون بقضّها وقضيضها في الحكم على الرجل عقيدة وسلوكًا وفكرًا، وجاسوا خلالها لينسبوه إلى الكفر والإلحاد، والباطنية، ومذهب اللّذة والأبيقورية، واللاأدرية، والتناسخ، والتصوف، وما إلى ذلك.

يضاف إلى هذا ما أسبغ على الرجل من ألقاب تشي كلها بالصلاح والحكمة والسداد، هي: الإمام، والدستور، وحجة الحق، وفيلسوف العالم وسيّد حكماء المشرق والمغرب، وما في بعض آثاره الفارسية[٧٢]. من بسملةٍ وحمد الله وشكره والاستعانة به. يقول في الجبر والمقابلة" - وهو مؤلف علمي - مثلاً بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة على الأنبياء وخصوصًا على محمد وآله الطاهرين أجمعين". يعزّز هذا ما رواه البيهقي[٧٣]: " وحكى له ختنه الإمام محمد البغدادي أنه كان يتخلّل بخلال من ذهب، وكان يتأمل الإلهيات من الشفاء، فلمّا وصل إلى فصل الواحد والكثير وضع الخلال بين الورقتين، وقال ادع الأزكياء حتى أوصي . فوصّى، فقام وصلى، ولم يأكل ولم يشرب. فلمّا صلّى العشاء الأخيرة سجد، وكان يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم أني عرفتك على مبلغ إمكاني. فاغفر لي، فإنّ معرفتي إياك وسيلتي إليك ومات".

القسم الآخر: الشعر:

(١)

(من الطويل)

أظلّت رياحُ الطارقات رواكدا
أم انطبقت منها الجفون رواقدا؟
تحلّلت الأفلاكُ أمْ راثَ دوْرها
فَصِرْن حيارى قد ضلَلْنَ المراشدا
كأن النجومَ السائرات توقفتْ
عن السَّيْر حتى ما بَلَغْنَ المقاصدا
ففي قلب "بهرام" وجيبٌ وَروْعَةٌ
وكيوانُ أعشى ليس يَرْعى المراصدا
لذلك تمادت دَولةُ اللؤم وانبرتْ
بنو الترك يبغُون السَّماءَ مصاعِدا

(٢)

(من الطويل)

١إذا رضيت نفسي بميسور بلغة
يحصلها بالكد كفي وساعدي
٢أمنت تصاريف الحوادث كلها
فكن يا زماني موعدي أوْ مواعدي
٣وهبني اتخذت الشعريين منازلي
وفوق مناط الفرقدين مصاعدي
٤أليس قضى الأفلاك من دورها بأن
تعيد إلى نحس جميع المساعد؟
٥فيا نفس صبراً في مقيلك ريثما
تجر ذراه بانتقاض القواعد
٦متى ما دنت دُنياك كانت قصيَّة
فواعجبًا من ذا القريب المُباعد!
٧إذا كان محصول الحياة منيَّة
فسيان حالاً كلُّ ساعٍ وقاعدِ

(٣)

(من الطويل)

١وما ساقني فقر إليك وإنما
أبى لي عُزوف النَّفْس أن أعرفَ الفقرا
٢ولكنني أبغي التَّشرُّف إنه
سجية نَفْسٍ حرَّةٍ مُلِئَتْ كِبرا

(٤)

(من الطويل)

١تدين لي الدنيا، بل السَّبْعةُ العُلى
بل الأُفُقُ الأعلى إذا جاش خاطري
٢أصوم عن الفحشاءِ جهرًا وخفيةً
عَفافًا، وإفطاري بتقديس فاطري
٣وكم عُصبةٍ ضلّت عن الحقِّ فاهتدت
لطُرْقِ الهدى من فيضيَ المُتقاطرِ
٤فإنّ صراطي المستقيم بَصائرٌ
نُصبْنَ على وادي العمى كالقناطر

(٥)

(من الكامل)

١العقلُ يعجب في تصرُّفه
ممَّن على الأيام يتَّكِلُ
٢فنوالها كالريح مُنقلبٌ
ونعيمها كالظل منتَقِلُ

(٦)

(من البسيط)

١زجَّيْتُ دهرًا طويلاً في التماس أخٍ
يرعى ودادي إذا ذو خُلَّةٍ خانا
٢فكمْ ألفْتُ، وكم آخيتُ غَيْرَ أخٍ
وكم تَبدَّلْتُ بالإخْوانِ إخوانا
٣وقُلْتُ للنَّفْسِ لمّا عَزَّ مَطْلَبُها
باللهِ لا تألفي، ما عِشْتُ، إنسانا

(٧)

(من الطويل)

١متى ما تُخالِطْ عالَمَ الإنْس لم يَزَلْ
بسَمْعِكَ وَقْرٌ من مقالِ سفيهِ
٢إذا ما الفتى لم يَرُمْ شَخْصكَ عامِدا
بكفيّه عن ضِغْنٍ رَمَاك بفيهِ
٣وقد علم الله اعتقادي وأنني
أعوذُ به من شر ما أنا فيهِ!

(٨)

(من الوافر)

١سبقتُ العالمين إلى المعالي
بصائبِ فكرةٍ وعُلُوَ همَّهْ
٢فلاح بحكمتي نورُ الهدى في
ليالٍ للضَّلالة مُدلهِمَّةْ
٣يريد الجاحدون ليطفئوها
ويأبى الله إلاّ أن يتمَّه

(٩)

(من الوافر)

١ولو أعطاني الدهر اختياري
بحسبِ السرّمني والطَّويَّة
٢لسرتُ على جفوني كي أُرجّي
لدى مغناكَ من عمري البقيَّة

عمر الخيام: شعره العربي جمع وتحقيق ودراسة

الحواشي

١. انظر: رباعيات حكيم عمر خيام به ٣٠ زبان (رباعيات الحكيم عمر الخيّام في ثلاثين لغة) منشورات بديدة، طهران،١٩٧٨، ورباعيات عمر خيام به يازده زبان"، (رباعيات عمر الخيّام في ١١ لغة) منشورات بارسا، طهران. ط٢:١٩٩٧م.

٢. راجع، مثلا": ذبيح الله صفا، تاريخ أدبيات در إيران ٢/٥٢٨-٢٥٩ أمير كبير- طهران . ط٥:٢٥٣٦؟ وهمايون: عمر الخيام: عصره، حياته، آثاره العلميّة والأدبيّة. مجلة الثقافة، القاهرة. س١، ع١١، ١٤ آذار ١٩٣٩: ٤٦.

٣. تاريخ حكماء الإسلام:١١٩.

٤. همايون:٤٥.

٥. محمد رجائي حنفي: عمر الخيّام صاحب الرباعيات المفترى عليه، مجلة الكويت، الكويت، ع٦٤، ديسمبر ١٩٨٧: ٤١.

٦. الأعلام: ٣٨/٥.

٧. تاريخ حكماء الإسلام :١٠٣-١٠٤.

٨. راجع مناظرة الخيام والزمخشري في:" الزاجر للصغار عن معارضة الكبار ":١-٣٩.

٩. يذكر صلاح الدين الصفدي أنَّ الخيام- وإنّ أخطأ في اسمه - قرأ "إشارات ابن سيناعلى" بهمنيار" تلميذ الشيخ (الوافي بالوفيات: ٢/١٤٢-١٤٣.وينظر أيضًا:

- سلسلة متصلة من تلاميذ ابن سينافي مائتي عام ، بحث في الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لذكرى ابن سينا، جامعة الدول العربية، القاهرة،١٩٥٢ :٥٣ - ٥٩.
- عمر الخيّام الحكيم الرياضي الفلكي النيسابوري:١٠٩-٢٠٨.
- تاريخ فلاسفة إيراني از آغاز إسلام تا امروز:٣٢٩.

١٠. نادرة أيام حكيم عمر خيام:٧-٨.

١١. تاريخ حكماء الإسلام:١٢١-١٢٣.

١٢. المصدر نفسه: ١٣٩.

١٣. المصدر نفسه: ١٢٣.

١٤. المصدر نفسه: ١١٩.

١٥. المصدر نفسه:١١٩ كذلك.

١٦. المصدر نفسه: ١٢٠.

١٧. خريدة القصر وجريدة العصر - قسم ذكر فضلاء أهل خراسان وهراة:٢/٨٥.

١٨. أخبار العلماء بأخبار الحكماء:١٦٢.

١٩. آثار البلاد وأخبار العباد:٤٧٤.

٢٠. الصرّاف، عمر الخيام:٢٦٦.

٢١. تاريخ حكماء الإسلام:١٢٠.

٢٢. وزر السلطان سنجر من عام٥١٥ حتى ٥٥١ هـ عام وفاته (الكامل في التاريخ:٩٥٤/١٠، راجع أيضًا: طبقات الشافعية الكبرى:١٦٨/٧.

٢٣. هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الغزال النيسابوري. كان من أئمة القراء المشهورين بخراسان والعراق، ومن العارفين بوجوه القراءات واختلاف الروايات، وإمامًا في النحو وله فيهما تصانيف مفيدة. وكان زاهدًا عابدًا سلك طريق التصوف. توفي عام ٥١٦هـ، معجم الأدباء:١٢/٢٧٢-٢٧٣.

٢٤. أدمه بأهله: خلطه بهم وجعله واحدًا منهم.

٢٥. تاريخ حكماء الإسلام: ١٢٢.

٢٦. الأكناف: النواحي، الهوينى: الدعة والخفة. الهدون: الصلح والسكون.

٢٧. شرح ديوان الحماسة:٤٤/٣٨/١.

٢٨. يقال إنّ الهوينى تصغير " الهونى" تأنيث " الأهون" (لسان العرب -هون) . وفي شرح ديوان الحماسة" ويجوز أن يكون الهونى فُعلى اسما مبنيًا من الهينة،وهي السكون، ولا تجعله تأنيث الأهون".

٢٩. نقلاً عن الصراف، عمر الخيام: ١٦٦-١٦٨، مصدر سابق.

٣٠. يقال إنَّ الخيام كان يعمل في مرصد "مرو" حيث كان يعيش في حصن ما زال قائمًا. وقد حُذر عام ١٩٩٢ أن الحصن مهدّد بالسقوط (صورة إخبارية: الحصن الذي عاش فيه عمر الخيام ذات يوم مهّدد بالسقوط! جريدة الرأي الأردنية ١٩/٣/١٩٩٢م.

٣١. تاريخ حكماء الإسلام:١٢٥.

٣٢. المصدر نفسه:١٢٠.

٣٣. المصدر نفسه:١٥٢، وفيات الأعيان:٧٤/٦، نكت الهميان:٣٠٤، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٢٩٦/٢.

٣٤. تاريخ حكماء الإسلام:١١٧-١١٨.

٣٥. طبع الكتاب بدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد / الدكن عام ١٩٣٥هـ. وثمة طبعة أخرى ناقصة حققها وعلّق عليها فؤاد جميعان، وقدم لها قدري حافظ طوقان (شركة فن الطباعة - شبرا/ القاهرة ١٩٤٧).

٣٦. تاريخ حكماء الإسلام:١٢٥.

٣٧. حققها رشدي راشد وأحمد جابر وترجماها إلى الفرنسية (معهد التراث العلمي العربي - حلب ١٩٨١).

٣٨. حققه الدكتور عبد الحميد صبرة - منشأة المعارف - الإسكندرية ١٩٦١م.

٣٩. رسائل الخيام الجبرية ، المقدمة: ١٧.

٤٠. رشدي راشد : رسائل الخيام الجبرية - المقدمة:٥.

٤١. الصراف : عمر الخيام: ١٨٩.

٤٢. كشف الظنون:٢/٩٧٢، رجل من نيسابور :٢٨.

٤٣. مفاتيح العلوم ١٦٩.

٤٤. هو أبو الفتح ملكشاه ابن ألب رسلان (٤٤٧-٤٨٥هـ). ملك ما لم يملك أحد من ملوك الإسلام. وخطب له على جميع منابر الإسلام سوى المغرب، وفيات الأعيان: ٥/٢٨٣ -٢٨٩.

٤٥. الكامل في التاريخ:٨/١٠، آثار البلاد وأخبار العباد:٤٧٤-٤٧٥.

٤٦. تاريخ حكماء الإسلام:١٢١.

٤٧. مردى أزنيشابور:٥٨.

٤٨. نوروزنامه، المقدمة:٢٣.

٤٩. هو معز الدين أبو الحارث سنجر بن ملكشاه (٤٧٩-٥٥٢هـ). سمي بسنجر؛ لأنه ولد في "سنجار" بديار ربيعة. آخر ملوك السلاجقة الكبار ومن معدوديهم. عرف بفتوحاته الكثيرة في خراسان، وخطب له في أماكن كثيرة، وضربت السكة باسمه، وفيات الأعيان :٢/٤٢٧-٤٢٨.

٥٠. أبو الفتح الطغرائي وزير السلطان سنجر. تولى الوزارة قبل عام ٤٩٧هـ، الذي عزل فيه (كامل ابن الأثير- حوادث ٤٩٧هـ).

٥١. تاريخ حكماء الإسلام:١٢١.

٥٢. أصلها الفارسي:

دشمن بغلط گفت كه فلسفيم

ايزد داند آنچه او گفت نيم

ليكن چو دراين غم آشيان آمده ام

آخركم ازانكه من بدانم كه كيم؟

٥٣. الدكتور علي أصغر حلبي مثلاً في كتابه تاريخ فلاسفة إيراني.

٥٤. من هؤلاء مثلاً : عبد الحق فاضل، ومحمد موسى هنداوي.

٥٥. راجع التفاصيل عنها جميعًا وعن مظانها المختلفة في : يوسف بكّار، آثار عمر الخيّام العربية وأهميتها. مجلة التسامح - عُمان- س٢،ع٦ ربيع ٢٠٠٤: ١٤٦-١٤٩.

٥٦. نقل الصراف ترجمة الخطبة عن كتاب" الدراسات الشرقية، للقاضي أحمد ميان أكنار. لاهور؟ (عمر الخيام: ٣٢٩-٣٣١.

٥٧. راجع التفاصيل في رحيم رضا زاده ملك، دانشنامه خيامي:٣٠٦-٣١١، وترجمة الخطبة فيه:٣١٢ -٣١٩.

٥٨. مردي ازنيشابور:٥٨ نقلاً عن خيامي نامه:٣٣٨.

٥٩. الأعلام:٥/٣٨.

٦٠. عمر الخيام والرباعيّات :٢٧.

٦١. تاريخ أدبيات إيران:٣٦٢.

٦٢. ترجم عبد الوهاب عزّام ويحيى الخشّاب هذا الكتاب إلى العربية .

٦٣. الخريدة:٢/٨٥.

٦٤. المقدمة:٣٢.

٦٥. نزهة الأرواح:٢/٥١.

٦٦. شعراء الفرس، الخيام، المجلة المصرية، س٢، العدد ٧، أيلول ١٩٠١.

٦٧. انظر مثلاً : دانشنامه خيامي:٤٥٤-٤٥٥ و ٤٦٧، تاريخ فلاسفة إيران: ٣٢٥.

٦٨. في كتابه :

Critical Studies in the Rybaiyat of Umar Lkayyam. Kobenhavn 1927.

٦٩. في مقدمة مجموعتهما " رباعيّات حكيم خيام نيشابوري.

٧٠. في مقدمة مجموعته "تراناهاي خيام(رباعيّات الخيام).

٧١. لحظة مع الخيام:٢٥-٢٦.

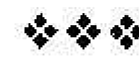
٧٢. راجع : رباعيات حكيم عمر خيام:٢٢-٢٤.

٧٣. تتمة تتمة صوان الحكمة نقلاً عن الصراف عمر الخيام:١٦٦.

عمر الخيّام : شعره العربي جمع وتحقيق ودراسة

التخريج:

تتمةتتمة صوان الحكمة المخطوط نقلاً عن عمر الخيام، لأحمد حامد الصرّاف: ١٦٧. والمقطوعة من إضافات الناشر.



(٢) راث أبطأ. ومنه" ربّ عجلةٍ وهَبَتْ (أو تهب) ريثاً".

"بهرام" و"كيوان": اسما "المريخ" و"زحل" بالفارسية، انظر: التيفاشي، سرور النفس بمدارك الحواس الخمس:٢٠٧. شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل:٤٣. وقد ورد الاسمان الفارسيان في الشعر العربي، كما في قول ابن الرومي:

والـــذي لـــم يصـــخ بـــأذنـيـــه إلاّ
نـــحـــو ذوثـــوريـــوس أو والـــيس
عـــاقـــداً طـــرفـــه بـــبـــهـــرام أو كـــيـ
ـوان أو هـــرمس أو الـــبـــرجـــيس

هرمس: عطارد . البرجس: المشتري.

وفي قول ابن طباطبا العلوي:

يـــا ســـيـــداً قـــد حـــكـــى تـــثـــبـــتُـــه
"كـــيـــوان" والـــبـــأس مـــنـــه بـــهـــرامـــا

الثعالبي : اللطف واللطائف:٥٨.

(٢) القصيدة، ما عدا البيت الخامس، في نزهة الأرواح:٢/٥١؛ وتتمة تتمة صوان الحكمة نقلاً عن عمر الخيام، للصراف:١٦٧.

الأبيات (١، ٢، ٤، ٥) في خريدة القصر: ٢/٨٥، (في ذكر فضلاء أهل خراسان وهراة)؛ وفي أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٦٣.



(١) في نزهة الأرواح وتتمة تتمة صوان الحكمة: إذا قنعت. و"تحصلها". في الخريدة :" يحصلها"(بالياء).

البُلغة : ما يتبلغ به من العيش ولا فضل فيه.

(٢) في نزهة الأرواح: موعدي ومساعدي.

يستعمل " الوعد في الخير والشر. ويُقال: الوعد والعدّة في الخير،وفي الشر: الإيعاد والوعيد. وقال الأزهري: كلام العرب وعدت الرجل خيرًا ووعدته شرًّا، وأوعدته خيراً وأوعدته شرًّا؛ فإذا لم يذكر الخير قالوا: وعدته، وإذا لم يذكر الشر قالوا: أوعدته (لسان العرب- وعد).

(٣)الشعريان: الشّعرى العبور والشعرى الغميصاء. الأولى كوكب يطلع بعد الجوزاء وطلوعه في شدّة الحر سميت بذلك لأنها عبرت السماء عرضًا ولم يعبرها عرضًا غيرها، كان العرب يعبدونها فأنزل الله تعالى:" وأنه هو رب الشعرى"(النجم:٤٩):أما الأخرى فسمّيت الغميصاء لأنّ العرب قالت : إنها بكت على إثر الشعرى العبور حتى غمضت (اللسان - غمص). الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان، ولكنهما يطوفان بالجدي. وقيل هما كوكبان قريبان من القطب. وقيل، كذلك: هما كوكبان في بنات نعش الصغرى (اللسان - فرقد).

(٤) في أخبار العلماء: قضى الأفلاك من...". وصدر البيت في نزهة الأرواح وتتمة تتمة صوان الحكمة:

❖ أليس قضى الرحمن في حكمه بأن❖

وقد صحفت" نحس" في عجز البيت إلى " حفر" في نزهة الأرواح.

(٥) البيت في أخبار العلماء والخريدة:

فـــيـــا نـــفس صـــبـــرًا عـــن مـــقـــيـــلـك إنـــمـــا
تـــخـــر ذراه بـــانـــتـــقـــاض الـــقـــواعـــد

لكن "عن" جاءت في الخريدة.

(٦)صدر البيت في نزهة الأرواح:

❖متى باديت دنياك كانت مصيبة❖

والتصحيف واضح في "باديتو" مصيبة . وقد حرّفت قصية (بالصاد) إلى " قضية (بالصاد المعجمة) في تتمة تتمة صوان الحكمة. والتصحيح من كتاب عمر الخيام، للصراف:١٦٧.

التخريج(٣)

تتمة تتمة صوان الحكمة نقلاً عن: عمر الخيام للصراف:١٦٦.

التخريج(٣)

نزهة الأرواح:٢/٥١؛ وتتمة تتمة صوان الحكمة نقلاً عن: عمر الخيام للصراف:١٦٦.

ذكر علي دشتي، خطأ وتوهمًا، أنه أخذ هذه القطعة عن تاريخ الحكماء للقفطي (دمى باخيام:٩٤)؛ لكن القفطي لم يورد من شعر الخيام العربي إلا الأبيات (١، ٢، ٤، ٥) من القصيدة (٢) السابقة التي مطلعها:

اذا رضـــيـــت نـــفـــســـي ....
....

(١) في نزهة الأرواح: يدير لي الدنيا. وقد تكون هي " وتدين" مصحفتين عن "تدير" من أدرت فلانًا على الأمر إذا ألزمته إياه" (اللسان - دور).

(٢) في نزهة الأرواح: أصوم على و" بتقديس خاطري) (بالحاء المعجمة).

(٣) في نزهة الأرواح: " لطرف" (بالفاء). وفي تتمة تتمة صوان الحكمة: لطرق الهدى عن.

(٤) في تتمة تتمة صوان الحكمة:لأن...

التخريج (٥)

لم أجد البيتين في مصدر قديم. ويبدو أن عبد الرحمن ناجم أفندي هو أول من ذكرهما، لكن دون أن يذكر المصدر الذي أخذ عنه (هدية الأمم وينبوع الآداب الحكم:٨١.

ونقل عيسى إسكندر المعلوف البيتين عنه. انظر مقاليه:

- عمر الخيام: ما عرفه العرب عنه. مجلة الهلال:س١٨-ج٦(أول آذار١٩١٠): ٣٦٥

- من التذكرة المعلوفية: مذكرات عن الشاعر عمر الخيام. مجلة الدراسات الأدبية . س١-ع٤(شتاء١٩٦٠):٧١.

ونقل وديع البستاني البيتين كذلك، عن عيسى إسكندر المعلوف من مقاله " الهلال".(رباعيات الخيام)، ترجمة وديع البستاني:١٦. المكتبة الحديثة للطباعة والنشر- بيروت د.ت).

ونقل أحمد حامد الصرّاف البيتين، أيضًا، عن وديع البستاني (عمر الخيام:٩٦).

ويظهر أنَّ علي دشتي نقلهما إما عن الصرّاف وإما عن مقدمة الترجمة التركية للرباعيات "رباعيات عمر الخيام" ترجمة حسين دانش ورضا توفيق (مطبعة إقبال - إستانبول:١٩٩٢م).

انظر: دمى باخيام ٩٦-٩٧؛ وانظر :حسين دانش: رباعيات عمر الخيام . مطبعة إقبال - إستانبول١٩٢٧:١٠٧.

وعن البستاني. أيضًا، نقل إسماعيل يكاني (نادرة أيام : عمر الخيام:٤٠٧ و ٤٠٨).

التخرج(٦)

نزهة الأرواح:٢/٥١؛ وتتمة تتمة صوان الحكمة نقلاً عن: عمر الخيام، للصراف:١٦٧ (إضافات الناشر).

ونسب الثعالبي القطعة ومعها بيت آخر - هو الثالث في ترتيبه- إلى الشاعر النيسابوري أبي سهل بكر بن عبد العزيز النيلي الذي كان هو وأخوه محمد أبو عبد الرحمن " من حسنات نيسابور ومفاخرها" وكان هو من الأعيان الأفراد في الطب" (يتيمة الدهر:٤/٤٢٨، دار الكتب العلمية -بيروت .ط١:١٩٧٩). أما بيت اليتيمة الذي لم يرد في المصدرين الآخرين، فهو:

فما زكى لي على الأيام ذو ثقة
ولا رعى أحدٌ ودي ولا صانا

اليتيمة:٤/٤٣٢، وراجع في النيلي: تاريخ حكماء الإسلام:١٠٨-١٠٩.

(١) في اليتيمة :

رجوت دهرًا.. وفي نزهة الأرواح: رضيت... (بالضاد).

في تتمة تتمة صوان الحكمة:... إذا ما خلّه خانا.

زجّى الأيام : دافعها. وزجّى الشيء تزجيةً إذا دفعه برفق. يقال: أزجيت أيامي وزجّيتها أي دافعتها.

التخرج(٧)

لم أعثر على القطعة في المصادر القديمة، لكنها وردت في هدية الأمم وينبوع الآداب والحكم: ١٤٠.

وعنه نقلها عيسى إسكندر المعلوم في مقاليه السابقين المذكورين في تخريج البيتين رقم(٥):

- عمر الخيام: ما عرفه العرب عنه:٣٦٤.

- من التذكرة المعلوفية:١٧.

التخريج(٨)

تتمة تتمة صوان الحكمة نقلاً عن: الخيام، للصراف:١٦٦(إضافات الناشر).

والأبيات في هدية الأمم وينبوع الآداب والحكم:١٢٣. وعنه نقلها عيسى إسكندر المعلوف في مقاله " عمر الخيام" في الهلال (انظر: التخريج في رقم ٥). ونقلها وديع البستاني عن المعلوف (رباعيات الخيام:١٦)، ثم نقلها أحمد حامد الصرّاف عن البستاني (عمر الخيام:٩٦)؛ وكذلك حسين دانش رباعيات عمر الخيام (الترجمة التركيّة):١٠٧.

(١) في التتمة: بحسن خليقةٍ...

(٢) في التتمة: ولاح... وفي هدية الأمم: نور المدى.

(٣) في التتمة: ليطفئوه.

والبيت يتناص مع قوله تعالى" يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون". (الصف:٨).

التخريج(٩):

تتمة صوان الحكمة نقلاً عن: عمر الخيام للصراف:١٦٧(إضافات الناشر).

يقول على دشتي: "البيتان ضرب من المجاملة، وكأنهما قيلا جوابًا عن دعوة شخص دعاه" (دمى باخيام:٩٦-حاشية١).

عمر الخيام : شعره العربي جمع وتحقيق ودراسة

دور قلعة الجهاد (مدينة الجزائر)
في منع تكرار مأساة الأندلس في المغرب
١٥١٦ - ١٥٤١

د. علي آجقو علي
جامعة بسكرة - الجزائر

سنحاول من خلال هذه الدراسة رسم لوحة متكاملة وموضوعية لدور مدينة الجزائر في الفترة الممتدة من ١٥١٦ إلى ١٨٣٧، وهي فترة تكالبت فيها القوى الصليبيّة المسيحيّة على المغرب الإسلامي. والواقع أنّ المهتم بتاريخ هذه الفترة، سواء كان ذلك الاهتمام منصبًا على جوانب تاريخيّة بحتة أو مؤسساتية، سيصاب بنوع من الذهول؛ لما نسج حولها من آراء تهدف إلى التقليل من دورها وتلطيخ سمعة مؤسسيها، لا لشيء سوى أن هذه المدينة كانت قلعة صامدة في وجه الصليبيّة العاتية، وأن قادتها أتقنوا أسلوب مواجهة الأوربيين الصليبيين، وعلى رأسهم الإسبان بقيادة إيزابلا وأحفادها، وتمكنوا باقتدار، من إفشال مشاريعهم في العدوة المغاربية بعد أن نجحوا في العدوة الأندلسية.

هذا التشويه العمدي من الأوربيين ومن الفرنسيين، بعد احتلالهم للجزائر، على وجه الخصوص، كان، في رأينا، يهدف من جهة إلى تبرير الاحتلال الفرنسي الصليبي للجزائر وللمنطقة المغاربية عمومًا، ومن جهة أخرى إضفاء طابع المهمّة الحضارية والتدخل الإنساني على هذا الاحتلال، بمعنى تجميل الوجه القبيح للاستعمار.

هذه الاستراتيجية التشويهيّة لأزهى فترة في تاريخ الدولة الجزائرية، ولأعظم قادة جهاد عرفتهم البلاد والمنطقة عمومًا، قد حققت بعض النجاحات الظرفية: فما قام به خير الدين، وحسن باشا، والحاج حسين ميزمورتو... ومن قبلهم الشهيد البطل بابا عروج، من أجل الإسلام والجزائر والمنطقة، سمّاه مؤرخو الاستعمار وكتابه، وكذلك بعض المؤرخين والكتاب الجزائريين والعرب، بالاحتلال الأجنبي.

مقالات

فالمؤرخون الاستعماريون كانوا يهدفون إلى طمس معالم هذه الدولة التي سفهت أحلامهم، وقضت على مشاريعهم في المنطقة، وتصدّت ببطولة لجميع حملاتهم الصليبيّة البرية منها والبحرية، وألحقت بها أشنع الهزائم. ومن ثمة جاء موقف هؤلاء المؤرخين بدافع الانتقام من جهة، ولتبرير الوجود الاستعماري الصليبي الغربي من جهة أخرى. وأما المؤرخون من الجزائريين والعرب، الذين سلكوا طريق الأوربيين، فإنهم، كما يرى الدكتور الزبيري[١] : " لم يفعلوا ذلك عن إيمان، بل بدافع التقليد الأعمى الناتج عن مركب النقص الذي يكاد يكون عامًا لدى مثقفينا، الذين اضمحلت شخصيتهم فلم يعودوا قادرين على نقد ما يكتبه السادة الأوربيون أو الطعن فيه حتى ولو كانت تلك الكتابة زورًا وبهتانًا".

لكن إذا قمنا بقراءة متأنية لتلك الهجمات قوليّة كانت أم فعليّة أدركنا أنّ هؤلاء الأوربيين كانوا يهدفون من وراء كل ذلك إلى تحقيق ما يمكن أن أسميه بالانتقام التاريخي (historique revanche)، كيف ذلك؟ قيام الدولة الجزائرية، على أنقاض فسيفساء الكيانات الواهية في المغرب الأوسط، كان الدافع إليه هو الانتقام من أولئك الذين أقسموا بأن يقضوا على الإسلام في العدوة المغاربية كما قضوا عليه عام ١٤٩٢م، في العدوة الأندلسية، تنفيذًا لوصية تلك المتعصبة والحاقدة إيزابيلا القشتالية وهي تحتضر، ووضعوا قسمهم في موضع هذا التنفيذ.

هل نجح الإسبان في تحقيق مشروعهم ذاك؟ بالطبع لا، ذلك لأنّ قادة الجزائر تمكنوا من إفشال مشروع الإسبان والبابوية؛ أي منع تكرار مأساة الأندلس في العدوة المغاربية.

هذه الدراسة تنتهي كرنولوجيا بانتصار الجزائر، تحت قيادة حسن باشا، على التحالف الأوربي - البابوي بقيادة شارلكان الإمبراطور الأوربي والملك الإسباني عام ١٥٤١، وهي السنة التي تكرست فيها الدولة الجزائرية كيانًا سياسيًا وقوةً إسلامية مغاربية و متوسطية على كامل الأراضي المحررة من المغرب الأوسط.

وحتى نتمكن من رسم تلك اللوحة سنحاول الإجابة عن جملة من الأسئلة: ما هي الحالة السياسية السائدة في المغرب الأوسط منذ ١٥١٢م؟ وهل هذه السنة تعد نقطة تحوّل في تاريخ المنطقة المغاربية والمتوسطية؟ وإذا كان كذلك فما مؤشرات هذا التحوّل؟ ما دور مدينة الجزائر في التصدي للحملات الصليبية للقوى المسيحيّة وخاصة الإسبانية؟ وما دورها في توحيد منطقة المغرب الأوسط؟ وما دورها أخيرًا في حماية المنطقة المغاربية لمدة تفوق ثلاثة قرون من الأطماع المسيحيّة الأوربية؟

الوضعية العامة للمغرب الأوسط قبل قدوم الإخوة أبناء يعقوب :

I- الاندفاع الإسباني نحو العدوة المغاربية :

لقد اندفع الإسبان تحت قيادة إيزابيلا وفيرديناند، وبمباركة رجال الدين الإسبان، وعلى رأسهم[٢] الكاردينال المجرم كزيميناس دي سيسنيروس (Ximenes de Cisneros) نحو العدوة المغاربية بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس، وبعد الاتفاق الحاصل بين إسبانيا والبرتغال عام ١٤٩٣م، بفضل المساعي البابوية، الذي بمقتضاه قُسّمَ العالم غير الأوروبي إلى منطقتي نفوذ بينهما، وكانت المنطقة المغاربية من نصيب الإسبان[٣].

لقد كان الهدف واضحًا منذ البداية، وهو

تصفية النفوذ الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط، حتى يتمكن الصليبيون الجدد من استعادة أمجاد الكنيسة الإفريقيّة التي انتهت بالفتح الإسلامي للشمال الإفريقي عام ٥٠هـ.

كانت المنطقة المغاربية تتقاسمها من الوجهة النظرية ثلاث دويلات:

- المرينيون في المغرب الأقصى.
- الحفصيون في المغرب الأدنى وشرق المغرب الأوسط.
- الزيانيون في غرب المغرب الأوسط ووسطه.

غير أن النفوذ الحقيقي لهذه الدويلات لم يتعدَّ حواضرها. وفي أحسن الأحوال المناطق القريبة منها، أما بقية الأجزاء فكانت عبارة عن مشيخات تستمدد قوتها وسلطانها من العصبية القبلية، أو دول مدن على الساحل تستمد سلطتها وقوتها من خضوعها لقوة أجنبية مسيحية صليبية.

وعليه فالملاحظ لحالة المغرب الأوسط من الناحية الجيوسياسية سيجد نفسه أمام فسيفساء من الكيانات الواهية، المتناحرة فيما بينها والمستقوية بالأجنبي المسيحي، هذه الوضعية استغلها الإسبان، وبدؤوا يستعدون لتنفيذ مخططهم في الهجوم على المناطق التي آلت إليهم وفق ما ينص عليه التفاهم السابق.

وضع الإسبان مخططهم الهجومي موضع التنفيذ[٤]: كزمينيس، مهندس التخطيط، أقنع حكام إسبانيا المتعصبين بضرورة تجريد حملات بحرية تحت قيادة دون ديقودي كوردو (Don Diego De cordoe) للسيطرة على المرسى الكبير، وتم ذلك فعلاً عام ١٥٠٥م، وفي السنة نفسها، وبعد مضي أربعة أشهر سقطت مدينة وهران في يد كزمنيس، وفي سنة ١٥١٠م جاء دور بجاية الناصرية حاضرة الحماديين لتسقط هي الأخرى بعد الهجوم الذي شنّه عليها الأميرال بدرو نفارو (Pedro navarro) على مرأى ومسمع من السلطات الحفصية، التي لم تحرّك ساكنًا لنجدة سكان المدينة في محنتهم.

ويمكننا الإشارة إلى أنَّ الأهم بالنسبة للغزاة الصليبيين هو ضرورة الاستيلاء على المدن الساحلية؛ لضمان السيطرة على موانيها المهمَّة قبل أن يبدؤوا في الهجوم على المناطق الداخلية. أمام هذا السقوط الحر والمتوالي للمدن الساحلية، أعلن، بنو عابد الوادي في تلمسان وبنو حفص في تونس تباعًا ولاءهم لإسبانيا وتبعتهما مكرهة المدن الأخرى على الطريق نفسه. هذا الخضوع يتمثل في إعلان الولاء، ودفع الجزية، والتخلي عن القيام بأي نشاط بحري. وهي الاستراتيجية نفسها التي يتبعها الغرب اليوم ضد الدول الإسلامية، التي تريد أن تمتلك قوى المناعة، وخاصة في جانبها النووي.

-I- مدينة الجزائر توقع معاهدة الاستسلام:

كانت مدينة الجزائر، المنشقّة عن دولة تلمسان، يحكمها سالم بن التومي. وفور سقوط بجاية أصاب مسؤوليها هلع شديد؛ لأنَّ المدينة لا تملك من المقومات العسكرية ما يؤهلها للدفاع عن نفسها. لهذا الغرض اجتمع مجلس أعيان مدينة الجزائر (CNVA) لدراسة ما يجب اتخاذه، وكان قرار المجلس توقيع معاهدة الاستسلام بدل الوقوع تحت الحصار، كما تقرر في ٣١ جانفي عام ١٥١٠م إرسال وفد يقوده سالم بن التومي، بصفته رئيس المجلس، إلى بجاية لإعلان ولائه للقائد الإسباني نفارو، وطلب هذا الأخير من الوفد توقيع اتفاقية إعلان ولاء وخضوع للسيادة الإسبانية[٥]. وهكذا نجد أنَّ محاولة سالم بن التومي الذي،

بتوقيعه معاهدة الاستسلام، يريد تجنيب مدينة الجزائر من الحصار الاقتصادي أوقعها فيما هو أدهى؛ أي الخنق الاقتصادي والإذلال السياسي.

II- الإسبان يشيّدون قلعة البينيون:

وبعد توقيع المعاهدة بدأ الإسبان في تنفيذ بنودها على الفور، وبخاصة ما يتعلق ببناء الحصن. ولتنفيذ بنائه استُدْعِيَ المهندس المعماري مارتان دورونتيريا[٦]، وخصصت مبالغ طائلة لإنجاز القلعة على إحدى أهم الجزر المقابلة للمدينة وأصبحت تعرف باسم البينون(Penon)[٧٧]. وبعد أقل من عامين أصبح البناء جاهزًا والميناء والمدينة مراقبين من أكثر من ٢٠٠ جندي من خيرة الجنود الإسبان[٨].

كان لهذا الحصن، على الرغم من صغره، أهمية استراتيجية وعسكرية كبيرة في ذلك الوقت، حيث كان يمكن الإسبان من مراقبة كل ما يجري من تحركات في البحر دون انقطاع، وإحباط كل محاولات السيطرة على المدينة من جهتها البحرية أو استعمال مينائها.

وإذا كانت المدينة غير محتلة بطريقة مباشرة. إلا أنَّ وجود هذه القلعة بالقرب منها جعلها من الناحية الفعلية محتلة، وهذا ما رآه الكثير من سكانها إهانة لهم وتفريطًا في مدينتهم. هذا القلق الشعبي ربما يكون وراء إرسال حكام المدينة وفدًا سنة ١٥١٥م إلى إسبانيا لاقتراح هدنة مقابل دفع بعض الضرائب الإضافية للملك[٩].

III- موقف سكان مدينة الجزائر وأعيانها من المعاهدة:

توقيع معاهدة الاستسلام خلق لسالم بن التومي معارضة شعبية كبيرة زاد من حدّتها تصرفات الإسبان مع السكان: فقد كان جنود القلعة ينزلون إلى المدينة، ويقومون بابتزاز السكان والاعتداء على أموالهم، وحرماتهم ومقدساتهم. هذه التصرفات جعلت المدينة تعيش اضطرابات كان سببها اختلاف الآراء حول قضية دفع الضرائب ووجود القلعة قبالة المدينة[١٠]. سالم بن التومي لم يتوان، على الرغم من هذه المعارضة، في احترام المعاهدة وتنفيذ بنودها؛ لأنه يرى فيها عاملاً يضمن له، بوصفه حاكمًا، الأمن والحماية[١١]، غير أنّ أعيان المدينة بدأت آراؤهم تختلف، ونظرتهم إلى الإسبان تتغير، وراحوا يتطلعون إلى العمل من أجل تخليص مدينتهم من هذا الكابوس. وبذلك تكون المعارضة لسالم بن التومي، وللوجود الإسباني قد بدأت تأخذ طابعًا رسميًّا، حيث أصبح ينظر إلى القلعة على أنها شوكة في قلب كل جزائري[١٢]، ومن ثمَّ بدأت تتضافر وتتقارب جهود المعارضين وآراؤهم حول ضرورة اقتلاع هذه الشوكة بكل الوسائل ومهما كلف ذلك من ثمن.

٤- مدينة الجزائر تبحث عن زعيم منقذ:

لما آلت الأمور إلى هذا المستوى من التدهور، راح السكان يهيئون كل ما في مقدورهم خارج دائرة تلك الكيانات الواهية المستسلمة، يبحثون عن ذوي الإرادات الصادقة والعزيمة الصلبة[١٣] لمواجهة الخطر الذي يهدد المنطقة وسكانها بالفناء والدمار، ولا سيما أنَّ ما جرى في الأندلس لم يُمْحَ من الذاكرة الفرديّة والجماعية.

II- وصول الإخوة أبناء يعقوب إلى السواحل المغاربية: عودة الأمل:

في هذه الأثناء كان البحر مسرحًا لانتصارات مدوية أحرزها الإخوة أبناء يعقوب[١٤]، الذين يعود أصلهم إلى جزيرة ميتيلان (ليبسوس القديمة)، وكانوا يمتازون بالشجاعة ومعرفة فنون الملاحة،

ما أهلهم لأن يصبحوا بحارة مهرة وقادة مهيبي الجانب في البحر المذكور. لقد نذر هؤلاء الإخوة أنفسهم لخدمة الإسلام، ومن ثم أصبحوا رهن إشارة السلطان العثماني بايزيد. لقد كان هؤلاء الإخوة يقومون بحملات ناجحة على شواطئ إسبانيا قصد نجدة المسلمين الفارين من جحيم الكاثوليكية المتعصبة والحاقدة، الذين أصبح يطلق عليهم فيما بعد مصطلح الموركسيين[١٥].

ونتيجة لسمعتهم الطيبة، التي عمّت أرجاء السواحل المغاربية، قدم لهم السلطان الحفصي مولاي محمد تسهيلات تخص الرسو والإبحار وغيرها من الأمور التي تمكنهم من أداء مهامهم بنجاعة وفاعلية، وكل ذلك مقابل نسبة مما يحصلون عليه من غنائم، إضافة إلى تعهدهم باحترام رعايا السلطان الحفصي. الاتفاق مع السلطان كان له أهمية كبيرة على مستقبل الأحداث إقليميًّا ومتوسطيًّا، كما سنرى ذلك فيما بعد، كما أنَّ هذا الاتفاق قد مكّن الإخوة أبناء يعقوب من امتلاك قاعدة بحرية قريبة من مسرح العمليات في البحر، ما انعكس إيجابًا على زيادة نشاطهم البحري وفاعليته.

لقد اكتسب هؤلاء الإخوة شهرة واسعة، في جميع المدن المغاربية، بتصديهم البطولي للهجمة الإسبانية الصليبية على ديار الإسلام، وتحملهم المخاطر الجسام من أجل نصرة إخوانهم في الأندلس، ضحايا التعصب واللاتسامح الصليبي[١٦]. ومن ثم أصبحوا محط الرجاء والأمل للسكان المغاربة قاطبة، الذين راحوا يستنجدون بهم لتخليصهم من براثن الاستعمار الإسباني- البابوي.

-II-I- مدن المغرب الأوسط تطلب النجدة:

-II-I-I- مدينة بجاية:

لقد احتل الإسبان بجاية دون مقاومة كبيرة نظرًا لعدتهم المتزايدة وسلاحهم المتفوق، ونظرًا لتشتت القبائل وتمردها ونزعتها الاستقلالية الفردية، مع عجز السلطات آنذاك عن السيطرة على الموقف واتخاذ أية مبادرة لتوحيد الصفوف وتمتين القاعدة الدفاعية على أسس التوعية.

ولتخليص المدينة رأى عبد الرحمن الحفصي سلطانها أن يستنجد بالإخوة أبناء يعقوب، فطلب منهم إنقاذ مدينته، كما أن البجاويين علماء وسكان لم يقبلوا هم الآخرون سيطرة نفارو على عاصمة الحماديين، لذلك نجدهم يوفدون مبعوثين عنهم إلى جربة لمقابلة بابا عروج[١٧]، بغية التدخل لفك أسر المدينة بعد أن يئسوا من حكام بني حفص.

لقد لبى عروج النداء وأبحر إلى بجاية، بناء على مخطط كان قد ضبطه مع أعضاء الوفد البجاوي، وفرض الحصار على المدينة سنة ١٥١٢م، وعلى الرغم من الاستبسال الذي أبداه المهاجمون إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء على المدينة، بسبب التحصينات المنيعة وكثافة نيران مدفعية المدينة من جهة وقلة عدة وعدد المهاجمين من جهة أخرى[١٨]. لقد أصيب عروج في هذا الحصار بجروح خطيرة حيث قطعت ذراعه. عاود عروج عام ١٥١٤م حصار المدينة حيث أحرز في البداية تفوقًا على الإسبان وذلك باقتحام قواته عددًا من الحصون التي كانت تحيط بالمدينة، لكن نقص البارود وتباطؤ السلطان الحفصي في تزويدهم بما وعد به أجبر عرّوجًا وقواته على الانسحاب بعد أن كادت المدينة تسقط بين يديه. لقد ترك موقف السلطان التخاذلي أثرًا مريرًا في النفوس وأدى إلى القطيعة النهائية بين هذا الأخير وعروج[١٩].

ربما يكون سبب تخلي السلطان عن عروج

حسدًا على الانتصارات التي حققها، وأيضًا خشية من تعاظم مكانته بين السكان، وهو أمر رأى فيه السلطان تهديدًا لملكه.

وعلى الرغم من فشل عروج في طرد الإسبان من بجاية فإنَّ سمعته في الجهاد البحري كانت على درجة كبيرة من الأهمية سرت الأصدقاء وأرهبت الأعداء، وجعلت عَرُّوجًا يدرك يقينًا أنه لا فائدة من الاعتماد على الحكام المتخاذلين، وأنّ التعامل يجب أن يكون مباشرة مع الأهالي.

لقد أحدث الهجوم على بجاية وتدمير مواقع كثيرة من تحصينات المدينة فرحًا عارمًا لدى سكان المنطقة، وإعجابًا متناهيًا بالإخوة أبناء يعقوب؛ لأنهم تأكدوا من جهة أنّ حاكم بجاية، الذي كان مجرد سماع اسمه يرهب خصومه، ناهيك عن محاولة التطاول للنيل من مدينته، ما هو إلا حاكم من ورق، ومن جهة أخرى تخلصوا إلى الأبد من عقدة المغلوب التي سيطرت عليهم ردحًا من الزمن.

II-١-٢ مدينة جيجل:

لقد طالب الجيجليون من بابا عروج القدوم إليهم لتخليص مدينتهم من الجينويين: فبعد فشل حصار بجاية الثاني وقرار بابا عروج نقل مركز قيادته من تونس، وبعد التشاور مع سكان المنطقة، استقر الرأي على مهاجمة جيجل.

لقد جرى بالفعل مهاجمة المدينة وتخليصها من الاستعمار الجنوي (الإيطالي) وكان ذلك عام ١٥١٤م، واتخذها عروج قاعدة لعملياته ضد الإسبان في بجاية، ومركزًا لنشاطاته البحرية، وبخاصة في الحوض الغربي للبحر المتوسط. بذلك تكون جيجل أول مدينة تُحرَّر بعد احتلال دام قرابة ثلاثة قرون، أي من ١٢٢٢م إلى غاية ١٥١٤م.

II-١-٣ مدينة الجزائر:

لقد لفت انتباه أعيان مدينة الجزائر ونخبتها العاملة تلك الجهود الصادقة التي يقوم بها الإخوة أبناء يعقوب، لمساعدة سكان بجاية للتخلص من السيطرة الإسبانية، والتحرير الفعلي والنهائي لجيجل من السيطرة الجينوية، فرأوا أنَّ الفرصة مواتية لإلغاء معاهدة الذل والعار وهدم قلعة البينون، واعتقدوا جازمين أنّ الإخوة يملكون كل المؤهلات للقيام بهذه المهمّة المقدّسة[٢٠]. لذلك نجدهم يسارعون في تشكيل وفد يقوده حاكم الجزائر، للذهاب إلى جيجل لمقابلة عروج وطلب مساعدته في تخليص المدينة.

لقد كان من بين ما قاله الوفد في حضرة بابا عروج: "لقد سمعنا عنكم أنكم أناس تحبون الجهاد وأخذتم بجاية وجيجل من أيدي النصارى، ونصرتم الدين، فهنيئًا لكم أيها المجاهدون، ولا بد من أن تقدموا إلينا وتخلصونا من أيدي هؤلاء الملاعين الكفرة لأننا في محنة عظيمة ومذلة شديدة[٢١].

إنَّ هذه الكلمة تهز المشاعر وتحرّك النخوة الإسلامية، وتترجم حاجة هؤلاء الملحة إلى قائد محنك ومجاهد من طراز بابا عروج؛ لتخليصهم من معاناتهم اليومية التي تمتزج فيها الإهانة بالظلم، كما تشير بوضوح إلى انقطاع السبل بهؤلاء، وعجزهم التام عن إيجاد القائد الذي بإمكانه أن يزحزح صخرة البينون سواء أكان ذلك على المستوى المحلّي أو المغاربي، ومن ثمَّ راحوا يبحثون عن ذلك القائد خارج هذا الإطار الجغرافي فوجدوه، لحسن الحظ، بالقرب منهم.

وكعادته لم يتردد بابا عروج في تلبية هذه الصرخة، ولا سيما أنها صرخة صادقة تعبر عن آخر درجات اليأس والقنوط. غادر عروج وأحد

أخويه، الذي قد يكون إسحاق، جيجل متجهين إلى الجزائر[٢٢]، ولم يدخلاها بأساطيل وجيش عرمرم[٢٣]، وإنما غاية الأمركان مركبتين وبضع مئات من الرجال لا غير[٢٤].

خرج سكان مدينة الجزائر يتقدمهم شيخ بني مزغنه لاستقبال عروج ومن معه، وتم اللقاء على بعد مسيرة يوم من مدينة الجزائر[٢٥].

بدأ عروج لدى وصوله يستعد لمواجهة الإسبان في الحصن: فقام بحفر خندق، ونصب ما عنده من مدفعية مقابل القلعة، وبدأ الهجوم عليها، غير أنَّ ضعف مدفعيته لم تمكنه من تحقيق نتائج فعالة[٢٦]. والمهم في ذلك هو إيصال رسالة لمن في القلعة مفادها أنه من الآن فصاعدًا لن يهنؤوا بالأمن والاستقرار وستتحول حياتهم إلى جحيم لا يُطاق. وهذا ما سيحدث فعلاً.

حاكم المدينة لما رأى ما يقوم به بابا عروج من محاولات تُعَدُّ خطوة مهمَّة في طريق التحرير، بدأت تتسرب إليه الشكوك، ومن ثمَّ راح يحيك المؤامرات ضد عروج ويؤلب السكان عليه. ولما علم عروج بذلك صفى على الفور حساباته مع بن التومي[٢٧]. ليتفرغ إلى ما هو أهم. أما ابنه يحيى فقد فرَّ إلى وهران للاحتماء بالإسبان ليعد العدّة مع حلفائه الإسبان لمهاجمة مدينة الجزائر.

نهاية سالم بن التومي، أيًا كانت الطريقة التي تمت بها والتي مازال يكتنفها كثير من الغموض، قد أخمدت نار الفتنة وتركت المجال واسعًا أمام بابا عروج للتحكم في زمام الأمور أكثر، وإعداد نفسه لتحقيق مشروعه الجهادي الكبير. ولتحقيق هذا المشروع بدأ عروج فعلاً في إرساء اللبنات الأساسية لبناء الدولة: فبعد تنظيم الإدارة والجيش أعلن أنه في حل من معاهدة الذّل ووضع قراره موضع التنفيذ[٢٨]: فعمد إلى فرض مراقبة شديدة على نبع الماء، بحيث لا يسمح لحامية القلعة والسفن التزود بالماء، لذا أصبح يتوجب عليهم جلب ما يحتاجونه من ماريوركا[٢٩]، وهذا ما زاد في متاعب الحامية الإسبانية. وفي الوقت نفسه نظم المؤسسة العسكرية بإقامة ثكنات للجنود خارج المدينة؛ حتى لا ينشغل هؤلاء بمشكلاتها، وأقام تحصينات مهمَّة[٣٠]، كما أنشأ مجلسًا للدفاع[٣١] يضم كبار قادة الجيش، وهو بمنزلة هيئة أركان حرب بيدها كل السلطات.

الجزائر تحت قيادة بابا عروج

I- الجزائر تستعيد زمام المبادرة:

هذه النجاحات التي حققها بابا عروج وطموحه في القضاء على الوجود الإسباني، أزعج القوى الأوروبية وعلى رأسها إسبانيا التي راحت تعمل على زرع البلبلة في أوساط ذوي الأطماع من أصحاب المصالح الخاصة، ومن ذوي الضمائر الضعيفة، وتحرض على الثورة من أجل الإطاحة ببابا عروج، قبل أن يتمكن وأنصاره من السيطرة على زمام الأمور في المدينة وبصفة نهائية: فقد اتفق هؤلاء جميعًا مع حامية الحصن للهجوم على قوات بابا عروج، وإعادة السلطة للزعماء الذين أبعدوا عن مركز القرار، ولكن الجهاز السري اليقظ تمكن من كشف هذه المؤامرة والقضاء على مدبرها، ومن ثمَّ تمكن عروج من فرض سيطرته الكاملة على الجزائر، والمتيجة[٣٢].

وهذا ما مكّنه فيما بعد من تطوير مدينة الجزائر، كما يقول هايدو" بسرعة وبكيفيّة عجيبة حتى جعل منها مركزًا من أكثر المراكز تنظيمًا وثراء".

I- ١ حملة دييقو دي فيرا:

إسبانيا لم تفقدها نجاحات بابا عروج الأمل

في السيطرة والعودة من جديد ولو بطريقة غير مباشرة: فقد استغلت وجود ابن سالم التومي في أراضيها من جهة، والخوف المتزايد لحكام تلمسان من بابا عروج من جهة أخرى، لتحاول إزاحته عن الجزائر: فبعد وفاة الملك فرديناند سنة ١٥١٦م خلفه مؤقتًا في إدارة شؤون المملكة كسيمنيس، الذي وجد الفرصة سانحة لتحقيق حلمه في القضاء على الدولة الناشئة وتنصيب ابن سالم التومي حاكمًا على الجزائر، فعمل على تجهيز جيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل أسندت قيادته إلى دييقودي فيرا (Diego de Vera) [٢٣]

هذه الحملة بالنسبة للإسبان كان لها مبررات كثيرة وواقعية لعل أهمها:

- الخطر الذي يسببه وجود قادة من أمثال عروج، وخير الدين، وإسحاق على المصالح الإسبانية في مدينة الجزائر، بل على الوجود الإسباني برمته في المنطقة..
- الوضعية السيئة التي تعيشها الحامية في قلعة البينيون نتيجة قلة العتاد والمؤونة.
- الخوف من خسارة ذلك الموقع الاستراتيجي الهام، الذي هو بمنزلة الدركي الذي يحمي الوجود الإسباني في المغرب الأوسط.

غادر الأسطول الإسباني قرطاجنة في ١٥١٦/٩/٣٠م ورسى بالقرب من الشاطئ . عروج من جهته جابه الموقف بحزم، ودعى مجلس الدفاع للانعقاد لدراسة الموقف واتخاذ الإجراءات اللازمة للتصدي لهذه الحملة العسكرية الصليبيّة. هاجم عروج بغتة الجنود الإسبان المرابطين تحت الأسوار، وعمل مذبحة في صفوفهم. أعطى هذا الهجوم الناجح نفسًا جديدًا لقوات عروج، وأجبر دوفيرا ورجاله على الاختفاء بين الصخور قبل أن يتمكنوا من النجاة بأنفسهم والالتحاق بسفنهم يجرون أذيال الهزيمة، مخلفين وراءهم ثلاثة آلاف قتيل وأربعمائة أسير[٢٤].

لقد اعترف الإسبان بهزيمتهم من خلال ما ذكره حاكم قلعة البينيون نيكولاس الخامس في التقرير الذي لم يصل إلى ديفيرا والذي يقول فيه: أمام هذه الوضعية التي يميزها عدم التبصر اغتنم هؤلاء الجنود الأذكياء جميع الفرص وقاموا بجمع كميات كبيرة من المؤونة والذخيرة، كما جمعوا حولهم عددًا كبيرًا من الأهالي الذين باستطاعتهم القتال ضد أكبر الجيوش"[٢٥].

هذا النصر الأول من نوعه الذي حققته مدينة الجزائر على الإسبان جعل وفود المناطق الأخرى الواقعة تحت الهيمنة الإسبانية تشد الرحال إلى مدينة الجزائر تطلب النجدة والمساعدة وتعلن الولاء[٢٦].

لبى عروج نداء هذه الوفود وكاتب أخاه خير الدين المقيم في جيجل ليلتحق به، فاجتمع الأخوان واتفقا، نزولاً عند رغبة السكان، على البدء في العمل من أجل وضع القواعد والأسس للدولة الجديدة[٢٧]، حيث قسَّما مدينة الجزائر والمناطق الغربية، واتخذ من مدينة الجزائر مركزًا له، واختص خير الدين بالمقاطعة الشرقية، واتخذ من مدينة دلس مركز لنشاطه.

يُعَدُّ هذا التقسيم أول تقسيم إداري في تاريخ الجزائر بوصفه كيانًا سياسيًّا.

I- ٢- الزحف نحو تلمسان واستشهاد بابا عروج:

عروج لا يريد تضييع الوقت؛ لأنه يدرك بأنَّ حملة دي فيرا ليست إلا غيضًا من فيض، ومن ثمَّ

زحف بقواته على مدين تنس وأطاح بحاكمها الزياني مولاي عبد الله، الذي ما زال يعترف بالسيادة الإسبانية.

لقد التقي جيش عروج أمير تنس على مشارف الشلف، ولم يصمد جيش هذا الأخير على الرغم من كثرة عدده أمام مدفعية مدينة الجزائر، وبينما عروج في تنس جاءه وفد من تلمسان يطلب منه التدخل ضد أبي حمو الثالث المغتصب لعرش ابن أخيه أحمد الثاني بدعم من الإسبان: فمن بين الوجوه البارزة التي تشكل وفد تلمسان، كما أشار إلى ذلك نص مجهول أورده محمد بوعياد، ابن يحيى العقباني وابن يوسف الزياني[٣٨].

عروج وجد في ذلك فرصة لتوسيع رقعة دولته الناشئة فزحف بقواته نحو تلمسان.

أبو حمو جاء على رأس جيشه للقاء جيش عروج، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة أبي حمو وفراره إلى فاس للاحتماء بالمرينيين[٣٩].

دخلت قوات عروج تلمسان وأخرجت السلطان المسجون وأعلن عن ضم تلمسان إلى سلطة الجزائر. وعلى الرغم من هذا النصر كان عروج يدرك أنَّ سيطرته على المدينة ستكون صعبة، وذلك لبعدها عن مدينة الجزائر، وعليه فقد أرسل حامية تتكون من ٥٠٠ جندي إلى قلعة بني راشد التي تتوسط الطريق تقريبًا بين تلمسان والجزائر.

ولتشديد الحصار على وهران، أصدر خير الدين قرارًا يمنع أي تبادل تجاري مع وهران مشددًا على إنزال أقصى العقوبات على المخالفين[٤٠]. الإسبان، الذين كانوا يعتمدون على ما تزودهم به تلمسان من احتياجات، تأذوا كثيرًا من قرار المقاطعة.

ذهب أبو حمو شخصيًّا إلى إسبانيا طالبًا تدخلها لإعادته إلى العرش: " انظروا كيف قطع عروج عنكم ما كنا نصلكم به من الميرة، وضيق عنكم ما كنّا نوسعه عليكم، فلو أعنتمونا عليهم بالمال والجند لرجع لكم جميع ما فقدتم مع مزيد الإحسان"[٤١].

لقي هذا المطلب تجاوبًا كبيرًا من القيادة الإسبانية وعلى رأسها شارلكان (Charles-Quint)، ومن ثمَّ لم تتردد في تلبية الطلب، وسارعت في تقديم الدعم للسلطان الفار، كما أوعزت في الوقت نفسه إلى المركيز دي قومريز (de Gomarez) حاكم وهران بضرورة تجهيز حملة ضد تلمسان؛ من أجل إعادة السلطان العربي إلى عرشه. حاكم وهران كان يريد أن يستولي على القلعة أولاً؛ وذلك ليقطع عن تلمسان أي مدد يأتي من مدينة الجزائر، ثم يسير بعد ذلك لاحتلال تلمسان.

أسندت قيادة هذه الحملة المتكونة من ألفي جندي إلى مارتان دارقوت (Martin d'Argote)، إضافة إلى الجيش العربي بقيادة أبي حمو[٤٢].

لقد واجهت قلعة بني راشد، التي كانت قيادتها تحت إمرة إسحاق بن يعقوب وإسكندر الكورسي حصارًا شديدًا ببطولة واستبسال دام ٦ أشهر. وفي النهاية " لجأ المحاصرون إلى الموادعة، ووقع بين الفريقين شرائط منها أن يردّ المحاصرون جميع النصارى الأسرى الذين عندهم، أن يخرج المحاصرون بجملة أسبابهم وسلاحهم، فوقع الاتفاق على ذلك، فأخذ المحاصرون في الخروج، فعند ذلك نقضت الشروط من المحاصرين فأخذتهم الحمية ونادوا بإشعال الحرب، فوقع بينهم قتال عظيم فمات في هذا القتال إسحاق، وقام مقامه رجل من خواصه يدعى إسكندر، وجاهد هو وجماعته حتى استشهدوا جميعًا رحمهم الله[٤٣].

دارقوت أعطى مفاتيح القلعة إلى تابعه الزياني وعاد مسرعًا إلى وهران[٤٤]. ودون تضييع للوقت جهز حاكم وهران حملة عسكرية لاسترجاع تلمسان، وأسند قيادتها إلى دارقوت، الذي أبحر من وهران ونزل بقواته في مصب نهر تافنا جنوب تلمستان، بينما أبو حمو وأنصاره جاءوا للالتقاء به برًا حيث اتجهت جميع القوات نحو مدينة تلمسان.

لما رأى سكان تلمسان قوات دارقوت وأنصار أبي حمو تخلّوا عن عروج وفتحوا أبواب المدينة للإسبان فدخلوها، أما عروج ومن معه من جنود فقد لجأوا إلى القلعة (المشوار) ودافعوا عن شرف تلمسان ٢٦ يومًا إلى أن انتهى ما عندهم من مؤونة غذائية وعسكرية. وعندها قرر عروج الانسحاب، الذي لم يكن عملية سهلة، لكن بذكائه وشجاعته استطاع أن يخرج ومن معه ليلاً دون أن يراهم الإسبان. ولما علم دارقوت بانسحاب عروج لحق به واستطاع أن يدركه مع من معه، بعد أن أعياهم التعب وأخذ منهم الجوع والعطش مأخذا، في واد المالح (Rio Salado) غرب عين تموشنت، حيث نشبت معركة ضارية بين الطرفين انتهت باستشهاد عروج وجنده. وقام الإسبان بجزّ رأسه وحمله إلى إسبانيا والطواف به في شوارع المدن الرئيسة[٤٥].

لقد استشهد البطل[٤٦]، ومن معه في الوادي المذكور وعمره ٤٤عامًا قضى منها ٦ سنوات في خدمة الإسلام في الغرب الإسلامي، ومن أجل بناء دولة جزائرية قويّة محترمة ومَهيبة، وكان ذلك سنة ٩٢٤هـ ١٥١٨م، وأما دارقوت فقد عاد إلى تلمسان وأجلس أبا حمو على كرسي العرش بشروط مخزية ومذلّة، لعل أهمها دفع ضريبة سنوية تقدر بـ ١٢٠٠ أوقية من الذهب والاعتراف بالسيادة الإسبانية[٤٧].

على الرغم من ذلك فنهاية تلمسان ستكون على يد خلفاء عروج، وسيتحرر أهلها من الذل والمهانة التي ألحقها بهم الحكام الضعفاء والمتخاذلون[٤٨].

وعلى الرغم مما كان لهذه الوفاة من أثر على الجزائريين، إلا أن هؤلاء لم يستسلموا، بل واصلوا المسيرة على نهج الشهيد، إدراكًا منهم بأن الرجل لم يكن يريد السلطة والملك، بل كان يريد أن يصبح الجزائر قلعة جهادية قوية قادرة على المواجهة والتحدي.

II- مقدمات الإعلان الرسمي عن ميلاد الدولة الجزائرية:

إنَّ المتتبع لمجريات الأحداث في المغرب الأوسط ومدينة الجزائر على وجه الخصوص يجزم بأن استشهاد البطل أبي يوسف عروج، سيدخل المنطقة في دوامة من الصراع العسكري، والاضطراب السياسي، والتناحر القبلي والتدخل الأجنبي، ويجزم أيضًا أنه من غير المتوقع أن تنهض مدينة الجزائر من كَبوَتِها لتقود عملية التحرير، والتوحيد والبناء، لتصبح كما كان يراد لها؛ سيدة البحر المتوسط.

فإلى أي مدى كان اعتقاد هؤلاء وأولئك صحيحًا؟.

II -١ خير الدين يخلف بابا عروج في قيادة البلاد:

لقد كان هول الصدمة عظيمًا، حين تلقت مدينة الجزائر استشهاد رمز عزّتها بابا عرّوج مع قادة آخرين بارزين من أمثال إسحاق بن يعقوب، وإسكندر الكورسي وغيرهم كثير، غير أنَّ المصاب كان أكثر وقعًا على خير الدين، وما بقي معه من الجنود الذين وجدوا أنفسهم أمام مهمّة صعبة ومسؤولية كبرى: فالظروف التي تعيشها مدينة

الجزائر لم تكن أبدًا مواتية وفي جميع أبعادها: المحلية، والمغاربية، والمتوسطية.

أمام موقف كهذا لم يكن من خيار أمام قائد كخير الدين، تتلمذ في مدرسة عروج الجهادية، غير مواجهة الموقف بعزيمة المؤمن، وخبرة القائد المحنك والسياسي الماهر، وتحمل عبء المسؤولية، والاستعداد لإتمام المسيرة الشاقّة والطويلة. تولى خير الدين القيادة ورفض طلبًا تقدم به مجلس الدفاع يتضمن تعيينه ملكًا على الجزائر[٤٩]. رفض كهذا يدل على دهاء سياسي كبير: فخير الدين أدرك أنّ قبوله للعرض سيجعله لا محالة تحت رحمة أعضاء هذا المجلس، وفي الوقت نفسه كان يريد برفضه ذاك إبعاد العسكر عن الخوض في الأمور السياسية حتى يتفرغ لمهامه القتاليّة دون سواها.

وجهة نظرنا هذه يؤيدها قبول خير الدين لاحقًا لطلب مماثل تقدم به مجلس أعيان مدينة الجزائر حينما همَّ بالعودة إلى إسطنبول، كما سنرى ذلك فيما بعد.

II-٢ الإسبان يتحركون: حملة هيقو دي مونكاد:

مخاوف خير الدين كانت في محلها، الإسبان تغمرهم فرحة النصر واستشهاد بابا عروج، الذي كان مجرد ذكر اسمه يقض مضاجع الملوك والحكام. الإسبان لم يضيعوا الوقت حيث كلف الملك شارل كانْت نائب ملك سيسيليا، هيقو دي مونكاد (Hugo de Moncade) بقيادة هذه الحملة، التي انضم إليها ملك تلمسان أبو حمو الثالث، الذي وعد حلفاءه الإسبان بتقديم قوة خاصة تتكون من عرب قبائل المتيجة تساعد في عملية اقتحام المدينة برًا من جهة الغرب.

لدى سماعهم أخبار الحملة أصاب سكان مدينة الجزائر الذهول، لكن خير الدين هدأ من روعهم وأقنعهم بضرورة البقاء، وحثهم على الاستعداد للمقاومة. في هذه الظروف الصعبة وأمام هذه الحملة الشرسة، راح خير الدين يتصرف بذكاء وحسب طريقته من أجل الحفاظ على سلامة المدينة وسكانها، والحرص قدر المستطاع على منع إراقة دماء المسلمين . حرص تأكد من خلال الرسائل التي أرسلها خير الدين لأنصاره في غرب البلاد عندما أوصاهم بعدم مجابهة سلطان تلمسان بالقوة بل عليهم أن يعلنوا ولاءهم له[٥٠]. وبموازاة كل ذلك، راح خير الدين يجهز مواقعه وتحصيناته ويعيد تنظيم جيشه، الذي عسكر به في ضواحي العاصمة. وربما يكون قد اتخذ هذا الموقف لاعتبارات اقتضتها الاستراتيجية العسكرية، بهدف إطالة خطوط مواصلات عدوه؛ للتمكن من مجابهته ووقف تقدمه عند مشارف المدينة، حيث ينقض عليه جنوده من الخلف.

أبحرت هذه الحملة من جنوة في شهر جزيليه واتجهت نحو بجاية ومنها إلى المرسى الكبير لجمع المزيد من العدد والعتاد، إضافة إلى التشاور مع المركيز دي قوماراز حول تحديد خط سير هذه الحملة. الأرمادة الإسبانية رست في ميناء الجزائر في ١٧ أوت ١٥١٦، وبعث قائدها رسالة تحذير إلى خير الدين يطلب منه الاستسلام، فكان رد هذا الأخير قاسيًا قاطعًا مفعمًا بالعزّة والكبرياء، جاء فيه[٥١]: " السيف هو الذي يحكم بيننا، والذي ينتصر فينا سيكون جديرًا بحكم هذه المدينة".

هذا الرد أثار حفيظة قائد الحملة وأمر بالبدء فورًا في عملية الإنزال، غير أنَّ الخلاف ما لبث أن دبَّ في صفوف القيادة الإسبانية[٥٢]: فموكاند قائد الحملة يريد الهجوم ومرينودي

روبيرا (Marino de Rebira) قائد المدفعية، المكلف بالقيادة العليا يريد التريث إلى حين وصول القوات العربية بقيادة ملك تلمسان وأمير تنس.

في نهاية الأمر أُخِذ برأي مرينو، ومرت ستة أيام دون أن تصل تلك القوة المنتظرة بفارغ الصبر، والسبب الأرجح في ذلك يعود إلى رفض الغالبية من أفرادها القتال إلى جانب الكفار، وتباطؤ البعض الآخر في تلبية الدعوات الموجهة إليهم.

هذا الموقف المسؤول، الواعي والمشرف كان له بالغ الأثر في إرباك القيادة الإسبانية وتحطيم معنويات أفرادها، وساعد خير الدين وجنوده في تحقيق النصر وإنزال هزيمة منكرة بمونكاد وجيشه، وأثبت للجميع بأنه الأجدر، والأحق بحكم مدينة الجزائر.

ألم يكن السيف فعلاً أصدق أنباء من الكتب؟ لقد كان بالفعل.

الهزيمة الإسبانية شجعت خير الدين على المضي قدمًا، وأكثر من أي وقت مضى، في إنجاز مشروع الشهيد بابا عروج، كما رفعت معنويات الجزائريين وخففت عنهم الأحزان التي خلفها رحيل قائدهم البطل عروج، مهندس الدولة الجزائرية وواضع خطط دحر الإسبان عن المغرب الإسلامي.

في مثل هذه المواقف يعبر الشعراء عن فرحة السكان، ويصورون مدى تأييدهم لقائدهم، واعتزازهم بدولتهم، وافتخارهم بجيشهم، ومن بين ما قيل نورد الأبيات الآتية[53]:

بمدافع[54] أبعدت عن مداها
كل من جاء قاصدًا للفساد
كسروا جميع فلكهم وأبادوا
منهم كل مستطيل النجاد
فسل البحر كم رمى من جسوم
لهم ذات سطوة وعناد
عاف حوت البحر منها لحومها
لم ترالماء منذ يوم الميلاد
فهي فوق الرمال يأكل منها
جائع الرخم والحدى والجراد

إن اتساع رقعة الدولة وتطور مؤسستها، وزيادة أعباء المسؤولية بها، دفع خير الدين إلى توسيع نطاق التقسيم الإداري الأول في عهد بابا عروج، ليشمل كل الأراضي التي تدين بالولاء لسلطة مدينة الجزائر، فقد قسمت هذه الأراضي إلى مقاطعتين: شرقية وغربية مع الأخذ في الحسبان مبدأ التوازن الجهوي في توزيع السلطات[55]: المنطقة الشرقية أسندت قيادتها إلى أحمد بالقاضي، وهو قائد عسكري مشهور عمل إلى جانب عروج منذ حصار بجاية الأول، وأما المنطقة الغربية فقد أسندت قيادتها إلى محمد بن علي الذي كان هو الآخر قائدًا عسكريًا مرموقًا.

هذه التعيينات هي في نظرنا التفاتة ذكية ورغبة صادقة من جانب خير الدين، لإشراك الجميع في القيادة وتحمل المسؤولية، والبرهنة على أنَّ احتلال أسمى الوظائف ليس حكرًا على غير الجزائريين كما تحاول إيهامنا بذلك الكتابات والآراء المغرضة.

فهل سيكون بالقاضي وبن علي الجزائريان جديرين بهذه الترقية وأهلاً لتلك الثقة؟

-III- قرار خير الدين العودة إلى إسطنبول وموقف CNVA:

بعد هذه الانتصارات المتتالية على الإسبان وبروز جزائريين بإمكانهم السير في الخط الذي

رسمه بابا عروج ومن بعده خير الدين، استدعى خير الدين مجلس أعيان مدينة الجزائر للانعقاد ليطلعهم عن رغبته في مغادرة البلاد.

ألقى خير الدين أمام مجلس الأعيان خطابًا حول وضعية " الأمة" تعرض فيه للكثير من الجوانب (الدفاع، الأمن، نظام الحكم، الهجرة،...إلخ)، ومما جاء في هذا الخطاب[٥٦]: " الآن ولم يبق لي شيء أفعله من أجل إسعاد مدينتكم قررت أن أغادركم وأترك إلى جانبكم فرقة كافية من المحاربين الأبطال، الذين سيعملون من أجل أن يحترم اسم الجزائريين". خير الدين يريد أن يقول لقد دعوتموني لإنقاذكم من الخطر الذي كان يهددكم، هذه المهمة قد أكملت بنجاح وعاد الهدوء والاستقرار إلى مدينة الجزائر، والأكثر من ذلك أنَّ المدينة أصبحت تتوفر على نظام دفاعي فعال قادر على احترام اسم الجزائر والجزائريين:" عندكم الأسلحة والسفن والذخائر من أجل أن تقوموا بمحاولات جديدة... حين وصلت إليكم لا يوجد ولا مدفع واحد من أجل الدفاع عن المدينة، الآن بفضل الله، لديكم أكثر من ٤٠٠ وهو ما أرغم عدوكم على ترككم".

ما بلغته الجزائر من تقدم وتطور في نظامها الدفاعي - الذي يعد حجر الزاوية في بناء أي دولة قوية في ذلك الوقت، وما يزال - هو الذي شجع خير الدين على مغادرة البلاد إن كان ينوي فعلاً المغادرة: يمكن أن يكون التلويح بالمغادرة مناورة سياسية منه ليضفي على حكمه الطابع الشرعي، وفي الوقت نفسه سبر مدى تعلق الجزائريين بقيادته. غير أن ذلك يبقى احتمالاً ضعيفًا، حيث إنّ خير الدين غادر فعلاً الجزائر في أوت ١٥٣٣/٩٣٩هـ إلى إسطنبول لقيادة أسطول الخلافة، وهذا في حد ذاته يعدُّ شرفًا كبيرًا للجزائر ودليلاً واضحًا على مدى ما بلغته " المدرسة البحرية الجزائرية، التي وصفها بلحميسي بأنها أكبر مدارس الإسلام البحرية"[٥٧].

بعد الصورة التي رسمها خير الدين عن وضع المؤسسة العسكرية التي أبرز فيها قدرتها على التصدي لكل من تسول له نفسه النيل من الجزائر، ينتقل للحديث عن النظام الذي يراه مناسبًا لإدارة البلاد، فيقول: "أدعوكم إلى أن تختاروا من بينكم من تعتقدون بأنه أكثر أهلية للقيادة نصبوه أميركم ثم عاهدوه على السمع والطاعة".

هذه دعوة من خير الدين لأعضاء المجلس أن يختاروا لقيادة البلاد من لديه مؤهلات القيادة، بغض النظر عن حالته الاجتماعية وانتمائه القبلي. هذا الشرط ينهي تقليدًا متبعًا في المنطقة يولي القيادة إلى أكثر الناس غنى وجاهًا دون النظر إلى الكفاءة: فمدينة الجزائر كانت تدار من طرف سالم بن التومي، الذي أظهر عجزًا واضحًا في حماية المدينة والدفاع عنها ناهيك عن تسيير شؤونها. ثم يختم خير الدين خطابه فيقول:" حينما تجدون أنفسكم أمام ضائقة وتبرز أمامكم حالات صعبة وخطيرة، استشيروا الفقهاء وهذين القائدين الشجاعين - أحمد بالقاضي قائد المنطقة الشرقية، ومحمد بن على قائد المنطقة الغربية - اللذَيْن هما بجانبي، فبنصائحهما ومساعداتهما وعون الله ستتغلبون على كل العراقيل".

هذه الفقرة تحمل كثيرًا من الدروس السياسية، التي يمكن اختصارها فيما يأتي:

- حصر اختيار أمر البلاد في أحد أعضاء مجلس الأعيان.
- عامل الكفاءة والقدرة شرط أساسي في اختيار القائد.

- إبعاد العسكريين عن السلطة ليتفرغوا للدفاع عن البلاد.
- ضرورة خلق " مجلس استشاري" يضم العلماء، ولا مانع من وجود عسكريين تكون استشارتهم ضرورية فقط عندما تتعرض البلاد إلى أزمات خطيرة، أما في الأمور العادية فهذه الاستشارة لا تصبح ضرورية.

أليست هذه المبادئ هي حجر الزاوية في البناء المؤسساتي في دول العالم الأكثر تقدمًا في زماننا المعاصر، التي كثيرًا ما تجري المزايدة بها علينا؟

أعضاء المجلس رفضوا رفضًا مطلقًا قرار خير الدين، ورجوه ملحين أن يبقى بينهم؛ لأنّ بقاءه سيرهب الأعداء ولا يجعلهم يحاولون العودة مرة أخرى، وفي الوقت نفسه سيردع حكام بني زيان، الذين لم يتورعوا، ولأكثر من مرّة، في التحالف مع الإسبان والاستنجاد بهم لضرب الجزائر. والأكثر من ذلك أنَّ هؤلاء الأعضاء حملوا خير الدين مسؤولية الدماء التي ستراق إذا ما غادر مدينة الجزائر، لأنهم متأكدون أنَّ الإسبان سيعودون وسيريقون دم المسلمين.

الإلحاح على البقاء والتخوف من عواقب المغادرة يؤكدها بوضوح رد مفتي مدينة الجزائر حين يقول:" حضورك سيدي ضروري جدًّا لأمن هذه المدينة وسلامتها، والمواطنون ليس لهم غيرك حاكم، سيكون من غير المشرف أن تتركهم عرضة لهجمات الكفار الذين لا ينتظرون إلا الوقت الذي تبتعد فيه عنهم ليغرقوا هذه البلاد بجيش من البرابرة. تقترح على نفسك أن تذهب إلى إسطنبول لتشارك في الحملات الحربية التي يعد لها في الرميلي، لكن تخدع نفسك إذا أنت تفكر أنَّ السماء ستأخذ ما تقول بعين الاعتبار في وقت تهمل فيه أكثر واجباتك أهمية. في القسطنطينية ألف آخرون بإمكانهم أن يحلوا محلك، لكن هنا لا أحد يمكنه أن يشغل مكانك، والعمل الأكثر استحقاقًا الذي تستطيع أن تقوم به في نظر الإله هو أن تبقى في هذه المدينة للدفاع عنها ضد أعداء الدين".

كلمة المفتي يمكن أن نستنتج منها ما يأتي :

- أنّ بقاء خير الدين ليس مطلبًا ينحصر في أعضاء مجلس الأعيان بل هو مطلب يؤيده كل سكان المدينة وأيضًا واجب يمليه الشرع.
- أنّ ذهاب خير الدين يُعدُّ تقصيرًا في الواجب وتخليًا عن المسؤولية وعدم مراعاة شعور مواطنين هم في أمس الحاجة إلى بقائه.
- أنّ خير الدين هو ابن الجزائر وليس لها غيره، وأن مصلحة الجزائر تتقدم على مصلحة إسطنبول.

بعد المفتي تناول خير الدين الكلمة ليرد فيها بالإيجاب على طلب مجلس أعيان مدينة الجزائر ومفتيها بقوله: " لست في بلدكم إلا كأجنبي عادي همَّه الوحيد هو خدمتكم، لكن ليس له من معين وحامٍ غير الله رب السماوات والأرض. تعلمون ماذا يجب أن ننتظر من سلطان تلمسان الذي حرض ضدنا الشعوب الكافرة، وكادت مدينة الجزائر أن تدخل ضمن نطاق سلطانه، لكن بفضل العناية الإلهية، وكفاءة جيشنا المنتصر، تمكنا من رد الأعداء على أعقابهم، وأفشلنا المشاريع الدنيئة لسلطان تلمسان، الذي دنّس شرف المسلمين ..." بعدها يتساءل خير الدين ":

ما الوسيلة التي بحوزتي والتي يمكنني بها أن أرد كيد الأعداء؟ هذه الوسائل هي دائمًا تلك التي كان يملكها أخي عروج، رحمه الله، المتمثلة في النيّة الحسنة والثقة الكبرى في حماية الله العلي القدير.

دور قلعة الجهاد (مدينة الجزائر) في منع تكرار مأساة الأندلس في المغرب ١٥١٦ - ١٥٤١

لا أستطيع أن أخفي عليكم بأن هاتين الدولتين المجاورتين[58]، وكان من المفروض أن تنضما إلينا لنقاتل معًا العدو المشترك لديننا الحنيف، بدا واضحًا أن وجودهما غايته زيادة متاعبنا وعرقلتنا في تحقيق مشاريعنا. والحال هذه لا أجد إلاّ طريقًا واحدًا أسلكه، وهو وضع هذه المدينة تحت عناية الإله، ثم بعد ذلك تحت الحماية الخاصة للسلطان العثماني المؤيد بالنصر، وسوف نجد لديه ليس فقط دعمًا معنويًا، بل دعمًا ماديًا سيمكننا من إتمام مشاريعنا بنجاح، دعمًا سيؤهلنا حتمًا لأداء دور متميز في هذا العالم. من الآن فصاعدًا. يضيف، ومن أجل أن نكون جديرين بحكم هذا العالم يجب أن نشرع في إلقاء الخطبة وفي كل المساجد على شرف السلطان، ونطلب منه بعد ذلك موافقته على ضرب العملة باسمه".

مما سبق يمكننا أن نلخص الشروط التي وضعها خير الدين من أجل العدول عن قرار المغادرة يمكن إجمالها فيما يأتي:

- أن يطلبوا ذلك من السلطان العثماني.
- أن يطلبوا الانضمام إلى مجموعة البلاد التي تؤلف الخلافة العثمانية.
- المضي قدماً في إنجاز المشروع الذي مات من أجله بابا عروج وتحقيقه.

لماذا كل هذه الشروط؟ فيما يخص الشرط الأول فإنّ خير الدين كان كثير التعلق برمز وحدة الأمة الإسلامية التي تتمثل في شخص الخليفة العثماني، وأما فيما يخص الشرط الثاني، فخير الدين يعي جيدًا أنّ المعركة القائمة يومها بين المسيحية والإسلام ليست معركة عارضة ولا محليّة بل هي جزء من صراع مرير عام، تقف الخلافة العثمانية في جانبه الإسلامي، وتقف إسبانيا ومن معها في جانبه المسيحي، ومن ثمّ فإنّ الجزائر التي بقيت عرضة للتهديدات والتحرشات لابد لها من حليف قوي يكون لها سندًا، ومصدرًا للتموين بالأموال والعدّة والعتاد، وأما بخصوص الشرط الثالث فتجارب خير الدين وتمرّسه أقنعته بأن هذه البلاد التي كانت تسمى المغرب الأوسط لا يمكن أن تقاوم العدو منحلة، متخاصمة، كل جزء فيها منكمش على نفسه، يتنازع الحكم فيها أمراء ومشايخ لا حول لهم ولا قوة، بل الواجب هو الوحدة.

-IV- الإعلان الرسمي عن ميلاد الدولة الجزائرية:

شروط خير الدين لقيت القبول من طرف الجميع، هذا الأخير لم يضيع الكثير من الوقت بل طلب من مجلس الأعيان إرسال وفد إلى إسطنبول ليطلب من الخليفة العثماني قبول دخول الجزائر في "الحلف الإسلامي".

شكل المجلس على الفور وفدًا برئاسة الحاج حسين، وهو أحد المقربين إلى خير الدين للذهاب إلى إسطنبول لمقابلة الخليفة وتسليمه رسالة من خير الدين، يدعم فيها مطلب أعيان مدينة الجزائر من جهة، ويشرح له فيها الوضعية السائدة في المنطقة من جهة أخرى، ورسالة أخرى من أهالي مدينة الجزائر يترجون فيها السلطان سليمًا قبول دخول بلادهم ضمن حظيرة الخلافة.

بعد ما أكملت البعثة مهمتها عادت إلى الجزائر حاملة معها الراية وقرار الخليفة. استدعى خير الدين مجلس الأعيان وقرأ عليهم رد الخليفة الإيجابي المتضمن[59]:

- السماح لهم بذكر اسمه في الخطبة.
- ضرب النقود وسكها باسمه.

- تعيين خير الدين نائبًا في الجزائر بمرتبة باي لرباي مع تلقيبه شرفيًّا بلقب باشا.

وبذلك تدخل الجزائر وبصفة رسمية في الحلف العثماني الذي يترتب عليه أن أي اعتداء على الجزائر هو اعتداء على الخلافة، وكان ذلك سنة ٩٣٩هـ-١٥١٨م.

خير الدين محق في ذلك لأنّ أعداء الجزائر كثيرون، ومن ثمّ أصبح من الضروري أن يكون لها حليف قوي تعتمد عليه عند الحاجة: فمن يكون يا ترى غير الخلافة العثمانية والخليفة العثماني؟

الدعم المحلي والإقليمي مستحيلان لاختلاف الأهداف: الجزائر هدفها هو طرد الإسبان وبناء دولة قوية قادرة على التصدي للصليبيّة المسيحيّة، وأما الجارتان تونس وتلمسان فهدفهما الحفاظ على العرش، ولو كان ذلك تحت المظلة الإسبانية.

خير الدين حدد مزايا اقتراحه في كونه يمكن الجزائر من تحقيق أهدافها، وخاصة المتعلقة منها بتكوين دولة قوية عاصمتها الجزائر، ويكون جميع السكان من حدود تونس إلى حدود المغرب الأقصى تابعين لها ملتفين حولها. ذلك سيؤهل الجزائر لا محالة من أداء دورها، بوصفها قوة محليّة، متوسطية وعالمية، كما أرادها الراحل الشهيد الرمز عروج.

هكذا بدأت الجزائر تحت قيادة خير الدين ومن جاء بعده، تؤدي دورًا مهمًّا في الصراع الدائر في منطقة البحر الأبيض المتوسط على أنها قوة رئيسة وطرف أساسي، وبخاصة بعد تمكنها من القضاء على الفتن الداخلية ودحر التحالف الأوربي الصليبي عام ١٥٤١م.

انضمام الجزائر إلى الحلف العثماني أقلق جيرانها من المسلمين والمسيحيين على السواء: فقد ثارت ثائرة الزيانيين في تلمسان، والحفصيين في تونس، والإسبان في وهران وبجاية، وتحالف هؤلاء جميعًا واتفقوا على ضرورة إفشال هذا التحالف، وذلك عن طريق القضاء على خير الدين. ولتنفيذ ذلك تم الضغط على بالقاضي للتمرد وحمل السلاح في وجه الدولة الجزائرية، كما قام الإسبان بتجهيز حملة بحرية يدعمها ملك تلمسان بقوة بريّة، وأما الحفصيون فقد دفعوا بقواتهم إلى المعركة إلى جانب بالقاضي.

وهكذا وجد خير الدين نفسه في مواجهة أعدائه التقليديين إضافة إلى التمردات في صفوف قواته وأهمها تمرد بالقاضي.

ألا يعد قلق كل هذه الأطراف دليلاً على أهمية ذلك التحالف الذي اقترحه خير الدين ووافق عليه مجلس أعيان مدينة الجزائر؟

الدولة الجزائرية في مرحلة الشرعية الدستورية

١- الدولة الجزائرية بعد تعيين خير الدين حاكمًا رسميًا ومصادقة :CNVA

إنّ الإعلان الرسمي عن ميلاد الدولة الجزائرية، وتعيين خير الدين على رأس هذه الدولة من طرف CNVA، ومن طرف السلطان العثماني قد أزعج الجارتين: دولة بني زيان ودولة بني حفص، إضافة إلى القوة المهيمنة المتمثلة في إسبانيا. هذه القوى راحت تعمل جاهدة من أجل القضاء على هذه الدولة الفتية مستخدمة ضدها جميع الوسائل المتاحة: تجييش الجيوش، والتحريض على الثورة وإثارة الفتن الداخلية.

١- ١ محاولات خير الدين توسيع رقعة الدولة الجزائرية :

تطور الموقف السياسي والعسكري في مدينة

دور قلعة الجهاد (مدينة الجزائر) في منع تكرار مأساة الأندلس في المغرب ١٥١٦ - ١٥٤١

الجزائر شجع مسعودًا الابن الأكبر لأبي حمو على طلب تدخل الجزائر لمساعدته في استعادة عرش أبيه. طلب مسعود قوبل بالإيجاب وزوّد بمفرزة من الجيش النظامي، كما سمح له بتجنيد رجال القبائل الخاضعين لسلطة الدولة[٦٠].

اتجه مسعود على رأس قوة إلى تلمسان فاضطر أخوه، مولاي عبد الله إلى إخلاء المدينة والذهاب إلى وهران للاحتماء بالإسبان. وعاد مسعود إلى عرشه وأعلن مقابل ذلك اعترافه بسلطة الدولة الجزائرية. غير أنه ما كادت القوات الجزائرية تغادر تلمسان حتى غير مسعود موقفه وتحالف من جديد مع الإسبان[٦١] لقطع الطريق أمام أية محاولة يقوم بها أخوه للعودة إلى تلمسان بمساعدة الإسبان.

لقد استاء خير الدين من هذا الموقف الخياني والجبان، ومن ثمّ عقد العزم على تأديب مسعود وإعادة الاعتبار لسلطة الدولة وهيبتها: فبينما كانت الاستعدادات حثيثة في الجزائر للزحف على تلمسان، طلب مولاي عبد الله، عن طريق أحد الشيوخ تدخل الجزائر وتمنى صداقتها[٦٢]. خير الدين الذي وجد الفرصة سانحة رد على هذا الاقتراح بالقبول، حيث أعلن أنّ الجزائر حامية مولاي عبد الله، الذي ما زال موجودًا في وهران مراقبًا من طرف الإسبان. هذا الأخير نصح خير الدين بالزحف على مستغانم والاستيلاء عليها وإخضاع جميع القبائل قبل الزحف على تلمسان. اعتمدت هذه الخطة وكان من نتائجها سقوط مستغانم، وتمكن مولاي عبد الله من مغادرة وهران للالتحاق بالجيش الجزائري، كما سقطت قلعة بني راشد دون مقاومة.

مسعود حينما رأى أنه لا قبل له بمقاومة الجيش الجزائري انسحب على جناح السرعة إلى عاصمته وأغلق أبوابها، وحوصرت المدينة إلى أن قام سكانها بفتح الأبواب، ودخلتها القوات الجزائرية وأعادت مولاي عبد الله إلى حكم تلمسان وفق الشروط الآتية[٦٣]:

- الاعتراف بسيادة الدولة الجزائرية على تلمسان.
- التخلي عن صك النقود باسم السلطان الزياني.
- التخلي عن الدعاء له في خطبة صلاة الجمعة.
- الإبقاء على حامية عسكرية توكل إليها مهمة حماية السلطان وأمنه.

هكذا كانت مقدمة النهاية لدولة بني زيان التي ظلّت، ولمدة طويلة، حجر عثرة في طريق بناء الدولة الجزائرية.

I-٢ الدولة الجزائرية في مواجهة الفتن الداخلية: تمردات القادة العسكريين:

قام الحفصيون في تونس، والإسبان في بجاية، والمرينيون في المغرب الأقصى، الذين أزعجتهم جميعًا انتصارات خير الدين المتتالية بتحريض كل من أحمد بالقاضي ومحمد بن علي على الثورة والعصيان، ووعدوهما بالمساعدات السخيّة. القوى المذكورة اعتقدت، بعد أن تأكدت من عجزها عن المواجهة، أن خير وسيلة لزعزعة أركان الدولة الجزائرية وتركيعها هي إثارة الفتن الداخلية.

I-٢-١ تمرد محمد بن علي:

محاولات محمد بن علي قائد المنطقة الغربية كانت لها بعض النجاحات في بادئ الأمر، غير أنّ القوات الحكومية لم تضيع الوقت كثيرًا، وذلك بزحفها على الخارجين عن الشرعية وإجهاض تمردهم.

١-٢-٢ تمرّد أحمد بالقاضي:

بعد أن تمَّ القضاء على تمرد محمد بن علي قائد المنطقة الغربية، ثار أحمد بالقاضي في المنطقة الشرقية بتحريض من السلطان الحفصي. ولمعالجة الموقف أرسل خير الدين فرقة من الجنود، غير أن محاولة المعالجة هذه كانت متأخرة؛ لأنَّ المؤامرة كانت أكبر: فقد استطاع المتمرد أحمد بالقاضي الزحف بقواته على مدينة الجزائر وفرض الحصار عليها، لكن إزاء حلول فصل الشتاء من جهة، ورفض أعيان المتيجة الوقوف إلى جانبه، وكذا معارضتهم رحيل خير الدين من جهة أخرى[٦٤]، لم يجد بدًّا من إرسال مبعوثين إلى خير الدين بغية إقناعه بنسيان الماضي وقبول السلم. ورغبة من خير الدين في تجنيب جيش الجزائر الدخول في صراعات هامشية، وافق على السلام مع بالقاضي بشروط أهمها[٦٥]:

- إطلاق سراح جميع الأسرى من الأتراك والأندلسيين.
- دفع ضريبة سنوية تؤدى مستحقاتها كل شهرين.

نفذ بالقاضي هذه الشروط[٦٦]: فقد أطلق سراح الأسرى، ودفع مقدمًا ضريبة أربعة أشهر، غير أنَّ بالقاضي انتهك هذا الاتفاق وجهّز جيشًا أسند قيادته إلى أخيه حسين من أجل مهاجمة الجزائر من جديد[٦٧]، فوجدت القوات الجزائرية نفسها مجبرة على القضاء على قوات التمرد.

بقي على خير الدين أن يقضي على أي محاولة قد يقوم بها بالقاضي للتمرد مرة أخرى: فأوكل هذه المهمة إلى أحد قادته البارزين، وهو قاره حسن الذي تمكن من سحق بالقاضي والاستيلاء على القلعة، وإخضاع جميع القبائل التي تسكن المنطقة، وإجبار قسنطينة على الاعتراف بالسلطة المركزية.

وهذا ما أجبر المتمرد على الانسحاب نحو عنابة، وهناك استعمل بالقاضي الحيلة والدهاء السياسي، حيث تمكن من استمالة قاره حسن واتفق الاثنان[٦٨] على توحيد جهودهما من أجل القضاء على خير الدين واقتسام الحكم وتوزيع الأقاليم المسيطر عليها.

ولتحقيق ذلك راحا يعملان على بث روح الشقاق والخلاف بين الناس، ودفعهم إلى إعلان الثورة والعصيان في وجه الحكومة المركزية: فبالقاضي جعل من مدينة الجزائر مركزًا لتمرده، وقاره حسن اتخذ من شرشال قاعدة له.

هزم بالقاضي وطُرِدَ من جبال كوو، التي كان متحصنًا بها، إلى عنابة، لكنه لم يعترف بهزيمته: فاستمع بإصغاء إلى نصائح[٦٩] الحكام الحفصيين الذين كانوا يرغبون دائمًا في استعادة سيطرتهم على المغرب الأوسط الشرقي الذي كان تابعًا لهم، فتحالف معهم وخرج على رأس جيش يتكون معظمه من الحفصيين إلى القبائل، وهناك دعا كل الزواويين لحمل السلاح والالتحاق به لمهاجمة مدينة الجزائر.

جمع خير الدين قواته دون تأخير والتقى بالقاضي في سهل يسر[٧٠]؛ حيث دارت معركة بين الجيشين كان أولَ من اكتوى بنارها هم الحفصيون، وتراجعوا نحو مرتفعات فليسة، ولاحقتهم قوات خير الدين إلى هناك، لكن بالقاضي انتهز هذه الفرصة وانقض على هذه القوات التي كانت تجهل طبيعة المنطقة وهزمها. واصل بالقاضي زحفه نحو مدينة الجزائر؛ حيث تمكن من احتلالها، وكان ذلك سنة ١٥٢٠م.

دور قلعة الجهاد (مدينة الجزائر) في منع تكرار مأساة الأندلس في المغرب ١٥١٦ - ١٥٤١

I-٣-خير الدين يغادر الجزائر إلى جيجل:

قرر خير الدين مغادرة مدينة الجزائر مؤقتًا إلى جيجل، لأنه كان يجد فيها والمناطق المجاورة لها كل المساعدة والدعم، وفي كل الظروف مهما كانت عسيرة، كما كان يجد فيها رجالاً متطوعين يساعدونه في جهاده البري والبحري، وهذا ما شجعه على مواصلة مشواره حتى لا يتهدم ذلك البناء الضخم الذي أنجبته مدينة جيجل واحتضنته مدينة الجزائر. انطلق من جيجل للقيام بحملات بحرية زار فيها شواطئ تونس، ومعقله الأول جزيرة جربة، والسواحل الإيطالية والإسبانية، وعاد إلى جيجل.

هذه الخرجة البحرية مكنته من تجنيد عدد كبير من البحارة، وغَنْمِ سفنٍ كثيرة وأيضًا إنقاذ عدد هائل من المسلمين الأندلسيين من الموت المحتوم. انتهز خير الدين فرصة وجوده في جيجل فعمل على مد رقعة دولته في الشرق[٧١]: فاحتل القل عام ١٥٢١، وعنابة في عام ١٥٢٢، وقسنطينة، ثم عقد تحالفًا[٧٢] مع شيخ بني عباس، العدو اللدود لبالقاضي، مكنه من توطيد سلطة الدولة في هذه المنطقة.

وبينما خير الدين في جيجل جاءه مبعوث من بالقاضي[٧٣] محملاً بهدايا قيّمة طالبًا ود خير الدين، لكن هذا الأخير رفض استقبال الوفد وقبول الهدايا. تزامنت محاولة بالقاضي هذه مع الدعوات الملحّة لأعيان مدينة الجزائر لخير الدين للقدوم إليهم وتخليصهم من بالقاضي. هذا الأخير لما بلغه الأسلوب الذي عومل به مبعوثه أدرك يقينًا أنَّ سيده ما زال غاضبًا لن يصفح عنه.

في هذه الأثناء كان خير الدين يعدُّ العدّة مع أتباعه من الجيجليين وغيرهم لمهاجمة بجاية، ووضعت كل الترتيبات ، غير أنَّ مبعوثًا من الجزائر جاء مرّة ثانية يتوسله للعودة[٧٤]، ويعده بأنَّ أبواب المدينة ستفتح له. قبل خير الدين الطلب لكن شريطة تقديم ضمانات تعبيرًا عن حسن نواياهم: فأرسلوا إليه أبناء أهم شيوخ المدينة وأعيانها[٧٥].

أقتنع خير الدين بصدق النوايا،٠ ومن ثمَّ تخلى عن حصار بجاية ومهاجمتها، واستعدَّ لتخليص الجزائر من سيطرة المتمرد بالقاضي.

تَرْكُ خير الدين مدينة الجزائر لتواجه مصيرها، ألا يُعَدُّ تهربًا من المسؤولية وتخليًّا عن المشروع الذي استشهد من أجله القائد البطل عروج؟ الحق أن تصرفه لم يكن في رأينا تهربًا من المسؤولية، ولا تخليًا عن مشروع عروج، ولكن الرجل لا يريد إقحام نفسه في معارك هامشية وصراعات أهليّة داخلية، وبخاصة بعد أن لحق قاره حسن بقافلة المتمردين، ثم ربما لأنه يريد تجنيب البلاد مزيدًا من التفكك، ومن ثمَّ تفويت الفرصة على أولئك الذين يسعون إلى إراقة دماء المسلمين حتى تضعف شوكتهم، وربما أيضًا لأنه يريد إيهام بالقاضي والمتحالفين معه بأن قوة خير الدين قد انتهت، وأن يثبت لسكان مدينة الجزائر بأن القاضي غير جدير بقيادة البلاد والعباد.

دخول بالقاضي الجزائر وانسحاب خير الدين إلى جيجل تاركًا المدينة تواجه مصيرها، جعل شوفالبية تتساءل عن " خمول" الإسبان وعدم مبالاتهم لهذا التغيير الحاصل. الواقع أنّ الإسبان لم يكونوا، في رأينا، غير مباليين، وذلك للأسباب الآتية:

- أنهم طرف فاعل ساهم في دخول بالقاضي إلى الجزائر ومن ثمَّ فهو رهينتهم.
- إدراكهم لمحدودية تصور القيادات المحليّة وقصر نظرتها لطبيعة الصراع القائم.

- النفوذ الإسباني في بجاية وقلعة البينيون مازال على حاله بل ازداد .
- اعتقادهم الخاطئ بأنَّ خير الدين قد غادر مدينة الجزائر وإلى الأبد، لأنَّ تحليلهم لشخصية خير الدين جعلتهم يتأكدون بأنَّ هذا الأخير لا يمكن أن يدخل في صراعات، تلهيه عن مهمته الأساسية المتمثلة في التصدي للسفن المسيحية المعادية للمسلمين.

وجهة نظرنا هذه تؤكدها الوقائع، حيث عاد خير الدين إلى مدينته بعد غياب، اختلفت الروايات حول مدّته، التي تتراوح ما بين سنتين وست سنوات(٧٦)، وانتصر على بالقاضي الخائن لوطنه الذي حركته أيادٍ أجنبية لتحقيق مطامعها في السيطرة والتوسع: فقد عثر على خطاب بعث به بالقاضي إلى شارلكان يستحثه فيه لقتال خير الدين واستعداده للوقوف إلى جانب الإسبان، وهذا الخطاب الذي عثر عليه محمد عنان هو وثيقة تحمل اسم أبي عبد الله محمد بالقاضي(٧٧).

I- ٤ - خير الدين يعود من جديد إلى المحروسة :

I- ٤ - ١ الانتصار على المتردين:

مدينة الجزائر بعد أن غادرها خير الدين دخلها أحمد بالقاضي، وأدار الأمور فيها بطريقة لا تختلف عن تلك التي كانت سائدة قبل دخول الإخوة أبناء يعقوب إليهم، فسئم منه ومن مظالمه السكان، وبدؤوا يشعرون بالأسف والحزن على فراق خير الدين، ومن ثمَّ راحوا يتعجلونه في العودة لتخليص المحروسة من مظالم بالقاضي وأتباعه، وتمكينها من أداء دورها بوصفها عاصمة مركزية، وفوق كل ذلك كونها قلعة جهادية أمامية.

بعد أن توافرت ظروف العودة، غادر خير الدين جيجل بقواته إلى الجزائر مصممًا على إنهاء تمرد بالقاضي(٧٨): فقد التقى جيش خير الدين في سيباو، شرق الجزائر، قوات بالقاضي وهزمها شر هزيمة وأسر قائدها. ولما وصلت الأخبار إلى بالقاضي حاول إيقاف زحف قوات خير الدين وصمم على ملاقاته، وعند التقاء الطرفين لم تصمد كثيرًا قوات المتمردين أمام جيش محترف ومنظم، وما لبثت أن تشتت شملها، وأعلن شيوخ المنطقة تخليهم عنها، وولاءهم ودعمهم لخير الدين. وعلى الرغم من هذه الهزيمة حاول بالقاضي جمع صفوفه والاستعداد لمقاتلة قوات خير الدين، وتخندق مع أتباعه في منطقة بني عيشة بالثنية ولحق بهم خير الدين. ولما رأى أتباعه ذلك قرروا التخلي عنه، ولكي يدللوا على صدقهم قاموا باغتياله وقدموا رأسه إلى خير الدين. ولما وصل خبر وفاته أتباعه المقربين حاولوا الفرار، لكن بعد فوات الأوان.

وهكذا تنتهي مغامرة بالقاضي التي لم تكن منذ البداية إلا مغامرة خاسرة، على اعتبار أنَّ هذا الأخير لم يكن إلا بيدقًا تحركه أطراف خارجية تخلت عنه لما تأكدت من عدم فاعليته. ودخل خير الدين الجزائر وكان ذلك سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م.

بعد مقتل بالقاضي حاول شقيقه الحسين متابعة القتال، لكن تأكد له أن لامناص من الاعتراف بسلطة خير الدين، وأبدى استعداده لدفع ضريبة سنوية للدولة الجزائرية تقدر بثلاثين كيسًا من الفضة، فوافقه خير الدين على ذلك وعينه

زعيمًا للقبائل[79]. وهكذا تمكن خير الدين من دخول الجزائر منتصرًا أقوى من أي وقت مضى، ومصممًا في الوقت ذاته على البدء في تحقيق ذلك البرنامج الطموح الذي بدأه الشهيد عروج، والذي يهدف إلى بناء دولة مركزية قويّة مهيبة الجانب في الداخل والخارج، وقلعة أمامية كبرى للإسلام في وجه أطماع الصليبية الحاقدة في البحر المتوسط.

-I- ٤-٢ خير الدين يدك آخر جيوب التمرد: القضاء على تمرد قاره حسن:

بعد أن أنهى معركته مع بالقاضي، قرر خير الدين تركيز جهوده للقضاء على المتمرد قاره حسن الموجود في شرشال. هذا الأخير لما رأى المصير الذي آل إليه بالقاضي، أتصل بإسبان بجاية عارضًا عليهم المساعدة لاحتلال الجزائر[80]. ولما علم سكان الجزائر بما يخطط له قاره حسن أخبروا خير الدين وترجوه الإسراع في دخول الجزائر.

دخل خير الدين المدينة حيث استقبله سكانها عن بكرة أبيهم، وأظهروا تعلُّقًا شديدًا به قائدًا وزعيمًا ورافقوه إلى قصر الجنينة (قصر الحكومة)[81].

أمضى خير الدين ليلته في الجزائر، وفي الصباح الباكر اتجه على رأس كوكبه مختارة من فرسانة قاصدًا شرشال لمباغتة قاره حسن. تمكن خير الدين من دخول المدينة قبل غلق الأبواب، ولما رآه الجند ترجوه الصفح عنهم فقبل شريطة أن يدلوه على مكان قاره حسن ففعلوا. أُتي بالمتمرد وعدد قليل من خاصته بين يدي خير الدين، حيث بادره خير الدين بقوله:" وأنت أيها النذل وأكبر المخلوقات جحودًا ونكرانًا، ماذا فعلت لك من مكروه حتى تثور ضدي وتتحالف مع الأعداء؟"[82]. بعد ذلك أمر بضرب عنقه وعفا عمن تبقى معه من جنود وقفل راجعًا إلى الجزائر.

وبالقضاء على آخر المتمردين، أصبح خير الدين سيد الموقف بدون منازع: فقد استطاع فعلاً بذكائه وخبرته السياسية والعسكرية أن يتخطى كل الصعاب، ويتجاوز كل المحن، ويؤكد للأعداء قبل الأصدقاء بأنه الأقوى ومن ثمَّ فهو الأجدر بحكم الجزائر.

-II- الدولة الجزائرية تستعيد زمام المبادرة من جديد:

-II-١ البحرية الجزائرية تهاجم الأسطول الإسباني في الباليار:

بعد الانتصار والقضاء على رؤوس الفتنة وقادة التمرد، وبعد إعادة النظام إلى العاصمة، وبعد تنظيم الأراضي الجديدة التي تمَّ الاستيلاء عليها، ورغبة منه في إعطاء البحرية الجزائرية نفسًا جديدًا واختبار مدى فاعليتها، تحدى الإسبان في حملة بحرية في مياه جزر الباليار[83]، وذلك بضرب الأسطول الإسباني في عقر داره وبقيادة الأميرال الإسباني المشهور بورتيندو(Portundo)، والاستيلاء على سبع سفن من جملة ثمانية كانت تشكل الأسطول.

هذه الحملة الاستعراضية الناجحة شجعت خير الدين على وضع حد، وبصورة نهائية، للوجود الإسباني في مدينة الجزائر.

-II-٢ القضاء على الوجود الإسباني: تهديم حصن البينيون:

بعد عودته إلى الجزائر وإعادة الهدوء إلى

مختلف أرجائها، بدأ يستعد للقضاء على الإسبان الموجودين منذ ١٥١٠ في قلعة البينيون. حاول خير الدين كعادته الاستيلاء على الحصن بأقل الخسائر الممكنة[٨٤]: فأرسل جاسوسين إلى داخل الحصن متذرعين باعتناق المسيحية، غير أنّ الخطة لم يكتب لها النجاح وذلك بكشف حقيقة المتسللين، وأعدما على الفور وعلّق رأساهما خارج الحصن حتى يراهما المارّة. هذا الفعل أثار حفيظة خير الدين وجعله يسرع في اتخاذ قرار الهجوم على القلعة. قبل بدء عملية الهجوم أرسل خير الدين مفاوضًا إلى القلعة طالبًا من قائدها مارتان دي فرقاس الاستسلام دون قيد أو شرط، لكن هذا الأخير رفض التفاوض. أمام هذا الرفض لم يبق أمام خير الدين إلا مهاجمة الحصن حيث بدأ ذلك فعلاً في ٢٦ماي ١٥٢٩م.

وردت المدفعية الإسبانية على ذلك بقصف صبوا فيه جام غضبهم على منارات المساجد ومن بينها منارة الجامع الكبير.

دام الحصار والقصف ١٥ يومًا انتهى بتدمير أجزاء مهمّة من الحصن والقضاء على عدد كبير من أفراد الحامية وأسر ما تبقى، من ضمنهم قائد القلعة. هذا الأخير حكم عليه بالإعدام بعد أن رفض الدخول في الإسلام، وقبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام عين مراقبًا لعمل الأسرى، الذين كلفوا بإعادة بناء المنارات المهدّمة.

لقد أزيل الحصن نهائيًّا وردمت القنوات الموصلة بين الجزر، حيث تَشَكَّل رصيف طوله حوالي ٢٠٠م تقريبًا، عرضه ٢٥م، وارتفاعه ٢٥م، مكّن من ربط المدينة بالجزر بواسطة ممشى: فتشكل بذلك ميناء الجزائر، الذي أصبح بمرور الزمن أشهر موانئ البحر المتوسط وأكثرها أمنًا.

الدولة الجزائرية بعد رحيل خير الدين

-I- خير الدين قائدًا لأسطول الخلافة العثمانية :

إنَّ قدرة خير الدين بوصفه قائدًا من طراز رفيع وانتصاراته الساحقة على الإسبان، جعل السلطان العثماني يفضله على غيره لقيادة أسطول الخلافة العثمانية برتبة كابتان باشا. خير الدين لم يرفض طلب السلطان نظرًا لتعلّقه الشديد برمز الخلافة الإسلامية من جهة؛ ولأنه كان من جهة أخرى يدرك أنَّ قيادته للأسطول ستضمن له الاستمرار في القيام برسالته الجهادية ضد أعداء الإسلام والمسلمين.

غادر خير الدين الجزائر بعد أن أوصلها إلى بر الأمان[٨٥]، وضمن لها بسط السيادة على أجزاء مهمّة من أراضي المغرب الأوسط، وأخضع لسلطتها تلك الفسيفساء من الكيانات الواهية المتخاذلة، أي تركها دولة قوية مهيبة الجانب محليًا، وإقليميًا وخارجيًّا، وقلعة أمامية كبرى للإسلام في وجه الصليبية.

وقبل مغادرة خير الدين للجزائر عين خليفة له أحد قادته المشهود لهم بكفاءة القيادة وحسن التدبير ألا وهو حسن باشا، وكان ذلك سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٣م.

فهل سيكون حسن خير خلف لخير سلف؟

-II- حسن باشا على رأس الدولة الجزائرية : الرجل المناسب في المكان المناسب:

ولد حسن باشا في جزيرة سردينيا، وأسره خير الدين عندما كان طفلاً في إحدى حملاته على

الجزيرة، وقد أصبح حسن الشخص المفضل عنده. وكان يمتاز بالحكمة والتعقّل، وكان كريمًا متسامحًا متفانيًا في خدمة الدولة ومن أجل رفاهية سكانها ورخائهم. لهذه الخصال وغيرها قربه خير الدين وأوكل إليه عدّة مناصب قيادية عسكرية وإدارية من بينها توليته إدارة قسنطينة أثناء حملته على تونس.

لقد دام حكمه للدولة الجزائرية ست سنوات كانت مليئة بالإنجازات، ولعلّ أهمها على الإطلاق ذلك الانتصار الباهر عام ١٥٤١ على التحالف الأوروبي بقيادة الإمبراطور الإسباني شارلكان وحلفائه، كما سيأتي تفصيل ذلك.

II-١ حسن باشا يواجه التحالف البحري الأوربي عام ١٥٤١:

هذا التحالف هو أكبر تحالفات القرن ١٦، حيث جمع له في ميوركا ترسانة حربية منقطعة النظير، وأرسل كل الأشراف والنبلاء في إسبانيا، وألمانيا وإيطاليا متطوعين للمشاركة فيه. أشرف على تحضير هذا التحالف القائد المعروف أندري دوريا (Andre Doria) الذي هو في الوقت نفسه قائد لقوات التحالف، كما ساعده في ذلك فرناندو كورتيز(F.Cortes) فاتح المكسيك مصحوبًا بولديه.

قاد الإمبراطور الإسباني شارل كان[٨٦] بنفسه هذا التحالف، الذي كان يهدف من ورائه منع قيام دولة إسلامية في العدوة المغاربية يمكن أن تشكل تهديدًا لإسبانيا.

وعليه فنتائج هذا التحالف ستكون فاصلة لمستقبل الدولة الجزائرية الناشئة.

وصلت هذه الأرمادة إلى عرض المياه الإقليمية الجزائرية في ١٩ أكتوبر ١٥٤١، وأخبر الجنود المرابطون في مرتفعات بوزريعة حسن باشا خليفة خير الدين على رأس الدولة الجزائرية، بذلك الوجود المكثف وبأعداد كبيرة جدًّا لسفن حربية تشبه " الجبال في علوها[٨٧]".

حسن باشا، الذي تدرب في مدرسة خير الدين، جابه الموقف بعزم وحزم مع قناعته بأن هذا التحالف يختلف جملة وتفصيلاً عن الحملات السابقة، ومع ذلك ركب جواده وطاف في أرجاء المدينة[٨٨] يحث مواطنيه على المقاومة ويشد من أزرهم، ويشجعهم مذكرًا إياهم أنّ ابن الجزائر البار خير الدين سيكون قريبًا إلى جوارهم.

أعلن حسن باشا التعبئة العامة[٨٩]، فقد استدعى جميع القادرين على القتال، ووزع الجيوش والمتطوعين على مختلف المواقع والتحصينات، وكما يروي هايدو[٩٠]: فإنه لم يحدث في أي حال من الأحوال أن ملكًا أظهر شجاعة أكثر من شجاعته وخبرته وحنكته التي يجب إظهارها في مثل هذه المناسبات"، وهذا طبيعي لأنّ الرجل كان يحكم الجزائر، كما يضيف هايدو" بعيدًا عن كل شغب وفي ظل الأمن والعدالة الحقة".

هذه المعالجة للموقف هدأت من روع السكان، وبثت الطمأنينة في نفوسهم، وزادتهم إيمانًا على إيمان بضرورة الدفاع عن مدينتهم ودولتهم حتى آخر رجل.

من جهتها القوة النظامية توزعت على المواقع الرئيسة تحت إمرة قادة عسكريين مشهورين استعدادًا للدفاع عن المدينة والذود عن سكانها[٩١].

هكذا تصرف أولو الأمر في الجزائر، ولم يتركوا الرعب والهلع يستولي عليهم على الرغم من

جسامة الموقف، وعلى الرغم من الفرق الواضح بين ما تمتلكه القوات الجزائرية من عدّة وعتاد وبين ما تتوفر عليه تلك الأرمادة.

في يوم ٢٠ أكتوبر رست أرمادة التحالف الأوربي في تامنفوست[٩٢]، وأرسلت القيادة الجزائرية قاربين للمراقبة، وجمع ما يمكن جمعه من معلومات عن قوة العدو، لكن ألقي القبض على أحدهما ولاذ الآخر بالفرار.

تحركت الأرمادة تبحث عن أنسب مكان للإرساء من أجل الهجوم، حيث عُيِّن المكان المناسب بالقرب من مصب وادي الحراش، وكان ذلك في ٢٣أكتوبر.

حاولت القوات الجزائرية عرقلة عملية إرساء بواخر العدو، لكن معداتها الحربية كانت غير كافية ضد الكورت الصغيرة التي كانت تطلقها مدافع سفن العدو، وتحتم عليها الانسحاب تاركة قوات التحالف تنزل على اليابسة إلى أن وصلت الحامة.

سارع شارل كانت إلى إرسال موفد عنه إلى القائد حسن باشا يعرض عليه تسليم المدينة مقابل جائزة كبيرة جدًّا له وللأتراك[٩٣]، غير أنّ حسن باشا أجاب بكبرياء عالية قائلاً:" إنَّ الأخذ بنصائح العدو حماقة كبرى، وأنه يتمنى بإرادة الله عز وجل أن يكسبه هذا العمل المكانة المرموقة والشهرة الأبدية"[٩٤].

إذا كان شارلكان قد عوّل على عامل الخيانة ليفعل فعلته في تشتيت صفوف خصومه، كما كان يحدث مع أمراء بني زيان، فهو ذا الآن قد تلقى الرد. هذا التصرف من شارلكان رآه بطل معركة الجزائر، حسن باشا ضعفًا ومن ثمَّ استغله لصالحه، حيث قام ليلاً بشن هجوم خاطف وعنيف على معسكرات الأعداء نشر في صفوفهم الهلع، لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن تبادر القوات الجزائرية بالهجوم.

استيقظ شارلكان بهلع وهو يرتجف حيث قال: متعصبًا" هل هذا ما كنتم قد أخبرتموني به بأن الجزائريين لا يستطيعون الصمود أمام مدافعنا:"[٩٥]. هذا الهجوم المفاجئ للقوات الجزائرية على الرغم من محدوديته، قد هزَّ معنويات قيادة الأرمادة وجيشها.

على الرغم من هذه الانتكاسة زحفت قوات شارلكان يوم ٢٤ أكتوبر نحو المدينة بحيث كانت تبدو في نظر السكان وكأنها " كتل من النمل الأسود يملأ السهل"[٩٦]، لكن ذلك لم يمنع القوات الجزائرية من القيام بمحاولات الكر والفر من أجل إعاقة تقدّم قوات العدو.

كل شيء إذًا أصبح جاهزًا للهجوم الذي يجب أن يتم في اليوم التالي؛ لأنَّ الوقت أصبح في غير صالح قوات التحالف، لكن خلال ليلة ٢٥ أكتوبر انفجرت عاصفة هوجاء أفسدت خططهم وحطمت كلية معنوياتهم وأصبح الانسحاب همهم الأكبر .

القوات الجزائرية لم تعمل على قرع طبول النصر، بل استغلت حالة الفوضى التي تعم صفوف قوات العدو، وقامت بمهاجمة رأس تافورا حيث تمكنت من القضاء على الإيطاليين وفرسان مالطا، ودكّت معاقلهم، وأصبحت هي المتحكمة في زمام المعركة وتوجيهها وفق خطتها، هذا ربما ما دفع بانديني ممثل كوسم دي ميديسيس (Cosm Medecis de) في قوات التحالف إلى القول بمرارة:" في ٢٥أكتوبر أساء كل الناس القيام بواجبهم لكن الإيطاليين كانوا أسوأ الجميع"[٩٧].

دور قلعة الجهاد (مدينة الجزائر) في منع تكرار مأساة الأندلس في المغرب ١٥١٦ - ١٥٤١

II-١-٢ هزيمة التحالف: تكريس قوة الدولة الجزائرية بوصفها قلعة جهادية أمامية:

الواقع أنَّ معركة الجزائر بل معركة الإسلام قد حسمت لصالح المجاهدين الجزائريين، بقيادة البطل حسن باشا، منذ أن فقدت قوات التحالف أكثر من ١٥٠ سفينة وأُسر وقُتِل العديد من البحارة من قبل الفرسان الجزائريين الذين كانوا يركبون خيولهم ويطوفون بها على طول الساحل.

لقد أصبح هم القائد الإسباني أندري دوريا، بعد أن فقدت قوات التحالف أكثر من ١٥٠ سفينة وأُسر وقُتل العديد من البحارة، يتمثل في تأمين الحماية للإمبراطور شارل كانت، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المقاتلين الذين انهارت معنوياتهم القتالية إلى أدنى المستويات. وما يؤكد ذلك أنه في يوم الأربعاء ٢٦ أكتوبر وصلت رسالة من أندري دوريا إلى شارل كانت تقول: " سأنتظرك في تامنفوست، أسرع في المسير مع الجنود الذين معك للحاق ببقية الأسطول وارجع إلى مملكتك سالمًا"[٩٨].

هكذا رأى شارل كانت وبأم رأسه فشل مشروعه، ولم يجد بدًا وهو صاغر إلا أن يأمر بطي الخيام، ويقفل راجعًا يجر أذيال الهزيمة والانكسار[٩٩].

هكذا تنتهي ملحمة ١٥٤١، التي كان من أهم نتائجها على الإطلاق منع تكرار مأساة الأندلس[١٠٠]. في العدوة المغاربية من جهة، وتكريس دولة الجزائر قوةً عسكرية جهادية في وجه الصليبية الأوروبية من جهة أخرى. ومنذ هذه المعركة توالت انتكاسات الإسبان وطردوا من المدن والمواقع التي احتلوها: فانسحبوا من طرابلس عام ١٥٥٢، ومن مرسى إفريقيا عام ١٥٥٣، ومن بجاية عام ١٥٥٥م، ومن مستغانم عام ١٥٥٨، ومن تونس نهائيًا عام ١٥٧٠، ومن وهران نهائيًا عام ١٧٩٢.

هكذا فشل المخطط الإسباني - البابوي الصليبي الرامي إلى احتلال العدوة المغاربية ومن ثمَّ السيطرة الكاملة على البحر الأبيض المتوسط وتحقيق حلم إيزابلا.

استنتاج

هكذا كان استشهاد القائد البطل أبو يوسف بابا عروج في وادي المالح دافعًا قويًا لخلفائه، وبخاصة خير الدين، للمضي قدمًا في بناء دولة قوية طالما تمنّى عروج أن يراها قوة تتربع على أراضي المغرب الأوسط، بل تتعداه إلى ذلك بكثير. هذا الحلم صار بدءًا من ١٥٤١ حقيقة تجسده دولة إسلامية جزائرية قويّة عاصمتها الجزائر، إقليمها المغرب الأوسط وشعبها هو الشعب الجزائري.

هذه الدولة التي صنعها رجال استطاعوا قهر أباطرة وملوك، وجنرالات، وأميرالات أوروبيين تجاوزت شهرتهم الآفاق، يقول بشأنها الدكتور بلحميسي: " كثير هم الأباطرة المشهورون والملوك المهيبون والجنرالات الفاتحون والأميرالات البحريون المشهود لهم بالقوة والاحترافية، شاهدوا حملاتهم العسكرية تتحطم على صخرة مدينة الجزائر، ومن جهة أخرى، وقفوا على إخفاق ما تلقّوه من علوم عسكرية.

وبفضل كل ذلك دخل البلد في حظيرة أمم تلك الفترة وراح، بفضل تلك المكانة، يؤدي دورًا رائدًا على الساحة الدولية. أما ترسانته البحرية وبفضل ما حققته من انتصارات باهرة في مواجهتها الترسانات المسيحيّة، فقد أصبحت على كل لسان[١٠١].

الحواشي

١. مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث :٧٥.

٢. أقدم هذا الكردينال المجرم على جمع ما يستطاع جمعه من الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها...ونظمت أكداسًا هائلة في ميدان الرملة وأضرمت فيها النيران ... ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم... ثم أمر بإبادة كتب العرب من بلاد إسبانيا عامة... فتمّ ذلك بغيرة عمياء مدة نصف قرن حتى قال المؤرخ قوستاف لبون:" ظن الكردينال لما أحرق في غرناطة كل ما طالته يده من مخطوطات العرب - وكانت ثمانين ألفًا .. عدا ما أحرق في المدن الأخرى- أنه يحذف إلى الأبد من كتاب التاريخ ذكرى أعداء دينه ... ولكن الأعمال التي قامت على أيديهم في تلك الأرض تكفي لتخليد ذكرهم على الدهر، وإن نفدت آثارهم المكتوبة".

٣. معاهدات الجزائر مع فرنسا١٨٣٠ - ١٩١٦.

٤. الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر:١٩.

٥. لقد نصّت هذه المعاهدة على :

❖ الاعتراف بالسيادة الإسبانية.

❖ دفع ضريبة سنوية باهظة.

❖ إطلاق سراح كل العبيد المسيحيين.

❖ التنازل للإسباني عن إحدى الجزر الصغيرة التي تحمي الميناء وتبني عليها قلعة ستعرف تاريخيًا باسم الصخرة.

❖ يتوجب على سالم بن التومي الذهاب شخصيًا لإعلان خضوعه وطاعته لملك إسبانيا برفقة مولاي عبد الله حاكم مدينة تنس.

٦. نص المعاهدة غير متوفر، ولكن من المكن جدًا أنه لا يختلف على مضمون معاهدة مماثلة وقعها حكام تلمسان مع الإسبان في العام الموالي تنص على:

❖ وجوب خدمة السكان لملكة القلعة بوفاء وإخلاص.

❖ دفع كل الضرائب والغرامات المفروضة عليهم في أول جوان من كل سنة.

❖ تحول هذه الأموال المحصلة إلى أمين خزينة وهران دون أي تزوير، أو غش أو نقصان.

❖ استرجاع كل العبيد المسيحيين الذين ينتمون إلى سكان مستغانم ومزفران.

❖ تمكين حاكم قرطبة فرنانديز من السيطرة على حصون هاتين المدينتين باسم أميرة قرطبة.

❖ على السكان ألا يرفضوا بيع المواد الغذائية للجنود الإسبان وبأسعار معقولة.

❖ عدم الاعتراض على ترميم الحصون، تطوير وسائل دفاعها أو بناء حصون أخرى.

❖ تقديم المساعدة عند عملية الترميم والبناء، وذلك بتأجير حيواناتهم وبأسعار معقولة.

❖ تزويد مدينة وهران والمرسى الكبير بالمواد الغذائية إذا طلب منهم ذلك.

٧. الثلاثون سنة، مرجع سابق:٢١.

٨. نسبة إلى الصخور القديمة التي بنيت عليها. هذه الجزيرة التي تقع على بعد ٣٠٠ متر من مدينة الجزائر لا يوجد بها سوى حصن صغير بناه الأندلسيون القادمون من إسبانيا في نهاية القرن ١٥، حيث كان يستعمل كمنارة أو برج مراقبة.

٩. الثلاثون سنة، مرجع سابق:٢٢.

١٠. المرجع نفسه: ٢٣.

١١. المرجع نفسه.

١٢. المرجع نفسه.

١٣. المرجع نفسه.

١٤. معاهدات الجزائر: المرجع نفسه:١٩.

١٥. عروج، خير الدين (خضر) والياس (توفي في البحر قبل بلوغ إخوته السواحل المغاربية).

١٦. الموريسكيون، مصطلح يطلق على العرب الذي تنصروا في الأندلس بعد سقوط غرناطة، وأصل الكلمة تصغير لكلمة مورس ومعناها: المسلمون الأصاغر رمزًا إلى ما انتهت إليه الأمة الأندلسية من السقوط والانحلال.

١٧. لم يكن الإجرام الممارس ضد المسلمين في الأندلس عملاً فرديًا أو انعزاليًا بل كان عملاً مقصودًا ومقنعًا: ففي ٩٣٠هـ صدر مرسوم ينص على:

❖ تنصير كل مسلم بقي على دينه.

❖ إخراج كل من أبى النصرانية من إسبانيا .

❖ معاقبة كل مسلم أبي التنصير أو الخروج في المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة.

❖ تحويل جميع المساجد إلى كنائس.

لم يرتض المسلمون هذا الظلم فرفعوا مظلمتهم إلى إمبراطور النصارى.. شكل محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق للنظر فيما ادعاه المسلمون من أنهم يُنصَّرون بالقوة والإكراه.. وقررت هذه المحكمة أن إكراههم على النصرانية صحيح... وأنه

ملزم لهم بدخول النصرانية على اعتبار أنهم يفرون بالدخول في النصرانية من خطر الموت أو الطرد أو الرق ومصادرة الأملاك..

وقد علّق على هذا الحكم الجائر غربي نصراني بقوله: " وهكذا اعتبر التنصير الذي فرضه القوي على الضعيف ... والظافر على المغلوب... والسيد على العبد... منشأ لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها...

وإثر هذا الحكم صدر أمر ملكي بأن يرغم سائر المسلمين الذين نُصِّروا كرهاً على البقاء في إسبانيا بوصفهم نصارى... وأن ينصَّر أولادهم... فإن ارتدوا عن النصرانية قضي عليهم بالموت والمصادرة... كما قضي بأن تحول جميع المساجد الباقية في الحال إلى كنائس" نقلا عن دولة الإسلام في الأندلس إلى أن صدر المرسوم الأخير بطرد العرب عام ١٦٠٤أي عام ١٠١٠هـ تقريبًا ... فرحل في سنتين عن إسبانيا نحو نصف مليون مسلم، وطويت بذلك صحيفة الإسلام في شبه جزيرة الأندلس.

١٨. إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس بعهد الأمان:١٠.

١٩. لمزيد من التفاصيل حول محاولات تحرير بجاية من قبل الإخوة أبناء يعقوب عامي ١٩١٢ و١٩١٤، انظر:

- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ١٤٩٢-١٧٩٢ :١٦٢، وما بعدها.
- تاريخ الجزائر العام: ٢٩٣ .294 -

٢٠. معاهدات الجزائر، المرجع السابق:.٢١.

٢١. الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني:١٨.

٢٢. معاهدات الجزائر ،مرجع سابق:٢١.

٢٣. عروج يكون قد وصل عن طريق البر، وأما إسحاق فقد وصل عن طريق البحر في حين أن خير الدين كان في هذه الأثناء في جربة.

٢٤. معاهدات الجزائر...المرجع السابق.

٢٥. المرجع نفسه.

٢٦. Regence d'Alger, histoire des Barbarousses:35.

٢٧. الثلاثون سنة... مرجع سابق: ٢٩.

٢٨. اختلفت الروايات حول الطريقة التي تم بها القضاء على ابن التومي، غير أنّ نهايته تتعلق بمؤامرة مع جهات محليّة، وإقليمية، وخارجية، ومن ثمّ إعدامه يدخل تحت طائلة الخيانة " العظمى".

٢٩. نقلاً عن "الثلاثون سنة"... مرجع سابق: ٢٩.

٣٠. المرجع نفسه.

٣١. هذه التحصينات تتمثل فيما يأتي:

- مدخل باب الوادي: زود بمنجنيق وقذافة حربية تجرها عجلة نقل (طمبر).
- جهة البحر: زودت بقطعتين حربيتين تزن الأولى ١٢ ليبرة، والثانية ثمانية ليبرات(الليبرة =٥٠٠غ).
- مستودعات الأسلحة: زود بمنجنيق يمكنه إطلاق قذائف تزن الواحدة ٣٠ ليبيرة من الحجارة.
- باتجاه حصن البحر: تم وضع منجنيقين تزن قذيفة الأول ١٤ ليبرة والثاني ٩ ليبرات.
- زاوية البرج الخلفية: زودت بمدفعين تزن قذيفة الأول ٥٥ ليبرة والأخرى ٢٠ ليبرة.
- مدخل باب عزون: زود بمنجنيقين في المدخل واثنين في الأعلى.
- أعلى البرج: زود بمنجنيق ومدفع تزن قذيفته ٢٠ ليبرة، ويزن المدفع ٦٧٥غ وطوله ٣,٥ م .
- برج جبيل" زود هو الآخر بمنجنيق وهو أحد أشهر أبراج القصبة.

كما وضع أخيرًا منجنيق على السور المحاذي لحق الكروم بالقرب من الطريق القادم من مليانة، نقلاً عن شوفالييه، مرجع سابق : ٣٠-٣١.

٣٢. Regence d'Alger, op,Cit.

٣٣. Algerie:217.

٣٤. IBID

٣٥. IBID

٣٦. معاهدات الجزائر...مرجع سابق: ٢٣.

٣٧. المرجع نفسه.

٣٨. نقلاً عن "الثلاثون سنة"، مرجع سابق:٢٩.

٣٩. جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (١٥م):٢٢ هامش رقم٥.

٤٠. Algerie:OP.cit.

٤١. Ibid:219.

٤٢. الثغر الجماني، مرجع سابق:٤٤٠.

٤٣. Algeriem op.cit.:218-219.

٤٤. نقلاً عن معاهدات الجزائر، مرجع سابق:٢٤.

٤٥. Algeriem op.cit.:218-219.

٤٦. معاهدات الجزائر، مرجع سابق.

٤٧. لقد كان قاتله ضابطًا إسبانيا يدعى قرسيا دي تينيو، الذي أنعم عليه بإدراج صورة بابا عروج في جراب سلاحه، كما جز رأس عروج وأرسل مع معطفه الصغير إلى حاكم وهران الذي أهداه بدوره إلى دير القديس

جيروم بقرطبة، حيث زين به بهو التعبد الذي أصبح يعرف ببهو بربروسا لعبادة المسيح.

٤٨. Algeriem op.cit.

٤٩. بعد عودة صالح رايس من حملته الموفقة لإعادة أبي بوعزون المريني إلى عرشه في فاس، عرج على تلمسان، ووبخ حاكمها مولاي حسن لكونه غير أهل للثقة، حيث قام باتصالات مع الإسبان في وهران: فقد عزله عن الحكم وعيّن مكانه لإدارة تلمسان وضواحيها حاكمًا عسكريًا. هكذا انتهت تلمسان بكيانها السياسي، في صمت وبصفة بائسة عام ١٥٥٤، وفرَّ آخر حكامها مولاي الحسن إلى وهران للاحتماء بالإسبان وبقي هناك إلى أن توفي بالطاعون، وأما ابنه فقد دخل إلى إسبانيا، حيث اعتنق المسيحية باسم دون كارلوس، انظر:

- محمد عثمان باشا داي للجزائر ١٧٦٦ -١٧٩١م:٢٨.
- Regence d'Alger, op,Cit: 127.et suiv.

٥٠. d'Alger, op,Cit.

٥١. نقلاً عن معاهدات الجزائر، مرجع سابق:٢٤.

٥٢. Regence, op.Cit:108.

٥٣. Ibid:108-109.

٥٤. الثغر الجماني، مرجع سابق:٢٦٢.

٥٥. لقد كان للمدفعية دور كبير في الدفاع عن سواحل الدولة الجزائرية، ومن ثمَّ أصبحت تمجد من طرف الجزائريين وتقال في وصفها الأشعار: فقد كان من أشهر المدافع مدفع بابا مرزوق، الذي يبلغ طوله ٧م، ومدى رمايته أكثر من ٤٨٠٠م، وقد تمَّ صبُّه عام ١٥٤٢تخليدًا لتسليح دار الصناعة بعد حملة شرلكان الفاشلة عام ١٥٤١. هذا المدفع كان ذكره يؤرق الفرنسيين؛ حيث أعدم به القنصل الفرنسي الأب لوفاشي (Levacher) عام ١٦٨٣ بأمر من الداي الحاج حسين ميزمورتو، حينما كانت الحملة الفرنسية بقيادة دوكين تقنبل الجزائر، حيث اتهمه بالخيانة في الوساطة بين الجزائر وفرنسا، وفي ١٦٨٨ عندما عادت الحملة الفرنسية بقيادة الماريشال ديستري، أمر الداي بإعدام بعض الفرنسيين بالطريقة نفسها ومن بينهم القنصل بيول (Piole) ورد الفرنسيون بالمثل ضد الأسرى المسلمين انتقامًا. ونظرًا لما يرتبط بهذا المدفع من ذكريات أليمة أخذته قوات الاحتلال في ١٨٣٠ إلى مدينة براست: حيث وضع كنصب تذكاري، لمزيد من المعلومات حول الخلاف بين الداي الحاج حسين وفرنسا انظر: محمد عثمان باشا، مرجع سابق:٤٢-٤٤. وأما بخصوص المدافع الجزائرية فنحيل القاري إلى " صناعة المدافع في الجزائر":٦٥، وما يليها.

٥٦. Algerie, op.Cit:221.

٥٧. Pour plus de details sur le discourse de kheir- ed -Dine voir:
- Regence op,Cit:127 et suiv.
- إتحاف أهل...، مرجع سابق.

٥٨. Histoire de la marine Algerienne 1516-1830:9.

٥٩. خير الدين يقصد الدولة الزيانية في تلمسان والدولة الحفصية في المغرب الأدنى أي تونس.

٦٠. أتحاف...، مرجع سابق:١١.

٦١. Algerie, op,Cit:222.

٦٢. Ibid.

٦٣. Ibid.

٦٤. Idem:223.

٦٥. Les arabes de Mitija disaient en presence de Ben - el - cadi:" Nous vivions avec khair-ed-din en bonne intelligence;nous avouerons meme, que , bien loin de nous donner aucun sujet de plainte, il n'avait avec nous que des procedes remplis de courtoisie et de generosite. Tu nous a engages a romper avec lui, et unir nous resterons seuls exposes a son res-sentruire, nous resterons seuls exposes a son insuffisantes pour lui resister", Cite par Regence..., Op.Cit: 162.

٦٦. Ibid: 163.

٦٧. Ibid.

٦٨. Ibid :164.

٦٩. تاريخ الجزائر...، مرجع سابق: ٣٠٢-٣٠٣.

٧٠. الثلاثون سنة ، مرجع سابق:٤٥.

٧١. المرجع نفسه.

٧٢. المرجع نفسه:٤٧.

٧٣. المرجع نفسه.

٧٤. RegenceOp.Cit:20

٧٥. Ibid:2001.

٧٦. Obid:2002.

٧٧. فترة غياب خير الدين عن مدينة الجزائر تعددت بشأنها الروايات: فالبعض يقدرها بسنة والبعض الآخر بخمس سنوات، وأما كتاب الغزوات فيذكر أنَّ هذه المدة كانت ثلاث سنوات، حيث إنَّ خير الدين قال لسكان مدينة الجزائر:" انتظروني ثلاثة أعوام، فإن رجعت إليكم وإلا فانظروا لأنفسكم فأرخوا يوم سفره إلى يوم رجوعه، فكانت مدة غيبته ثلاث سنين، ودخل إليهم في الساعة التي خرج عنها، فكان ذلك أمرًا غريبًا".

٧٨. جوانب من ، مرجع سابق.

٧٩. voir sur ce sujet: Regence...,Op.Cit:202 et Suiv.

٨٠. الثلاثون سنة...، مرجع سابق:٢١٠

٨١. Algerie, op,Cit:210.

٨٢. Ibid.

٨٣. Ibid:211.

٨٤. Algerie, op,Cit:224.

٨٥. لمزيد من المعلومات انظر: شوفليه، مرجع سابق:٤٩، ومايليها.

٨٦. فقد أعاد سلطة الدولة على تلمسان، وأجبر مولاي عبد الله على دفع ضريبة سنوية لخزينة الدولة تقدَّر بعشرين ألف أقية، كما تمكن من القضاء على تمرد الحسن أخو بالقاضي وأُرغم هو الآخر على دفع ضريبة سنوية للخزينة، إضافة لإنهاء الوجود الإسباني في مدينة الجزائر بتهديم الحصن، كما تمكن من دخول تونس وشرد سلطانها الحسن الحفصي ودعى للخليفة العثماني على منابر مساجدها، ورسم اسمه على سكتها وأخيرًا سفه أحلام الإسبان في تحقيق أي نصر على الدولة الجزائرية بهزيمته لأندري دوريا في حملته على شرشال، التي كان الهدف من ورائها الانتقام لكرامة إسبانيا التي مرغ أنفها في التراب بعد تهديم الحصن، وعجزها التام عن إنقاذ الحامية الموجودة في الحصن، وعلى رأسها القائد مارتان دي فرقاس.

٨٧. تولى الحكم بعد وفاة الملك فرديناند عام ١٥١٦، حيث أصبح بعد ١٥١٩على رأس أكبر إمبراطورية في العالم. ومن حيث النسب فهو: ابن فليب الجميل ابن الإمبراطور الألماني ماكسيمليان الأول وخوانا المجنونة بنت فردينالد ملك الأرقون وايزابيلا الأولى ملكة قشتالة، وهما اللذان تسلما مفتاح غرناطة من يد آخر ملوكها عبد الله الزغيبي . وهكذا كان شرلكان إذًا إمبراطورًا وملكًا: فقد ورث ملكًا واسعًا سنة ١٥١٦ عن جده الألماني، كما توّج رسميًّا من طرف البابا كليمانت السابع عام ١٥٣٦، ومن ثم فهو إمبراطورا على إسبانيا، وألمانيا، وهولندا، وبلجيكا، وإيطاليا من فرنسا وأمريكا اللاتينية. لقد أثرت هذه الهزيمة على معنويات شارلكان وعلى مكانته أيضًا، لذلك نجده بعد مرور ١٥ سنة على الهزيمة أي عام ١٥٥٦ يعتزل العرش مفضلاً إكمال بقية أيامه في معبد يوست، الذي بقي به إلى أن وافاه أجله المحتوم في ٢١ سبتمبر. ١٥٥٨، حيث خلفه ابنه فليب الثاني.

٨٨. Regence,Op.Cit: 54.

٨٩. الثلاثون سنة...،مرجع سابق:١١٠.

٩٠. نقلاً عن المرجع السابق: ١١١.

٩١. نقلاً عن المرجع نفسه وأيضًا عن " العلاقات بين الجزائر وايطاليا": ١٠٠.

٩٢. وزعت القيادة الجزائرية قواتها على النحو التالي:

- باب عزون تولى الدفاع عن حاج مامي.
- باب الوادي أسندت مهمّة الدفاع عنه إلى مجموعة من ضباط البحرية بقيادة كوشوك علي وهديرا حيدر القائد العام للبحرية الجزائرية.
- القلعة القريبة من باب الوادي: تولى أمر الدفاع عنها حسن باشا بنفسه.
- الساحة الواقعة بين القلعة والقصبة أسند أمر الدفاع عنها إلى القائد حسن.

٩٣. أعدت قوات التحالف خطة تموقع لقواتها على النحو الآتي:

- الإيطاليون وفرسان مالطا أسندت إليهم حراسة الشاطئ في رأس تافورا.
- الإسبان سيقومون بتطويق المدينة عن طريق تسلق الجبل على مقربة من الوادي.
- الإمبراطورية والقيادة نصبوا الخيم فوق كدية الصابون التي تسيطر على المدينة قرب مسجد سيدي يعقوب.
- الجزء الجنوبي .
- السفن الشراعية الحربية والبواخر المسلحة تشكل خطًا دفاعيًّا أمام المدينة.

٩٤. Regence,Op.Cit: 54.

٩٥. نقلاً عن الثلاثون سنة...، مرجع سابق:١١٣.

٩٦. نقلاً عن المرجع نفسه:١١٤.

٩٧. نقلاً عن المرجع نفسه.

٩٨. نقلاً عن المرجع نفسه:١١٧.

٩٩. نقلاً عن المرجع نفسه:١١٨.

١٠٠. خسائر الإسبان في معركة الكرامة هذه كانت واضحة وعلى أقل تقدير: ١٥٠ سفينة، ونحو ١٠ آلاف مقاتل وكل الفرسان. وعدد كبير من الجرحى من بينهم البرنس دي سلمون و سافينباك قائد فرسان مالطا. مقابل ذلك غنم الجيش الجزائري كمية هائلة تمثلت على وجه الخصوص في ٦٠ قطعة مدفعية من بينها ٢٠ مدفعًا من الحجم الكبير واستشهاد مائتي جندي جزائري.

١٠١. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن الأفراح أقيمت في الجزائر وتواصلت الاحتفالات بمناسبة هذا النصر المبين للمرة الثالثة في ظرف ٣٠ سنة، لكن الطريف أنَّ اليهود كانوا أشدَّ الناس فرحًا بعد الجزائريين: فقد ثأر لهم أبطال الدولة الجزائرية وعلى رأسهم القائد حسن باشا من عدوهم القديم. وبلغ من فرحة اليهود أنهم سنوا الصيام في تلك الأيام والاحتفال بهذه المناسبة حيث كانوا ينشدون خلالها القصائد في مدح الجزائريين وتمجيد بطولاتهم، وظل اليهود حتى القرن ١٩ يحتفلون كل عام بذكرى حملة ١٥٤١ الفاشلة.

وكان فرح الفرنسيين يكاد يساوي فرح الجزائريين؛ لأنّ سقوط مدينة الجزائر سيؤدي حتمًا إلى سقوط فرنسا.

حول هذا الموضوع انظر:

- "غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر (١٥٤١م-٩٤٨هـ) بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية: ٥٤-٥٥.
- "صفحات من تاريخ الجزائر المجاهدة: غزوة شارلكان الفاشلة على الجزائر (٩٤٨هـ - ١٤٤١م)":٩.
- La ville aux mille canons:33.

المصادر والمراجع

- ❖ **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس بعهد الأمان**، لابن أبي الضياف أحمد، ج٢، تونس - الجزائر، ١٩٧٧م.
- ❖ **تاريخ الجزائر العام**، لمحمد بن عبد الرحمن الجيلالي، ج٣، د.م.ج، الجزائر، ١٩٩٥م.
- ❖ **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، لابن سحنون، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، قسنطينة ١٩٧٣.
- ❖ **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر** لشوفالييه كورين، تر. جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩١م.
- ❖ **جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (١٥م)**، لمحمود بوعياد، ش.و.ن.ت - الجزائر، ١٩٨٢م.
- ❖ **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ١٤٩٢ - ١٧٩٢**، لأحمد توفيق المدني، الجزائر (ب.ت).
- ❖ **صفحات من تاريخ الجزائر المجاهدة: غزوة شارلكان الفاشلة على الجزائر (٩٤٨هـ/١٥٤١م)"**، لعبد الحليم فقراوي، أسبوعية النور، ع٢٩، ١٢، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- ❖ **صناعة المدافع في الجزائر**، لعلي خلاصي، مجلة التراث، ع١٠، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ❖ **غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر (١٥٤١م ٩٤٨-هـ) بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية"**، لمولاي بالحميسي، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع٦-٧، ١٩٦٩م.
- ❖ **محمد عثمان باشا داي الجزائر ١٧٦٦-١٧٩١م**، لأحمد توفيق المدني، الجزائر، ١٩٨٦م.
- ❖ **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، لمحمد العربي الزبيري، المؤسسة الجزائرية للطباعة- الجزائر، ١٩٨٥م.
- ❖ **معاهدات الجزائر مع فرنسا ١٨٣٠-١٩١٦**، لجمال قنان، م.و.ك- الجزائر، ١٩٨٧م.

* Algeri, ROZET et CARETTE (Capitaines du genie), ed. Bousslama -Tunis, 2me ed 1980.
* Histoure de la marine Algerienne 1516-1830, BELHAMISSI Moulay:ENAL-Alger,1986.
* Regence d'Alger, histoire des Barbarousses, SANDER Rang et FERDINAND Denis, ed.Bouuslama- Tunis, 1980,t.1.
* La ville aux mille canons, BELHAMISSI Moulay ENAL-Alger,1990.

أضواء في الفكر الجغرافي القديم في وادي الرافدين

د. ابتهال عادل الطائي
جامعة الموصل - العراق

المقدمة:

كان من بين العلوم الإنسانية[١] التي نبغ بها سكان وادي الرافدين علم الجغرافية، فبإمكان الباحث في النصوص المسمارية للحضارة الرافدية أن يستخرج مادة جغرافية عظيمة. ولكن تبقى هناك مسألة يجب أن تؤخذ بعين الاهتمام، وهي أن الكتبة العراقيون القدماء لم يضعوا في أي حقل من حقول المعرفة مؤلفًا واحدًا منظمًا ومرتبًا علميًا؛ فهم لم يألفوا التجريد الذهني، بل ركزوا اهتمامهم على حشد المعلومات والوقائع الماديّة وتأليفها على غير نظام ولا قاعدة. وعلى هذا النمط وضعوا العديد من المؤلفات في فروع المعرفة: الجغرافية، والتاريخ، والرياضيات، والشرائع، والآداب وغير ذلك، إضافة إلى هذا كانوا يكررون في مؤلف واحد عشرات المرات الفكرة التي تهمهم. وكانت هذه سمات سائر المجتمعات الأولى التي ظهرت[٢]. وعلى الرغم من ذلك نلاحظ أنهم كانوا حريصين على الوصف الجغرافي الملازم للنصوص التاريخيّة، ولذا قيل إنّ الجغرافية هي المسرح والتاريخ هو الممثل عليها.

جاءت هذه الدراسة محاولة أولى لتعرف هذا العلم في وادي الرافدين، تناولت الدراسة محورين هما:

أولاً: مدخل إلى نشأة علم الجغرافية في وادي الرافدين:

من بين الأمور التي شغلت تفكير الإنسان في العصور معرفة نظام الكون وصلة عالمنا بالكرة السماوية وشكل الأرض وكيفيّة ثبوتها في الفراغ[٣]. أن تحديد نقطة انطلاق لتطور الفكر الجغرافي وثيق الصلة بحياة الإنسان، فعندما بدأ يدرك جميع الظواهر الطبيعيّة[٤]. المحيطة به، وما تقدمه الطبيعة من إمكانات سعى إلى تحقيق الملاءمة بين متطلبات حياته وطبيعة المكان الذي يقيم فيه. والبدايات الأولى للفكر الجغرافي قديمة جدًا، عندما كان الإنسان يعيش على الجمع والالتقاط والقنص والصيد، وتمكن قبل أن يتوصل إلى معرفة الكتابة من عمل بعض الرسوم البسيطة

على قطع من الجلد أو على الرمال؛ ليبين فيها بعض الدورات والمسالك، التي كان يتبعها في مواسم الصيد والقنص، كما أنَّ فطرته دفعته لتصوير بعض الظاهرات الموجودة في بيئته كالأنهار والجبال والأشجار والبحيرات على جدران الكهوف والصخور[٥] والأختام، فالمشاهد المصورة عليها تعبّر أصدق تعبير عن أهم الأنشطة والمعطيات آنذاك، فالفنان استطاع أن يحاكي خصوصيات بيئته ومدى تفاعل مجتمعه معها، فركّز على معظم العوامل والظواهر الطبيعيّة المؤثرة في مستوى حياته. فالمشاهد المتنوعة للأشكال الآدميّة والحيوانيّة والنباتيّة وغيرها لم تهدف إلى التركيز على ذاتها كأشياء معنيّة، وإنما وردت كأنموذجات الموضوعات عامة وشاملة دون العناية بالمدلولات الضيقة والخصوصيات؛ أي وضع دلالات تؤدي دور الكلمات. واختيار النبات يعطي انطباعًا على نمو الزراعة، وكذلك الحال بالنسبة للقصب وأهميته في هذه البيئة، والمياه والحيوانات جميعها تعكس لنا اهتمامات القوم بمجالات الإنتاج الزراعي تمشيًا مع التطور الحاصل في حياة الإنسان[٦]. وبابتكار الإنسان الكتابة أخذ الإنسان يمثل هذه الظواهر عن طريق نقشها أو رسمها على ألواح الطين[٧].

على أيّ حال نشأ عند سكان وادي الرافدين ما نسميه بعلم البلدان والجغرافية[٨]، وهناك من أطلق عليه اسم علم الهيئة والجغرافية[٩]. فأهل المعرفة في الحضارة الرافدينية كانوا مولعين بالتفكير بالكون ومركز بلادهم وموقعها بالنسبة للبلدان الأخرى[١٠]. والمعلومات الجغرافية التي قدمها سكان وادي الرافدين تعد أكثر صدقًا ودقّة من غيرها من المعلومات التي ذكرت في النصوص المسمارية، حيث إنها لا تتحمل المبالغة أو الخيال إلا بقدر محدود جدًا، تعكس تصور العراقيين القدماء آنذاك حول مواقع المدن ومراكزها بالنسبة لبعضها وبالنسبة إلى الأنهار والبحار والجبال، وتثبيت المسافات، وبعض الحقائق الأخرى التي لم تكن تهدف بأي حال من الأحوال تحقيق غايات إعلامية[١١].

سوف نستعرض الدوافع التي دفعت سكان الحضارة الرافدينية إلى الاهتمام بالجغرافية، ويمكن إجمال تلك الدوافع باقتصاديّة وعسكريّة وإداريّة إضافة إلى العلميّة، فبالنسبة للأولى؛ أي الاقتصادية، وبخاصة ما يتعلق منها بالزراعة، فبعد أن ارتبط الإنسان بالأرض وعرف الزراعة، واستأنس الحيوان، واستقر في القرى إلى جانب الموارد المائيّة الثابتة كان عليه[١٢] أن يتتبع الخصائص الطبيعيّة وتأثيراتها في الزراعة، فعرف موسم فيضان الأنهار ومواعيد فصول انحسار المياه عن الأراضي التي يغمرها الفيضان، كما كان على السلطة المحليّة مسؤولية عمل خرائط أو رسوم لمناطق الاستقرار؛ لتكون أساسًا لتقدير الضرائب، كما كان عليه أن يعرف الأحوال الجويّة وموسم كل محصول من المزروعات الصيفيّة والشتويّة، وكان عليه أن يتوصل إلى طريقة لتقسيم الأراضي الزراعية، والعمل على بناء قنوات الري والسدود والخزانات، كما كان عليه أن يراقب النجوم ويحسب مواعيد الحصاد والبذار[١٣].

ويدخل ضمن هذا الإطار التجارة، فقد اتسعت معلومات العراقيين القدماء من جغرافية الشرق القديم، منذ أقدم الأزمان بالتجارة والأسفار[١٤] والحروب[١٥]. ويخبرنا عن هذا الباحث كريمر حيث يقول:" من الواضح أن السومريين قاموا عبر

العصور بجمع معلومات غير قليلة عن أقطار أجنبية وشعوب غريبة، وكان التجار السومريون الذين يقطعون البر والبحر طولاً وعرضًا يجلبون معهم تقارير عن الأماكن التي يزورونها، وعن الناس الذين كانوا يستوطنونها، وكان الجنود يفعلون دون شك مثل هذا بعد عودتهم من الحملات العسكرية الناجحة[١٦]. ومعروف أنّ لبلاد وادي الرافدين علاقات تجارية قديمة تمتد جذورها إلى عصور ما قبل التاريخ، وغطت تلك العلاقات مناطق وبلدان قاصية ودانية، فمن أواسط آسيا الصغرى شمالاً إلى الخليج العربي والجزيرة العربية جنوبًا، ومن موهنجود دار في وادي السند وبلاد فارس في الشرق إلى بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط، وبعض الجزر فيه ومصر وليبيا وغيرها من البلدان الإفريقية في الغرب، وكثيرًا ما تناولت النصوص المسمارية طرق المواصلات البريّة أو المائية، وأمدتنا بتسميات للبحار والأنهار والمدن والقرى الواقعة على تلك الطرق[١٧]. حيث توافرت لدينا بعض الألواح التي أطلق عليها اسم الأثبات أو الجداول الجغرافية Geographical Lists يعود تاريخها إلى العصر البابلي القديم (٢٠٠٦-١٥٩٥ق.م)، وهي معاجم صغيرة بأسماء المدن والمواضع الشهيرة التي كانت ترتب إما بحسب تسلسلها الجغرافي، أو بحسب كتابة أسمائها، ولعلّ أقدم ما وجد من هذه الأثبات اللوح الطيني الذي اكتشف في تل حرمل[١٨]. ومن قبيل هذه المؤلفات الجغرافية قوائم تذكر الطرق والمسالك الشهيرة وأسماء المدن والأمكنة، التي تمر منها، ويطلق عليها اسم " دليل السفر" ودليل المسافر والسائح"[١٩]. وتعطي هذه الألواح المساحة بين مدينة وأخرى والزمن اللازم للرحلة، وتقدم هذه الألواح الأدلة على تقدم التجارة وعلى تكرار الأسفار بين بلدان الدولة والأقاليم المجاورة لها[٢٠]. وقد أعانت هذه القوائم الباحثين في تعيين مسارات الطرق التجارية، ويؤخذ من النصوص أنّ الاتجاه العام للطرق المتجهة إلى الشمال والغرب كان يتبع التسلسل الآتي في العصر البابلي القديم:

- من لارسا إلى آشور.
- من أبقم إلى شبات أنليل وأشناكوم.
- من (ضفاف) الفرات حتى حران وإلى شبات أنليل.
- من شبات أنليل إلى سياد ولارسا.

وكان يتخلل كل طريق من الطرق الموصلة بين المدن المذكورة عدد من المحطات والمراكز التجارية، فتذكر النصوص ثلاثة مراكز تجارية من لارسا إلى بابل، ومنها كان يبدأ السير إلى مجموعة من المراكز الأخرى من منطقة ديالى، التي تقع فيها منطقة أشنونا المهمَّة، ثم كان يتبعها عدد من المراكز باتجاه الشمال إلى مدينة آشور، ومنها إلى مدينة أبقم، ومن ثم كان الطريق يسير شمالاً باتجاه مدينة شبات أنليل[٢١].

أما بالنسبة إلى الدوافع العسكرية، فإنَّ ذلك يتجلى بوضوح في القوائم الخاصة بأسماء الأقاليم والمدن، كما نجد ذلك في الثبت الخاص بفتوح سرجون الأكدي (٢٣٧١-٢٣١٦ ق.م)[٢٢]. ونجد دليلاً آخر على ذلك في أسلوب بناء السور الذي شُيّد لكي يصد الأموريين، حيث أرَّخت السنة الرابعة من حكم " شو - سين" (أحد حكام سلالة أور الثالثة ٢٠١٣-٢٠٠٦ق.م) بأنها السنة التي شيد فيها " سور الأموريين"[٢٣].

كما أنَّ الآشوريين تمكنوا من تكوين مملكة مترامية الأطراف، بما توافر لديهم من معرفة

بجغرافية المناطق التي امتدت إليها حدود مملكتهم[٢٤]، والواقع أنه كلما تغلب حاكم على إقليم من الأقاليم الواسعة كان بحاجة إلى معرفة بجغرافية المنطقة؛ لكي يتمكن من توجيه أعمال موظفيه، وهذا يقودنا للحديث عن الدوافع الإدارية إلى جانب الدوافع العسكرية[٢٥]، حيث يدخل ضمن المؤلفات الجغرافية قوائم قديمة نظمت لأغراض إدارية، ومن أجل تعداد المدن والسكان، ولتسهيل جمع الضرائب[٢٦]، والإدارة، حيث تعطينا الجداول الجغرافية قائمة بأسماء الأقاليم والمواضع المهمَّة؛ لتسهيل الأسفار وتعريف المسافات فيما بينها بنقطتين محددتين. وأخرى بالمناطق الواجب اختيارها للذهاب من مكان إلى آخر، وثالثة بأسماء المدن والهياكل الأفقية التابعة للمنطقة. ويزودنا أرشيف ماري بعدد من الرسائل المتبادلة بين الملك شمشي - ادد الأول (١٨١٤-١٧٨٢ق.م) وولديه إيمشي - داكان الذي عيّنه على إيكلاتم، والمناطق التي تقع على نهر دجلة جنوب بلاد آشور، ويسمخ- أدد الذي عيّنه حاكمًا على مدينة ماري. تتعلق تلك الرسائل بإدارة البلاد ومشكلاتها التي تخص الشؤون العسكرية والاقتصادية والإدارية، ففي إحدى الرسائل التي وجهها شمشي - أدد إلى يسمخ - أدد طلبه منه أن يقوم بعملية إحصاء المقاطعات التابعة له، حيث ورد في الرسالة:

" لا تظهر أي تساهل في إحصائك. وبعد انتهائك من العمل في نهاية الشهر الحالي ... احضر إلى شوبت أنليل لمقابلتي"، وقد أعرب شمشي - أدد الأول في الرسالة نفسها عن ارتياحه لقيام يسمخ - أدد بإحصاء الأراضي الزراعية في ماري[٢٧].

أما بالنسبة إلى الدوافع العلميّة، فمنشأ ذلك محاولة وصف الكون ومعرفة موقع بلادهم من البلدان الأخرى، أو موقعه بالنسبة إلى الكون؛ أي السماء والأرض[٢٨]. فقد اعتقد سكان وادي الرافدين أنَّ الأرض شبيهة بالسماء، فهي كمنصف كرة مقلوبة، تعلوها السماء التي تتكون من ثلاث طبقات، أو سبع طبقات، ويحيط بالسماء البحر أو المحيط السماوي[٢٩]. ودعوا القسم الأعلى من السماء بالمركز أو " كبد السماء"[٣٠]. كذلك قسموا الأرض إلى ثلاث طبقات، أو سبع طبقات، أهمّها الطبقة العليا، التي يسكن فيها البشر، والطبقة الوسطى، وهي منطقة المياه، والطبقة السفلى تسكنها أرواح الموتى[٣١].

وقد جاء في مآثر أخرى تقسيم كل من السماء والأرض إلى سبع مناطق، وقسموا الأرض إلى أربعة قطاعات أو أركان أو أربع جهات أصلية[٣٢]. تقابل كل جهة قطرًا عظيمًا من الأقطار، أو تسمى باسمه، فالجنوب بلاد عيلام والشمال بلاد أكد، والشرق بلاد السوباريين والكوتيين" والآشوريين والغرب بلاد الأموريين؛ أي جهات سوريا[٣٣]، وكانوا يعتقدون أنه توجد في حدود هذا المحيط حواف الجبال التي تستقر عليها السماء، مثل ما يستقر الغطاء فوق القدر، واعتقدوا بوجود منفذين في هذه الجبال أحدهما لشروق الشمس والثاني لغروبها[٣٤].

ثانيًا: أنواع الجغرافية التي عرفها سكان وادي الرافدين:

من الممكن القول إنه لدى سكان الرافدين معرفة واهتمام بالجغرافية بأنواعها، حيث يمكن أن نستشف من النصوص المسمارية الجغرافية الاقتصادية والعسكرية والوصفية (طوبوغرافية)، وجغرافية الأجناس، إضافة إلى الجغرافية الفلكية.

بالنسبة إلى الجغرافية الاقتصادية، لموقع العراق الاستراتيجي أثره الواضح في نشوء التجارة وتطورها وازدهارها عبر العصور التي مرَّ بها. فهو يقع عند ملتقى الطرق التجارية الرئيسة، التي تصل الخليج العربي وأقطاره والبلدان الواقعة إلى ما وراء البحر المتوسط، إضافة إلى كونه من الأقاليم المفتوحة جغرافيًا[٣٥]. ونستطيع أن نجد صدى ذلك من خلال قطعة سومرية أعطي لها عنوان " أنكي وتنظيم العالم"، ما يهمنا منها هو أنَّ مهمة الإله أنكي تتوقف على حكم العالم، فإنه في الأقل قد خططه ونظمه بشكل يخدم مصالح بلاد سومر مركز اهتمام سكان الأرض والكون، ويبتدئ بهذه الأرض فيعين لها مصيرًا، بأن تكون أعظم البلدان وأغناها وأكثرها تمدنًا ونقلاً للحضارة، ثم نزل نحو الجنوب، واتخذ مدينة أور كهمزة وصل مع البلدان الغربية، التي يمكن الوصول إليها عن طريق البحر، وجعل من هذه المدينة ميناء التجارة الكبير للجزء السفلي من بلاد الرافدين، وبعد هذا يجتاز بقفزة كبيرة إلى أبعد هذه البلدان نحو الشرق ويمنح " ملوخا" كما يظهر في الساحل من شبه الجزيرة الهندية، أن تزدهر بفضل الذهب والتصدير، ثم يعود أدراجه حيث رتب مصير الجيران المباشرين لسومر في الجنوب الغربي، ستكون دلمون مخصصة لتزويد التمور والحبوب، وفي الشرق على الهضبة الإيرانية ستكون عيلام ومرخاشي منتجتين معتمدتين للحجارة شبه النفيسة وللفضة، وفي الشمال الغربي ستكون شعوب (مارتو)، وهم جزريون شبه رحل من سوريا، من كبار المموّنين بالمواشي. هكذا كون أنكي تركيبة البلاد على الصعيد الدولي مع ما يجاورها من البلدان لكي تستمد منها الخيرات الاستهلاكية التي تنتجها أو لا تنتجها بصورة غير كافية[٣٦].

أما بالنسبة إلى الجغرافية العسكرية، فإنَّ المعلومات الواردة في المدونات التاريخيّة سرعان ما كثرت خلال العصر البابلي القديم، حيث زودنا الكتبة العراقيون القدماء بالعديد من النصوص المعجمية Lexical Texts التي احتوت على قوائم بأسماء البلدان والأقاليم[٣٧]. وبعضها احتوى على شروح وتعليقات بالسومرية والأكدية[٣٨]. وربما استخدمت تلك القوائم كدليل للرحلات التجارية أو للأمور الإدارية أو العسكرية، وأرقى ما وصل إليه الكتبة في مجال تلك النصوص، التي تخص فتوح البلدان، منها ثبت خاص بفتوح سرجوي الأكدي[٣٩]، فبعد تدوين أسماء البلدان والمدن التي فتحها، وحركته من مدينة إلى أخرى يذكر ما نصّه " مسيرة ١٢٠ ساعة مضاعفة بين منابع الفرات وبلاد ميلوخا ومكان الحدود التي فتحها سرجون ملك العالم عند سيطرته على كل البلدان المغطاة بالسماء. الحدود التي حددها بالقياسات التي ثبتها"، وبعد ذلك يدون الكتبة ثبتًا بأبعاد كل بلد وحدوده، وكمثال على ذلك "٩٠ (ساعة مضاعفة) مساحة بلاد عيلام، ١٨٠ ساعة مضاعفة، مساحة بلاد أكد، وبعد هذا يخبرنا بالحدود العامة، وتخصيص بعض البلاد المجاورة لها، ومن ذلك ذكره البحر العلوي A.AB.BAElitti البحر المتوسط وبعض البلدان عبر ذلك والبحر الأسفل Saphitt A.AB.BA الخليج العربي مقرونًا بدلمون (البحرين) أو مكان (عمان)، ثم يستمر فيخبرنا بالأقاليم من الشرق إلى الغرب، ويأتي بالأهمية نفسها نص متضمن مسيرة جيش من لارسا " سنكرة" إلى بلاد آشور، حيث دون الكاتب عدد

الأيام التي يستغرقها الجيش في مسيرته من مدينة إلى أخرى، فمثلاً من بابل إلى سيار (أبو حبة قرب اليوسفيّة)، مسيرة خمسة أيام ومن سيار إلى دور أيل - سين (قرب ديالى) مسيرة عشرة أيام ... ويستمر النص فيذكر الوصول إلى بلاد آشور والمسافات فيما بين مدنها، ومن ثم العودة بطريق آخر إلى لارسا[٤٠].

وتورد رسالة مؤلفة من كسر كتبها " خبير" في لجنة المستشارين الفنيين، الذين كلفوا بتنفيذ مهمّة تشييد السور الذي يصد الأموريين، والذي عرف باسم " موريك تيدنيم"، الذي يبعد "التندوم" إحدى القبائل الأمورية البدوية، تفاصيل مدهشة ومنها حقيقة القرار بأن يمتد السور ٢٦ ساعة مزدوجة (زهاء ٢٧٠- كم، وانطوى المشروع على خرق ضفاف نهري دجلة والفرات[٤١]. وهذا نبوخذ نصر الأول (١١٢٤-١١٠٣ق. م) يقدم لنا وصفًا رائعًا في أثناء غزوه لبلاد عيلام، حيث يقول:" من دير مدينة الإله "أنو" المقدسة قفز مسافة ثلاثين " بيرو" ساعة مضاعفة، وسار في الطريق في شهر تموز، لقد احترقت النصال وتوهجت كأنهار النار. وتوهجت أحجار الطريق كأنها الأفران الحامية. حيث جفّت الآبار وترنح حتى الأبطال..."[٤٢].

أما بالنسبة إلى الحوليات الآشورية فقد زودتنا بمعلومات قيمة عن جغرافية الشرق القديم وخطط بلدانه؛ لأنها تذكر بالتفصيل والترتيب المواضع والمراحل التي يمر فيها الملوك يومًا بعد يوم في غزواتهم وحملاتهم الحربية، فحملة توكلتي - ننورتا الثاني (٨٩٠-٨٨٤ق.م) ضد الشكو ورد في التقرير المفصل عن هذه الحملة كثير من أسماء المدن والبلدان التي مرّت بها[٤٣]. وتعد هذه المعلومات على قدر كبير من الأهميّة فيما يخص الجغرافية التاريخيّة لبعض أقسام العراق القديم وسورية والأناضول[٤٤]، وحملات الملك أدد - نرادي الثاني (٩١١-٨٩١ ق.م)، والملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ق.م)، وقد وردت أيضًا معلومات ثمينة في حوليات الملك شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) المدوّنة في المسلة السوداء، التي تتحدث عن أحداث واحد وثلاثين عامًا من حكمه، ولا سيما فتوحاته في أنحاء الشرق القديم[٤٥]. وحملة سرجون الآشوري (٧٢١-٧٠٥ق.م) التي جهزها باتجاه المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية التي اختتمت بمدينة مصاصير الواقعة إلى الجنوب من بحيرة وان، حيث إنّ التقرير الخاص بهذه الحالة قد احتوى بنحو خاص على وصف دقيق لطبوغرافية المناطق التي سلكها الجيش الآشوري، والمعلومات الواردة في التقرير من الدقّة، بحيث تعجز كتب الجغرافية في الوقت الحاضر أن تقدم المعلومات الجغرافية على حقيقتها؛ لأنّ المبالغة والمغالطة لا تخدم الجيش في حملاته العسكرية، وقد تكلفه الكثير من الأرواح والمعدات إن كانت المعلومات خاطئة عن طوبوغرافية المناطق المزمع الوصول إليها[٤٦] حيث كان المسرح الرئيسي لهذه الحملة منطقة أورارتو المنيعة، التي تمثلها اليوم أرمينيا، حيث يصف سرجون الصعاب التي واجهها لضمان عبور الأنهار التي كانت في حالة فيضان شديد، وكيف أنّ الجيوش عبرت تلك الأنهار، كما عبرت الزابين الكبير والصغير دون أن يعتري الجنود أي خوف، ثم دخل منطقة الجبال وكانت شعارات الآلهة تحمل أمامه، ويمضي فيقول: " على الرغم من أنّ تلك الجبال كانت عالية ومغطاة بنوع كثيف من الأشجار، وعلى الرغم من وجود الوديان المرعبة بظلامها الذي يشبه ظلام غابة الأرز، حيث لم ير أي ضوء هناك، إلا أنها قد تقدمت"[٤٧].

أما من ناحية الجغرافية الوصفية[٤٨] ؛ أي الطوبوغرافية، فإنّ سكان الحضارة الرافدينية عمدوا إلى وصف الأماكن والمشاهد الطبيعية كالجبال والغابات والأهوار والبوادي والصحاري[٤٩]، فهذا الملك آشور ناصر بال الثاني، كان يهوى أنواع النباتات والحيوانات كلها فعمد إلى جلب أنواعها المختلفة من المناطق التي سافر إليها، وجلب بذورها كي تستنبت على تراب آشور[٥٠]. أما الملك تجلاتبليزر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م) في إحدى حملاته على أرض ميتاني يتحدث عن الحيوانات التي اصطادها بالقول:" أربعة ثيران برية كبيرة وقوية"، و" عشرة أفيال ذكور جبارة في أرض حران وفي حوض نهر الخابور"، كما صرع ثمانية أسود وهو يمتطي العربة الملكية، وبطش بعشرين ومائة أسد أُخرى وهو على الأرض، وشملت مجموعته حتى كركدن البحر، "الذي كانوا يدعونه بحصان البحر، والذي قتله في مياه البحر الأبيض المتوسط قرب أرفاد"[٥١]. إضافة إلى ذلك عمد سكان الحضارة الرافدينية إلى تصوير المعالم الجغرافية بأنواعها المختلفة، وخير مثال على ذلك ما نراه في المشاهد المرسومة على مسلة النصر لنرام سين[٥٢]. وما أنجزه الآشوريون في هذا المجال، فقد وصفوا الحوادث في كتاباتهم، ولم يكتفوا بالوصف، بل عمدوا إلى تصويرها على منحوتات، فكأنهم وثقوا وصفهم بنماذج منحوتة، تتناول طبيعة المنطقة التي يتحدثون عنها، فعلى سبيل المثال صور النحاتون زمن الملك سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ق.م) حملاته العسكرية التي قادها ضد المتمردين على جدران قصره، وأن الناظر إلى هذه المنحوتات يرى أنها عبّرت تعبيرًا دقيقًا ومفصلاً عن طبيعة أجواء المعركة وأحداثها، وكأنما نقلت نقلاً حيًّا، ويترتب على ذلك الاعتقاد بأن الفنان الآشوري كان يصاحب هذه الحملات، ويعمل مسكيجات (ترسيمات)، وعندما يعود إلى نقشها على ألواح الحجر التي أُعدّت لذلك[٥٣]. ومعارك الملك آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) في منطقة الأهوار لم تكتفِ بتقديم الوصف الدقيق للمنطقة، بل صورت أيضًا المنطقة تصويرًا دقيقًا، ومما تجدر الإشارة إليه أن الآشوريين كانوا من أكثر سكان وادي الرافدين اهتمامًا بتصوير طبيعة المنطقة التي تجري فيها معاركهم، وخير شاهد على ذلك المنحوتات الحجرية التي تزين قصورهم[٥٤]. إضافة إلى ذلك ترك لنا سكان الحضارة الرافدينية أوصافًا طبوغرافية، فعلى حد قول الباحث وايزمان، الذي يعد بابل وآشور العاصمتين الوحيدتين في الشرق الأدنى، اللتين تركتا مثل تلك الأوصاف. فبالنسبة لبابل عمد الكتبة إلى استنساخ تلك النصوص التي تتعلق بوصف مدينة بابل منذ زمن آشور بانيبال حتى العصر الهلنستي، ومثل كل النصوص الأكاديمية الرئيسة يبدأ الوصف بأسماء المدينة التي تؤكد أنها مركز رفاهية ومركز ديني وعقائدي، ويشير وصفها بأنها مركز سامٍ (رباط السماء) إلى أن المدينة كانت تهتم منذ زمن مبكر بالمعارف المقتصرة على فئة قليلة، ثم يتبع ذلك الأوصاف العامة لبابل، مثل المدينة الذهبية والمدينة المقدسة أو المدينة الجميلة تنتهي بـ(ريكيس مائلتي) حزام الأراضي. إنّ للمصطلح معاني تنجيميّة ترتبط بالقسم التالي من طبوغرافية حول (العمق) تيامات كموطن بيل، لذا كانت النظرة التقليدية إلى بابل دائمًا بوصفها مركز المعرفة بالمعنى الرئيس للمصطلح، كمعرفة آلهة محددة، ومثل آشور كانت النميكي مدينة الحكمة، ويرد في طبوغرافية بابل أسماء

المعابد والمراقد وأهم قاطنيها ومعلومات معمارية عنها، ويتبع وصف آشور اسم المدينة بقائمة للآلهة قبل أن يقدم المعلومات المعمارية عن آشور كما هي عليه الحال بالنسبة لبابل(٥٥).

أما ما يخص الجغرافية الحضارية فقد خلّف لنا العراقيون مدونات كثيرة تخص بعض الصناعات، وبخاصة صناعة النسيج والزجاج وسبك المعادن وصياغتها(٥٦). أما في مجال هندسة الري فمعروف أنَّ من بين أبرز خصائص البيئة في العراق تعرضها للفيضان السنوي الكبير لنهري دجلة والفرات، وعلى الرغم من التفاوت النسبي، في وقت الفيضان النهري، مما يترتب عليه تقليل خطورة الفيضان ويتيح الفرصة أمام الناس لتفادي خطر الفيضان، إلا أنه قد يصادف أن يقع موعد فيضان النهرين في وقت مقارب أو متصل، وعندها يقع ما يطلق عليه العراقيون القدماء " الطوفان"(٥٧)، ونتيجة لذلك عمد سكان وادي الرافدين إلى بناء السدود وحفر القنوات، وخير مثال على ذلك مشاريع إرواء أربيل ونينوى وكركوك، التي قام بها الملك الآشوري سنحاريب، حيث تعد من الأدلة على صدق الآشوريين في تقديم المعلومات الجغرافية. فالمعلومات التي ذكرها الملك عن الجبال والعيون، التي كانت تزود نهر باستورة - بالمياه، ذلك النهر الذي جلب منه المياه العذبة إلى مدينة أربيل، كانت معلومات دقيقة، وليس فيها شيء من الخطأ أو المبالغة، وسنورد النص الخاص بالمشروع المذكور:

" أنا سنحاريب ملك العالم، ملك بلاد آشور، حفرت ثلاثة أنهار في جبال خاني، وهي جبال في أعالي مدينة أربيل، وأضفت إليها مياه العيون التي في اليمين واليسار ومن جوانب تلك الأنهار، ثم حفرت قناة تمتد إلى أواسط مدينة أربيل موطن السيدة العظيمة، الإلهة عشتار، وجعلت مجراها مستقيمًا(٥٨). ولتوضيح ما جاء في كتابة الملك سنحاريب نشير إلى أنه توجد جبال سفين وصلاح الدين وبتة باوي في أعالي سهل أربيل، ومن هذه الجبال ينبع فعلاً نهر باستورة، وهذه الجبال كما يبدو في كتابة الملك سنحاريب كان يجري منها عدد من النهيرات متجهة إلى وادي نهر باستورة، حيث تتجمع فيه بالقرب من القرى زيادة وقرنة، وهي الأنهر الثلاثة المشار إليها في كتابة سنحاريب. أما العيون فقد أضاف مياهها إلى تلك الأنهار (فهي كثيرة العدد)، فيها عين تقع بالقرب من قرية خوران، وأخرى بالقرب من هانان، والثالثة جوار قرية دنجيز اوه.

أما في الجغرافية الإدارية، فقد فرقوا بين التقسيمات الإدارية، فاستخدموا تسمية بلاد مات matu(٥٩) وإقليم، وأقرب تأصيل لهذه الكلمة من الكلمة اليونانية " كليما" (klima) "كليما توس" ، ومنها في اللغات الأوربية، Climate, Clime ولكن الأصل يرجع بدوره إلى التراث اللغوي في حضارة وادي الرافدين من الكلمة السومرية " كلامKalam"، التي تعني الإقليم والقطر والبلد(٦٠)، حيث استخدم السومريون مقطع " كلام" للدلالة على فكرة الموطن، وكذلك للدلالة على لاد سومر نفسها، أما المقطع " أوكو" فقد كان يرادف عندهم معنى الشعوب عمومًا، ومن الجدير بالذكر أن للسومريين مفردة أخرى ترمز للبلد، وهي " كور"، وتعني الجبل، واستخدمت أيضًا للإشارة إلى البلدان الأجنبية(٦١).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ المصطلح السومري " كلام" اتخذ لقبًا سياسيًّا من قبل لوكال زاكيزي Logalzagisi منتصف الألف الثالث قبل الميلاد،

حيث لقب نفسه" ملك الأقليم"، وفي السومرية لوكال كلا ما ، Lugal Kalam ، وتعني ملك بلاد سومر وآكد[٦٢]، ثم أخذت الألقاب تتطور تماشيًا مع تعاظم نفوذ الدولة، فهذا سرجون الأكدي أول من استخدم لقب الجهات الأربع بالسومرية، Ba - Araba -im Lugal - An Ub- Da- Limmu وفي الأكدية Shar Kibrate أي ملك العالم، وهو في الأصل لقب ديني خصص لكبار الآلهة[٦٣]. وأضاف إليه نرام سين (٢٢٥٤-٢٢١٨ق.م) إلى اسمه أيضًا لقب " ملك الجهات الأربعة" شاركبرت أربعيم، وأردفه بلقب (ملك الكون "رشاكشاتي")[٦٤]، وهذا الملك شمشي أدد الأول اتخذ لنفسه لقب ملك العالم، إضافة إلى لقب ملك بلاد آشور، ولقب توكلتي- ننورتا الأول (١٢٤٤-١٢٠٨ق.م) نفسه ملك أقاليم العالم الأربعة، واتخذ بعض الملوك الآشوريين لقب حاكم الحكام، وأمير الأمراء، وملك الملوك[٦٥].

أما بالنسبة للمدن فالقاعدة التي يجري بموجبها اختيار مواقع المدن في جميع الأدوار التاريخيّة تقريبًا أن تكون على مجرى رئيسي، أو بالقرب منه، حيث تكرار ظاهرة هجران مراكز العمران عند تحول اتجاه هذه المجاري، ونتج عن هذه الظاهرة انتشار الأطلال الأثرية في مناطق جرداء من جراء تبدل مجاري الأنهار القديمة، حيث تشاهد تلك التلول على ضفاف الأنهار المندرسة، فقد استخدم المصطلح السومري " أورو" Uru الأكدي "الو" alu حيث كان يطلق على المستوطن من حجم المدينة، التي تشغل عددًا من البيوت المشيدة من اللبن المجفف، ويشتمل في بعض الأحيان على أكواخ مجتمعة، تؤلف وحدة إدارية، بيد أنه لا توجد مصطلحات خاصة للتمييز بين المدن الكبيرة، وبين المدن الصغيرة، أما المستوطنات الريفيّة، من قبيل القرى الفلاحية، فكان لها تسميات خاصة بها مثل المصطلح السومري " أي أورو-شي E-URU-SHE" وأي - دورو E- DURU[٦٦]، وفي الآكدية Kapru، وقد اطلقت على القرية الزراعية[٦٧]. وقد استخدم الجدار المسيج، لكنه لم يكن من الشروط الضرورية، وهكذا نجد أنَّ كلمةٌ URU " مشابهة إلى كلمة Polis اليونانية، التي لم تكن مُسيَّجة بجدار الضرورة. إضافة إلى ذلك استعملت تعابير متعددة لأنواع متعددة من المستوطنات الصغيرة، وذلك في عهود ومناطق مختلفة، وأصبحت القرى والمجمعات القبلية متميّزة بأسمائها الموصوفة، خصوصًا في العهد البابلي القديم، مثلاً تعبير " بيت بن" كان يعني عزبة، واشتمل الريف على مواقع مهجورة تابعة إلى مدن، وأنها تحولّت إلى تلال مرتفعة فيما بعد تعود إلى العصور القديمة[٦٨]، إضافة إلى استخدام " خضارو" و" حضارو"؛ أي الحضر أو الحضيرة[٦٩]، أما التخم فقد استعملوه ليعني الحد الذي ما بين بلدين، وردت في الأكدية بهيئة تخومو[٧٠].

ولعلّ من المفيد أن نشير هنا إلى أنَّ هناك العديد من التسميات الخاصة بالأنهار والمدن والمواقع والأقطار المستخدمة في الوقت الحاضر، التي تعود أصولها إلى العصور القديمة، ومنها:

الفرات: Euphrates

تسمية قديمة ترقى إلى عصور ما قبل التاريخ[٧١]، وردت في النصوص المسمارية بالصيغة السومرية" برانن" Buranun و"بورونتا Burununna وترادفها الصيغة الأكدية التي تعني النهر الكبير." يوراتم" Puratum و" بوراتو" Purata[٧٢]، التي غدت تلفظ باللغة العربية " فرات"،حيث إنّ الباء الخفيفة (P) في الأكدية يقابلها صوت الفاء العربية حسب القواعد الصوتية المعروفة[٧٣]، وقيل في معناه إنه يعني الفرع أو

الرافد أو الماء العذب، ويضاهي ذلك المعنى الذي أورده اللغويون العرب واليونانيون باسم إفراتس، ومنها انتقل إلى اللغات الأوربية معرفًا بهذه التسمية[٧٤]، وورد في العهد القديم بصيغة فرات تكوين(٢: ١٤) وسماه الفرس القدامى إفراتو الذي يعني الشأن والجلال والشوكة.

دجلة : Tigris

جاء اسم هذا النهر في النصوص المسمارية بهيئة " ادكنا Idigna، التي انتقلت إلى اللغة الأكدية على هيئة " دقلت Diqlat، حيث أضيفت تاء التأنيث إلى الاسم، وربما كانت تعني المحيط، وأشير إلى الاسم في العهد القديم باسم حدافل، أو هدافل والعربية بدجلة، وقد فسر معنى الاسم في المعاجم المسمارية بأنه " النهر الجاري"، أو "السريع"[٧٥]، وسماه الفرس القدامى (تيكران)، التي ربما تعني السهم السريع سيره، ومنها أخذت التسمية الغربية تايكراس .Tigris

الباليخ والخابور:

من روافد نهر الفرات يصبان في الجانب الأيسر (الجانب الشرقي)[٧٦]. وتسمية النهرين تسمية قديمة، وردت في النصوص المسمارية بشكل قريب جدًا من التسمية الحالية، حيث ذكر نهر الباليخ بصيغة Balihu أو باليخو Balihu في حين ذكر الخابور بصيغة خبورو Hubauru أو خابورو Hubauru ولا سبيل لمعرفة ما تعنيه لغويًا مادامت التسميتان تعودان إلى لغة السكان الأوائل، الذين عاشوا قبل أن تبتدع الكتابة، وربما كان الاسم له علاقة بمعنى الفعل الأكدي خبار Habaru الذي ربما كان يرتبط بمعنى" حفر" أو " عبر"، مما له علاقة بالنهر[٧٧]، ومن هنا جاء اسم قبائل الخبيرو، ومن المعروف أنَّ اسم الخابور يطلق على أحد روافد نهر دجلة، الذي يلتقي بدجلة بالقرب من الحدود العراقية التركية، وقد ورد في المصادر الكلاسيكية على هيئة خابوراس أو آبوراس[٧٨].

الزاب الأعلى والزاب الأسفل والزاب الصغير والزاب الكبير:

وقد حافظ الزابان على اسميهما القديمين الواردين في النصوص المسمارية[٧٩]، حيث وردا بصيغة أكدية على هيئة زابُ - عليو Zalu Elu وزاب شيل Zalu sapLu فأما الاسم زاب[٨٠]، فلا يعرف معناه حيث إنه يعود إلى التراث اللغوي القديم الذي يرجع بتاريخه إلى لغة ما قبل الكتابة، وقد نرى في تعليل معنى كلمة الزاب في اللغة الأكدية أنه يضاهي الكلمة العربية " الصاب" أي النهر الذي يصب، أو الرافد[٨١] العظيم.

ورد ذكره في المصادر المسمارية باسم " رداتو RAD Atuu يتصل بدجلة إلى الجنوب من بلد الحالية، وعرفه الآراميون باسم رادان، والعرب راذان، ومنه الراذنان الأعلى والأسفل. وفي المصادر الكلاسيكية باسم فسكوس.

ديالى:

ورد ذكره في المصادر المسمارية باسم " ترناه" Tur NATU كما أشير إليه باسم دورول DURUL، وفي زمن العرب المسلمين عرف باسم تامرا، في حين كان الاسم ديالى يطلق على جدول يتفرع من الجانب الغربي من النهر، ثم استخدم اسم الفرع ليدل على النهر الرئيس، وبعد ذلك يبدأ نهر دجلة في دخول الأهوار عند موقع الكوت الحالية، وحيث يأخذ نهر أدينكا (الغراف حاليًا) الماء منه، وبعد أن يخرج دجلة من الأهوار يسير في مجرى واحد وهو نهر الخارر، الذي كان يعدُّ الحد الفاصل بين

بابل وعيلام، ثم يصب مستقلاً في خليج البصرة، وكان نهر الكارون (أولاي Ulia)، (أولايوس ULaios) الذي يصب فرعه الكرخة (أوكنو) بصورة منفصلة عن خليج البصرة، إضافة إلى تسمية عدد من الأنهار الصغيرة كالخوصر. أما تسميات المشرح والكحلاء والمجر الكبير وشط الحلة وشط الشامية، فهي تسميات حديثة نسبيًّا، وقد اشتق معظمها من أسماء مدن ومواقع قريبة، لا تزال تسمى بهذه الأسماء، وهي عربية الأصل(٨٢).

أما بالنسبة لتسمية العراق وبعض المدن العراقية والأقطار، فقد اختلف الباحثون في أصل تسمية العراق بهذه التسمية، وقد قيلت آراء كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة احتمالات؛ الأول أنه اسم عربي الأصل، أما الثاني فإنه معرّب من أصل فارسي، أما الثالث فإنه يرجع إلى التراث اللغوي العراقي القديم، وأنه مشتق من الكلمة التي تعني المستوطن وهي الكلمة السومرية "أوروك" أو أونك" UR UK. UNUG التي سميت بالمدينة السومرية الشهيرة "أوروك" الوركاء) التي تدخل في تركيبة أسماء بعض المدن، مثل أور ولارسا، على أنَّ نقطة الضعف في هذا الرأي أن هذا المصطلح يطلقه سكان العراق القدماء على القطر كله، بل على مدينة الوركاء وغيرها(٨٣). وقد ارتأى الباحث أوالمستيد أن أول استعمال لكلمة عراق قد ذكرت في العصر الكيشي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في وثيقة تاريخية، يرجع زمنها إلى حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وجاء اسم إقليم على هيئة "إيريقا"، الذي صار على ما يرى الباحث الأصل العربي لكلمة العراق(٨٤).

أما بالنسبة لتسمية بغداد حيث جاءت بهيئة "بكدادو" و" بكداد" ويكتبان بالمقاطع المسمارية "باك - دا- دو" و " باك - دادا" مسبوقة بالعلامة الدالة على المدن والحروف اللاتينية ٤-/ - ALU-DaD -BagDa ويمكن أن يلفظ المقطع الأول بهيئة " باغ"، وأقدم وثيقة بابلية ورد فيها اسم هذه المدينة يرجع إلى زمن الملك حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م)(٨٥). أما الموصل فلا يعرف بالضبط متى تأسست، ولعلها الموضع الذي ذكره زينفون قائد الحملة اليونانية(٨٦) في أثناء العودة بعد إخفاق الحملة باسم " مسبلا" الذي يرجح تعليل هذا الاسم إلى أنه من الكلمة الآشورية " مشبالو" التي تعني الأرض السفلى أو الواطئة"(٨٧). أما نينوى، فقد وردت في الكتابات القديمة المسمارية بالطريقة الرمزية بهيئة " ننوا" أو Ninua أو نينا Nina(٨٨)، أما أربيل - أربل فأقدم ما وصل إلينا عن ذكر أربيل بالإشارات الواردة في سجلات ملوك سلالة أور - الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ق.م) حيث ذكرت اسم أور - بيلُم (URBILUM) أما النصوص الآشورية، فإنّ الصيغة المألوفة هي " أربائيلو (Lu-Araba)، وهو اسم يعني "أربعة آلهة" أو "الآلهة الأربعة"(٨٩). أما بابل، فقد وردت في النصوص المسمارية بهيئة " باب - إيلي"، أو الادماج " بابيلم" ومعناه باب الإله "أو بابا الآلهة"(٩٠). إضافة إلى تسميات المدن الأخرى، مثل كركوك وسامراء وتكريت وعانة وهيت(٩١).

أما فيما يتعلق بالتسميات التي أطلقت على الأقطار المجاورة، فعلى سبيل المثال بلاد عيلام، حيث أطلق السومريون على إقليم عيلام اسم " نم" NIM الذي يعني "الأرض المرتفعة" أو " النجد" وسماه الأكديون بام " إيلامتو" " عيلامتو"(٩٢). أما بالنسبة لتسمية سوريا: فقيل كان هناك مقاطعة بابلية تعرف باسم سوري(SURI-) في اللغة السومرية، تقع إلى الغرب من الفرات الأعلى، ثم عمّ هذا الأسم على مبدأ تسمية الكل ببعض منه،

وهناك من يعتقد أنها تحريف للفظة آشور[٩٣]. وسمي أهلها سريان فيما بعد عندما تنصرت القبائل الآرامية، فتخلّت عن اسمها القديم (آرم) الذي يذكرها بوثنيتها[٩٤]، وقد جاءت هذه التسمية في كتابات المؤرخ هيرودتس (٤٨٤-٤٢٠ق.م) في مؤلفه التاريخ: الكتاب الأول، ١٠٥، ثم شاعت التسمية لدى غيره من الكتاب الإغريق قبل أن تعمّ الكتابات اللاتينية[٩٥]. أما تسمية مصر فقد عُثر على لوح مسماري مسجل عليه بالأكدية (مو- وص - ري) و "مي - يص -ري"، ومعنى كليهما مصر ويجمع الباحثون أنّ ذلك اللوح يعود إلى الملك الآشوري أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ ق.م). كذلك عُثر على أدلّة تشير إلى إقليم مصر منها الآثار العائدة إلى تيجلاتبليزر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م) كما أنَّ سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ق.م) ترك آثارا تسجل استلامه أتاوة من (في - ير - ع ومو - صو -ري) أي فرعون مصر[٩٦].

ومما تجد الإشارة إليه أنّ سكان الحضارة الرافدينية أطلقوا أسماء معينة على كل مظهر من المظاهر الطبوغرافية والتضاريسية، حيث فرقوا بين واحد وآخر، وقد ورد في النصوص المسمارية العديد من التسميات التي تشير إلى ذلك، ومنها التسميات الآتية:

جبل: السومرية Kur، وبالأكدية شدو (م) Sadu(m). وفي الملاحم السومرية استخدم مصطلح كور Kur ليعني كلاً من " الجبل" أو "البلاد الأجنبية" أو " بلاد الأعداء" التي كانت تعني سكان الجبال في إيران، والبدو في الغرب والشمال الغربي، وفي الواقع على كل من كان خارج بلاد بابل .

تل - ظل: وردت في اللغة الأكدية بصيغة " تلو"[٩٧]، ويجري ترديد جمل من قبيل، حولت المدينة إلى تلو وكومة من الأنقاض بانتظام في المخطوطات الملكية والآشورية[٩٨].

نهر: وردت بصيغة نارnaru [٩٩]، وهو اسم مؤنث معناه نهر أو قنال أو شريان[١٠٠]. ومما تجدر إليه الإشارة إليه أنَّ سكان وادي الرافدين عمدوا إلى استخدام عدد من المعلومات الدّالة، التي توضع قبل الأسماء، وأحيانًا بعدها، لتحديد صنف أو ماهية الاسم الذي تعود إليه، والمعنى المقصود، ومن هنا في هذا المجال نثبت العلامات التي توضع قبل أسماء المدن والأقطار والجبال والأنهار، وهي كالآتي:

الملاحظات	المعنى	اللفظ		العلامة
علامة تسبق أسماء المدن	مدينة	اِلُ	Ilu	[cuneiform]
علامة تسبق أسماء الأقطار والبلدان	بلاد	ماتُ	Mātu	[cuneiform]
علامة تسبق أسماء الجبال	جبل	شدو	Sadū	[cuneiform]
علامة تسبق أسماء الأنهار	نهر	نارُ	Nāru	[cuneiform]
وهناك بعض العلامات التي توضع بعد الأسماء مثل العلامات التي توضع بعد أسماء المدن والأماكن	مدينة	كِ	Ki	[cuneiform]

ومما لاشك فيه أنَّ سكان وادي الرافدين قد وضعوا العوامل الجغرافية بعين الاهتمام عند اختيارهم المدن والعواصم[١٠١]، فعلى سبيل المثال كان اختيار الأموريين لبابل عاصمة لمملكتهم موفّقًا؛ لأنها تقع وسط العراق تقريبًا، ووسط المناطق التي يرتكز بها العمران (بلاد سومر واكد)، إضافة إلى حماية العوارض الطبيعيّة لها من جميع جهاتها، حيث يحميها نهر الفرات من الغرب وفروعه من القنوات والأنهر من الشمال والشرق. كما تحميها الأهوار من الجنوب إلى جانب الموقع التجاري المتميز، ذلك أنّ هنالك مسالك عدّة في حوض الفرات الأوسط، ترتادها القوافل التجارية بين العراق وشرق البحر المتوسط، ويقترب نهر دجلة كثيرًا من شمال بابل من الفرات الذي يسهل المواصلات بين الجهتين في وقت يمكن استخدام القنوات والأنهر المتفرعة من الفرات باتجاه دجلة للدفاع عن المدينة وقت الأخطار، والنقل في أيام السلم والأمن، إضافة إلى سير القوافل على طول ضفاف الأنهار، وهناك بعض المسالك التي تتجه إلى بابل داخل الصحراء السومرية وجزيرة العرب[١٠٢].

أما في مجال جغرافية الأجناس، فقد ميّزت النصوص المسمارية بين الأقوام الأجنبية، بل وضعت تلك الأقوام عند الإشارة إليها فوضعت الكوتيين[١٠٣] بأنهم شعب لا يتحمل النظام" و" أفعى لاذعة من الجبال" و " أعداء الآلهة"، وكان يعبر عن العيلاميين والسوباريين بـ" رجال تخريب" في المرثيات السومرية، وهناك بعض الأقوال المأثورة منها " العيلامي لا يرضيه بيت واحد ليسكن فيه"؛ أي إنّ العيلامي لم يكتف ببيت واحد، إذا كان هذا التفسير صحيحًا من الواضح أنَّ السومريين كانوا ينظرون إلى العيلاميين على أنهم شعب طماع وطموح إلى درجة غير طبيعية، ومنها أيضًا " العيلامي مريض: أسنانه تصطك؛ فإذا كان المعنى أنَّ العيلامي لا يستطيع تحمُّل الألم - يبدو واضحًا أنّ السومريين كانوا يعتقدون بأن العيلاميين كانوا" أطفالاً كثيري البكاء، ولا رجولة عندهم"[١٠٤].

أما بالنسبة إلى الأموريين الذين كانوا يعرفون بـ" مارتو" Mart.tu في السومرية وآمورو Amurru في الأكدية[١٠٥]، وهو اسم يطلق أصلاً على البلد الواقع إلى الغرب من السومريين أي غرب الفرات وأطلق على السكان القادمين من الغرب أيضًا[١٠٦] وقد وصف الشعب الأموري بأنه " لا يسكن بيتًا ويسكن في الخيم ولا يدفن موتاه"، شعب مخرب متسم بالعنف... وشعب لا يعرف القمح"، وتصفهم قصيدة سومرية بأنهم متوحشون يعيشون على القتال، ويبحثون عن الكماء في الصحراء، ويتناولون اللحم غير المطبوخ"، وتصفهم أسطورة سومرية بأنهم : "يحومون حول أسوار أوروك مثل أسراب الطيور"[١٠٧] وأطلق على الجزريين الذين استقروا شمال العراق اسم أشوريين نسبة إلى مدينة أشور، حيث وردت بصيغة قديمة على هيئة " آ- أوسار" – (Ausar) التي يبدو كأنها كتابة سومرية رمزية، أما الصيغة المألوفة فكانت – (Ashur)، وأما الصيغة الأكدية فكانت" كاسر" (Ga-sur)، وغلب في الأدوار الآشورية الحديثة أن يضعف حرف الشين، فيقال" أشور" –(Ashshur)، واستخدام اسم سوريا بين أيضًا للدلالة على الآشوريين من قبل أعداء الآشوريين، أي نسبة إلى القوم الذين استوطنوا الجزء الشمالي من العراق في العصور التي سبقت مجيء الآشوريين إلى المنطقة، وكانت تلك التسمية تقلل من قيمة الآشوريين، وهي استخدمت من قبل أعداء الآشوريين حيث تعني (العبيد) ربما لأنّ بلاد سوريا كانت أفضل الأقاليم التي تزود المنطقة بالعبيد[١٠٨]. كما ورد اسم الحوريين الذين كانوا

يعيشون على جبل حوروم في منطقة واقعة حول بحيرة وان. وفي الأدب السومري هنالك كلمة تلفظ ب، " حوروم Hurum، وتعني " جلف" أو " أحمق"، ولا يعرف فيما إذا كان المعنى له علاقة باسم الحوريين(١٠٩).

أما بالنسبة إلى الكيشيين الذين كانوا يسكنون في مكان ما من الأجزاء الوسطى في جبال " زاجروس" في المنطقة التي تعرف باسم للراي لورستان في الجهات الجنوبية من إيران، وكان يجاورهم من جهة الشمال أقوام جبلية أخرى، منهم الكوتيون واللولوبو، وردت صيغة تسميتهم في النصوص المسمارية على هيئة " كاشو" ولا يعلم أصل اشتقاقها بالضبط، ولعلها تعني القوة والباس، ويحتمل أن تكون مأخوذة من اسم الإله القومي للكيشيين، والمرجح أن يكونوا هم القبائل الجبلية الذين ورد ذكرهم في المصادر الكلاسيكية باسم "كوساي" Kossaioi (١١٠). أما بالنسبة إلى الآراميين فيظهر هذا الاسم في المدونات المسمارية، فهناك إشارة إلى مدينة تدعى " آرامي" وإلى أشخاص يحملون اسم " آرامو" في النصوص الأكدية ونصوص سلالة أور الثالثة، وكذلك في مدونات المملكة البابلية القديمة، وهناك تاريخان يعودان إلى القرن ١٤ ق. م وربما يشير إلى وجود نوع من العلائق بين الآراميين والأحلاميين أو الأخلاميين، ونجد ذلك في مدوّنات تجلاتبليزر الأول (١١١٥-١٠٧٧ق.م)، تشير لأول مرة إلى أحلامو - آراميين ليستبدل بالآراميين(١١١)، حيث كان الكلديون من أبرز القبائل التي استقرت في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، فالتسمية جاءت من قبيلة كلدو أو كشدو(١١٢).

أما بالنسبة إلى العرب فإنّ أقدم ذكر لهم يعود إلى العصر البابلي القديم، يخبرنا بذلك نص بنائي خاص بالملك يخدن - ليم (١٨٢٥-١٨١٠ق.م) في معبد الإله الأشمس شمشاش في ماري عن حملة قام بها الملك إلى البحر المتوسط، وفي أثناء عودته وضع ثلاثة " ملوك" من الأموريين الرحال كمينًا له، من ضمنهم قبائل العرب (Urabu)(١١٣). وقد ورد ذكرهم في زمن الملك الآشوري شليمنصر الثالث، حيث ذكر في كتاباته التذكارية التي تسجل انتصاراته العسكرية في السنة السادسة من حكمه، فبعد انتصاره على حلب وحماة توجّه إلى القرقار على نهر العاصي، حيث كانت قوات دمشق وحماة وأرواد ومدن سورية أخرى متجمعة في هذا المكان، وكان من بين القوى المتحالفة مع ملك دمشق ضد الأشوريين... وراكب جمل من العرب بزعامة " جندبو" العربي، وبلغ مجموع ملوك التحالف العسكري ١٢ ملكًا(١١٤).

أما بالنسبة إلى معرفتهم بالجغرافية الفلكيّة، فقد كانت ضرورية جدًّا لتحديد الأعياد والاحتفالات والمناسبات الدينيّة(١١٥)، الاهتمام بالجغرافية الفلكيّة يتطلب معرفة جيدة بالفلك والرياضيات(١١٦). فمجهودات سكان الحضارة الرافدينية العلمية ساعدت على ازدهار هذا العلم وتقدمه في الأدوار التالية بتقسيمهم للدائرة إلى درجات، حيث اعتمدوا على طريقة حسابية تستند إلى النظام الستيني. وإنّ اختراع هذه الطريقة كان السبيل الفاصل للتوصل إلى التقسيم الحالي إلى ٣٦٠ درجة، والدرجة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ٦٠ ثانية. وتؤكد النصوص المكتشفة أنّ العراقيين القدماء كانت لديهم اهتماماتهم في رصد الأجرام لغرض تقسيم الزمن كما تقدم ذكره لأجل تعيين الأحداث وفق تسلسلها الزمني، ولضبط الفصول والمواسم الزراعية منذ العصر السومري، ثم بدأ تدوين ملاحظاتهم وأرصاداتهم منذ مطلع الألف الثاني ق.م. فانتقلوا من طور

المعارف العملية إلى طور البحث العلمي المنظم، ويتضح ذلك من خلال القوائم والوثائق التي وصلت إلينا حيث تبيّن أنهم توصلوا إلى معرفة حركة الشمس والقمر الشهرية ومواعيد الكسوف والخسوف، وغير ذلك، ولمعالجة الفرق بين السنة القمرية والشمسية ولمطابقة التقويم مع المواسم الزراعية، فقد توصلوا إلى كبس سبعة شهور كل تسع عشرة سنة، فتوصلوا إلى معادلة أنّ ٢٣٥ شهر قمري تساوي ١٩ سنة شمسية، فأضافوا سبعة شهور كبيسة خلال تلك الدورة[١١٧]. حيث يذكر وايزمان عن تلك الأرصادات الفلكية ما نصّه: " يوجد منذ عهد نبوخذ نصر الثاني، وحتى أواخر العهد الهلنستي أكثر من ألف مفكرة، وكل من هذه النصوص يشمل مدة نصف سنة، مع قسم مكرس لشهر واحد، مع سجل بيوم للأرصاد الفلكيّة، وبضمنها بيانات تتعلق بالأنواء، و قد وجدوا موقع القمر بالنسبة للنجوم الاعتيادية والمواقع القمرية المستعملة بشكل منفصل في نصوص السنة الهدف، التي تسجل التنبؤ بالظواهر الكوكبية والقمرية لعام معين، وفي التقاويم المكرسة بصفة خاصة لتسجيل مواقع الكواكب والخسوف، وفي التقاويم الفلكيّة التي تتضمن المواقع اليومية للشمس والقمر والكواكب ونجوم معينة. إلخ (Ephemerides)، التي يمكن إيجاد مكان أي جسم سماوي لايّ مدة من الزمن، ومن ثمّ التنبؤ بظهور القمر الجديد، وإمكانية رؤيته لآخر مرّة وكسوفه، كان لتلك النصوص تأثير عميق في علم الفلك الإغريقي، ومن خلال النصوص العربية فيما بعد على الجداول الفلكية الغربية والملاحية الحديثة، إضافة إلى هذه المعلومات أضافت المفكرات اليوميّة أسعار السلع الأساسية والشعير والتمر والصوف وزيت السمسم، وعلامات دائرة البروج، وارتفاع نهر الفرات، وأحداث سياسية ومدنية، ربما كانت مختصرات من سجلات أكمل كانت محفوظة في بابل، وكانت تشكل قاعدة التقاويم البابلية الموضوعة الموثوقة، وكانت شكلاً مهمًّا من التدوين التاريخي على العالم القديم[١١٨]. ■

●●●

الحواشي

١. لو ألقينا نظرة على المناهج المقررة لطلبة المدارس في وادي الرافدين لوجدنا من بين العلوم التي كانت تدرّس، العلوم الاجتماعية التي تشمل الجغرافية والتاريخ والتقويم والقوانين والشرائع إضافة إلى العلوم الدينيّة التي تشمل أساطير الخليقة وعلاقة الإنسان بالآلهة، ومصير الإنسان بعد الموت، وذهاب الميت إلى عالم الأموات، والعلوم الأدبية التي تشمل اللغة والتصريف والنحو والقصص الأدبيّة، والعلوم الرياضية التي تشمل الحساب والهندسة والفلك، والعلوم العقليّة التي تشمل علوم الكلام وما وراء الطبيعة والنظرة إلى الكون والطب والكيمياء، والعلوم الأخرى التي تشمل السحر والتنجيم وتفسير الأحلام والزراعة، ينظر: " دور العلم والمعرفة في العراق القديم"، المورد، م١٦/٨٧، الامتحانات في العصر البابلي القديم:١٥-١٧.

٢. بلاد ما بين النهرين :٢٥٦.

٣. العراق في الخوارط القديمة:٥.

٤. مما تجدر الإشارة إليه تأثير الظواهر الطبيعية والبيئيّة والجغرافية ومعتقدات سكان الحضارة الرافدينيّة بحيث خصصوا العديد من الآلهة لتلك الظواهر، فجعلوا الإله أنو إله السماء على رأس الآلهة والإله أنليل إله الجو والهواء، يأتي في المرتبة الثالثة الإله أنكي(إيا) إله الأرض والحكمة والمياه الجوفية، هذا ما اشتملت عليه المجموعة الأولى من الآلهة. أما المجموعة الثانية فشملت الشمس والقمر والزهرة والإله أدد إله البرق والرعد. وللاستزادة في المعلومات ينظر: المظاهر الدينية في العراق القديم، المجلة التاريخية: ع٤: ١٢٩-٢٤٠.

٥. الفكر الجغرافي في الكشوف الجغرافية :٣.

٦. الأختام الأسطوانية صور مجلة إخبارية ابتكرها العراقيون قبل الكتابة، آفاق عربية، ع١٢: ٩٩ .

٧. الفكر الجغرافي في الكشوف الجغرافية ٢: ٣.

٨. بلاد ما بين النهرين: ٢٥٥.

٩. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ١/ ٢٢٥.

١٠. المصدر نفسه:١/ ٣٢٥.

١١. العراق في التاريخ القديم:٢/ ٢٩٣.

١٢. الفكر الجغرافي في الكشوف الجغرافية ::٦٣-٦٤.

١٣. الزراعة والري، في حضارة العراق:٢/ ١٥٥، وينظر: الفكر الجغرافي في الكشوف الجغرافية :٦٤.

١٤. بإمكاننا أن نستشف من النصوص المسمارية المعلومات الكثيرة عن الوصف الجغرافي من خلال الرحلات والأسفار، فهذا أنكيدو يبدي مخاوفه من تلك المخاطرة التي تنطوي عليه الرحلة ولاسيما أنَّ الغابة كان قد وكّل الإله أنليل على حراستها العفريت المارد" خمبابا" أو" خواوا"، وقبل أن يشرع بالسفر جلجامش مع أنكيدو مع الإلهة ننسون، فصلّى، لها وخاطبها: "مانتسون" ائذني لي أن أخبرك بأنني اعتزمت سفرًا بعيدًا إلى موطن خمبابا، وأنني مقدم على نزال لا أعرف عاقبته، والسير في طريق لا أعرف مسالكها، وبعد وفاة أنكيدو يشد جلجامش الرحال مرّة أخرى، وبعد سفر طويل وصل في طريقه إلى جبال اسمها " ما شو" يرجح أن تكون جبال لبنان، للاستزادة ينظر: مقدمة في أدب العراق القديم:١٠٩-١١٦.

١٥. للاستزادة في المعلومات عن دور التجارة والأسفار والحروب، ينظر: أصالة الحضارة العراقية القديمة في مجال العلوم الإنسانية وأثرها في الحضارة الأخرى، رسالة ماجستير غير منشورة: ١٢- ٣٨.

١٦. السومريون:٤٠٩.

١٧. العلوم والمعارف في موسوعة حضارة العراق:٢/ ٢١٩.

١٨. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٤٤٥.

١٩. "The ideas of Babylonia" Georgraphy Sumer. Vol:41.P.114.

بلاد ما بين النهرين : ٢٥٦، ومقدمة في تاريخ الحضارات:٣٢٧.

٢٠. الحياة اليومية في بلاد بابل واشور.

٢١. التجارة في العصر البابلي القديم، رسالة دكتوراه غير منشورة:٨٥.

- "An n old Babylonia Itinerany. JCS, Vol,7 P.55"

The Odeay of babylonia:p.114.

- العلوم والمعارف في موسوعة حضارة العراق

٢٢. العلوم والمعارف في موسوعة حضارة العراق: ٢٧٩.

٢٣. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٣٨٩.

- "Babylonc.2120-1800.BC" , Cah. Vol 1 partI, P, 610. -

٢٤. العلوم الإنسانية والطبيعية في موسوعة الموصل الحضارية :١/ ٢٧٨.

٢٥. تاريخ العلم :١/ ١٨٥.

٢٦. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٢٢٧ معينة من المناطق البلاد وبلاد ما بين النهرين:٢٥٦.

٢٧. النظام الملكي في العراق القديم، دراسة مقارنة مع النظام الملكي، رسالة ماجستير غير منشورة:١٢٤، وأيضًا العراق القديم:٢٦٠-٢٦١.

٢٨. معالم حضارات الشرق الأدنى القديم: ٢٤٧، وفي إمكاننا أن نستشف من وراء الغلاف الأسطوري لرواية الخليفة من أحوال العراق القديم الجغرافية في بداية ظهور أولى الحضارات في السهل الرسوبي في المراحل الأولى: مقدمة في تاريخ الحضارات: ٨٢.

٢٩. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٢٢٥.

٣٠. معالم حضارات الشرق الأدنى القديم:٢٤٧.

٣١. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٢٢٥.

٣٢. مما تجدر الإشارة إليه أن النصب الآشورية والبابلية، خلافا لنصب أوربا الغربية، لا تتجه إلى جهات البوصلة الأربع، بل إلى جهات فرعية: أي إلى الشمال، الغربي بدل الشما' الى الجنوب الشرقي بدل الجنوب، وهذا التوجّه ير الرياح في وادي الرافدين، ينظر:الحياة اليوميه بلاد بابل:٣٧٥.

٣٣. تاريخ العلم: ١٨٥.

٣٤. الحياة اليومية في بلاد بابل: ٣٧٤.

٣٥. للاستزادة في المعلومات نحيل القارئ إلى الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي.

٣٦. بلاد الرافدين والكتابة، العقل:٢٩٠.

٣٧. العلوم والمعارف في موسوعة الحضارة:٢٨١.

٣٨. تاريخ العلم:١٨٥.

٣٩. مما تجدر الإشارة إليه أنَّ فتوحات سرجون الأكدي امتدت لمناطق، ففي حملاته باتجاه الشمال الغربي تغنى بجبال لبنان وجبال الأمانوس، ونعتها بجبال الأرز والفضّة، أما ملحمة بطل المعركة فترينا أنّ سرجون الأكدي توغّل إلى آسيا الصغرى، واجتاز البحر الغربي ووطأ أرض قبرص، حيث يقول" والآن على كل ملك ينبغي تسمية نفسه ندًا لي أن يذهب حيثما ذهبت"، ينظر: العراق القديم:٢١٢ - ٢٢١ .

٤٠. العلوم والمعارف في موسوعة الحضارة: ٢٨٢.

٤١. بابل تاريخ مصور،Gadd. Op:cit' P 909-10، الجلبي: ٧٦-٧٧.

٤٢. مقدمة في أدب العراق القديم:٦٥.

٤٣. Luckenbill' D.D Ancient' Reccords of Assri and Babylonia -Vol. Chicago' 1926-1927' PP 407

٤٤. للاستزادة من المعلومات : ينظر: العلاقات للدولة الآشورية، رسالة ماجستير غير منشورة، ٧٤.

٤٥. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٣٢٣.

٤٦. العلوم الإنسانية في موسوعة الموصل الحضارية:٦٧٨ - ٣٧٩.

٤٧. الحياة اليومية في بلاد بابل:٢٦٠، وينظر: سرجون الآشوري:٧٢١-٧٠٥ ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة :٨٤-٨٥.
Saggs " 'H' Assyrian War fare in The Sargonidperiod, Iraq, Vol XXVI; 1963, P 150.

٤٨. مما تجدر الإشارة إليه أن العرب أطلقوا عليها اسم " علم المسالك والممالك" ينظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي:١/٢٠.

٤٩. مقدمة في الأدب:٦٥.

٥٠. العراق القديم:٣٦٧.

٥١. العراق القديم: ٣٧٦.
Arab: Vol 2.P' 306.

٥٢. العلوم والمعارف في موسوعة الحضارة: ٢٨١-٢٨٢.

٥٣. سنحاريب سيرته ومنجزاته ٧٠٤-٦٨١ ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة :٢١٩.

٥٤. العلوم الإنسانية والمعارف في موسوعة الموصل: ٢٧٩ - ٢٨٠.

٥٥. بابل وآشور مركزان علميان قديمان، مجلة سومر ، ٤١: ٩٨.

٥٦. للاستزادة في المعلومات عن نظام الري في العراق القديم، تاريخ الري في العراق القديم، مجلة سومر م٢٩: ٦٢-٧٨.و نظام الإرواء في العراق القديم، مجلة آفاق عربية ، ع١ : ٩٢.

٥٧. العلوم والمعارف في موسوعة الحضارة: ٢٩١، والعلوم الإنسانية والمعارف في موسوعة الموصل: ٩٢،
Every Daylifin Babylonia and Assyride pp. 49- 50.

وللمزيد من التفاصيل ينظر: سنحاريب سيرته ومنجزاته: ١٥٤ وما بعدها، ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ النصوص المسمارية تذكر لنا الكثير من أسماء الأنهار والقنوات، ولكن من الصعوبة معرفة أماكنها. فقد وردت قوائم بأسمائها من مكتبة آشور بانيبال، وذكرت لنا أحجار لحدود الحوليات والملكية والرسائل على اختلافها، ووثائق المعاملات على أنواعها الكثير من أسماء القنوات والأنهار، ومن هذه على سبيل المثال صرنود (العالي بالأكدية) الذي قد يكون نفسه نهر الأرخوس بالمصادر الكلاسيكية، ونهر عيسى عند البلدين العرب. ثم ترتاد الذي احتفظ باسمه تقريباً في الثرثار الحالي، وقناة أبكال Abagal في منطقة كيش، وقناة إيدينا Edena قرب أبيسال Apisal التي تأخذ الماء من دجلة وكالكوكا Galgula، وأي وأنشة وأمار سوينا عند منتصف الطريق بين أو ما أبيسال وغيرها، ينظر : تاريخ العراق القديم/١/١٥٧.

٥٨. العراق الخوارط القديمة: ١٥.

٥٩. اللغة الأكدية (البالية - الاشورية):١٢٥.

٦٠. من تراثنا اللغوي القديم :٥١-٥٢.

٦١. العراق القديم: ١٥٢.

٦٢. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٥٢.

٦٣. مقدمة في تاريخ الحضارات:١٠-١١، وينظر أيضًا النظام الملكي في العراق: ٣١.

٦٤. العراق القديم: ٢١٤.

٦٥. النظام الملكي في العراق: ٤٢.

٦٦. بلاد ما بين النهرين:١٣٩.

٦٧. من تراثنا اللغوي : ١٣٥.

٦٨. بلاد ما بين النهرين:١٤٢.

٦٩. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٣٢٦.

٧٠. من تراثنا اللغوي: ٦٥.

٧١. تأصيل أسماء أنهار العراق الرئيسة، بحث غير منشور:١، وينظر: أصول أسماء العراق وأنهاره الرئيسة، مجلةآفاق عربية، ع١١: ١٠٢.

٧٢. تأصيل أسماء أنهار العراق:٢-٣، وينظر: ٤١ :١٥٥-١٥٦.

٧٣. من تراثنا اللغوي:١٦٤.

٧٤. تأصيل أسماء أنهار العراق: ٤، وينظر أصول أسماء أنهار العراق:١٠١، ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ العراقيين القدماء عمدوا إلى تقديس الرافدين وتعظيمهما وعدوهما من جملة الآلهة المشتقة من القوى الطبيعية، وإفراد الفرات بتقديس أكثر؛ لأنه كان النهر الذي تركزت على ضفافه المستوطنات القديمة. ونعت النهرين في التراتيل الدينيّة بالنهرين الأخوين، أي الرافدين، وفي أساطير الخليقة ذكر الفرات ودجلة بأنهما ينبعان من عين "تيامة"، وهي الآلهة التي كانت تمثل عنصر الماء المالح؛ أي البحر، ومن قبيل ذلك الفرات ودجلة من الأنهار الأربعة التي تتبع من الجنة (سفر التكوين ٢: ١٠-١٤)، وفي ترتيلة دينيّة طريفة يخاطب الفرات بأنه خلق الأشياء، وأنَّ الآلهة لما حضرته عممت الخيرات على ضفافه وشيد في أعماقه الإله(أيا) معبده، وأن مياهه تبرئ المرضى

وتطهر الأدران، وهو القاضي الحكم بين الناس، يذكرنا بالعرف القانوني الوارد في شريعة حمورابي في رمي المتهم بالسحر بالنهر؛ لإظهار براءته، المادة الثانية، ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات: ٤٠-٤١.

٧٥. من تراثنا اللغوي: ١٦٢.

٧٦. تأصيل أسماء أنهار العراق: ٤.

٧٧. The Chicago Assyrian; Dictionary, Vol 6, p,8.

٧٨. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٤٥.

٧٩. من تراثنا اللغوي: ١٦٨.

٨٠. يقول ياقوت الحموي في معنى الزاب لغويًا: زاب الشيء: إذا جرى، وقال سلمة: زاب يزوب إذا انسلَّ هربًا، والذي يعتمد عليه أنَّ زاب ملك من قدماء الملوك، حفر عدّة أنهار في العراق، وسميت باسمه، وربما قيل لكل واحد زابي والتثنية زابيان، والمعنى الأول الذي يذكره ياقوت تؤيده المصادر المسمارية، ثم إنَّ اسم المصدر زاب أقدم من زمن أول رقيم، وجد اسم الزاب منقوشًا عليه أي أقدم من ١٢٥٠ ق.م، فقد جاء بالأكدية بمعنى الجريان السريع، وفي السومارية (زب) بمعنى الجريان، ينظر: بابل: أصول أسماء العراق وأنهاره: ١٠١-١٠٢، 114. bid Vol. 4 p,

٨١. تأصيل أسماء أنهار العراق: ٤، وينظر: من تراثنا اللغوي: ١٠٢، وأصول أسماء العراق وأنهاره : ٥٣-٥٤.

٨٢. تأصيل أسماء أنهار العراق: ٥-٦، وينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات: ٥٥.

٨٣. تأصيل أسماء أنهار العراق: ،وينظر الزراعة والري: ١٣٧/١، وملاحظات في جغرافية العراق، مجلة الأقلام، ع١٤:١٠-١٦.

٨٤. من تراثنا اللغوي: ١٧١، وينظر:مقدمة في تاريخ الحضارات:٧ وما بعدها، History of Assria, U.S.A, P.60. Olmstead, A.T,

٨٥. مقدمة في تاريخ الحضارات:١٧٤.

٨٦. الوصف الجغرافي لهذه الحملة:

٨٧. مقدمة في تاريخ الحضارات:١٧١، المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة.

٨٨. مقدمة في تاريخ الحضارات:١٧٢، الرحلة الرابعة:١٧.

٨٩. من تراثنا اللغوي: ١٥٧-١٥٨.

٩٠. من تراثنا اللغوي: مما تجدر الإشارة إليه أنَّ التسمية السومرية لبابل " كادينكيرر" الذي يوازي الاسم الأكدي بابليم، ثم الاسم بابيلا المشتقة من لغة الفراتيين الأوائل، ثم هناك تسمية أخرى، وهي التهجئة تنتركي TIN.TIR.KI (القليل الاستعمال) ، ومعناه غابة الحياة، وهو يحمل فكرة تختلف عن فكرة بابل الإله، ينظر: " اسم مدينة بابل، مجلة سومر: مجلد٢٩، ١٤-٢، ١٩٧٩: ٢٤٣ - ٢٤٥. أما التعليل الوارد في التوراة في الحديث عن برج بابل الشهير وأسطورة بليلة الألف، وأن الناس شيدوه للصعود إلى السماء، فبلبل الله ألسنتهم، فلا يعول عليها حيث إنَّ التفسير الحقيقي هو أنه اسم عراقي ورد في النصوص المسمارية، ينظر: تاريخ العراق القديم: ٤١/٢، وأيضًا التوراة مصدر للتاريخ الآشوري".

٩١. من تراثنا اللغوي:١٦٣، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٨.

٩٢. تاريخ إيران القديم بالاشتراك مع الهاشمي:٢٥.

٩٣. من الجدير بالذكر هنا أن المستشرق نولدكه ذكر أنَّ اسم سوريا مشتق من اسم بلاد آشور، ثم انتقلت الدلالة الجغرافية لتشمل المنطقة المتاخمة لها غربًا. عن مختلف الآراء حول اشتقاق الاسم ، ينظر: حول اسم سوريا مجلة دراسات تاريخيّة، ع٤٩-٥٠ :١١٩ -١٢٣. The Origin of The Name Syria, HNES, Vol.No2. « redtnes; J.A

٩٤. دراسات في التاريخ: ٩٩-٢٢٣.

٩٥. متى كان لسوريا والعراق ميّزة خاصة، مجلة دراسات تاريخية، ع٤٩-٥٠: ١٢٥.

٩٦. جغرافة التوراة :٥٧.

٩٧. عصر فجر السلالات في الشرق الأدنى، الحضارات المبكرة:٧٦، وينظر:بلاد ما بين النهرين: ١٥٢، من تراثنا اللغوي، بلاد ما بين النهرين: ٦٦.

٩٨. المصدر السابق: ١٣٩.

٩٩. اللغة الاكدية: ١٣١.

١٠٠. CAD,II/I.P.

١٠١. تأصيل أسماء أنهار العراق: ١٢٩-١٣١.

١٠٢. تاريخ العراق القديم: ٢٣٥/١.

١٠٣. السومريون: ٤٠٩، مما تجدر الإشارة إليه أن الكوتيين كانوا يقطنون جبال زاكروس المتاخمة لحدود العراق الشرقية مع إيران، ولا يعلم على وجه التأكيد هل كانوا من الأقوام الهندواوربية؛ لأنهم لم يتركوا وثائق مدونة بلغتهم، فلا يعرف عنهم شيئًا سوى أسماء ملوكهم، ولقد استمد ذكر الكوتيين في مآثر حضارة وادي الرافدين المدوّنة إلى العهود المتأخرة، حيث ذكر أحفادهم باسم "توتو" في وسائل ماري في الألف الثاني، وكثرة الإشارات إليهم في أخبار الحملات الآشورية، ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات : ٣٦٣.

١٠٤. السومريون:٤١٢-٤١٣.

١٠٥. للاستزادة ينظر: حمورابي١٧٩٢-١٧٥٠ق.م :١٥-١٦.

١٠٦. من المعروف أنَّ أساليب التنظيم القبلي بين الجماعات البدوية القاطنة غرب الفرات؛ حيث تكثر بعض

الاصلاحات منها قوم gagum التي تشير إلى القبيلة أو العشيرة وتأتي gaum, gawum, gayum، بمعنى شعبي في نهر ماري، ينظر: العراق القديم:١/٢٤٢.

١٠٧. بابل تاريخ مصور: ٨٤-٩٣ . Godd.VAH,p 627

١٠٨. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٤٧١-٤٧٣.

١٠٩. السومريون: ٤١٣، وينظر: دراسات كردية في بلاد سوبارتو: ٤٤٦-٤٤٧

Gelb'I.J' Harrians and Subarians' 2 nd Vhicago 1973. 1984.

١١٠. مقدمة في تاريخ الحضارات: ٤٤٦-٤٤٧، وينظر أيضًا: العراق القديم: ٣٣٢: فترة العصر الكشي مجلة سومر": ١٣٤-١٥٦." والكاشيون"١٥٣٠-١١٦٠ق.م" مجلة كلية الآداب، ع٦: ٤وما بعدها، ومما تجدر الإشارة إليه أنه جاء في الحوليات الآشورية ورسائلهم، الأخبار عن الشعوب الأخرى، كالأرمن وملوكهم عن الأشكوزيين (الكشيين) والشكو والكيمريين والسميريين، والأقوام الإيرانية مثل الماذيين والفرس، إضافة إلى ذكر أقوام أخرى كالفينقيين والعبريين والمصريين والحيثيين والفريجيين والليديين، ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات: ٥٣، وتاريخ الشرق الأدنى القديم .

١١١. للاستزادة عن الآراميين ينظر: الآراميون: مجلة سومر ١/٩٦-١٥٤.

١١٢. العراق في التاريخ القديم: ١/٢٤٦، وأيضًا:العراق القديم: ٣٦٩.

١١٣. من الساميين إلى العرب:١٥١،. The Pritchard: وينظر أيضًا:

Encycloped ia. Of Islam. Vol 1 London 1960. P 524. J..

ANET3 rd. New' Hersey-1969. p. 278-79.

١١٤. العرب في ضوء المصادر المسمارية، مجلة كلية الآداب، ع٢٢ : ٦٤٠ وما بعدها، أقدم ذكر للعرب في مدونات ما بين النهرين، مجلة بين النهرين ع١٦ :٣١١ وما بعدها.

١١٥. عن الأعياد والمناسبات الدينيّة ينظر: الأعياد والمناسبات في حضارة وادي الرافدين:١٩-٥٥.

١١٦. تاريخ الأدب الجغرافي: ٢٠.

١١٧. العراق في الخوارط القديمة: ٧ وما بعدها.

١١٨. بابل وآشور: ٩٩-١٠٠، للاستزادة في المعلومات حول معرفة البابليين بالفلك، ينظر:.york; 1957. pp 97-138

Neugebauer O., The Exact Science in , Antiquit, 2-nd New

١١٩. علوم البابليين: ، موجز في تاريخ العلوم والمعارف في

المصادر والمراجع العربية:

١. الآراميون، لدوبنت، تر. ألبير أنوتا، سومر، ١٩٦٣م.

٢. الأختام الأسطوانية صور إخبارية ابتكرها العراقيون قبل الكتابة، لمحمد علي مهدي، مجلة آفاق عربية، ع١٢/ بغداد، ١٩٨٠م.

٣. أصالة الحضارة العراقية القديمة في مجال العلوم الإنسانية، وأثرها في الحضارة الأخرى، لابتهال الطائي، رسالة ماجستير غير منشورة، الموصل، ١٩٩٦م.

٤. أصول أسماء العراق وأنهاره الرئيسة، لجمال بابان، مجلة آفاق عربية، ع١١، بغداد، ١٩٨٠م.

٥. الامتحانات في العصر البابلي القديم، لعبد الخضر عباس الصافي ورفيقه، بغداد، ١٩٧٥م.

٦. بابل تاريخ مصوّر، لجون أوتس، تر. سمير عبد الرحيم، ١٩٩٠م.

٧. بابل وآشور مركزان علميان قديمان، لوايزمان، مجلة سومر، مج٤١، بغداد، ١٩٨٥م.

٨. بلاد الرافدين والكتابة، العقل، لجين بوترو، تر. ألبير أنوتا، بغداد، ١٩٩٠م.

٩. بلاد ما بين النهرين، لـ ل. دولاربوت، تر. مارون الخوري، بيروت، ١٩٧١م.

١٠. بلاد ما بين النهرين، لليو أوبنهايم، تر. سعدي فيضي عبد الرزاق، بغداد، ١٩٨١م.

١١. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، لأغناطيوس بوليا فتش كراتشكوفسكي، تر. صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة،١٩٦٣م.

١٢. تاريخ إيران القديم، لطه باقر ورفاقه، بغداد، ١٩٨٠م.

١٣. تاريخ الري في العراق القديم، لرضا جواد الهاشمي، مجلة سومر، مج ٣٩، بغداد ١٩٨٣م.

١٤. تاريخ العلم، لجورج سارتون، تر. مجموعة من الباحثين، ط٣، القاهرة، ١٩٧٦م.

١٥. تأصيل أسماء أنهار العراق الرئيسة، لعامر سليمان، غير منشور، وزارة الري، بغداد، ١٩٩٤م.

١٦. التجارة في العصر البابلي القديم، لحسين ظاهر حمود، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة الموصل، ١٩٩٥م.

١٧. جغرافية التوراة، لزياد متي، ط١، بيروت، ١٩٩٤م.

١٨. حمورابي، لمحمد طه الأعظمي، بغداد.

١٩. حول اسم سوريا، لإسماعيل فاروق، مجلة دراسات تاريخيّة، ع٤٩-٥٠، دمشق، ١٩٩٤م.

٢٠. الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، لجورج كونتينو، تر. سليم طه التكريتي، وبرهان التكريتي، بغداد، ١٩٧٩م.
٢١. دراسات كردية في بلاد سوبارتو، بغداد، ١٩٨٤م.
٢٢. دور العلم والمعرفة في العراق القديم، لوليد الجادر ورفيقه، مجلة المورد مج١٦/ بغداد، ١٩٨٧م.
٢٣. الزراعة والري في حضارة العراق، لسامي سعيد الأحمد، بغداد، ١٩٨٥م.
٢٤. سرجون الآشوري، لعلي قاسم محمد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٨٣م.
٢٥. السومريون، لصموئيل نوح كريمر، تر. فيصل الوائلي، الكويت، ١٩٧٣م.
٢٦. العراق في التاريخ القديم، موجز التاريخ الحضاري، لعامر سليمان، الموصل، ١٩٩٣م.
٢٧. العراق في الخوارط القديمة، لأحمد سوسة، بغداد، ١٩٥٩م.
٢٨. العراق القديم، لجورج رو، تر. حسين علوان، بغداد، ١٩٨٤م.
٢٩. العراق القديم، لسامي العمر الأحمد، بغداد، ١٩٨٨م.
٣٠. العرب في ضوء المصادر المسمارية، لرضا جواد الهاشمي، مجلة كلية الآداب، ع٢٢، بغداد، ١٩٨٧م.
٣١. عصر فجر السلالات في الشرق الأدنى، لأتوادزار، تر. عامر سليمان، الموصل، ١٩٨٦م.
٣٢. العلاقات الدولية الآشورية، لمحمد صالح فرحان، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٧٦م.
٣٣. العلوم الإنسانية والطبيعية في موسوعة الموصل الحضارية، لفوزي رشيد، الموصل، ١٩٩١م.
٣٤. علوم البابليين، لمارغريت روثن، تر. يوسف حبي، بغداد، ١٩٨٠م.
٣٥. العلوم والمعارف في موسوعة حضارة العراق، لفاروق ناصر الراوي، بغداد، ١٩٨٥م.
٣٦. فترة العصر الكشي، لسامي سعيد الأحمد، مجلة سومر، بغداد، ١٩٨٣م.
٣٧. الفكر الجغرافي في الكشوف الجغرافية، ليسري الجوهري، الإسكندرية، ١٩٧٢م.
٣٨. اللغة الأكدية (البابلية - الآشورية) لعامر سليمان، الموصل، ١٩٩١م.
٣٩. متى كان لسوريا والعراق ميّزة خاصة، لمحمد محفل، مجلة دراسات تاريخيّة، ع٤٩-٥٠، دمشق، ١٩٩٤م.
٤٠. المظاهر الدينيّة في العراق القديم، لسامي سعيد الأحمد، المجلة التاريخيّة، ع٤/١٩٧٥م.
٤١. معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، لمحمد أبو المحاسن عصفور، بيروت، ١٩٧٩م.
٤٢. مقدمة في أدب العراق القديم، لطه باقر، بغداد، ١٩٧٦م.
٤٣. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، لطه باقر، بغداد، ١٩٥٥م.
٤٤. ملاحظات في جغرافية العراق، لطه باقر، مجلة الأقلام، ع١٠، بغداد، ١٩٧٧م.
٤٥. من تراثنا اللغوي القديم، لطه باقر، بغداد، ١٩٨٠م.
٤٦. من الساميين إلى العرب، لنسيب وهيبة الخازن، بيروت، ١٩٧٩م.
٤٧. موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة، لطه باقر، بغداد، ١٩٨٠م.
٤٨. الموقع الجغرافي للعراق، لإبراهيم شريف، بغداد.
٤٩. نظام الإرواء في العراق القديم، لفوزي رشيد، مجلة آفاق عربية، ع١، بغداد، ١٩٨٥م.
٥٠. النظام الملكي في العراق القديم، لمحمد صالح طيب صادق الزيباري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، ١٩٨٩م.

المصادر الأجنبية

51. Edzara D.O., The Idead of Bamylonia Gergra[hy Sumer Vol, 41, 1985.
52. Gelb'I.J' Harrians and Subarians' 2 nd Chicago 1973.
53. Geotze A. An old Babylonia Itinerany, JCS, Vol, 7.
54. Luckenbill' D.D Ancient' Reccords of Assri and Babylonia ñVol. Chicago' 1926.
55. Neugebauer O., The Exact Science in , Antiquit, 2-nd New york; 1957.
56. Olmstead, A.T, History of Assria, U.S.A, 1975.
57. Saggs" ëH' W. War fare in The Assyrian Sargonidperiod, Iraq, Vol XXVI; 1963.
58. Saggs H.W., Every Daylifin Babylonia and Assyride- London, 1965.
59. Tredtnes; J.A. " The Origin of The Name Syria, Jnes, Vol 40.

الاكتشافات الأثرية الجديدة لأقدم المساجد الإسلامية في مدينة الموصل

أكرم محمد يحيى
الموصل - العراق

إن موضوع البحث الذي بين أيديكم والموسوم باكتشافات أثرية جديدة لأقدم المساجد الإسلامية الشاخصة، قد تطلب منا الاعتماد بالدرجة الأولى على دراسة ميدانية، وعلى المسح العام لمدينة الموصل ومحلاتها ومناطقها القديمة كافة، وإجراء البحث المتواصل لأقدم المدن العربية الإسلامية القائمة في العراق وأزهرها فنًا وآثارًا، فكانت مدينة الموصل الواقعة على بعد ٤٠٠كم شمال العاصمة بغداد، التي أسست في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلحًا، حيث بنى فيها المسلمون المسجد الجامع، وابتنوا دار الإمارة، فأقاموا فيها دورهم وأسواقهم ومساكنهم، وكل ما فيها من عمران حتى غدت إحدى قواعد بلاد الإسلام.

ومن أجل الوصول إلى مواقع تلك المناطق الأثرية على اختلاف وظائفها من دينية ومدنية وخدمية إسلامية ونصرانية، لحصر الآثار الإسلامية القائمة في مدينة الموصل، حيث تم الوصول إلى ما يقرب من (١٤٢) مبنى أثري كانت في عداد المباني الأثرية القائمة، إلاّ أن ما تم الكشف عنه من مبانٍ أثرية، تضمنت العديد من المخالفات الأثرية، والعناصر المعمارية التي حوت الآثار الإسلامية بلغت نحو (٥٠) مبنى اندرس منها نحو (١٧٢) مبنى أثري ولم يعد لها أي أثر سوى اسمها الذي كانت تعرف به.

هذا وكان من الضروري تحديد المواقع الجغرافية لجميع تلك المباني التي حوت النماذج الزخرفية والنقوش المعمارية وعناصرها ووحداتها كافة، وكذلك تحديد أسمائها وتاريخ نشأة كل منها على حدة، وعينتها ونوعية ما فيها،

سواء كانت إسلامية أم نصرانية من مساجد وكنائس ومشاهد ومزارات ومراقد ومدافن ومدارس ومبانٍ خدمية.

كما سعينا إلى إجراء عمليات التحقق من المصادر التي اعتمدت في تحديد مواقع تلك المباني الأثرية وما تضمنته من آثار إسلامية، وذلك للتأكد من وجودها وقيامها إلى الآن.

هذا وإن جميع تلك البحوث كان مضمونها مصادر تاريخية وجغرافية ودينية لها نفع كبير في جميع تلك المجالات، كل حسب تخصصه واهتمامه.

ولا يفوتنا هنا ذكر أبرز الفوائد والاكتشافات من هذه الدراسة، والمسح العام، والتنقيبات التي أثمرت اكتشاف (محراب مسجد الشيخ عثمان الخطيب ومحراب الحضرة لجامع عبدال)، ولأول مرة بالإضافة إلى اكتشاف (محرابين رخاميين آخرين من النوع المسطح، يعود الأول بتاريخه إلى سنة (٥٠٠هـ)، في مسجد إحسان البكري الذي كان منسوبًا إلى العصر العثماني، وكذلكم (المحراب الثاني) المثبت في الجدار الجنوبي لرواق مسجد إحسان البكري الذي يعود إلى العصر الآيلخاني من القرن السابع والثامن للهجرة، بعد دراسته وتحليل عناصره ووحداته الفنية، والعمرانية فضلاً عن اكتشافات العديد من المخلفات الأثرية والعناصر المعمارية ولأول مرة، تجاوزت (١٢) نموذجًا معماريًا إسلاميًا. إضافة إلى مسجد الشماعين، ومسجد الشيخ شمس الدين، ومسجد الشيخ ذياب، ومسجد المهدي، إلى جانب نقوشها الخطيّة، وزخارفها الهندسية والنباتية، ورسومها الآدمية والحيوانية، وتحديد مواقعها وعائديتها، التي كان يعدها بعض الباحثين والمؤرخين بفترة انحطاط الفن، والعمارة الإسلامية في العراق. كما قمنا بدراسة تغطي الفترة التي كان يعدّها الباحثون بالفترة المظلمة، وعلى مدى (٦٦٠-٩٦٠) ثلاثة قرون من الزمن خلال فترة حكم لمغول الإيلخانيي والجلائري، وحكم القرة قوينلو ولاق قوينلو التركمانِي التي أثمرت كذلك اكتشاف العديد من العناصر المعمارية والفنية.

وسنتناول جمع تلك المساجد الإسلامية بفنونها المعمارية والفنية وزخارفها الهندسية والنباتية ونقوشها الخطية.

المقدمة:

قبل الدخول في تفاصيل الجوانب الفنيّة والعمرانية لمدينة الموصل، لابد لنا من معرفة موقع هذه المدينة ونشأتها وتوسعها على طرفي نهر دجلة، حيث كان لها دور بارز ومهم في حياة الإنسان العراقي الأول منذ العصر الحجري القديم؛ إذ أصبحت من أشهر مدن الشرق التي أسسها العرب وازدهرت على أيديهم، حتى عرفت ببلاد العرب، فغدت من كبرى المدن العربية والإسلامية.

وتعد مدينة الموصل من المدن العربية الموغلة في القدم، ويعود تاريخها إلى العصر الآشوري، حين اتخذ الآشوريون من نينوى عاصمة لهم، وعملوا على تحصينها بالأسوار والقلاع والحصون، كان من بينها الحصن الغربي الذي أقاموه على الضفة الغربية لنهر دجلة فوق تل قليعات[١]، أصبح النواة الأولى لمدينة الموصل فيما بعد[٢].

فازدادت هجرة القبائل العربية إليها، إلى جانب ما تجمع من أشتات اليهود والنصارى، الذين عملوا على تشييد دورهم وكنائسهم وأسواقهم ومحلاتهم[٣].

الاكتشافات الأثرية الجديدة لأقدم المساجد الإسلامية في مدينة الموصل

وقد ساعد موقعها الجغرافي المهم، الذي جعل منها محطة القوافل التجارية القادمة من الشرق والغرب[٤] على تنشيط الحركة الحضرية والاستيطانية التي تواكبت مع البدايات الأولى لنشوء هذه المدينة[٥]. ففي حدود سنة (١٦هـ/٦٣٧م)، حُرِّرت مدينة الموصل على يد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). الذي أمر القائد عبد الله بن المعتم بتسريح ربعي بن الأفكل العنزي على قيادة الجيوش الإسلامية، لتحرير المدينة، وتم له ذلك بعد أن انضوت تحت لوائه العديد من القبائل العربية، كان من أبرزها قبائل تغلب وإياد والنمر[٦]، التي ساعدت الفاتحين على دخول مدينة الموصل مع إخوانهم العرب الذين كانوا يسكنون فيها[٧].

وعُيِّن القائد عتبة بن فرقد السلمي واليًا على مدينة الموصل الذي اختطها وأسكنها العرب الفاتحين[٨]، وابتنى المسجد الجامع ودار الإمارة[٩]، وقد اتسعت بعد ذلك بسبب هجرة القبائل العربية إليها، وكان غالبيتهم من مدن الكوفة والبصرة[١٠]، وبخاصة في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) (٢٣-٣٥هـ)[١١]، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٥-٤٠هـ)[١٢]. كقبائل الأزد والطيّ وخزرج وتغلب والنمر[١٣].

وبعد قيام الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ)، زاد اهتمام الخلفاء والولاة بمدينة الموصل حيث نصبوا عليها أقدر الولاة وأحزمهم، ومن كان يحب الخير والإصلاح[١٤] فانتعشت المدينة في جميع نواحيها الفنية والعمرانية. فقد قام الوالي الحر بن يوسف (١٠٦-١١٣هـ) أحد ولاة المدينة ببناء قصر يعرف بقصر (المنقوشة) ومدرسته، إذ وصلت فنون النقش والحفر والتطعيم إلى قمة نضجها[١٥].

وكذلك نالت مدينة الموصل اهتمامًا كبيرًا في عهد مروان بن محمد آخر الولاة الأمويين، الذي عمل على هدم المسجد الجامع وتعميره من جديد، وبنى له منارة، وأقام له مقصورة، ووسعه حتى أصبح يتسع لالآف المصلين، لذا عرف بالجامع الأموي[١٦].

واستمر ذلك الازدهار الفني العمراني في مدينة الموصل بعد قيام الدولة العباسية في مدينة السلام -١٣٢هـ). فقد قام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بتعيين عمه إسماعيل بن علي (١٣٧-١٥٨هـ) واليًا عليها، فقام بالعديد من الأعمال العمرانية، كان من أبرزها نقل أسوار الموصل من جهة الجامع العتيق إلى صحراء مقابر قريش. كما ابتنى مسجد أبي حاضر[١٧]. المعروف بمسجد (الشالجي)[١٨]. كما زارها الخلفية المهدي سنة (١٦٣هـ) فوسع المسجد وبنى مسجدًا عرف باسمه (المهدي) جوار كنيسة مار توما[١٩]. وبعد أن أصبحت المدينة تحت حكم الحمداني (٢٣٢- ٣٦٧هـ) قلد الخليفة العباس المقتدر بالله ولاية الموصل لأبي الهيجاء عبد الله بن حماد (٢٩٥ -٣٢٠هـ)، وتولى بعد ذلك على حكمها بنو حمدان حتى زوال كيانهم فيها، إذ اتسع عمرانها وازدهرت فنونها فشيدت العديد من المساجد ودور العلم والفنادق والخانات والحمامات ودور السكن والأسواق[٢٠]. كما تعاقب على حكمها من بعدهم العقيليون (٣٨٠ -٤٨٦هـ)، ومن ثمَّ السلاجقة الأتراك (٤٨٦- ٥٢٠هـ)من بعدهم[٢١].

وعلى الرغم مما شهده عصرهم من صراعات ونزاعات طويلة إلا أنه قد تم الكشف عن العديد

من القطع الأثرية التي ترقى بزمنها إلى عصرهم، وبالتحديد القرن الخامس الهجري[٢٢]. إضافة إلى العشرات من المدارس النظامية التي أنشأها الوزراء السلاجقة إبان حكمهم في كل من العراق وإيران[٢٣].

وبحدود سنة (٥٢١هـ) بدأ حكم الأتابكة بالأمير عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الأتابكية في مدينة الموصل، وقد تعاقب أبناء عماد الدين زنكي وأحفاده على حكم المدينة، فكان حكمهم عصر استقرار وهدوء؛ بفضل ملوكهم الذين كانوا أكثر الناس إقبالاً على أهل العلم والفن والأدب، ما أدى إلى هجرة العديد من العلماء والفقهاء والفنانين والحرفيين واستدعائهم إلى مدينة الموصل[٢٤].

لقد شهدت المدينة ازدهارًا فنيًا وعمرانيًا وانتعاشًا وتطورًا في كافة جوانب الحياة العلمية والدينية والاقتصادية، وإن الرحالة والمؤرخين الذين زاروا مدينة الموصل، ومنهم (ابن جبير)[٢٥] و(الحميري)[٢٦] و(الحموي)[٢٧]، دوّنوا ما عرفوه عن مساجدها وجوامعها وقصورها وفنادقها وخاناتها وأسواقها وحماماتها وقلاعها وأسوارها وإعجابهم بحسن بناياتها وتناسقها وفخامة هيئتها.

واستمر ذلك النشاط الفني والعمراني خلال العهد الأتابكي بعد تسلُّم بدر الدين لؤلؤ حكم المدينة الذي تعدُّ مدّة حكمه لها امتدادًا للعهد الأتابكي[٢٨].

بين سنة (٦٣٠-٦٦٠هـ) حتى الاجتياح المغولي للموصل[٢٩].

ومن خلال الدراسة الميدانية والمسح العام الذي قمنا به في مدينة الموصل، للبحث عن (المساجد الإسلامية) التي تم إنشاؤها وتعميرها في المدينة خلال العصور الإسلامية الأولى لا تزال قائمة إلى الآن، محتفظة بكافة عناصرها المعمارية، ومخلفاتها الهندسية والنباتية ونقوشها الخطيّة، إضافة إلى ما قمنا به من تفريغ وتصوير لكافة وحداتها الزخرفية وعناصرها الفنية، بعد حصرها داخل المباني الأثرية، التي كان من أبرزها الأسس والجدران الحجرية، والمحاريب والمداخل الرخامية والقباب والمآذن الآجرية والألواح التذكارية والجنائز وصناديق القبور الرّخامية وشواهدها، وذلك على مدى عدة قرون مضت ، والتي امتازت بوفرتها وغزارة وحداتها وتنوع عنصرها، لذا سنوردها كما يأتي:

مسجد الشيخ عثمان الخطيب[٣٠]

يقع المسجد في محلة الشيخ أبو العلا[٣١]، في منتصف مدينة الموصل القديمة، وعلى الرغم من حداثة بناء هذا المسجد الذي يرجع إلى حدود القرن الحادي عشر للهجرة، إلا أنّه يضم بعض المخلفات الأثرية التي ترقى بزمنها إلى حدود القرن الثاني أو الثالث للهجرة، التي كان من أبرزها المحراب الرخامي المسطح والمثبت في رواق المسجد.

كُشف عن هذا المحراب لأول مرة من قبلنا، فلم يسبق دراسته وتحليل عناصره الفنية والمعمارية وتفريغها ثم تصويرها.

محراب المسجد (المكتشف):

يتبع المحراب في تخطيطه وأسلوب عمارته نظام المحاريب المسطحة، التي سادت في مدينة الموصل خلال القرون الأولى للإسلام، ويتكون المحراب من قطعة واحدة من الرخام الموصلي. نحت عليها معالم المحراب التي تتكون من قوس

مدبب ثلاثي الفصوص، يماثل قوس محراب الرواق في جامع العمرية المنسوب لحدود سنة (٢١٨هـ) بداية العصر العباسي(٢٢).

لقد شغلت كوشة المحراب المحصورة بين كتفي القوس المفصص الثلاثي بزخرفة نباتية مؤلفة من حركة الأغصان الملتوية الصماء، في حين نحت في قسمه العلوي أعلى القوس المدبب ورقة نخلية خماسية مطابقة للورقة النخلية الخماسية المنحوتة في أعلى القوس المدبب لمحراب مسجد المهدي، المنقول إلى كنيسة مارتوما، وقد أحيط المحراب بكامله من الخارج بإطار هندسي مؤلف من امتداد الخطوط المستقيمة وانكسارها بعدة اتجاهات، حيث يمتد الخط الهندسي بصورة مستقيمة، ثم ينكسر نحو الجهة اليمنى، ليعود بعد ذلك نحو الجهة السفلى، ويستمر بشكل دائري، في حين شغلت المنطقة المحصورة بين أعمدة المحراب وقوسه المفصص التي تمثل صدر المحراب المسطح بزخرفة خطية مؤلفة من الشهادتين

(لا إله إلا الله محمد رسول) منفذة بالخط العربي القديم (الكوفي البسيط) الذي ساد خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة.

وقد اعتمد الفنان في تنفيذ زخارف هذا المحراب الهندسية على أسلوب الحفر الغائر عن مستوى الأرضية البارزة، وذلك في تنفيذ عناصر ووحدات الخطوط الهندسية المنكسرة التي تمتد على جانبي المحراب من الأعلى، وتمتد نحو الأسفل نزولاً، كما نحت الإطار الهندسي بكامله بأسلوب الحفر البارز عن مستوى الأرضية المسطحة للمحراب، فاستغل سطحه بالكامل لتنفيذ زخرفته الخطية سالفة الذكر.

وبعد، فالمحراب لا يحمل تاريخًا مدونًا يمكن إرجاع زخرفته الهندسية إليه، لذا سنعتمد على مبدأ المقابلة والتشابه بين عناصر المحراب الفنيّة مع غيره من العناصر الزخرفية الأخرى ومن الفترة ذاتها.

فالزخرفة الهندسية للمحراب المؤلفة من الخطوط المنكسرة تماثل، إلى درجة كبيرة، تلك الزخرفة الهندسية التي سادت خلال القرن الثالث للهجرة المنفذة على محاريب سامراء وجدرانها(٢٣)، كما تمثل تلك الزخارف الهندسية التي انتشرت على شواهد القبور بشكل أطر خارجية، المنسوبة إلى القرن الثالث للهجرة في مصر(٢٤).

أما بالنسبة للزخرفة النباتية المنفذة في أعلى قوس المحراب الوسطي المدبب، فهي مطابقة للزخرفة النباتية التي نفذت على قوس محراب مسجد المهدي المنقول إلى مارتوما، وبالأسلوب ذاته.

كما أن الزخرفة الخطيّة المنفذة في صدر المحراب المتضمنة للشهادتين، قد نفذت بالخط الكوفي البسيط الذي ساد على مختلف العناصر المعمارية والمخلفات الأثرية وشواهد القبور خلال القرنين: الثاني والثالث للهجرة في العالم الإسلامي(٢٥)، كما أنها تماثل تلك الكتابات المنفذة في صدر محراب مسجد الست كلثوم في القرن الثالث للهجرة في مدينة الموصل(٢٦)، ومحراب مدق الطبل في سامراء(٢٧)، وواجهة عقود مسجد قبة الصخرة بالقدس(٢٨)، وجامع أحمد بن طولون(٢٩)، في مصر، جميعها بالخط الكوفي القديم في القرن الثالث للهجرة ... فهي عبارة عن أشكال دائرية مثقوبة متماثلة ومتساوية، نحتت بصورة عمودية أشبه ما تكون بحبيبات المسبحة المثقوبة الصغيرة، بصورة متسلسلة

حيث تمتد نحو الأعلى بوضعية عمودية لتتكسر بعد امتدادها نحو الجهة اليسرى مكونة شريطين هندسيين يؤطران بدورهما المنطقة المستطيلة التي نحتت أعلى قوس المحراب، شغلت بكتابة عربية تضمنت نصًا قرآنيًا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه)[٤٠]، بالخط الكوفي البسيط. في حين كونت شريطًا هندسيًا ثالثًا من منتصف الإطار الزخرفي العمودي ليؤطر بدوره قوس المحراب بفصوصه الجانبية نصف الدائرية، ليمتد حتى يكمل مسيرته نحو الفص العلوي المدبب.

وبعد فإنَّ المحراب لا يحمل تاريخًا مدونًا يمكن إرجاع عناصره الزخرفية ووحداته الهندسية إليه، حيث أورده الدكتور أحمد قاسم الجمعة في رسالة الماجستير ضمن محاريب القرنين السادس والسابع للهجرة[٤١]، ثم عاد ليضعه ضمن محاريب القرن الخامس للهجرة في بحوثه الأخيرة[٤٢]، في حين أورده الأستاذ يوسف ذنون ضمن محاريب القرن الرابع للهجرة[٤٣].

لذا نجد أن الدراسة المقارنة هي التي ستوضح حقيقة تاريخ زخرفة هذا المحراب بوحداته الهندسية والفنيّة الأخرى.

فالمحراب يتبع في أسلوب عمارته نظام المحاريب المسطحة الصغيرة التي انتشرت في مدينة الموصل خلال القرون الأولى للإسلام[٤٤]، التي نحت عليها الخط الكوفي البسيط للنص القرآني، علمًا أن الخط الكوفي البسيط قد ساد استخدامه خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، وكانت له السيادة في تلك الفترة قبل تطور وازدهار أنواع جديدة من الخط الكوفي المزخرف، المورق والمزهر والمضفور[٤٥]. إلى جانب ذلك فإنّ الزخرفة الهندسية المحيطة بالمحراب من الخارج، المؤلفة من امتداد الخطوط وانكسارها، وما نتج عنها من وحدات هندسية جديدة متماثلة مثلثة الشكل تماثل ما شاع ضمن زخارف سامراء منتصف القرن الثالث للجرة.

مسجد الشماعين[٤٦]

يقع مسجد الشماعين في محلة الشيخ محمد (البارودجية) وسط مدينة الموصل القديمة[٤٧]، على الطريق المؤدي إلى جامع العمرية.

لقد أمر بعمارة المسجد الأخوان: الحاجي محمد، والحاجي أحمد، وذلك بحدود سنة ١١٢١هـ[٤٨]، إلا أنّ المسجد قد تحول في الآونة الأخيرة إلى خرابة للأنقاض، وقد صار مصلاه مربطًا للحيوانات[٤٩]، ولا يزال على هذا الحال.

ولم يتبق من آثار هذا المسجد سوى قبته نصف الدائرية، ومحرابه المركب من قسمين، الذي تم استظهاره أخيرًا من قِبَلِنا[٥٠]، بكامل هيئته بعد اندراسه تحت الأنقاض وبعمق (٢متر).

محراب المسجد:

يظهر أن المسجد قد مر بأدوار معمارية متعددة، وذلك لأن بعض مخلفاته الأثرية قديمة كالمحراب المسطح الذي نحن بصدد ذكر زخارفه الهندسية وعناصره الفنيّة.

وكذلك المحراب الخارجي المركب فوق المحراب الداخلي المسطح الصغير، الذي يمتاز بنظام التخطيط والعمارة، والعناصر الفنية التي سادت بعد القرن العاشر للهجرة في مدينة الموصل.

لقد نحتت معالم المحراب الداخلي الأثري على قطعة واحدة من الرخام الأزرق الموصلي بهيئة مستطيلة، شغل جزؤها العلوي بقوسين مفصصين من النوع المزدوج يستند كلا القوسين على أعمدة مزدوجة أسطوانية الشكل ذات تيجان كأسية.

هذا وقد اعتمد الفنان أسلوبًا جديدًا في تنفيذ عناصره الفنية بالرخام الأبيض المغاير للأرضية المنحوتة من الرخام الأزرق، على خلاف ما اتبعه في تنفيذ زخارفه وتنزيلها بالجبس الأبيض في المحاريب السابقة.

وهذا غير جديد على الفنان الموصلي، الذي كان أسلوب التنزيل معروفًا عنده ومستخدمًا منذ العصر الأموي، على العناصر المعمارية والمخلفات الأثرية، إذ لم يقتصر التنزيل على الرخام بالرخام، بل تعدّاه إلى اتباع أسلوب التزيل على الرخام بالعاج، والصدف، والفصوص الملونة، وقد تمثل كل ذلك في قصر والي الموصل الحر بن يوسف الأموي (١٠٦-١١٢هـ) ما جعل الباحثين يطلقون على قصره بالمنقوشة، لجمال نقوشه وتنوع مادته، وروعة أساليب تنزيل زخارفه، ورفعة سقوفه المغلفة بالخشب الهندي (الساج) المموه بالذهب[٥١]، ونذكر هنا سبب استخدام العاج - ذلك اللون الأبيض المعروف - في النقش والتنزيل لولا أن الأرضية التي استخدم عليها كانت مغايرة للونه الأبيض الناصع كأن تكون سمراء، وهذا الشيء ينطبق على تنفيذ الفصوص الملونة والأصداف (الرخام الأبيض المرمري)، على الرخام (مادة البناء الأصلية).

وينطبق الشيء نفسه على المباني الأموية من مساجد وقصور كانت منزلة بالفسيفساء والألوان المختلفة على الرخام الذي هو مادة البناء الأصلية الأكثر شيوعًا في مبانيهم، فضلاً عن شيوع أساليب التنزيل في زخارف سامراء[٥٢].

ونتيجة لما سبق يتضح لنا أن جميع زخارف هذا المحراب من هندسية وفنية أخرى قد شاعت خلال القرن الثالث للهجرة، وعلى العديد من العناصر العمارية والمخلفات الأثرية في الموصل وسامراء.

في حين أننا لم نجد ما يماثلها من نماذج زخرفية هندسية وفنية على العناصر العمارية والمخلفات الأثرية التي ترقى بزمنها إلى ما بعد القرن الرابع للهجرة وبشكل خاص محاريب القرن الخامس للهجرة، كمحراب مسجد ملا أحمد، ومحراب المدرسة العزية (مزار الإمام عبد الرحمن) ومحراب جامعة الجويجاتي ومحراب الحضرة، وكذلك محراب المصلى في مرقد الشيخ فتحي، ومحراب الحضرة في مسجد إحسان البكري.

كما أنها تخالف محاريب القرن السادس للهجرة من حيث عناصرها الهندسية والفنية وأساليب تنفيذها، وبشكل خاص المدرسة النورية (مزار الإمام محسن)، ومحراب الجامع الأموي المنقول إلى الجامع النوري، ومحراب مسجد ملا عبد الحميد، ومحراب مسجد الست نفيسة، ومحراب الحضرة في جامع جمشيد.

إلى جانب معرفة الفنان الموصلي لأساليب التنزيل على الرخام الأسمر بالرخام الأبيض والعكس، وبمواد أكثر تعقيدًا وصعوبة كالأصداف (الرخام الأبيض المرمري) والعاج والفصوص الملوّنة وذلك مطلع القرن الثاني للهجرة (العصر الأموي).

كل ذلك يجعل من الطبيعي استمرار التواصل الفني والعمراني لعناصر البناء وأساليبه ومواده في الموصل على مر العصور، مع توفر الاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي والاجتماعي الذي نالته مدينة الموصل خلال القرون الأولى للإسلام.

لذا نرجح عودة محراب مسجد الشماعين

بعناصره الهندسية والفنية كافة إلى حدود القرن الثالث والرابع للهجرة، إذا ما علمنا أن هذه الفترة الزمنية المحددة قد امتازت بالنشاط الفني العمراني الكبير الذي شهد به العديد من الباحثين والرحالة والمؤرخين[٥٣].

مسجد الشيخ ذياب[٥٤]

يقع المسجد في محلة باب لكش[٥٥]، وسط مدينة الموصل القديمة على الطريق المؤدي إلى جامع العمرية، وعلى الرغم من حداثة بناء المسجد، إلا أن نظام تخطيطه وصغر مساحته وانخفاض أرضيته بنحو (٣أمتار) عن مستوى الأرض والدور المجاورة له تدل على قدم عهده الذي يعود إلى فترة أقدم بكثير من التاريخ المدون على جدران هذا المسجد ومدخله المجدد بسنة ٩٩٩هـ.

هذا فضلاً عن أن المسجد يحتوي على بعض المخلفات الأثرية القديمة[٥٦]، التي ترجع على أقل تقدير إلى القرن الرابع للهجرة كما سنرى تباعًا، والتي كان من أبرزها المحراب الرخامي المثبّت في الجدار القبلي لمصلى المسجد.

محراب المسجد:

يتبع المحراب في تخطيطه وأسلوب عمارته نظام المحاريب المجوفة، لذا فإنه يعد من أقدم المحاريب الإسلامية القائمة في مدينة الموصل، التي تتبع في أسلوب عمارتها نظام المحاريب المجوفة.

يتكون المحراب من قسمين، القسم السفلي وهو ذو تجويف مضلع ثلاثي أصم، خال من الزخرفة، شيد من عدة قطع من الحجارة المهندمة.

أما القسم العلوي فقد نحت على سطحه معالم المحراب الإسلامي، وهو على شكل قطعة رخامية مستطيلة شغل سطحها بقوس مدبب مطول الرأس ذي تجويف غائر، في حين شغلت حافة القوس الخارجية البارزة بنص قرآني: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[٥٧]، نفذ بالخط الكوفي المروس المتطور، تظهر في تنفيذ بعض حروفه بوادر الانتقال من الخط الكوفي البسيط إلى الخط الكوفي المضفور[٥٨]. بدأت منذ القرن الرابع للهجرة واستمرت حتى نهاية القرن السادس للهجرة.

أما كوشة المحراب التي تضمنت المنطقة المتخلفة عن قوس المحراب، والمحصورة بين كتفيه فقد شغلت بزخرفة هندسية متشابكة في عناصرها ومتنوعة في أساليبها.

هذا وقد شغلت جميع الوحدات الزخرفية الهندسية بأشكال نباتية متنوعة من أوراق العنب الثلاثية والخماسية والأوراق النخيلية الرباعية والخماسية.

لقد اعتمد الفنان في تنفيذ زخارف المحراب الهندسية وباقي عناصره الفنيّة النجمية والمضلعة والأشكال المعينية، وما إلى ذلك على أسلوب الحفر البارز عن مستوى الأرضية الغائرة للمحراب، ذي القطاع الرأسي القائم الذي شاع منذ القرن الرابع للهجرة واستمر بعد ذلك.

وبما أنّ المحراب لا يحمل تاريخًا مدونًا يمكن إرجاع زخارفه الهندسية عناصره الفنيّة الأخرى إليه، فإننا سنعتمد مبدأ المقابلة والتشابه بين عناصر هذا المحراب مع غيره من العناصر الفنية الأخرى، ومن الفترة ذاتها.

فالزخرفة الهندسية المنفذة على كتفي قوس محراب الشيخ ذياب لم تنتشر خلال القرنين

الثاني والثالث للهجريين، فلم نجد أمثلتها في محاريب تلك الفترة، ولكننا وجدنا ما ماثلها من زخارف هندسية واضحة ومنفذة على محاريب القرن الخامس للهجرة، كما في محراب جامع الجويجاتي، ومحراب المدرسة العزية (مزار الإمام عبد الرحمن)، ومحرابي مرقد الشيخ فتحي.

كما أن النص القرآني المدون على حافة قوس المحراب البارز قد نفذ بالخط الكوفي المتطور عن الخط الكوفي البسيط، إذ تظهر بوادره في تنفيذ حروف هذا النّص القرآني من تضفير حروفه والمد الزائد في نهايتها وبخاصة حروف (الهاء)، (النون)، (الميم)، (الراء) إضافة إلى حرف (الواو) الواقع في بداية الكلمات للنص القرآني، وهي نفس الخصائص والمميزات التي اتصف بها الخط الكوفي المتطور المزخرف إلى خط الثلث القديم في حدود سنة ٥٠٠هـ، كما هو الحال في أقدم نموذج لخط الثلث القديم[٥٩] المنفذ على محراب الحضرة في مسجد إحسان البكري المؤرخ في سنة ٥٠٠هـ.

كما أن الزخرفة النباتية المنفذة في باطن قوس المحراب، وداخل الزخرفة الهندسية النجمية والمضلعة السداسية، تشابه، إلى درجة كبيرة، الزخرفة النباتية التي سادت على محاريب القرن الرابع للهجرة، ومن كل ما تقدم نرجّح عودة هذا المحراب إلى القرن الرابع للهجرة.

مسجد المدرسة النظامية[٦٠]

مزار الإمام محمد بن الحنفية[٦١]

تقع المدرسة النظامية التي تدعى في الوقت الحاضر بمزار الإمام محمد بن الحنفية في محلة الجامع الكبير وسط مدينة الموصل القديمة[٦٢]، إلى الشمال الغربي لمئذنة الجامع النوري (الحدباء).

ويظهر أن المدرسة النظامية قد مرت بأدوار معمارية مختلفة، ذلك لأنها تضم العديد من المخلفات الأثرية التي تعود بزمنها إلى فترات متعددة، إذ تتكون المدرسة النظامية (مزار الإمام محمد بن الحنفية) من عدة أقسام بنائية، القسم الأول وهو القسم السفلي الذي يعدُّ أقدمها، بدلالة المحراب الرخامي المسطح المثبت في الجدار الجنوبي للغرفة القديمة، إلى جانب صندوق قبر خشبي يمثل صندوق قبر الإمام محمد بن الحنفية بشكله الرمزي[٦٣]، علمًا أنّ الغرفة بكاملها تنخفض نحو (٤-٥) أمتار عن مستوى الدور والأرض المجاورة لها، ونحو(٢) مترين تقريبًا عن القسم الثاني المتوسط، الذي يمتد طوليًا بمحاذاة الغرفة الأثرية القديمة من جهتها اليمنى، فقد شيد هذا القسم الوسطي بشكل أروقة طولية تسقفها عقود دائرية من قطع الرخام الموصلي.

وإننا نشاطر الأستاذ الديوه جي[٦٤] في أن هذا القسم (الوسطي)، هو الذي يمثل بناية المدرسة، ذلك لأنه على شكل أروقة طولية ومن عدة عقود ومقسم إلى أقسام تخالف في شكلها وهيئتها وتخطيطها نظام بناء المدارس الذي كان بشكل غرفة ذات تخطيط مربع.

وبما أنَّ جميع المدارس الإسلامية كان لها مساجد مستقلة عن المدرسة، ولكنها مجاورة لها[٦٥]، لذا نرجح أن القسم السفلي المنخفض الذي هو غرفة مربعة الشكل هي البناية التي تمثل مسجد المدرسة، بدلالة المحراب المثبت في جدارها الجنوبي القبلي، وكذلك بدلالة أن ليس من الضروري أن يكون المسجد معاصرًا لتشييد بناء المدرسة، إذا لم يتعارض أن يكون سابقًا لها.

المهم أن يؤدي الغرض المطلوب لطلاب تلك المدرسة وعلمائها.

لذا فإنّ المحراب الموجود من المرجح أن يكون محراب مسجد قديم أقيمت على أنقاضه المدرسة الإسلامية أو بجوارها.

علمًا أن المدرسة الإسلامية(٦٦)، ودور العلم(٦٧)، كانت معروفة ومشيدة في مدينة الموصل منذ القرن الثاني أو الثالث للهجرة.

المحراب:

يتبع المحراب في تخطيطه وأسلوب عمارته نظام المحاريب المسطحة، فقد نحتت معالم المحراب الإسلامي على قطعة واحدة من الرخام الأسمر الداكن بهيئة مسطحة، في حين لُبس من الخارج بمحراب ثانٍ خارجي مجوف ذي عقد، مدبب كبير الحجم، وأعمدة جانبية ضخمة الهيئة جميعها من الرخام الأسمر التي تعود إلى العصر الإيلخاني(٦٨).

لذا سنقتصر حديثنا هنا على أبرز الجوانب الفنيّة لمعالم المحراب المسطح الداخلي الذي هو من زمن بحثنا، فقد نُحِتَ في أعلى صدر المحراب قوسان مزدوجان من النوع المفصص الخماسي، نفذ كل فص من الفصوص الخمسة بهيئة نصف دائرية، القوس الخارجي بارز منفتح نحو الأعلى، وبذلك فقد مكن الفنان من إشغال حافته المسطحة الخارجية بنص قرآني(٦٩). ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ❁ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(٧٠)، وبالخط الكوفي البسيط الذي ساد خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة(٧١)، قبل تطور أنواع جديدة من الخط الكوفي المزخرف، والمورق، والمزهر، والمضفور، بدءًا من القرن الرابع للهجرة، لتنوب عن الخط الكوفي البسيط الذي انعدم تنفيذه واستخدامه على المخلفات العمارية منذ القرن الرابع للهجرة حتى نهاية القرن السادس للهجرة(٧٢).

أما القوس الثاني فقد نحت بالوضعية الراجعة إلى داخل المحراب، وظهر كأنه منغلق على نفسه، وهو بذلك يماثل قوس محراب مسجد الست كلثوم من القرن الثالث للهجرة، ومحراب مسجد المهدي المنقول إلى كنيسة مارتوما في القرن الثاني للهجرة.

وقد استند كلا القوسين على أعمدة مزدوجة ذات تيجان كأسية الشكل، تصل بين أرجل قوسي المحراب وتيجان الأعمدة الكأسية منطقة معمارية أفقية مستطيلة الشكل، نحت على سطحها الخارجي عناصر الشرفات المسننة التي سادت خلال القرن الثالث للهجرة(٧٣).

أما أبدان الأعمدة فقد نحتت بزخرفة هندسية متناظرة في كلا الجانبين، فعلى أبدان الأعمدة الخارجية نحتت أشكال دائرية تعقبها أشكال بيضوية، وثبتت بوضعية التتابع والتناوب، في حين نحتت الأعمدة الداخلية بأربعة عناصر معمارية مقصوصة مربعة الشكل تمثل بدن العمود الداخلي في كلا الجانبين.

وقد شغلت تيجان الأعمدة المزدوجة في كلا الجانبين بعناصر هندسية معينية الشكل أو لوزية متماثلة أما صدر (المحراب) المحراب فقد نحت بأربع جامات هندسية، الثلاث العليا بارزة وواضحة، أما الجامة السفلى فقد اندرست وانغمرت أجزاؤها تحت الأرض نتيجة للأدوار المعمارية المتكررة، وقد نحتت الجامات الهندسية بصورة متماثلة من أشكال رباعية، يقطع كل ضلع من أضلاعها الأربع قوس نصف دائري لينتج من ذلك نموذجًا زخرفيًا متكاملاً على شكل مضلع ثماني الرؤوس، أربع منها ذات زوايا قائمة، والأربع الأخرى ذات قوس مفصص نصف دائري متماثلة.

كما أحيط المحراب المسطح من الخارج بإطار كتابي يتضمن نصًا قرآنيًا ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٧٤].

مسجد المدرسة النورية[٧٥]

(مزار الإمام محسن)[٧٦]

تقع المدرسة النورية (مزار الإمام محسن) في محلة الميدان[٧٧]، من الجهة الشمالية في مدينة الموصل القديمة، قبالة دور المملكة (قره سراي)[٧٨].

المدرسة عبارة عن غرفة صغيرة تنخفض أرضيتها بنحو ثلاثة أمتار عن مصلى الجامع (المزار) الذي أقيم على أنقضاها في الفترة الأخيرة، عرف بجامع الإمام محسن، ولا زالت غرفة المدرسة الأثرية قائمة، وتضم العديد من القطع الأثرية التي تعود بزمنها إلى فترة قديمة سابقة لفترة تشييد المدرسة النورية، بما فيها المحراب المسطح الرخامي الذي هو في غاية الأهمية؛ لكونه يحدد لنا ما هية هذا المبنى وتاريخ إنشائه، إضافة إلى كونه ثاني محراب إسلامي صنع من مادة حجر الحلان، بعد المحراب المثبت في رواق جامع العمرية المنسوب إلى سنة ٢١٨هـ.

المحراب:

يتبع المحراب في تخطيطه وأسلوب عمارته نظام المحاريب المسطحة، فقد نحتت معالمه الفنية على قطعة واحدة من حجر الحلان، وهو بذلك خالف جميع المحاريب المسطحة التي صنعت من الرخام الموصلي في مدينة الموصل، باستثناء محراب الرواق بجامع العمرية من حيث مادة البناء المصنوع منها، والمكان الذي ثبت فيه.

وهذا يساعدنا على تحديد موقع هذا المحراب ومكانه بالنسبة إلى بنايته الأصلية التي تتضح من خلال الكتابات المنحوته على صدره، تمثل (المسجد)، ومن المحتمل أن محراب المدرسة النورية كان مثبتًا في الجدار القبلي لأروقة مصلى المسجد الذي شيد من أجله ولا سيما أن مادة حجر الحلان[٧٩] بطبيعتها أكثر صلابة وديمومة ومقاومة للظروف الجوية المختلفة، من أمطار ورطوبة، وتباين لدرجات الحرارة التي تفوق مقاومة مادة حجر الرخام وصلابتها التي تعد المادة الأساسية في مدينة الموصل، لكثرة شيوع مقالعها فيها، حيث استخدمت في صنع جميع العناصر العمارية الثابتة في المباني الدينية والمدنية.

وقد نحت في القسم العلوي لسطح المحراب قوس خماسي الفصوص نفذت بهيئة أنصاف دوائر متماثلة في الجانبين وبشكل متقابل، في حين نحت الفص العلوي على شكل قوس مدبب مطول الرأس، تتدلى من وسطه سلسلة من الخطوط الهندسية الملتوية على نفسها بشكل مضفور، تحدث بحركتها الالتوائية أشكالاً هندسية أشبه ما تكون بحبيبات المسبحة الضفيرة المثقوبة بشكل دائري التي تمتد من أعلى قوس المحراب بوضعية عمودية إلى منتصف قوس المحراب بين فصوصه الجانبية نصف الدائرية لتتفرع تلك السلسلة المضفورة إلى فرعين بشكل مثلث متساوي الساقين، حتى يكاد طرفا السلسلة يلامسان أبدان الأعمدة الحلزونية الواقعة على جانبي المحراب ويستند عليها قوس المحراب.

مسجد الست نفيسة[٨٠]

يقع مسجد[٨١] الست نفيسة في محلة الجامع الكبير إلى الجهة الشمالية الغربية[٨٢] لمئذنة الحدباء الشهيرة.

مقالات علمية

والمسجد عبارة عن بناء حديث بكامل أجزائه، يضم في قسمه الشرقي فناء واسعًا يحتوي على غرفة صغيرة مربعة الشكل تنخفض نحو ثلاثة أمتار عن مستوى فناء المسجد.

هذه الغرفة الأثرية التي هي الجزء القديم الذي يمثل مسجد الست نفيسة، تحتوي في جدارها القبلي على محراب رخامي مسطح الشكل.

المحراب:

يتبع المحراب في أسلوب عمارته وتخطيطه نظام المحاريب المسطحة، فقد نحتت معالمه الفنيّة على قطعة واحدة من الرخام الأزرق الموصلي، وعلى شكل مستطيل قائم، أحيط من الخارج بشريط كتابي بخط الثلث، يؤطر المحراب بشكل دائري يمتد من أسفل الجهة اليسرى للمحراب، وينتهي في أسفل الجهة اليمنى منه[٨٣]، إذ يتضمن الشريط الكتابي نصًا قرآنيًا[٨٤] بخط الثلث القديم الذي شاع في مدينة الموصل منذ نهاية القرن الخامس للهجرة، واستمر حتى نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن للهجرة[٨٥]، على طريقة ابن البواب في تسلسل الكلمات وعدم تراكبها[٨٦]، هذا وإن المحراب لا يحمل تاريخًا مدوّنًا يمكن إرجاع عناصره الفنية وزخارفه الهندسية إليه، لذا سنعتمد على مبدأ الموازنة والتشابه بين عناصر هذا المحراب وغيرها من العناصر الفنيّة الأخرى من الفترة ذاتها. فالشريط الكتابي الذي يؤطر المحراب من الخارج والمنحوت بخط الثلث القديم الذي ساد في مدينة الموصل منذ القرن الخامس للهجرة، واستمر حتى مطلع القرن الثامن للهجرة[٨٧]، المنفذ على طريقة ابن البواب في تسلسل الكلمات وعدم تراكبها[٨٨]، يماثل إلى درجة كبيرة جدًا النصوص الكتابية المنحوتة على صدر محراب الحضرة في مسجد إحسان البكري المؤرخ بسنة خمسمائة للهجرة، كما أن الزخرفة الهندسية المنفذة على صدر قوس المحراب المدبب العلوي المؤلفة من المضلعات الخماسية والسداسية الشبيهة بالمقرنصات، تماثل نفس العناصر الهندسية، وبدرجة كبيرة، المنفذة على محراب مسجد ملا عبد الحميد منتصف القرن السادس للهجرة[٨٩].

إنّ موقع المسجد القريب جدًّا من مسجد أبي حاضر (الشالجي) الذي يعود إلى القرن الثاني للهجرة[٩٠]، يساعدنا في معرفة قدم المنطقة المشيد عليها هذا المسجد، ولاسيما أن أرض مسجد الست نفيسة تنخفض نحو(٣ أمتار) عن مستوى الأرض والدور المجاورة لها، كما ينخفض هذا المسجد نحو (١,٥متر) عن أرض جامع النوري الكبير المشيد سنة ٥٦٨ هـ، وهذا يدل على أن زمن بناء المسجد قد سبق زمن بناء الجامع النوري.

لذلك فإننا نضع هذا المحراب ضمن المدة المحصورة بين نهاية القرن الخامس للهجرة وبداية القرن السادس للهجرة؛ أي أن زمن تشييده يكون قبل بناء الجامع النوري.

مسجد إحسان البكري[٩١]

يقع مسجد إحسان البكري[٩٢] في الجهة (الجنوبية الغربية) لجامع النبي جرجيس[٩٣]، وأقيم هذا المسجد على أنقاض مقام الشيخ إحسان البكري سنة ١١١٢هـ.

يتكون المسجد من فناء مكشوف يُدْخَل منه إلى مصلى المسجد، الذي يتكون بدوره من قسمين مستطيلين بصورة أفقية، القسم الأول يقع يمين الداخل ويمثل القسم القديم، حيث يتكون من غرفة الضريح التي تنخفض أرضيتها نحو (١متر) عن

مستوى أرضية مصلّى المسجد المشيدة فيه التي تضم بداخلها صندوق قبر ترابي، يعلوه صندوق قبر خشبي يمثل قبر (إحسان البكري) ،وإلى جواره محراب الحضرة المسطح المؤرخ بسنة خمسمائة للهجرة.

أما القسم الثاني فهو مصلى المسجد المشيد على شكل مستطيل يوازي غرفة الضريح بصورة أفقية.

محراب الحضرة:

يتبع المحراب في تخطيطه وأسلوب عمارته المحاريب المسطحة، فقد نحتت عناصره الفنية على قطعة واحدة من الرخام المرمري الموصلي، المثبت في الجدار الجنوبي لغرفة الضريح، إلى الجهة اليسرى من صندوق القبر.

يتألف المحراب من قوس مفصص خماسي الفصوص من النوع المزدوج، نحت في قسمه العلوي على هيئة أنصاف دوائر متماثلة، وبشكل راجع إلى الخلف وبأسلوب بارز عن مستوى الأرضية، في حين نحت قسمه السفلي الداخلي بشكل قوس منغلق نحو الداخل.

وقد شغلت كوشة قوس المحراب في كلا الجانبين بزخرفة نباتية متناظرة مؤلفة من أنصاف مراوح نخيلية بارزة، في حين شغل صدر المحراب بكامله بنص تذكاري يبدأ بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم ...) وقد نحت بخط الثلث القديم المؤرخ بسنة ٥٠٠هـ، لذا فإنَّ أهمية هذا المحراب تكمن في كونه يحمل أقدم نموذج كتابي لخط الثلث القديم المنفذ على العناصر العمارية، على سطح هذا المحراب، ليعلن بداية استخدام خط الثلث، بعد أن كان الخط الكوفي المتطور (المزخرف) هو السائد[٩٤].

كما تتضح أهمية هذا المحراب كذلك في كونه يبين تنوع الأغراض التي نحتت من أجلها المحاريب الإسلامية المسطحة، إذ استخدم هنا نحت المحراب ليكون حجرًا تذكاريًا، ومحرابًا للصلاة في الوقت ذاته، بدليل ما دون على سطحه من عبارات جنائزية ودعائية وتذكارية، إضافة إلى اسم المتوفى وسنة الوفاة، والآمر بالتعمير[٩٥].

وعلى الرغم من ندرة الزخارف الهندسية على سطح هذا المحراب، لكونه قد نحت ليكون شاهد قبر، إلا أنه قد ضمَّ زخرفة الأقواس المفصصة المزدوجة ذات الفصوص نصف الدائرية، المنحوتة بأسلوب هندسي، تمثل التواصل الفني والهندسي لهذا العنصر الزخرفي والعماري على مدى خمسة قرون.

محراب الرواق في مسجد إحسان البكري

يقع المحراب في الرواق الخارجي من مسجد إحسان البكري، وقد ثبت في منتصف الجدار الشمالي المطل على فناء المسجد الملاصق لغرفة الضريح، وقد كنّا أول من اكتشف هذا المحراب، إذ لم يسبق لأحد من الباحثين دراسته وتحليل عناصره وتفريغ زخارفه وتصويرها.

يتبع المحراب في تخطيطه وأسلوب عمارته نظام المحاريب المسطحة، فقد نحتت معالمه على قطعة واحدة من الرخام الموصلي شغل صدره بكتابة عربية، إلا أنه للأسف قد طلي بكامله بالدهان الأزرق، لذلك تعذرت علينا قراءتها ومعرفة محتواها، ومما زاد في تلف تلك الكتابات وجود المحراب في الرواق الخارجي ما جعله أكثر عرضة للظروف الجويّة المختلفة من أمطار ورطوبة.

يتألف المحراب من قوس خماسي على هيئة أنصاف دوائر، الجانبية منها متماثلة ومتناظرة، في حين نحت القوس العلوي بشكل مدبب مطول الرأس، وهو يماثل القوس المفصص الخماسي المنفذ على سطح محراب مسجد المدرسة النورية الذي يعود إلى القرن السادس للهجرة، ولكنه يتصف بشيء من البساطة مع اختلاف الخط المنحوت عليه.

يستند القوس من الجانبين على أعمدة أسطوانية ذات تيجان كأسية نفذت بوضعية معتدلة سواء ما كان منها منحوتًا في قاعدة العمود أو في أعلاه، وهي من المزايا التي لم نعهدها من قبل في كافة محاريب مدينة الموصل من العصر الإسلامي.

لقد شغلت كوشة قوس المحراب من الجانبين بزخرفة نباتية متشابكة سادت ضمن زخارف القرن السابع للهجرة كما في صدر محراب مزار الإمام عون الدين بن الحسن(٩٦).

لقد حددت جميع عناصر المحراب داخل إطار هندسي مستطيل الشكل، نفذ بشكل بارز عن مستوى أرضية المحراب المسطحة شغلت بداخله معالم المحراب كافة من القوس الخماسي المفصص، والأعمدة الأسطوانية، والتيجان الكأسية المعتدلة والمقلوبة.

لقد توج المحراب من الأعلى بإطار مستطيل الشكل وبوضعية أفقية تضمّن شريطًا كتابيًا للشهادتين :

(لا إله إلا الله محمد رسول ﷺ)

نفذت بأسلوب بارز عن مستوى الأرضية الغائرة، ذي قطاع رأسي غير قائم، ساد خلال العهدين الأتابكي والإيلخاني.

وبعد، فالمحراب لا يحمل تاريخًا مدونًا يمكن إرجاعه إليه، لذا سنعتمد على مبدأ الموازنة والتشابه بين عناصر هذا المحراب وغيره من العناصر الفنية الأخرى، من الفترة ذاتها كما يأتي:

القوس الخماسي المفصص المنفذ على سطح المحراب يماثل ذلك القوس خماسي الفصوص المنفذ على محراب مسجد المدرسة النورية من القرن السادس للهجرة. إلا أنه قد نفذ بأسلوب بارز وأقل إتقانًا عما كان عليه في القرن السادس للهجرة، مع بساطته وقلة زخارفه المنفذة، واقتصارها على لفظ الجلالة (الله) في هذا المحراب، وهذا يدل على الانحسار الفني والمعماري وتراجعه خلال العصر الإيلخاني بعد أن وصل مرحلة متطورة من التشابك والتعقيد، وبشكل خاص من حيث الزخرفة الهندسية.

كما انفرد هذا المحراب عن سابقيه بتنفيذ تيجان أعمدته العليا والسفلى بوضعية معتدلة خالفت جميع تيجان أعمدة المحاريب التي سادت في مدينة الموصل خلال العصر الإسلامي، إضافة إلى أن الشريط الكتابي المتضمن للشهادتين الذي توج به المحراب قد نفذ بخط الثلث القديم المتطور إلى خط الثلث على طريقة ياقوت المستعصمي(٩٧). في تراكب الكلمات وعدم تناسقها، ورشاقة الحرف وطوله، الذي ساد منذ نهاية القرن السابع للهجرة واستمر حتى شيوع خط الثلث المجود(٩٨). إضافة إلى امتياز حروف هذا النص من استطالة وبروز، وانعدام التناسق في ترتيب الحروف والكلمات وتراكبها، وبخاصة في كلمتي (محمد رسول) مع الاختلاف في توزيع كلماتها وتناسقها ضمن الشريط الكتابي، مع

وضوح عملية الانتقال من خط الثلث القديم المتطور إلى خط الثلث الحديث عند تنفيذ حرف الهاء في كلمة (إله) و(الله)، وكذلك تعانق حروف الألف واللام. كل ذلك من مميزات القرن الثامن للهجرة وبالتحديد مدّة حكم المغول الإيلخانيين بعد اعتناقهم للدين الإسلامي، وجعله الدين الرسمي للبلاد مطلع القرن الثامن للهجرة، واهتمامهم بالنواحي الفنيّة والعمرانية الخاصة بالمسلمين[٩٩]. كما أن زخرفة المحراب النباتية تماثل، إلى درجة كبيرة، زخرفة صدر محراب مسجد الفخري من القرن الثامن للهجرة.

لذا فإننا نضع هذا المحراب بكامل عناصره الزخرفية الهندسية والفنيّة ضمن محاريب القرن الثامن للهجرة العصر الإيلخاني.

مسجد الفخري[١٠٠]

يقع مسجد الفخري في بداية الطريق المؤدي إلى محلة المكاوي قرب حضيرة الشكيف[١٠١]، على الطريق العام المؤدي إلى محلة رأس الكور.

يتكون المسجد من فناء صغير يطل عليه مصلى المسجد الذي يمتد على طول فنائه بصورة أفقية وبشكل مستطيل، ويضم المسجد العديد من المخلفات الأثرية التي تعود إلى العصر الإيلخاني[١٠٢]، مطلع القرن الثامن للهجرة، ومن أبرز تلك المخلفات الأثرية القوقعة الرخامية المفصصة المثبتة في الجدار الشرقي لفناء المسجد، المؤلفة من قطعتين متماثلتين متقابلتين.

لقد نحتت كل منهما بقطعة رخامية مستطيلة الشكل مقعرة الوسط، مؤلفة من عدة أقواس نصف دائرية متجاورة شبيهة بالقوقعة، وثبتت القطعتان بوضعية متقابلة الواحدة تكمل الأخرى ظهرتا وكأنهما قطعة واحدة مقعرة في وسطها ومربعة في شكلها.

كما ضمَّ المسجد محراب المصلى الرخامي المثبت في منتصف الجدار القبلي الجنوبي، فهو يتبع في أسلوب عمارته وتخطيطه نظام المحاريب المسطحة، وقد نحتت عناصره على قطعة واحدة من الرخام الموصلي، تتألف من عقد نصف دائري مدبب الرأس، شغل بكامله بزخرفة نباتية متشابكة في جزئه العلوي.

كما يُتوِّجُه قوس ثنائي الفصوص نحت بشكل مقعر غائر عن سطح المحراب، شغل كل منهما بوردة حلزونية متناظرة، تماثل زخرفة الوردات الحلزونية المنفذة على صدر محراب مسجد ملا عبد الحميد، وكوشة محراب مسجد الست نفيسة، والعتبة العليا لمدخل قدس الأقداس في كنيسة مارحوديني، وجميعها من القرن السادس للهجرة. كما نحت في صدر المحراب جامة مستطيلة الشكل بصورة رأسية يُتَوِّجُها قوس ثلاثي الفصوص، نفذت فصوصه الجانبية بشكل متماثل وبهيئة نصف دائرية، في حين نفذ فصه العلوي من امتداد خط هندسي بصورة منكسرة وبعدة اتجاهات كونت زوايا حادة متناظرة ومتماثلة في كلا الجانبين، ليستمر بصورة أفقية نحتت بداخله آنية على شكل قنديل بأسلوب هندسي يتألف من وسط دائري وقاعدة وعنق ومخروطين.

ويخرج من جانبي وسط الآنية خطوط هندسية منحنية تمتد بشكل متناظر من كلا الجانبين نحو الأعلى لتتعانق معًا على شكل الخطوط المنكسرة التي تحدث بحركتها الانكسارية عدة أشكال هندسية، من مضلعات سداسية وأشكال معينية، يُتوِّجُها من الأعلى عناصر نباتية محورة[١٠٣]، وهو

بذلك يوضح انتقال الموضوع الزخرفي من الهندسي إلى النباتي وبصورة متعاكسة.

هذا وقد حدد المحراب من الخارج بإطار مستطيل نفذ داخله جميع عناصر المحراب سالفة الذكر،وقد اتبع الفنان أسلوب الحفر البارز عن مستوى الأرضية الغائرة ذي القطاع الرأسي القائم لتنفيذ زخرفة المحراب الهندسية المؤلفة من الجامات المستطيلة، والقوس المفصص الذي يُتوّجها، وما تحدثه من زوايا حادة وقائمة بحركتها الانكسارية، إضافة إلى اعتماده أسلوب الحفر البارز عن مستوى الأرضية المسطحة، ذي القطاع الرأسي القائم عند تنفيذه لزخارف صدر المحراب، والمؤلفة من الشكل القنديلي والخطوط المنحنية المنكسرة والأشكال المضلعة.

كما اتبع الفنان أسلوبًا ثالثًا في تنفيذ زخرفة المحراب المؤلفة من القوس ثنائي الفصوص الذي يتوج المحراب من الأعلى، فقد نفذه بأسلوب الحفر الغائر المقعر عن مستوى سطح المحراب.

مسجد الإمام علي الهادي[١٠٤]

يقع ضريح الإمام علي الهادي في محلة باب سنجار في الجهة الغربية لمدينة الموصل القديمة. وقد نقل صندوق قبر الإمام علي الهادي بكامل هيئته ومجنباته إلى مسجد صغير حديث البناء تقام فيه الصلوات الخمس، يعرف بمسجد علي الهادي.

يتكون صندوق القبر من أربع مجنبات مستطيلة الشكل نحتت جميعها من الرخام الموصلي الداكن تتضمن شاهدي الرأس والأرجل ومجنبتي الصندوق، تعود جميعها إلى العصر الإيلخاني.

كما يعلو صندوق القبر قطعة مستطيلة الشكل من الرخام الأزرق تمثل غطاء الصندوق، ركبت فوق شاهدي الرأس والأرجل والمجنبتين، ليتخذ بذلك الصندوق هيئة متوازي أضلاع[١٠٥].

ونحت على سطح كل مجنبة من مجنبتي الصندوق خمس جامات هندسية مستطيلة الشكل يُتَوِّجُها قوس مفصص ثلاثي نفذ كل فص على هيئة نصف دائرة. كما ترتبط تلك الجامات الخمس معًا بحلقات رابطة نتجت من امتداد الخطوط الهندسية والتوائها على نفسها على شكل خطوط منحنية، أحدثت أشكالاً متنوعة من جامات مستطيلة، وأقواس مفصصة وحلقات رابطة، نفذت جميعها داخل إطار هندسي مستطيل الشكل، نتج أيضًا من امتداد تلك الخطوط وانحنائها نفسها.

أما شاهدا الرأس والأرجل فقد نحت على سطح كل منهما ثلاث جامات مستطيلة بصورة رأسية يُتَوِّجُ كُلاً منها قوس ثلاثي، الفصوص الجانبية متماثلة بهيئة نصف دائرة، في حين نحت الفص العلوي بهيئة قوس مدبب مطول الرأس.

شغلت الجامات الجانبية بكاملها بزخرفة نباتية، في حين شغلت الجامة الوسطى لشاهد الرأس بعناصر هندسية مركبة في قسمها العلوي على هيئة المضلعات الخماسية والأشكال المعينية والمربعة والمثلثة، التي رتبت جميعها بشكل متجاور، وبعدة صفوف بعضها فوق بعض لتظهر أشبه ما ما يكون بالمقرنصات المعمارية.

لقد اعتمد الفنان أسلوب الحفر البارز عن مستوى الأرضية الغائرة غورًا عميقًا، ذي القطاع الرأسي القائم في تنفيذ زخارفه الهندسية من الحلقات الرابطة، والجامات المستطيلة المفصصة، والقناديل ذات الأسلوب الهندسي، المنفذة على شاهدي الرأس والأرجل ومجنباته، فضلاً عن أسلوب التنزيل بالرخام الأبيض على

الاكتشافات الأثرية الجديدة لأقدم المساجد الإسلامية في مدينة الموصل

أرضية من الرخام الأزرق، وذلك في تنفيذ زخارف المنطقة الهندسية المؤلفة من وحدات الطبق المضلع الثماني وخطوطه المنكسرة ومضلعاته السداسية والمعينية.

وقد ساد أسلوب التنزيل (التطعيم) بالرخام على الرخام في مدينة الموصل منذ القرن الثالث للهجرة، ونفذ على صدر محراب مسجد الشماعين الرخامي، واستمر بالتطور والتنوع خلال القرن السادس للهجرة، وتمثل بالقطع الرخامية لجدران غرفة المدرسة النورية التي جرى تحويلها إلى مزار الإمام محسن من العصر الأتابكي.

كما بلغ أَوَجَه خلال القرن السابع للهجرة متمثلاً بالعديد من القطع الرخامية المنفذة على جدران غرفة مزار الإمام يحيى بن القاسم من الفترة ذاتها، وجدران كنائس مار شيعا (إيشوياب) الطاهرة القديمة المعروفة بالقلعة.

مسجد و(مشهد) أولاد الحسن[106]

يقع مشهد أولاد الحسن في منتصف سوق الصياغ، أقيم على أنقاضه مسجد حديث لأداء الصلوات الخمس يعرف بمسجد شهيدو[107].

يتكون من فناء مكشوف يوصل إلى مصلى صغير، بداخله مشهد أولاد الحسن في الجهة الغربية منه على شكل غرفة منخفضة نحو مترين عن مستوى أرض مصلى المسجد.

ويحتوي المشهد على العديد من المخلفات الأثرية التي تعود إلى فترات زمنية مختلفة مما يدل على أنه قد مرَّ بأدوار معمارية متعددة.

وأقدم تلك المخلفات الأثرية التي يضمها المشهد، والقائمة إلى الآن هي قبر مؤرخ بسنة ٧٤٨هـ، ولكنه مجهول الشخصية. يتألف شاهد القبر الذي هو شاهد الرأس من قطعة واحدة من الرخام الموصلي ذي اللون الفاتح.

نحت في وسطه صورة محراب مكون من قوس مدبب الرأس يستند على أعمدة أسطوانية ذات تيجان كأسية.

شغل باطن القوس بشكل قوقعي مؤلف من عدة أقواس مفصصة تحت كل فص بهيئة نصف دائرة نتج عنها أشكال هندسية أو لوزية ثبتت بوضعية متجاورة، في حين شغل صدر المحراب بطبق نجمي كامل مؤلف من جميع وحداته الهندسية المتضمنة بعناصر النجمي مؤلفة من بيوت الغراب.

كما حدد القوس المدبب وأعمدته الداخلية بإطار خارجي مستطيل الشكل تضمن عناصر هندسية من مضلعات سداسية صغيرة وحُفَر، وحلقات رابطة نتجت من امتداد الخطوط الهندسية وانكسارها بعدة اتجاهات يمنة ويسرة.

كما تمتد تلك الخطوط الهندسية من الأعلى بشكل ملتوٍ تربط قمة القوس المدبب بحلقة رابطة تربط القوس المدبب بإطار مستطيل متضمن للشكل المحرابي الزخرفي.

ونحت على جانبي شاهد القبر أعمدة خارجية متماثلة مؤلفة من خطوط منكسرة نحو الأعلى والأسفل بعدة اتجاهات تماثل إلى درجة كبيرة أعمدة صندوق قبر الإمام علي الهادي من القرن الثامن للهجرة (العصر الإيلخاني) المغولي، وأعمدة الحنية الرخامية في كنيسة شمعون الصفا المسيحية، وكنيسة الطاهرة القديمة المعروفة بالقلعة. وجميعها من العصر الإيلخاني.

وقد اعتمد الفنان على أسلوب الحفر الغائر ثم التنزيل عليها بمادة الجبس الأبيض الذي استمر في التنفيذ منذ القرن الثالث للهجرة، كما في

صدر محراب الحضرة بجامع أبدال القديم، ومحراب مسجد المدرسة النظامية.

كما استمر التنزيل بالجبس الأبيض خلال العصر الإيلخاني كما في شباك غرفة مزار الإمام محمد بن الحنفية.

وقد اتضح هذا الأسلوب في تنفيذ زخارف الطبق النجمي وأجزائه ووحداته وعناصره، ما يدل على استمرار أسلوب الحفر والتنزيل بمادة الجبس الأبيض لسهولته وبساطة تنفيذه.

كما اعتمد الفنان على أسلوب الحفر البارز عن مستوى الأرضية الغائر، وذلك في تنفيذ زخارف الخطوط المنكسرة التي تمثلت بها أبدان الأعمدة الخارجية لشاهد القبر، وكذلك في أسلوب تنفيذ زخارف الإطار الخارجي المؤلفة من الخطوط المنكسرة والحلقات الرابطة التي نفذت بشكل بارز عن مستوى الأرضية المسطحة ذات القطاع الرأسي القائم.

مسجد و (مشهد أم التسعة)[١٠٨]

يقع مشهد أم التسعة في محلة المنقوشة في الجهة الشمالية الغربية لمدينة الموصل قبالة الجامع النوري (الكبير).

يتكون المشهد من فناء واسع يوصل بدرج إلى سرداب منخفض نحو ثلاثة أمتار، يضم بداخله أروقة طولية، وغرفًا ودهاليز ملتوية، تستند جميعها على عقود مدببة قائمة على أعمدة مضلعة ضخمة، وهي بذلك تمثل أشبه ما يكون بالمدرسة الإسلامية.

كما يوجد غرفة صغيرة مربعة الشكل تنخفض نحو (٣ أمتار) عن مستوى أرض المدرسة سالفة الذكر، التي تضم أربعة قبور ترابية ذات شواهد رخامية، وتؤدي هذه الغرفة بدورها إلى غرفة منخفضة نحو متر واحد، ولكنها بحجم أكبر وبشكل مربع تمثل غرفة المزار، التي تضم بعض القطع الرخامية المطعمة وصندوق قبر خشبي.

صندوق القبر الرخامي

لقد اكتشفنا صندوق القبر الرخامي لأول مرة داخل الغرفة المتوسطة، إذ لم يسبق لأحد من الباحثين اكتشافه ودراسة عناصره الزخرفية والفنية وتحليلها وتفريغها ثم تصويرها، فقد نحت شاهد القبر الذي يمثل شاهد الأرجل من قطعة واحدة من الرخام الأبيض الصدفي، قسم سطحه إلى عدّة أشرطة زخرفية وكتابية.

فالشريط الوسطي ضم نصًا قرآنيًا[١٠٩] دوّن بخط الثلث المجود على طريقة ياقوت المستعصمي، الذي يماثل الشريط الكتابي المنحوت على شاهد قبر أولاد الحسن سنة ٧٤٨هـ، من حيث تراكب الكلمات ورشاقة الحروف واستطالتها وتقاطعها وقلة التشعيرة في نهاية الحرف الممدودة.

أما الشريط الزخرفي الهندسي فقد نحت بشكل متماثل في قسميه العلوي والسفلي لشاهد الأرجل، فهو مؤلف من امتداد الخطوط الهندسية بشكل مستقيم، ثم انكسارها نحو الأسفل، ثم عودتها إلى شكلها الأول السابق بخط مستقيم، وهكذا يستمر الموضوع الزخرفي للشكل الهندسي حيث تدور بشكل كامل حول مجنبات القبر وشواهده.

لقد نحت شريط زخرفي هندسي ثانٍ في القسم السفلي لشاهد الأرجل، وبشكل مخالف للشريط الهندسي العلوي، فهو مؤلف من أشكال دائرية صغيرة نفذت بصورة متجاورة وبشكل متماثل، ظهرت أشبه ما تكون بحبيبات المسبحة المثقوبة الصغيرة المتجاورة.

الاكتشافات الأثرية الجديدة لأقدم المساجد الإسلامية في مدينة الموصل

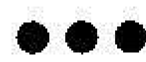
هذا وقد اعتمد الفنان على أسلوب الحفر الغائر عن مستوى الأرضية المسطحة، والذي هو امتداد لأساليب الحفر التي كانت سائدة في مدينة الموصل منذ القرن الثالث للهجرة، وقد نفذ هنا في زخارف هذا الشاهد، وبشكل خاص الخطوط المنكسرة والمستقيمة والأشكال الدائرية المثقوبة المتجاورة الشبيهة بحبيبات المسبحة.

والشاهد لا يحمل تاريخًا مدونًا يمكن إرجاع عناصره الزخرفية ووحداته الهندسية إليه ، لذا سنعتمد على الموازنة والتشابه بين عناصر هذا الشاهد الزخرفية والفنيّة وغيره من العناصر الزخرفية الأخرى من الفترة ذاتها.

فقد نحت الشريط الكتابي المدون على شاهد القبر بخط الثلث المجود المتراكب الذي ساد منذ القرن الثامن للهجرة[١١٠]، واستمر بعد ذلك ليشهد تطورًا ملحوظًا خلال القرن التاسع للهجرة، فضلاً عن أنه يماثل الشريط الكتابي المنفذ على شاهد قبر أولاد الحسن، الذي يعود إلى ٧٤٨هـ، وكذلك شاهد قبر بلكا ملك، المشابه له بكافة عناصره الفنيّة والعمارية والخطية وزخارفها الثابتة، كما أن زخرفة الشريط الهندسي العلوي المؤلف من الخطوط المنكسرة يماثل، إلى درجة كبيرة، زخرفة الخطوط المنكسرة المنفذة على غطاء صندوق قبر الإمام علي الهادي نهاية العصر الإيلخاني المغولي، وكذلك الخطوط المنكسرة المنفذة على صدر محراب مشهد أولاد الحسن يعود إلى نهاية العصر الإيلخاني.

أما بالنسبة لزخرفة الحبيبات الدائرية الصغيرة المثقوبة، فلم نجد لها ما يماثلها خلال العهدين الأتابكي والإيلخاني، وكذلك العثماني بفترتيه، في حين أنها كانت سائدة على المحاريب الإسلامية خلال القرن الثالث للهجرة.

واعتمادًا على الخط المدوّن على شاهد القبر واستنادًا على بعض المميزات الفنيّة للزخرفة الهندسية المنفذة عليه وتماثلها مع زخارف الفترة ذاتها، أمكننا إرجاع هذا الصندوق إلى العصر الجلائري، الذي يخالف في خطه وأسلوب كتابته الخط الذي ساد خلال العصر الإيلخاني وما بعده. ■



الحواشي

١- تل قليعات هو نشز من الأرض يقع شرق المدينة قبالة نينوى. يشرف على دجلة / الصائغ، سليمان، تاريخ الموصل :١/ ٤٠.

٢- أعلام الصناع المواصلة:٢٠ -٢١. الصائغ: المصدر نفسه:٤٠.

٣- الآثار والمباني العربية والإسلامية في الموصل:٩/ ١٣.

٤- خطط الموصل:٦٢.

٥- الخدمية في الموصل في العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، لكاظم محمد كاطع الزبيدي، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص:٨.

٦- فتوح البلدان: ٤٠٧. ٤٠٨ -

٧ منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء: ٥٦ -٥٧.

٨- تاريخ الموصل: ٢/ ٩٤ -٩٥.

٩- الموصل في العهد الأتابكي:٧.

١٠- أعلام الصناع المواصلة:٢٢.

١١- تاريخ الموصل :٣٠.

١٢- تاريخ الموصل:٢/ ٣٣-٣٤.

١٣- الآثار والمباني العربية والإسلامية:١١.

١٤- الموصل في العهد الأتابكي:٨-١١.

١٥- تاريخ الموصل :٢/٢٣-٢٧، ٣٣.

١٦- الموصل في العهد الأتابكي:١٠.

١٧- المصدر نفسه: ١٦٦ -١٦٧.

١٨- تاريخ الموصل: ٦٣.

١٩- المصدر السابق: ٢٤٤.

٢٠- الزخرفة النباتية على عمائر الموصل الشاخصة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل لمحمد مؤيد الحيالي :٤.

٢١- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة:١٠ -٢١.

٢٢- الو اسطي موصليًا:١٣-٢٠.

٢٣- الزخرفة النباتية على عمائر الموصل الشاخصة، المصدر السابق :٥، أعلام الصناع المواصلة...مصدر سابق: ٢٦.

٢٤- أعلام الصناع المواصلة:٢٦.

٢٥- رحلة ابن جبير: ٢١٣ -٢١٥.

٢٦- الروض المعطار في خبر الأقطار: ٥٦٢.

٢٧- معجم البلدان - مج٥: ٢٣٣.

٢٨- الزخرفة النباتية على عمائر الموصل الشاخصة، المصدر السابق: ٦-٧.

٢٩- العراق وموظفوه في عهد المغول الإيلخي:٥٢، مجلة المعلم الجديد ، ع١، ٦٨ -٧١، ١٩٦٩تاريخ النقود العراقية بعد العهد العباسي: ٤١-٤٥.

٣٠- الشيخ عثمان الخطيب بن الشيخ يوسف بن عز الدين الخلوتي أحد علماء مدينة الموصل وقضاتها وفصحائها، كان له مجالس وعظ وتدريس، توفي سنة ١١٤٠هـ بعد أن أكمل عمارة المسجد الذي كان قد شرع ببنائه والده يوسف الخلوتي، إلا أنه قد توفي قبل إكماله سنة ١٠٩٠هـ، لذا طغى اسم الشيخ عثمان الخطيب على المسجد. مجموع الكتابات المحررة في أبنية الموصل.المصدر السابق:٦١، منهل الأولياء ومشرب الأصفياء المصدر السابق:١٠٢، ١٧٦.

٣١- الخط العربي في الموصل منذ تمصيرها حتى نهاية ألقرن العاشر الهجري:٢٢٣.

٣٢- حلية جدران المباني وفن زخرفتها:ج١، شكل ٢١٦أ - ج، شكل ٢١٧، زخرفة ٢٨٣ ب.

٣٣- دراسة في تطور الكتابة الكوفية، المصدر السابق:٤١-٤٦.

٣٤- المصدر نفسه:٤١-٢٠٠.

٣٥- المصدر السابق: ٢٢١ -٢٢٥.

٣٦- المحاريب العراقية من بداية العصر الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي، صورة ٧.

٣٧- المصدر السابق:، شكل ٩٠.

٣٨- المصدر السابق : ٤١- ٤٥.

٣٩- محمد: ١٩.

٤٠- محاريب مساجد الموصل حتى نهاية العصر الأتابكي:١٥٧- ١٦٩، صورة ٤٢.

٤١- الزخرفة الرخامية:٣٤٢ -٣٤٣.

٤٢- الواسطي موصليًا:١٣-١٩؛ الخط العربي في الموصل منذ تمصيرها حتى نهاية القرن العاشر للهجرة:٢٢٣.

٤٣- الرسوم: ١-٣، ٩، ١٢-١٤.

٤٤- المصدر السابق:٢٣-٢٧؛ إبراهيم جمعة: المصدر السابق:٤١-٤٥، الحسيني : المصدر السابق :١٠١-١٠٣؛ حنش: المصدر السابق:١٥-١٧.

٤٥- المصدر السابق:٧١، ٨٢-٨٥.

٤٦- نسبة إلى عبد اللطيف بن أحمد بن بكر آل جوير(جار الله) الذي يعود بنسبه إلى بني أمية، وكان جار الله هو أول من سكن الموصل من أسرة الشماعين الأموية: سيوفي المصدر السابق:٣٣ .٣٤ -

٤٧ محاريب مساجد مدينة الموصل إلى نهاي حكم الأتابكة:٢٠٣.

٤٨- لقد نحت نص تذكاري على إطار مدخل مصلى المسجد الرخامي جاء فيه (لقد أمر بعمارة هذا .. سنة الف ومائة واحدى وعشرين).

٤٩- المصدر السابق:٣٤- ٤٤؛ الجمعة: المصدر السابق: ٢٠٣.

٥٠- بعد إجراء عمليات البحث والتحري تم استظهار المحراب المندثر تحت الأنقاض بعمق (٢متر).علمًا أن هذا المحراب قد تم اكتشافه من قبل الدكتور أحمد قاسم الجمعة أثناء بحثه (الماجستير) سنة ١٩٧٠م.

٥١- الأزدي: المصدر السابق:٢٣-٢٤، ٣٣؛ الصوفي: الآثار والمباني العربية والإسلامية في الموصل: ١٨-١٩.

٥٢- المصدر السابق: شكل ٩٠ -٩٩.

٥٣- ابن حوقل: المصدر السابق: ١٩٤٠١٩٦؛ الحموي المصدر السابق ٢٢٣ -٢٢٤؛ المقدسي: المصدر السابق:١٣٨؛ الديوه جي: أعلام الصناع المواصلة:٢٤-٢٥؛ السامر: المصدر السابق: ١٦٢ -١٦٥، ١٧٨ -١٨٠، ٣٤٩-٣٧٦.

٥٤- يرى البعض أنَّ الشيخ ذياب هو أحد الرجال الصالحين الذين قاموا على خدمة هذا المسجد ورعايته، كما يسمى هذا المسجد عند أهل المحلة باسم مجد الدبكة وهي الغرفة المنخفضة بعدة درجات. سيوفي: المصدر السابق: ٢٠٩.

٥٥- محلة باب لكش: وهي إحدى محلات الموصل القديمة، وتدعى كذلك بباب لكش أو باب الوحش، وكذلك باب الأوجش. سيوفي : المصدر نفسه:٥٩ -٢٣٦.

٥٦- الجمعة: محاريب مساجد الموصل حتى نهاية العهد الأتابكي:٥٥-٥٦.

٥٧- العنكبوت: ٤٥.

٥٨- الجمعة : المصدر السباق: ٦٠.

٥٩- عن خصائص ومميزات الخط الكوفي وتطوره، انظر: إبراهيم جمعة المصدر السابق:٤١-٤٥؛ ذنون: الخط العربي في الموصل منذ تمصيرها حتى بداية القرن العاشر للهجرة:٢٢١ -٢٢٥، الباشا: المصدر السابق:٢٣ -٢٧؛ الحسيني: المصدر السابق:١٠١ ،١٠٣ -

٦٠ ذنون: الخط العربي في الموصل منذ تمصيرها حتى نهاية القرن العاشر للهجرة:٢٢١ .٢٢٩ -

٦١ أنشأ الوزير السلجوقي نظام الملك من (٤٠٨ -٤٨٦هـ) عددًا كبيرًا من المدارس النظامية في كل من مدن العراق وبلاد فارس، إذ يروى أن الوزير السلجوقي أنشأ في كل مدينة عراقية مدرسة نظامية على مذهب الإمام الشافعي بما فيها مدن بغداد والموصل والبصرة... الخ، ابن الأثير: الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل:٩؛ المصدر السابق: ٢٠٢ -٢٠٥؛ المصدر السابق: ٨٣، محمد أمين العمري : المصدر السابق: ٦٢؛ الخياط :المصدر السابق:٦٠، سوفي: المصدر السابق:١٠٧.

وهذا لا يصح مطلقا وذلك لعدم وجود أي دليل أثري أو تاريخي يؤكد بأن بدر الدين لؤلؤ عمل على تحويل المدرسة النظامية إلى مزار أو مرقد للإمام محمد بن الحنيفة (علي الأصغر).

٦٢- التوتنجي: المصدر السابق:٨١؛ الصوفي: المصدر السابق:٨١.

٦٣- الجمعة: الآثار الرخامية: صورة ٥٣.

٦٤- الموصل في العهد الأتابكي:١٣٤؛ المصدر السابق: ٢٠٥.

٦٥- المصدر السابق: ٨-١٢.

٦٦- الآثار والمباني العربية والإسلامية في الموصل:١٨-١٩.

٦٧- أعلام الصناع المواصلة: ٢٥؛ بيت الحكمة:٨٢-٨٤.

٦٨- الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الأتابكي والإيلخاني ١٨٢-١٩٩، صورة ٥٣، ٥٥.

٦٩- المؤمنون: ١-٢.

٧٠- الرسوم: ٢٩ ،٣٠، ٣١، ٣٢.

٧١- إبراهيم جمعة: المصدر السابق:٤١-٤٧، الباشا:المصدر السابق: ٢٣-٣٠، الحسيني: المصدر السابق: ١٠١-١٠٣ح حنش : المصدر السابق:١٥ -١٧.

٧٢- شافعي: المصدر السابق: ٢١٦، شكل ١٤٩.

٧٣- آل عمران:١٨.

٧٤- قام الأمير نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود من (٥٨٩ -٦٠٧هـ) بإنشاء المدرسة النورية على المذهب الشافعي، وذلك قبالة دور المملكة داخل مدينة الموصل وبذلك عرفت بأحسن المدارس الإسلامية وقلما توجد مثيلتها. ابن الأثير المصدر السابق: ١٩٨، ٢٠١، ياسين العمري:المصدر السابق: ٢١٠ -٢١١. علمًا أن التدريس قد بدأ فيها سنة (٥٩٢هـ)، الرويشدي: المصدر السابق: ٢١٢. والذي نراه أن المدرسة النورية قد أقيمت على أنقاض مسجد إسلامي قديم أو بجواره، وذلك لأنَّ لكل مدرسة إسلامية مسجداً مستقلاً عنها وبجوارها... معروف: المصدر السابق: ٨-.١٢. وذلك بدليل المحراب الإسلامي المثبت في الجدار القبلي لغرفة المدرسة الذي يحمل نصاً كتابياً بخط الثلث القديم ويحمل تاريخًا يعود لفترة سابقة عن فترة تشييد المدرسة، فهو مؤرخ بحدود سنة (٥٦٠ -٥٦٩هـ) في حين شيدت المدرسة في أقرب تقدير سنة (٥٩٢هـ).

٧٥- يرى البعض أنَّ الإمام محسن هو ابن الإمام الحسين بن الإمام علي رضي الله عنه. كما يرى إن الملك بدر الدين لؤلؤ قد اتخذ له مقامًا (مزاراً) في المدرسة النورية: سيوفي: المصدر السابق:١٤٥؛ محمد أمين العمري: المصدر السابق: ٨٠؛ الخياط: المصدر السابق: .٢١٢. وهذا غير صحيح لعدم وجود أي دليل أثري أو تاريخي يؤكد بأن الملك بدر الدين لؤلؤ قد عمل على تحويل المدارس أو المساجد الأتابكية إلى مراقد ومزارات لآل البيت الكرام، كما أن المدرسة النورية قد استمرت في تأدية نشاطها العلمي حتى منتصف القرن الثامن للهجرة، كما يؤكد ذلك ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة:٢٣١/٩.

٧٦- الميدان: وهو الفضاء الواسع الذي كان يدر فيه الجند خلال العصر العثماني والذي يقع أمام القلعة الداخلية (ايح قلعة) التي بناها الأتراك، فكانت هذه المحلة تقع أمام الميدان...سيوفي: المصدر السابق: ٦٧؛ العمري: المصدر السابق: ٧٧.

٧٧- قره سراي: لفظ تركي تعني القصر الأسود، وإن أول من شيد دار الإمارة في هذا الموقع هم الحمدانيون ثم تبعهم العقيليون فالسلاجقة وأخيراً الأتابكة، حتى جاء بدر الدين لؤلؤ الذي عمر قصره الكبير في هذا الموقع، الجمعة: الآثار الرخامية في مدينة الموصل خلال العهدين الأتابكي والإيلخاني :٨٥٦؛ الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي:١١٧.

٧٨- عن مادة حجر الحلان ومقاومتها : انظر الجمعة: المصدر السابق: ٢٧.

٧٩- يرى البعض أن الست نفيسة هي بنت الإمام الحسين بن زيد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم التي توفيت سنة ٣٠٨هـ، ودفنت بالبقيع في المدينة المنورة. العمري:المصدر السابق: ٨٣؛ الخياط: المصدر السابق: ٦٣.

٨٠- لقد أورد المرحوم سعد الديوه جي أن أصل هذا المسجد هو مدرسة أتابكية ثم حول إلى مزار للست نفيسة من قبل الملك بدر الدين لؤلؤ: الموصل في العهد الأتابكي:..١٥٢. وهذا لا يصح لعدم وجود أي دليل أثري أو تاريخي يؤكد بأن الملك بدر الدين لؤلؤ عمل على تحويل المدارس والمساجد الإسلامية إلى مزارات ومراقد لآل البيت، علماً أن الديوه جي يعود ليجعل هذا المسجد من أقدم مساجد الصوفية في الموصل: قلعة الموصل، مجلة سومر:مج١/ ١٠٦.

٨١- الجمعة: المصدر السابق: ٣٢٨ -٣٢٣، سيوفي :المصدر السابق: ٢٦.

٨٢- الجمعة: المصدر السابق: ٣٢٨ - صورة ٨٩.

٨٣- البقرة:٢٥٥ (الكرسي).

٨٤- ذنون : الخط العربي في الموصل منذ تمصيرها حتى نهاية القرن العاشر الهجري: ٢٢١ .٢٢٩ -

٨٥ مرزوق: العراق مهد الفن الإسلامي:٤٠-٤٣، ذنون: المصدر السابق: ٢٢٤-٢٣٠.

٨٦- ذنون : الخط العربي في الموصل منذ تمصيرها حتى نهاية القرن العاشر الهجري: ٢٢٤-٢٣٠، الباشا: المصدر السابق: ٢٢ -٣٠.

٨٧- مرزوق: المصدر السابق: ٤٠-٤٣.

٨٨- الديوه جي: أعلام الصناع المواصلة:١٦٣، شكل ٣٥.

٨٩- ذنون: الواسطي موصلياً:١٣ -٢٠.

٩٠- يرى البعض أن الشيخ إحسان البكري هو أحد مشايخ الموصل الذي يرجع نسبه إلى الخليفة الأول أبي بكر الصديق(، وقد أنشأ الشيخ إحسان البكري هذا المسجد لإقامة الصلوات الخمس، وأقام على رعايته ثم دفن فيه بعد وفاته. الخياط: المصدر السابق: ٧٩؛ العمري: منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء:١١٩.

٩١- ورد المسجد عند العديد من الباحثين بمسجد الحسان أو حسان. سيوفي: المصدر السابق:٤٦؛ محمد أمين العمري : المصدر السابق: ١١٥؛ ياسين العمري: المصدر السابق: ١١٩؛ الخياط:المصدر السابق: ٧٩. ولكننا وجدنا أنه قد نحت أسمه (إحسان) وليس حسان أو الحسان.

٩٢- ورد موقع المسجد في محلة السوق الصغير عند المصادر سالفة الذكر، ولكننا وجدنا أن هذا المسجد يقع بعيداً عن محلة السوق الصغير، وأنه يجاور جامع النبي جرجيس من جهته القبلية.

٩٣- ذنون: المصدر السابق: ٢٢٤-٢٢٩.

٩٤- جاء في النص الدعائي المنحوت على صدر هذا المحراب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر..... أمر خليل بن يوسف الأرموي بتعمير قبر هذا المسجد رحمه الله ورحم كل من ترحم عليه في سنة خمسماية و(ﷺ).

٩٥- الجمعة: الآثار الرخامية في مدينة الموصل خلال العهدين الأتابكي والإيلخاني، صورة: ٦٨.

٩٦- مرزوق: العراق مهد الفن الإسلامي:٤٥.

٩٧- ذنون: الخط العربي في الموصل منذ تمصيرها حتى نهاية القرن العاشر للهجرة:٢٢٦ -٢٣١.الجمعة: السابق : ٧-٩.

٩٨- عرف بعدة تسميات منها مسجد السبيل خانة، وذلك عندما كان يضم بداخله سبيل خانه (ماء السبيل)، كما عرف بمسجد ملا علي نسبة إلى الشيخ علي، الذي كان يعلم الصبيان قراءة القرآن في هذا المسجد، وكذلك مسجد الفخري نسبة إلى الحاج نوري الفخري، الذي كان يقوم على خدمته في الآونة الأخيرة بعد تعميره وتجديد بنايته... سيوفي: المصدر السابق:٨٢.

٩٩- الجمعة : المصدر السابق:٥٨٩.

١٠٠- الجمعة : المصدر السابق:٥٨٢ -٥٨٩.

١٠١- يرى البعض، أن الإمام علي الهادي هو ابن الإمام الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم : الخياط: ترجمة الأولياء:..٥٩. إلا أن نسبة محفور على الصندوق باسم علي بن الإمام علي الهادي بن الإمام الجوادي.. الصائغ:المصجر السابق:١٦٧/٢؛ الديوه جي: أعلام الصناع المواصلة.

١٠٢- الجمعة : الآثار الرخامية: ٩٠٢ -٩٠٩؛ الديوه جي: المصدر السابق:١٥٤، شكل ٢١.

١٠٣- يرى البعض أن أولاد الإمام الحسن طلبهم العدو

الاكتشافات الأثرية الجديدة لأقدم المساجد الإسلامية في مدينة الموصل

فدخلوا في هذا المقام وطرحوا في بئر كان فيه وهذا لا يصح،،ياسين العمري: المصدر السابق:٦٨؛ سيوفي : المصدر السابق: ٥٦.

١٠٤- قام الحاج أحمد شهيدو سنة ١٢٣٦هـ بتشييد مسجد صغير على أنقاض مشهد أولاد الحسن عرف باسمه مسجد شهيدو، وكذلك يعرف بمسجد أولاد الحسن.... سيوفي : المصدر السابق:٥٦ -٩٢.

١٠٥- يرى البعض أن السيدة شاه زناد بنت الأمير كسرى الملك الفارسي زوجة الحسين بن علي(قد دفنت في هذا المكان، وأن لها تسعة أولاد بدءًا من زين العابدين وابنه محمد الباقر وانتهاء بالإمام الحسن العسكري، جميعهم قد استشهدوا مع الحسين...ياسين العمري: المصدر السابق:١٢١، الخياط: المصدر السابق:٦١.

١٠٦- البقرة:٢٥٥.

ذنون : المصدر السابق:٢٢٦ -٢٣٠.

المصادر والمراجع العربية:

١- القرآن الكريم.

٢- ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد إبراهيم (ت ٧٧٩هـ): رحلة ابن بطوطة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ج١٢.

٣- ابن جبير : سبط شمس الدين بن المظفر بن يوسف: الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة، مرآة الجنان في تاريخ الأعيان، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، ١٩٦٨م.

٤- ابن حوقل: أبو القاسم محمد النصيبيني: صورة الأرض، مطبعة فؤاد، جونية - لبنان.

٥- ابن الفوطي : كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني(ت٧٢٣هـ): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٣٢م.

٦- ابن الأثير: علي ابن أبي الكرم بن محمد الجزري: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، دار الكتب الحديث، القاهرة، ١٩٦٣م.

٧- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار الثقافة والإرشاد، القاهرة، ج١٢.

٨- الأزدي: أبو زكريا يزيد بن إياس: تاريخ الموصل، تح. علي حبيبة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٢.

٩- الأعظمي: خالد خليل حمودي، الزخارف الجدارية في آثار بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.

١٠- الألفي: أبو صالح: تاريخ الفن العام، مطابع دار العلم، القاهرة، ١٩٦٥م.

١١- البلاذري، أحمد بن يحيى ابن جابر، فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٧٥م.القسم الثاني ج١-٣.

١٢- بارو، أندريه: سومر فنونها وحضارتها ، تر. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي: تقديم أندريه مالر، بغداد، ١٩٧٧م.

١٣- الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوظائف والآثار، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٤- الباشا، حسن: الخط العربي الأصيل، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم، مجموعة باحثين، مطابع دار المعارف بمصر، ١٩٦٨م.

١٥- بول، إستانلي لين: طبقات سلاطين الإسلام، ترجمه للفارسية عباس إقبال وترجمه للعربية مكي طاهر العتبي، مطبعة البصري، بغداد، ١٩٦٩م.

١٦- بهنسي، عفيف: تاريخ فن العمارة، المطبعة الجديدة، ١٩٧١م.

١٧- التوتونجي، نجاة يونس: المحاريب العراقية منذ العصر الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي، بغداد، ١٩٧٦م.

١٨- جمعة، إبراهيم: دراسة في تطور الكتابة الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٩- الجمعة، أحمد قاسم: محاريب مساجد الموصل إلى نهاية حكم الأتابكة، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ١٩٧١م.

٢٠- الجمعة، أحمد قاسم: الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الأتابكي والإيلخاني، رسالة دكتوراه غير منشورة، القاهرة، ١٩٧٥م.

٢١- الجمعة، أحمد قاسم: الزخرفة الرخامية، الجصية، الآجرية، موسوعة الموصل الحضارية، ج٢،م٤٤، ١٩٩١م.

٢٢- الجميلي، رشيد عبد الله: إمارة الموصل في العصر السلجوقي، مطبعة وأوفستت الحديثي، بغداد، ١٩٨٠.

٢٣- حسن، زكي محمد: فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٨م، ط١.

٢٤- الحموي: الشيخ الإمام شهاب الدين بن عبد الله ياقوت

بن عبد الله ت ٦٢٦هـ: معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧م.

٢٥- حميد، عبد العزيز وآخرون: الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، بغداد، ١٩٨٢م.

٢٦- الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، (معجم جغرافي)، حققه إحسان عباس، طبع في دار القلم للطباعة، لبنان، ١٩٧٥م.

٢٧- خصباك، جعفر حسين: العراق في العهد المغولي الإيلخاني (٦٥٦ -٧٣٦هـ) (١٢٥٨ ١٣٣٥ -م)، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٨م.

٢٨- الخياط، أحمد الموصلي: ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء، حققه سعيد الديوجي، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٩٩٦م.

٢٩- الديوجي، سعيد: أعلام الصناع المواصلة، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٩٧٠م.

٣٠- الديوجي، سعيد: بحث في تراث الموصل، دراسة في تاريخ وتراث وخطط الموصل، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٢م.

٣١- الديوجي، سعيد: تاريخ الموصل، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ١٩٨٢م.

٣٢- الديوجي، سعيد:جوامع الموصل في مختلف العصور، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٣م.

٣٣- ذنون، يوسف: العمائر السكنية في الموصل، ج١، نماذج من التوثيق العام إعداد مكتب الإنشاءات الهندسية، بغداد، ١٩٨٢م.

٣٤- ذنون، يوسف: العمائر الخدمية في مدينة الموصل، ج٢، ١٩٨٣م.

٣٥- ذنون، يوسف: العمائر الخدمية في مدينة الموصل، ج٣، ١٩٨٣م.

٣٦- ذنون، يوسف: الخط العربي في الموصل منذ تمصيرها إلى القرن العاشر الهجري، موسوعة الموصل الحضارية، ج٣، م٢٩.

٣٧- الراوي، ثابت إسماعيل: العراق في العصر الأموي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ١٩٥٩م.

٣٨- رجب، غازي: العمارة العربية في العصر الأموي في العراق، مطابع وزارة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٩م.

٣٩- رجب، غازي: العمارة العربية في العصر العباسي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ١٩٨٩م. ج١.

٤٠- الرويشيدي، سواري عبد الحميد: إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧١م.

٤١- الزبيدي: كاظم محمد كاطع: العمائر الخدمية في الموصول في العصر العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

٤٢- السامر، فيصل: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، مطبعة الإيمان، ١٩٧٠م.

٤٣- السلمان، عبد الماجود أحمد: الموصل في العهد الراشدي والأموي، الموصل، ط١، ١٩٨٥م.

٤٤- سليمان، عيسى وآخرون: العمارة العربية الإسلامية في العراق، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد،ج١، ١٩٨٢م.

٤٥- سيوفي، نيقولا: مجموع الكتابات المحررة في أبنية الموصل، تحقيق سعيد الديوه جي، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٥٦م.

٤٦- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ج٤.

٤٧- شافعي، فريد: العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر، المطبعة الثقافية، م١، القاهرة، ١٩٧٠م.

٤٨- الصائغ، سليمان: تاريخ الموصل، ج١، ١٩٢٣م، المطبعة السلفية بالقاهرة، ج٢، ١٩٢٨م، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ج٣، ١٩٥٦م، مطابع الكريم جونية، لبنان.

٤٩- الصوفي، أحمد: خطط الموصل، مطبعة أم الربيعين، الموصل، ١٩٥٣م.

٥٠- الصوفي، أحمد: الآثار والمباني العربية والإسلامية في الموصل، مطبعة الرافدين، الموصل، ١٩٤٠م.

٥١- عبد الرسول، سليمة: الأصول الفنية لزخارف العصر العباسي ببغداد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٤٠م.

٥٢- الغزاوي، عباس: تاريخ العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد، ج١، بغداد، ١٩٣٦م، ج٢، ١٩٣٩م. ج٣، ١٩٤٩م، ج٥، ١٩٥٣م، ج٦، ١٩٥٤م. ج٨، ١٩٥٦م.

٥٣- الغزاوي، عباس: تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، طبع شركة التجارة والطباعة، بغداد، ١٩٥٨م.

٥٤- العمري، محمد أمين بن خير الله الخطيب، منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه جي، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٩٦٨م.

٥٥- فكري، أحمد: المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف القاهرة، ١٩٦١م.

٥٦- مرزوق، محمد عبد العزيز: الفنون الإسلامية، مراجعة أحمد فكري، تر. أحمد محمد عيسى، دار المعارف بمصر، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٥٨م.

٥٧- مرزوق، محمد عبد العزيز: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥٨- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسن ت٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٨م.

٥٩- المعاضيدي، خاشع: دولة بني عقيل في الموصل، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٨٦م.

٦٠- معروف، ناجي، علماء النظاميات ومدارس الشرق الإسلامي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٣م.

٦١- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين المعروف بالبشاري ت ٣٧٥هـ: أحسن التقاسيم معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل، ١٩٠٦م.

٦٢- هرتسفيلد، آرنست: حيلة جدران المباني في سامراء وفن زخرفتها، تر. علي يحيى منصور، ج١، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بغداد، ١٩٨٥م.

٦٣- يوسف، شريف: تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، مطابع الكويت، بغداد، ١٩٨٢م. منشورات وزارة الثقافة والإعلام.

٦٤- الجنابي، كاظم: حول الزخارف الهندسية الإسلامية، مجلة سومر، ع٢،م٢٤، ١٩٦٨م.

٦٥- الجنابي، كاظم: المربع وأشكاله الزخرفية، مجلة التراث والحضارة، ع١٤، سنة ١٩٩٠م -١٩٩٢م.





برنامج شيوخ

علي بن محمد بن رزين التجيبي الأندلسي

(625 - 692هـ/1227 - 1292م)

برنامج
شيوخ
علي بن
محمد بن
رزين
التجيبي
الأندلسي



تقديم وتحقيق :

سمير قدوري

جامعة ليدن - هولندة



بسم الله الرحمن الرحيم

أبو الحسن علي بن محمد بن رزين التجيبي الأندلسي من أركان العلم خلال القرن السابع الهجري، وإن لم يعرفه بعض الدراسين في العصر الحاضر، حتى قال في حقه: " لا نملك شيئًا عن حياته وأصله وتاريخ ولادته أو وفاته"[1]. وهذا الحكم على ابن رزين بالجهالة ضرب من المجازفة، كيف وهو مترجم في الكتب التالية وناهيك بها:

كتاب صلة الصلة لابن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)[2].

والرحلة المغربية لمحمد بن العبدري (٦٨٩/١٢٩٠م)[3].

وبرنامج شيوخ محمد بن جابر الواديآشي (ت٧٤٩هـ)[4].

ومعلومات هذه المصادر أصيلة ومستقل بعضها عن بعض، وبالموازنة بينها نحصل على صورة واضحة الملامح لشخص أبي الحسن ابن رزين، لكن هناك تفاصيل أخرى وقفنا عليها بالسِّفْر الرابع من كتاب ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة، لمحمد بن عمر بن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ/ ١٣٢١م)[5].

هذا المصدر المخطوط فيه فوائد نجملها في ثلاث نقاط:

الأولى: إضافة تفاصيل فريدة تخص حياة ابن رزين.

الثانية: الإجابة عن بعض المسائل بشأن بعض كتب ابن رزين.

الثالثة: البرهان على علو مرتبة ابن رزين في العلم.

كما ورد ذكر ابن رُزين أيضًا في مصدرين ثانويين هما: برنامج أبي القاسم التجيبي السبتي، وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب.

بفضل هذه المصادر وغيرها تيسرت الإحاطة بأهم الجوانب المتعلقة بشخص ابن رزين، أعني اسمه ونسبه، وبلده الأصلي، وتاريخ ولادته ووفاته، وانتقاله من بلد إلى بلد، وأسماء مؤلفاته، وبعض تلاميذه، وشيوخه.

---

١. قائل ذلك: الدكتور محمد بن شقرون محقق كتاب فضالة الخوان في طيبات الطعام لابن رزين التجيبي:١٥.

٢. طبعت بقية من أقسامه بمدينة الرباط، بتحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، خلال سنوات (١٩٩٣-١٩٩٥م). راجع القسم الرابع، ترجمة ٣٠٨، ص:١٥١.

٣. طبع بتحقيق المرحوم محمد الفاسي بالرباط سنة ١٩٦٨م، ثم طبع قريبًا بتحقيق: الدكتور علي إبراهيم كردي، دمشق، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م: ص: ٥١٢ -٥١٩ (ترجمة ابن رزين). وقد أحلت على الطبعة الأولى دائمًا.

٤. طبع بتحقيق الأستاذ محمد محفوظ في بيروت، سنة ١٩٨٠م؟ يراجع للصفحة :٦٥.

٥. الديباج المذهب لابن فرحون: ٤٠١ - ٤٠٢. ترجمة ٥٣٧.

المبحث الأول: ترجمة ابن رزين التجيبي:

هو: علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن رَزِين الشقوري[٦] التجيبي[٧] يكنى أبا الحسن، وكان من أهل مرسية، وبها ولد في تاريخ اختلف تلاميذه في تحديده، لأن ابن رزين نفسه كان لا يحقق تاريخ ميلاده، بدليل قول العبدري: " ومولد الفقيه أبي الحسن بن رزين من عام ستة وعشرين إلى عام سبعة وعشرين وستمائة. أخبرني به هكذا على الشك[٨].

وقال محمد ابن جابر الواديآشي:" مولده في حدود عام خمسة وعشرين وستمائة[٩].

تكفل بتربية ابن رزين صغيرًا ابن عمته: الفقيه القاضي أبو القاسم أحمد بن أبي الحسن ابن نبيل الرومي (ت٦٦٩/١٢٧٠) [١٠].

وكان أبو الحسن ابن نبيل: مولًى لأبي القاسم محمد بن محمد (جد المُتَرجَم) فأعتقه وزوّجه ابنته (عمَّة المُتَرجَم). وهو كان أول شيوخه ومنه أكثر استفادته، وقد استجاز له وأشركه في أكثر شيوخه.

ذكر ابن رشيد السبتي في رحلته أنَّ خروج ابن رزين من مرسية كان قبل سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، فلا شك أنَّ ابن رزين رافق ابن عمته أثناء تقلبه في القضاء بمدن مرسية، ودانية، ولقنت، وغيرها من مدن الأندلس.

فمما حكاه ابن رشيد أنَّ ابن رزين سكن مع ابن عمته مدة بسبتة.

ثم تابع مترجَمنا طلب العلم على جماعة من شيوخ الرواية والدراية بسبتة؛ وانتقل بعد ذلك إلى مدينة بجاية بعد سنة ٦٤٨هـ، ولازم هناك أبا عبد الله ابن الأبار البلنسي (ت٦٥٨هـ)، ونهل من علمه بالحديث والأدب، ولقي بها أيضًا جماعة من العلماء.

ثم انتقل ابن رزين إلى تونس نحو سنة ٦٥٨هـ فاستوطنها، وأخذ عن علمائها، وقاسى بها شظف العيش صابرًا متجملاً؛ قال ابن رشيد السبتي:" وكان مقدورًا عليه (في رزقه) صابرًا على الفقر المدقع مع سراوة ونزاهة وسخاء نفس، وربما استعمل في بعض الشهادات المخزنية، وربما كتب عن بعض خدام صاحب إفريقية، ولم يحصل من الدنيا على ما يقيم به أوده أو يعول به أهله وولده. دخلتُ منزله يومًا عائدًا فما رأيت فيه ما له قيمة، ولا ما يستر أهله عن عين النُّظَّار إلا سترًا دَرِسًا كنسج العنكبوت، وكان مع ذلك متحملاً متجملا".

---

٦. هذه النسبة أضافها ابن عبد الملك المراكشي عندما ذكر جد المترجم عرضًا في ترجمة أبي القاسم ابن نبيل الرومي (ابن عمة المترجم).

٧. قال ابن حزم: " بنو عدي وبنو سعد، ابني أشرس بن شبيب بن السكون، أمهما تجيب بنت ثوبان(...) من مدحج، نسبوا إليها". جمهرة أنساب العرب:٤٢٩- ٤٣٠، و ٤٧٧.

٨. رحلة العبدري:٢٥٦.

٩. برنامج الواديآشي: ٦٥.

١٠. ترجم له ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة:١/٢، ص:٥٥٣ -٥٥٤، فقال:" أحمد بن أبي الحسن الرومي... استقضى ببلده و بدانية وبلقنت وغيرها ثم بسبتة، واستمرت ولايته القضاء بها محمود السيرة مرضي الطريقة عدلاً في أحكامه إلى أن توفي بها عند طلوع الشمس من يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول عام ٦٦٩".

ومكث ابن رزين بتونس إلى أن وافته منيته عصر يوم الجمعة الثاني عشر لشعبان عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م.[11].

اشتغل ابن رزين أثناء حياته بالتأليف وتدريس مروياته لبعض قاصديه من طلبة العلم، وهكذا تتلمذ على يديه جماعة من العلماء جلهم ممن له رحلة حجازية. كان من أقدمهم رحلةً، محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى ابن الحكيم اللخمي (ت ٧٠٨هـ)، الرندي النشأة، الإشبيلي الأصل. وكان مولده عام ٦٩٠هـ برندة، وبها قرأ، ثم رحل إلى الحجاز الشريف من بلده أول عام ٦٨٣هـ، فحج وزار، وتجول في بلاد المشرق منتجعًا عوالي الرواية، وأقام بمكة من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعة، وانصرف إلى المدينة، ثم قفل مع الركب الشامي إلى دمشق، ثم كرَّ إلى المغرب مارًا بتونس، فلقي ابن رزين نحو سنة ٦٨٤-٦٨٥هـ[12].

وأثناء إياب ابن رشيد السبتي سنة ٦٨٥هـ من الحج عرّج على تونس، ولازم ابن رزين مدة، فكان من أكثر تلاميذه اعتناءً بأخباره، إذ خصّه بترجمة حافلة في كتابه ملء العيبة ضمنها ملخص برنامج شيوخ ابن رزين[13]. ثم أثناء قفول محمد بن محمد العبدري سنة ٦٨٩هـ من الحج عرج على تونس واستفاد أيضًا من لقاء ابن رزين، وخصَّه بترجمة لا بأس بها في الكتاب الذي دوّنَ فيه تفاصيل رحلته الحجازية.

ثم بعد هؤلاء الأعلام سينفرد محمد بن جابر الواديآشي من أهل تونس، بتسجيل حقائق مفيدة تتعلق بمؤلفات ابن رزين وتاريخ وفاته.

وقد أجاز ابن رزين بالمراسلة لجماعة من أهل الأندلس، منهم أحمد ابن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، وأبناؤه الثلاثة: الزبير، وعاصم، ومحمد[14]. وأجاز كذلك للرحالة القاسم بن يوسف التجيبي السبتي.

المبحث الثاني: مؤلفات ابن رزين التجيبي:

أفادتنا المصادر بأنَّ لابن رزين التجيبي مؤلفات كثيرة، فمنهم من ذكرها بإجمال، كمحمد بن عبد الملك القيسي المنتوري الأندلسي (ت٨٣٤هـ)[15] الذي قال في فهرسته ما نصَّه:" تآليف الكاتب أبي الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن محمد بن أبي بكر ابن رزين التجيبي الإشبيلي نزيل تونس، حدثني بها الأستاذ أبو سعيد ابن لب عن الراوية شمس الدين ابن جابر عنه"[16].

ومن مترجميه من سرد أسماء جل تلك المؤلفات، فمحمد بن جابر الواديآشي ذكر ستة من مؤلفات ابن رزين، أربعة منها لم أجد لها ذكرًا في مصدر آخر، وهي:

برنامج شيوخ علي بن محمد بن رزين التجيبي الأندلسي

---

١١. هكذا حدد تاريخ وفاته الواديآشي في برنامجه:٦٥.

١٢. الإحاطة: ٢/٤٤٤-٤٧٤.

١٣. نظرًا لفائدة تلك الترجمة والبرنامج فضلنا إخراجه للنور بعد تقديم عن مؤلفه.

١٤. له ترجمة في الإحاطة: ٣/١٥٦-١٥٨، وذكر أنه توفي سنة ٧٦٥هـ.

١٥. له ترجمة في نيل الابتهاج بمن ليس في الديباج:٢/١٦٦.

١٦. مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط رقم (١٥٧٨، ورقة (١٠٦ظ). وقوله:" الإشبيلي" وهم سببه علم المنتوري بوجود عالم أندلسي آخر هو: المحدث محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي الإشبيلي نزيل تلمسان. برنامج المنتوري، ورقة (٩٩ظ).

(١) كتاب نظم الفريد في منتخب الطارف والتليد.

(٢) كتاب الدرر الثمينة في خبر القُل وفتح قسنطينة. أفاد الدكتور محمد بن شريفة بأنّ الكتاب يؤرخ على ما يبدو لثورة ابن الوزير في قسنطينة، وما ترتب على ذلك من حصار فيها، واقتحامها على يد الأمير الحفصي أبي فارس عبد العزيز، وأضاف محمد بن شريفة بأن ابن خلدون قال:" جاء أسطول النصارى إلى مرسى القل في مواعدة ابن وزير، فأخفق مسعاهم"[١٧]. ثم قال بن شريفة:" والكتاب تسجيل رسمي لهذه الحركة، ووصف دقيق لمراحلها ومنازلها (...)، والغالب أنّ ابن رزين ألّف هذا الكتاب أولاً في نطاق عمله الرسمي، وبتكليف من بعض رؤسائه[١٨].

(٣) كتاب مجموع بشعره وترسله[١٩]:

لعله يشتمل على المراسلات والمحاورات التي دارت بينه وبين بعض شيوخه وأصدقائه من علماء الأندلس والمغرب.

(٤) كتاب الأحبار التونسية في الأخبار الفرنسية[٢٠]:

لعل ابن رزين أرخ في هذا الكتاب لحادثة زحف ملك فرنسا لويس التاسع (Saint Louis) على تونس بأسطول مشحون بأربعين ألف مقاتل ونزوله بأطلال قرطاجنة في أواخر ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م،

ودارت رحى الحرب بينهم وبين المسلمين حتى ضاق الخناق بالطرفين ثم فشى مرض الوباء في تونس، وتمادى إلى جيش الفرنسيين، فهلك به خلق عظيم من جملتهم الملك لويس التاسع في ١٠ محرم سنة ٦٦٩هـ، فانتهت الحرب، وأقلعت الجيوش الفرنسية بعد أن أغرمها السلطان الحفصي محمد بن أبي زكريا الملقب بالمستنصر بالله[٢١] مالاً اتفقوا عليه على وجه الصلح[٢٢].

وقد ألمع ابن الدباغ إلى هذه الواقعة في كتابه:" **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**[٢٣].

وبالرجوع إلى مصادر أخرى وقفنا على خبر كتابين آخرين لابن رزين، وهما:

١٧. تاريخ ابن خلدون: ٦/ ٦٨٧.

١٨. الدكتور محمد بن شريفة" حول ابن رزين مؤلف كتاب الطبيخ" ١١٦-١١٧. أشكر الدكتورة مانويلا مارين (إسبانيا) التي يرجع لها الفضل في لفت انتباهي إلى هذا المقال النفيس، بعدما حققت برنامج ابن رزين وحررت طرفًا من ترجمة المؤلف.

١٩. برنامج الواديآشي:٦٥. قد نقل ابن رشيد في رحلته قطعًا شعرية ونثرية من تأليف شيخه ابن رزين.

٢٠. لعلّ صوابها : " الإفرنسية".

٢١. حكم تونس ما بين ٦٥٧-٦٧٥هـ.

٢٢. خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب:٩٢.

٢٣. معالم الإيمان :٤/ ٢٥-٢٦، قال:" ولما نزل الإفرنسي وشرون - لعنهما الله تعالى - بتونس وذلك في سنة ٦٦٨هـ بجيوش النصارى - دمرهم الله تعالى- إلى أن انقضت المقاتلة بين المسلمين والنصارى، ووقع الصلح بينهم وبين أمير المؤمنين المستنصر بالله.

(٥) كتاب جني الزهر وسني الدرر[٢٤].

أفاد ابن رشيد إن ابن زرين ألف هذا الكتاب ليعارض به كتاب **روح الشِّحْر و رُوْح الشِّعر**[٢٥] لمحمد بن أحمد ابن الجلاب (ت ٦٦٤هـ)[٢٦]، وهو من أقران ابن رزين.

وللفائدة أسوق هنا تراجم أبواب كتاب روح الشعر لابن الجلاب حسب ما ورد في اختصار ابن ليون التجيبي للكتاب:

١- الباب الأول في فضل الأدب.

٢- الباب الثاني في الحمد والشكر.

٣- الباب الثالث في المدح والثناء.

٤- الباب الرابع في الرثاء.

٥- الباب الخامس في الهجاء.

٦- الباب السادس في النسيب.

٧- الباب السابع في غرر الآداب.

٨- الباب الثامن في الحكم والأمثال.

٩- الباب التاسع في التشبيهات.

١٠- الباب العاشر في الهدايا.

١١- الباب الحادي عشر في التهنئات.

١٢- الباب الثاني عشر في الألغاز.

١٣- الباب الثالث عشر في أبيات افتتحت بها رسائل.

١٤- الباب الرابع عشر في المحاورات.

١٥- الباب الخامس عشر في التذييلات والتضمينات.

١٦- الباب السادس عشر في شكوى الزمان وتغير الإخوان.

١٧- الباب السابع عشر في المُلَح.

١٨- الباب الثامن عشر فيما كتب من الأبيات من الآلات والأماكن.

١٩- الباب التاسع عشر في أشعار الزهد.

---

٢٤. تحرف هذا العنوان في برنامج الوادي آشي فصار هكذا: "جنى الزهر وسنا الزهر" والصواب من رحلة ابن رشيد.

٢٥. كتاب روح الشحر يتألف من عشرين بابًا، وقد وصل إلينا ملخص منه وضعه أبو عثمان سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي الأندلسي (ت٧٥٠هـ)، أعرف منه ثلاث نسخ خطية وقفت على اثنتين منها. وقد نقل المقري في نفح الطيب من الكتاب وملخصه.

٢٦. ستأتي ترجمته.

٢٠- الباب الموفي عشرين في منتقى من النثر، وهو أربعة فصول:

أ- الفصل الأول في وجيز المكاتبات.

ب- الفصل الثالث في بليغ التوقيعات.

ت- الفصل الثالث في التصحيفات والألغاز.

ث- الفصل الرابع في الأدعية.

(٦) برنامج شيوخه:

اتفق كل من العبدري والواديآشي وابن رشيد على ذكر هذا الكتاب والاستفادة منه.

قال العبدري: " وأدرك جلة من الأعلام وجملة من علماء الإسلام، وسمع كثيرًا منهم وأجازه خلق كثير، وله في ذلك فهرسة جمعها فحسن ونمق وأتقن وحقق. كُتبت لي من أصلها وقرأتها عليه"[٢٧].

وقال ابن جابر الواديآشي: "أخذ عن جماعة ضمنهم برنامج روايته"[٢٨].

وقال ابن رشيد:" وسألته أن يكتب لي أسماء شيوخه، فكتب لي في ذلك جزءًا جمعه يحتوي على نحو من عشرين قائمة حلى فيه شيوخه، وأسند عنهم وأنشد ما تلقاه منهم، وقرأته عليه في يوم منى {سنة ٦٨٥هـ"}.[٢٩]

وهذا الكلام اشتمل على أربع فوائد.

الفائدة الأولى: أنّ تأليف البرنامج، كان استجابة لطلب ابن رشيد.

الفائدة الثانية: أن تاريخ الانتهاء من تأليفه كان قبل يوم منى سنة ٦٨٥هـ.

الفائدة الثالثة: أن تأليفه تمّ بمدينة تونس.

الفائدة الرابعة: أن أصل الكتاب بخط المؤلف كان يتألف من ٢٠ قائمة بها أسماء شيوخه وما تلقاه عنهم.

ثم هناك كتاب سابع من قائمة كتب ابن رزين هو:

(٧) كتاب فُضَالة الخِوَان في طيبات الطعام والألوان:

وهو كتاب يعد غاية في كتب فن الطبيخ الأندلسي، وهو، وإن لم تذكر المصادر شيئًا عنه، فنسبته إلى المؤلف ثابتة من وجوه أربعة:

الوجه الأول: أن مخطوطة الكتاب المحفوظة بالأكاديمية الملكية التاريخية بمدريد تنسبه صراحة إلى الفقيه الأديب الكاتب العلامة أبي الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم محمد بن أبي بكر بن رزين التجيبي الأندلسي. وهذه صفات المؤلف بلا مرية ولا شبهة.

---

٢٧. رحلة العبدري:٢٥٢، وعنها ينقل عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس: ١/ ٤٤١.

٢٨. برنامج الوادي آشي:٦٥.

٢٩. رحلة ابن رشيد الجزء الرابع ورقة ٦٤و.

الوجه الثاني: أن المؤلف صرح في كتابه هذا أن بلده الأصلي كان مدينة مرسية[٣٠].

الوجه الثالث: أن المؤلف ذكر في كتابه هذا بعض ما شاهده ببجاية، فقال:" وأكثر ما يكون هذا القمرون ببعض الأنهار الكبيرة خصوصًا ببلاد إشبيلية، ويوجد بوادي بجاية"[٣١]. وقد بينا أنَّ انتقال ابن رزين إلى بجاية حدث في مدة تقع بين سنتي ٦٤٨ -٦٤٩هـ، ومكث بها حتى مفتتح عام ٦٥٧هـ/٢٩ ديسمبر ١٢٥٨م[٣٢].

الوجه الرابع: أنه يصف نوعًا من الأطعمة رآه بتونس، فقال:" وهذا هو الفطير المقصور على أهل إفريقية وتونس، فإنهم كثيرًا ما يحتفلون به فيه ويباهون به في أعيادهم"[٣٣]. وابن رزين قد استوطن تونس فيما بين ٦٥٧ -٦٩٢هـ. لهذا فالقراءة التي اتخذها محمد بن شقرون (محقق الكتاب) سندًا للقول بأن الكتاب ألف فيما بين عامي ٦٣٦-٦٤٠هـ، لا تستقيم وسياق الأحداث التاريخية المذكورة في عبارة: " أعادها الله"، الواقعة في كلام المؤلف أثناء ذكره لمرسية وبلنسية، بل صوابها أن تقرأ هكذا:" وقلما يكون هذا الجشيش إلا بمرسية بلدي أو بلنسية أعادهما الله"[٣٤] بصيغة المثنى، لأنَّ المؤلف إنما قال هذا الكلام بعد أزيد من عشرين عامًا مرَّت على سقوط المدينتين، وليس بعد سقوط بلنسية وحدها.

وقبل انتهائي من تحرير هذا المقال أفادتني الأستاذة مانويلا مرين(Manuela Marin) في شأن هذا الكتاب بأمرين، أولهما أنها بصدد تحرير ترجمة إسبانية للكتاب، وثانيهما أنَّ الدكتور محمد بن شريفة قد نشر مقالاً يحمل العنوان الآتي:" حول ابن رزين مؤلف كتاب الطبيخ"، فلما طالعته وجدت الدكتور الفاضل قد جود في ترجمته لابن رزين بما لم يسبقه إليه أحد، وبين مجازفة محقق الكتاب، فقال:" وهذا الاسم (يعني اسم المؤلف) ليس نكرة بكل تأكيد، ولا يمكن قطعًا أن يكون في عداد المغمورين، وهو غير مجهول أبدًا؛ لأنَّه مألوف لدى من يتصفحون أسماء الأعلام في القرن السابع الهجري"[٣٥].

ثم سرد محمد بن شريفة المصادر التي اعتمدها أساسًا في ترجمته لابن رزين، فوجدتني قد وقفت على خمسة مصادر زائدة لم ترد في مقاله المذكور، وهي: كتاب صلة الصلة لابن الزبير، وبرنامج التجيبي، وكتاب الإحاطة لابن الخطيب، وبرنامج المنتوري، وفهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني.

لكن فوائد المقال كثيرة بلا ريب، نذكر منها ما جاء بشأن تاريخ اكتشاف كتاب فضالة الخوان.

قال محمد بن شريفة:" إنَّ أول من دلَّ على وجود " فضالة الخوان" كان هو الأستاذ بروفنصال في (كتابه

٣٠. فضالة الخوان:٦٢. قال:" وقلما يكون هذا الجشيش إلا بمرسية بلدي".

٣١. المصدر نفسه:٢٧٣.

٣٢. قال ابن رزين:" حدثنا الحافظ أبو عبد الله القضاعي (ابن الأبار) رحمه الله سماعًا من لفظه بخارج بجاية غرة محرم مفتتح سنة ٦٥٧" رحلة ابن رشيد الجزء الرابع ورقة ٧٨ ظ.

٣٣. المصدر نفسه :٤٦.

٣٤. فضالة الخوان:٦٢.

٣٥. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، عدد٨ (١٩٨٢)، ص:٩٧.

الحضارة العربية في الأندلس)، وأن الأستاذ الإسباني دي لاجرانخا (De Lagranja) ذكر اثنين من مخطوطات "الفضالة" لم يشر إليهما بروكلمان"[٣٦].

المبحث الثالث: محتوى برنامج شيوخ ابن رزين.

قدم ابن رشيد للبرنامج المذكور بترجمة لشيخه ابن رزين مختصرة لكنها مفيدة، ثم ساق قائمة بأسماء شيوخ ابن رزين بلغ عددهم ثلاثين شيخًا من أهل الأندلس والمغرب العربي، يمكن تصنيفهم إلى فئتين:

- فئة الذين سمع منهم أو عليهم وأجازوا له.
- وفئة الذين أجازوا له ولم يسمع منهم شيئًا.

وقد اكتفى ابن رشيد أحيانًا بذكر أسماء الشيوخ المغاربة دون ترجمتهم، لمعرفته هو بهم، في حين نجده احتفظ بتراجم كاملة لغيرهم، لما رأى في ذلك من الفوائد، كما نجده يتفادى التقصي أثناء ذكر مسموعات ابن رزين على شيوخه، فلا يذكر منها إلا القليل. ولم يرد في البرنامج ذكر للسبعين شيخًا من علماء المشرق المُجيزين لابن رزين مراسلة بوساطة من أبي إسحاق البلفيقي، إذ يبدو أن ابن رزين نفسه قد أعرض عن ذكر ذلك طلبًا للإيجاز[٣٧].

ولا يعدو البرنامج في حقيقة أمره أن يكون خلاصة ما انتقاه ابن رشيد من أصل المؤلف، متصرفًا في بعض مضامينه بالحذف والاختصار، لكن عمل ابن رشيد هذا يعد وثيقة فريدة عن ابن رزين، وهو بلا شك، أبرز علماء مرسية ممن استوطنوا شمال إفريقية. لكن الغريب في الأمر أن بعض شيوخ ابن رزين كانوا من ضحايا سقوط الحواضر الأندلسية في يد النصارى، ولا شك كذلك أن ما في هذا البرنامج يغني ويتمم ما وجد في كتب التاريخ والتراجم الأندلسية والمغربية، فقد أتحفنا برنامج بن رزين بمعلومات فريدة نجملها كما يأتي:

١- ترجمة فريدة لعالم مراكشي من ذرية المحدث الأندلسي أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد القرطبي[٣٨].

٢- وأخرى للأديب البلنسي المعروف بالأكوبي.

٣- وترجمة وافية وغنية بشأن العلامة أبي عبد الله ابن العطار القرطبي ورحلاته ومؤلفاته وتاريخ وفاته.

المبحث الرابع: تراجم الشيوخ المذكورين في البرنامج.

لقد رأيت أنه من الأليق أن أفرد هنا لكل شيخ ذكر في برنامج ابن رزين ترجمة قصيرة، تيسر على القارئ معرفته قبيل مطالعة النص المحقق، وراعيت ترتيب تلك التراجم حسب الحروف الهجائية.

---

٣٦. المرجع نفسه: ٩٦.

٣٧. راجع الترجمة رقم ١٤ في النص المحقق.

٣٨. راجع ترجمة بقي بن مخلد في كتاب أخبار الفقهاء والمحدثين لمحمد بن حارث الخشني:٣٧ -٤٩.

حرف الألف:

إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبي: القاضي الحسيب، يكنى أبا إسحاق، من تلاميذ أبي الحسن ابن واجب، وقفت على ترجمة والده وعمّه.

كان أبوه عبد الرحمن (المتوفى بمالقة سنة ٦٣٦هـ) من برشانة وسكن مراكش، وكان خطيبًا، يشارك في الفقه والآداب، وقاضيًا بمرسية وغرناطة. وعمه أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن عياش (ت٦٢٩هـ) كان قاضيًا بسبتة وتلمسان[٣٩].

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحاج السلمي البلفيقي: نسبة إلى بلفيق حصن من حصون المرية، وبها ولد سنة ٦١٦هـ.

كان أديبًا نحويًّا، قارئًا متقنًا، ذاكرًا للتاريخ، له حظ وافر من الفقه نزل دمشق ومات بمصر في المحرم سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م)[٤٠].

والبلفيقي هو الذي استجاز لابن رزين نحوًا من ٧٠ شيخًا من علماء المشرق، كما ستقف عليه قريبًا في كلام ابن رشيد.

أبو الفضل ابن القاسم بن علي بن البراء التنوخي: القاضي العالم، مولده في حدود ٥٨٠ هـ، انتهت إليه بالحضرة التونسية رئاسة العلم. وكانت وفاته سنة ٦٧٧هـ، وقد كان ارتحل إلى المشرق سنة ٦٢٢هـ، فسمع بالحرمين الشريفين، وبالقاهرة، وبالإسكندرية من جماعة ذكرهم في جزء خاص بهم[٤١]. كتب بالإجازة العامة إلى ابن رزين بتاريخ عام ٦٥٥هـ، ثم لقيه بعد ذلك.

أحمد بن أبي الحسن نبيل الرومي: مولى أبي القاسم بن محمد بن أبي بكر ابن رزين التجيبي الشقوري - مرسي استوطن سبتة، يكنى أبا القاسم وأمه بنت أبي القاسم الشقوري - المذكور - مولى أبيه. وكان فقيهًا نبيلاً عاقدًا للشروط، حسن الخط متقن التقييد، كتب بخطه النبيل من دواوين العلم ما لا يحصى كثرة، وعني بالعلم طويلاً، واستقضي ببلده وبدانية، وبلقنت، وغيرها ثم بسبتة، واستمرت ولايته القضاء بها إلى أن توفي عند طلوع الشمس من يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول عام (٦٦٩هـ)[٤٢].

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن قاسم بن السراج الأنصاري من أهل إشبيلية، وهو ابن أخت الفقيه الراوية أبي بكر بن خير، صاحب الفهرسة المشهورة.

رحل إلى العدوة واستوطن بجاية، وكانت له رواية عالية متسعة.

وتوفي ببجاية يوم الأحد السابع لصفر من عام (٦٥٧هـ /١٢٥٩م)[٤٣].

---

٣٩. التكملة: ٣/٤٨ -١/١٠٥.

٤٠. الوافي بالوفيات:٦/١٣٥. وله ترجمة في بغية الوعاة للسيوطي:١/٤٢٣ - ٤٢٤ نقلاً عن ابن الزبير.

٤١. رحلة التجاني: ٣٦٧- ٣٦٨ ؛ وعنها نقل صاحب شجرة النور الزكية:١٩١ رقم ٦٤٠.

٤٢. ترجمته في الذيل والتكملة:١/٢، ٥٥٣-٥٥٤.

٤٣. ترجم له الغبريني في عنوان الدراية : ٢٠٢ - ٢٠٤.

أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عميرة المخزومي من أهل جزيرة شقر. سكن بلنسية مدة، وكتب عن ولاتها، وتهادته الدول، وولي القضاء بأُريُولة، وشاطبة، وسلا، ومكناسة، وقسنطينة، وقابس.

استوطن بجاية مدة وأقرأ بها ودرس. له علم بالفقه وأصوله، وله أدب هو فيه فريد دهره، وسابق أهل عصره.

توفي بتونس ليلة الجمعة الموفي ٢٠ لذي الحجة من عام ٦٥٨هـ، ومولده بجزيرة شُقْر في شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة[٤٤].

أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقي القرطبي[٤٥]: لا نعلم عنه شيئًا غير ما ذكر ابن رزين عنه في برنامجه من أن: مولده بمراكش، وأنه قدم بجاية قاصدًا الحج، فسمع عليه ابن رزين فهرسة جده أبي القاسم أحمد بن يزيد (القرطبي) بقراءة ابن الأبار، وتلفَّظَ لمن حضر ذلك المجلس بالإجازة العامة في جميع ما يحمله ويرويه.

أحمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف بن فرتون السلمي الفاسي صاحب كتاب الذيل على الصلة لابن بشكوال، وكتاب الاستدراك والإتمام لكتاب التعريف والإعلام للسهيلي.

وهو من شيوخ ابن الزبير الغرناطي. دخل الأندلس سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، فأخذ بالجزيرة الخضراء، وبمالقة عمن وجد هنالك، ووصل إلى حصن بلش من شرقي مالقة، ثم رجع إلى سبتة فلم يخرج منها إلى حين وفاته[٤٦].

أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسي: ابن عم الراوية أبي الخطاب ابن واجب. ولي قضاء بلنسية، وخطب بجامعها.

كان من شيوخ ابن الأبار صاحب كتاب التكملة لكتاب الصلة.

خرج من بلنسية عند تغلب الروم عليها سنة (٦٣٦هـ) ونزل سبتة حيث توفي سنة ٦٣٧هـ[٤٧].

حرف السين:

سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي أبو عثمان: أصله من طَبيرة[٤٨]،

ونزل جزيرة منرقة MINORCA فسد ثغرها، وسدد أمرها، كان شديد العناية بجمع دفاتر العلم وأعلاق الكتب، حتى جمع منها ما لا نظير له كثرة وُجُود، إذ كان مقصودًا بكتب العلم من المسلمين والنصارى، فكان يتخدَّم بها إليه النصارى، كما يتقرب بها إليه المسلمون.

---

٤٤. القسم الأول من السفر الأول من الذيل والتكملة: ١٥٠، رقم ٢٣١. وفي عنوان الدراية: ٢٩٩ - ٣٠١.

٤٥. لم أقف على ترجمة له، ولجده: أبي القاسم أحمد بن يزيد ابن بقي (ت٦٢٥هـ) ترجمة في: برنامج الرعيني: ٥٠-٥٤. وتاريخ قضاة الأندلس:١١٧.

٤٦. له ترجمة في جذوة الاقتباس لابن القاضي: ١١٧. وفي ملحق أعلام القسم المفقود من صلة الصلة:٣٤٩/٥، رقم ٧٧.

٤٧. راجع: التكملة: ١٠٧/١-١٠٨، والذيل والتكملة١/٢: ٤٧٣-٤٧٤.

٤٨. موضع بالأندلس.

كتب بالإجازة العامة بخط يده من منرقة لابن رزين، بتاريخ يوم الخميس ١٣ ربيع الأول عام ٦٥٨هـ، وتوفي يوم السبت لثلاث بقين من رمضان عام ٦٨٠هـ[٤٩].

سعيد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن خلف الأنصاري المعروف بالأكوبي البلنسي[٥٠]: قال ابن رزين:" سمع من أبي الربيع،ابن سالم كتابه مصباح الظُّلم، وكتاب الشهاب للقضاعي، وغير ذلك.

وكان رحمه الله[٥١] كاتبًا مجيدًا وشاعرًا بليغًا نبيل المقاصد والتخيل في شعره، مطبوع النادرة فيه، وكان لي صديقًا صفيًّا وصاحبًا وفيًا. توفي الأكوبي بلا شك ما بين سنتي (٦٦٤-٦٨٥هـ)، لوجهين اثنين.

الوجه الأول: أن ابن رزين سمعه ينشد أبياتا من شعر الحريري خارج تونس في شهر صفر سنة ٦٦٤هـ.

الوجه الثاني: لكون ابن رزين ترحم عليه في برنامجه، وقد قلنا إنه أُلِّفَ سنة ٦٨٥هـ.

حرف العين

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي، المعروف بابن بُرْطُلهْ: القاضي الخطيب البارع الإنشاء من أهل مرسية، امتحن بالأسر، فنظم بدار الحرب أرجوزة حسنة يستعطف فيها إخوانه ، سماها ذكرى المتفجعين، وبشرى المسترجعين.

سمعه ابن رزين يخطب بالمسجد الجامع بمرسية، ثم لقيه في رجب سنة ٦٥٥هـ بالمسجد الجامع من بجاية. توفي بتونس يوم ٢٦جمادى الآخرة سنة٦٦١هـ[٥٢].

عثمان بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم العبدري الفاسي، عرف بابن الحاج: الحاج المعمر يكنى أبا عمرو. أصله من بياسة، وسكن مدينة فاس، ثم نزل بسبتة، وبها توفي سنة ٦٦٣هـ، وكتب مجيزًا لابن رزين بتاريخ شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٥هـ[٥٣].

علي بن أحمد بن عبد الله بن خيرة البلنسي: الحاج المقرئ، يكنى أبا الحسن. خطب بمدينة بلنسية بعد قفوله من المشرق سنة ٥٨٦هـ، وتولى الصلاة بجامع بلنسية، وأخذ الناس عنه . مولده سنة ٥٥٠هـ، وتوفي ببلنسية منتصف ليلة السبت ٢٢ لرجب سنة ٦٣٤هـ.

سأله أبو القاسم ابن نبيل أن يجيز لابن خاله: ابن رزين التجيبي، وكان صغيرًا حينئذ، فأجاز له[٥٤].

علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن قطرال الأنصاري: سكن أبذة من عمل جيان، يكنى أبا الحسن، ولي القضاء بقرطبة وبلنسية وشاطبة وسبتة وفاس، ومراكش، وبها توفي سنة ٦٥١هـ، كتب بالإجازة العامة لابن رزين[٥٥].

---

٤٩. ترجم له: المراكشي في الذيل والتكملي: ٢٨/٤ -٣٢. والغبريني في عنوان الدراية:٣٠٣ -٣٠٦.

٥٠. لم نقف على ترجمته غير أنه ذكر في الآخذين ببلنسية عن القاضي أبي الحسن أحمد بن واجب.
راجع الذيل والتكملة:١/٢: ٤٧٤.

٥١. قوله: "رحمه الله " يدل على أن الأكوبي توفي قبل سنة ٦٨٥هـ، التي كتب فيها ابن رزين هذا الكلام في برنامجه

٥٢. مترجم له في صلة الصلة القسم الثالث:١٤٤، ترجمة رقم ٢٤٧. وفي عنوان الدراية للغبريني :٣٢٢-٣٢٤.

٥٣. الذيل والتكملة: ١:١٣٧/٥ -١٣٨.

٥٤. مترجم له في: التكملة : ٢٣٧/٣، والذيل والتكملة:١٦٠/٥-١٦٢ ، وصلة الصلة:١٤٠/٤" توفي ببلنسية في رجب سنة ٦٣٤هـ.

٥٥. التكملة :٢٤١/٣، وصلة الصلة: ١٤٤/٤.

عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، أبو علي الشلوبين: من أهل إشبيلية، كان إمام علم اللغة بالأندلس في وقته، ولد سنة ٥٦٢هـ، وتوفي سنة ٦٤٥هـ. كتب لابن رزين بالإجازة العامة[٥٦].

حرف الميم

محمد بن إبراهيم بن عبد الملك الأزدي القارجي: أصله من قيجاطة ونزل مرسية، كان مقرئًا بارعًا، وله رحلة إلى المشرق حج فيها. أجاز بخطه لابن رزين كل ما يحمله ويرويه، بتاريخ شهر ذي القعدة من سنة ثنتين وأربعين وستمائة[٥٧].

محمد بن أحمد بن محمد الفهري المعروف بابن الجلاب[٥٨]: أصله من المرية أو وادي آش ونشأ بتونس. كان له اعتناء بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، مع المشاركة في فنون العلم من الفقه والعربية والأدب، وغير ذلك.

دخل الأندلس وجال في بقية بلادها، واستدعاه صاحب جزيرة منرقة الفقيه الرئيس أبو عثمان بن حكم[٥٩]، فأقام عنده مدة، ثم ركب البحر مسافرًا فلقوا العدو، فاستشهد في رمضان من عام ٦٦٤هـ، وسنه نحو خمسين سنة ودفن بجزيرة منرقة.

قال ابن رزين: " صحبته في السفر والحضر أعوامًا، وحضرت معه مجالس بعض شيوخنا، وبيني وبينه محاورات ومراسلات، وأسمعني من لفظه كتابه الذي ألّفه بثغر منرقة في الأبيات النونية، كذلك كتابه الذي وسمه بـ: إيثار النقل لآثار الفضل، ونقلته من خطه. وأراني تأليفه المترجم بـ: **رَوْح الشحر ورُوح الشعر** في مسودة تخريجه، فأسمعني أكثره".

وقد وقفت على ترجمة لابن الجلاب مفيدة جدًا ساقها أبو عثمان سعد بن أحمد، ابن ليون التجيبي[٦٠]، الغرناطي (ت ٧٥٠هـ) في صدر كتابه لمح السحر الذي اختصر فيه كتاب روح الشحر وروح الشعر لابن الجلاب.

قال ابن ليون:" هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الجلاب الفهري الشهيد، كان محدثًا أديبًا حافظًا مجتهدًا حسن الخط والضبط والتأليف، وقيد كثيرًا، وله كتاب الفوائد المتخيرة من رواية المشيخة العشرة، وهم:

(١) أبو الحسين ابن زرقون. (٢) أبو القاسم بن بقي. (٣) أبو بكر بن خلفون. (٤) أبو بكر القرطبي الزاهد (٥)أبو بكر السقطي. (٦) أبو علي الشلوبين. (٧) أبو الحسن الدباج. (٨) أبو الحسن بن أبي نصر. (٩) أبو بكر بن محرز.(١٠) أبو الحسين بن السراج.

خرج عن هؤلاء أربعين حديثًا من رواية الرئيس أبي عثمان بن حكم، وحشّى الكتاب بفوائد نفيسة من أخبار الرجال وقبيلهم وضبط أسمائهم، وحل مشكلات من معاني الحديث، وتفسير لغات منه، ونوادر

---

٥٦. مترجم له في : برنامج شيوخ الرعيني :٥٠ -٥٤، والذيل والتكملة٥/ ٤٦٠ - ٤٦٤، وصلة الصلة: ٤/٧٥-٧٦.

٥٧. التكملة: ٢/١٤٨ + صلة الصلة: ٥/٣٧٤ + الذيل والتكملة: ٦/٩٧-٩٨.

٥٨. مترجم في الذيل والتكملة:٦/٥٢-٥٤، وصلة الصلة: ٣/٤٠-٤١، ولمح السحر من روح الشحر وروح الشعر لابن ليون التجيبي.

٥٩. الذي تقدمت ترجمته فيما سبق من شيوخ ابن رزين.

٦٠. له ترجمة حافلة في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأبي العباس المقري:٥/٥٤٣. وما بعدها.

مستطرفة، وأبيات من الشعر حسنة، وغير ذلك. فرغ من جمعه وتقييده في ذي القعدة سنة خمس وخمسين وستمائة.

وله كتاب النزهة، وسماه إيثار النقل لآثار الفضل، وكتاب روح الشحر، وغير ذلك.

وسكن مدينة منرقة في كنف صاحبها الرئيس أبي عثمان، ابن حكم، وردها سنة ثلاث وخمسين، ولمجلسه (يعني مجلس ابن حكم) رفع جميع ما ألف.

واستشهد رحمه الله على ظهر البحر من مركب القصبي، مقبلاً على قتال الروم في مركب آخر لهم، في اليوم الثاني والعشرين لرمضان المعظم سنة أربع وستين وستمائة.

وذكره الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي طالب العزفي[٦١]، في كتابه المسمى بـ: ذكر الفئة المرتسمة في شعر المائة المنصرمة، الذي عارض به تحفة القادم للفقيه أبي عبد الله، ابن الأبار القضاعي، فقال:" كان أصله من المرية وقيل من وادي آش، وقيل من إشبيلية، ونشأ بتونس وسكنها، وجال المغرب والأندلس في طلب الرواية والعلم، وجمع مجامع أدبية حسنة خدم بها رئيس منرقة لاختصاصه به، وامتدحه بقصائد من شعره"[٦٢].

محمد بن محمد بن أبي السداد موفق: من أهل مرسية يكنى أبا عيسى، ولي قضاء مرسية، والنيابة في الأحكام قبل ذلك عن قضاتها دهرًا طويلاً. وكان من أهل المعرفة بها والثقة والعدالة. لقيه ابن الأبار بجامع مرسية في أول ذي القعدة سنة ست وثلاثين وستمائة. وعُمِّرَ وأسن، وتوفي غداة يوم الاثنين ٢ جمادى الأخرى سنة ٦٤٢هـ[٦٣].

محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري البلنسي المعروف بابن جوبر: نزيل سبتة. كان يعقد للإقراء بأحد مساجد سبتة. توفي سنة ٦٥٥هـ، ومولده في حدود سنة ٥٧٠هـ. أجاز لابن رزين جميع ما يحمله ويرويه[٦٤].

محمد بن محمد بن أحمد بن الجنان الأنصاري: الكاتب المصقع الخطيب من أهل مرسية. وهو في الكتابة نظير أبي المطرف، ابن عميرة المذكور، وكثيرًا ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء. خرج من بلده حين تمكن العدو سنة ٦٠٤هـ، فاستقر بأريولة إلى أن استدعاه بسبتة الرئيس أبو علي ابن خلاص فوفد عليه فأجلّ وفادته وحظي عنده حظوة تامة. ثم توجه إلى إفريقية فاستقر ببجاية.

٦١. هو عبد الرحمن بن أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أحمد اللخمي، الفقيه المحدث، خاتمة الحفاظ، كان بمدينة فاس يسكن بدرب الطويل وبه توفي، يكنى أبا القاسم. روى عن أبي جعفر بن الزبير، والقاضي ابن عبد الملك المراكشي، وابن خميس التلمساني، وله تآليف: كالإشادة، في المشتهرين من المتأخرين بالإجادة، أجاد فيه غاية الإجادة. ولد سنة ٦٨٥هـ، وتوفي بفاس بدرب الطويل في يوم الأربعاء ثالث عشر رجب الفرد عام ٧١٧هـ". بتصرف عن : جذوة الاقتباس لابن القاضي المكناسي : ٢/ ٣٩٨ -٤٠١، وفيما ذكره ابن ليون هنا زيادة فائدة عن مؤلفات العزفي هذا .

٦٢. نقلاً من كتاب لمح السحر لابن ليون التجيبي، مخطوط (رقم ١٠٣٣ دال) بالخزانة العامة بالرباط.

٦٣. التكملة : ١٤٧/٢.

٦٤ . الذيل والتكملة: ٦/ ٢٤٠ -٢٤٦.

تدرب به ابن رزين، وكتب عنه كثيرًا من شعره وخطبه. توفي ببجاية في عشر الخمسين وستمائة، يعني ما بين سنة ٦٤١، وسنة ٦٥٠هـ[٦٥].

محمد بن عبد الله بن أحمد الأزدي: من أهل سبتة وأصله من قرطبة انتقل منها أبوه إلى سبتة، وبها ولد نحو ٥٦٧-٥٦٨هـ. فقيه محدث راوية مكثر، سمع من خلق كثير من أهل المغرب والأندلس والمشرق. ولي خطة القضاء بسبتة، وبها توفي سنة ٦٦٠هـ[٦٦]. لقيه ابن رزين بسبتة مرارًا، وسمع عليه، وله منه إجازة عامة.

محمد بن أبي القاسم الطيب بن محمد بن الطيب بن الحسين بن هرقل الكناني: أحد أعيان مرسية، استقضي بلورقة ثم بمرسية وخطب بجامعها، تفقه به ابن رزين، وله من شيخه هذا إجازة بخط يده بتاريخ شعبان سنة ٦٥٤هـ. توفي ابن هرقل سنة ٦٥٥هـ[٦٧].

محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ابن الأبار، لازمه ابن رزين كثيرًا واستفاد منه، وعنه أخذ الحديث والأدب[٦٨].

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الجذامي المعروف بابن العطار: الكاتب الأديب، من أهل قرطبة، خرج به أبوه منها صغيرًا قبل الفتنة، ورحل به إلى الإسكندرية واستوطنها زمانًا، وبها قرأ العربية والأدب، وحج مع أبيه ثم توفي أبوه. وتجول أبو عبد الله ببلاد المشرق شابًا إلى أن نزل فاس وسكنها زمانًا، ثم انتقل منها إلى تونس، ولم يزل بها وراقًا لخزانة السلطان. ثم رحل عنها في حدود عام ٦٤٠هـ، ودخل بلاد الأندلس، وتجول ببلادها، ودخل قرطبة. ثم عاد إلى تونس واستوطنها، وتأهل بها، وكان شاعرًا مجيدًا، وكاتبًا بليغًا، وأديبًا متفننًا. وله أرجوزة في الأدب على حروف المعجم، وتقييد مفيد في العربية. صحبه ابن رزين بتونس أعوامًا فاستفاد منه، وروى عنه، وجمع ما ألفى من شعره من أماليه، قم قرأه عليه، وأجاز له جميع ما يحمله. توفي بتونس يوم السبت ٣ لشهر جمادى الآخرة من سنة ٦٧٧هـ[٦٩].

محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي، شهر بان الخضار: الفقيه المحدث الضرير من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الخضار. له رحلة للمشرق سنة ٦٣٤هـ صحبة أبي مروان الباجي الإشبيلي

---

٦٥. له ترجمة في الإحاطة لابن الخطيب :٣٤٨/٢ -٣٥٩، وفي : عنوان الدراية للغبريني :٢٤٩-٢٥١. له عدة رسائل في الذيل والتكملة :١٠٨/٤. و ٣٢٧/٥. وفي نفح الطيب للمقري:٤١٦/٧-٤٣١.

٦٦. ترجم له: أبو الحسن الرعيني في برنامجه :١٦٨ -١٦٩، وابن الزبير في صلة الصلة:٣٩/٣ -٤٠، وابن عبد الملك المراكشي في القسم الأول من السفر الثامن من الذيل والتكملة:٣٠٣-٣٠٧.

٦٧. الذيل والتكملة: ٢٦٧/٦.

٦٨. ترجم له: المراكشي في الذيل والتكملة:٢٥٣/٦ -٢٧٥. والغبريني في عنوان الدراية: ٣٠٩- ٣١٢. وابن الأحمر في مستودع العلامة ومستبدع العلامة: ٢٨ -٢٩.

٦٩. ذكر في نفح الطيب للمقري: ١٢٤/٢ -١٢٥، وابن سعيد في اختصار القدح المعلى:٢١٥، وما أوردناه هنا من ترجمته في برنامج ابن رزين.

(ت٦٣٥هـ)[٧٠]. ثم قفل فاستوطن سبتة، ودخل الأندلس تاجرًا، وكانت له معرفة بالتاريخ وغيره مع تيقظ وفطنة وحسن سمت.

مولده بتلمسان عام ٦٠٩هـ، وتوفي بسبتة بعد صلاة الصبح من يوم السبت ٣٠ شوال عام ٦٩٧هـ[٧١].

محمد بن الحسن بن عمر الفهري المعروف بابن المحلي: من أهل سبتة ومتقدمي أساتذتها. برع في الأدب والعربية، والفقه، وأقرأ ذلك عمره، وولي قضاء سبتة آخر عمره. وكان قد دخل الأندلس، وأقرأ بإشبيلية. لقيه ابن رزين بسبتة، وحضر مجلس إقرائه، وحصل منه على إجازة خطيّة بتاريخ عام ٦٥٤هـ. توفي ابن المحلي سنة ٦٦٠هـ[٧٢].

محمد بن عبد الجبار بن محمد الرعيني السوسي: الفقيه العالم المتقن مولده سنة ٥٦٧هـ، وتوفي بتونس في ذي القعدة سنة ٦٦٢هـ.

قال ابن رزين: " كتب إلي بالإجازة - ولم ألقه - بتاريخ شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٥هـ"[٧٣].

حرف الياء:

يوسف بن موسى بن أبي عيسى المحساني الغماري: يكنى أبا يعقوب. محدث حافظ تلمساني نزيل سبتة، له رحلة سمع فيها من أبي عمرو ابن الصلاح كتاب علوم الحديث.

وكان يقرئ بجامع باب السلسلة من داخل مدينة فاس. توفي في آخر المائة السابعة، وكتب خطه بالإجازة سنة ٦٨٦هـ، وصنف شرحين على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، سماهما الإفادة، كبير وصغير.

قال ابن رزين:" كتب إلي مرتين (بالإجازة) آخرها عام ٦٥٧هـ، ولم ألقه"[٧٤].

يحيى بن عبد الملك بن محمد بن يحيى اللخمي المعروف بابن أبي الغصن: الرَّاوية المحدث - بلده مولة من أعمال مرسية - وسكن مرسية، يكنى أبا زكرياء وأبا بكر؛ رحل إلى المشرق وحج، وكان له اعتناء بالحديث ولقاء أهله. توفي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، وكان مولده في نحو سنة ٥٧٥هـ، سمع عليه ابن رزين وأجاز له[٧٥].

---

٧٠. أفاد الدكتور / محمد بن شريفة أن تفاصيل تلك الرحلة وردت في ترجمة أبي مروان الباجي الواردة في كتاب محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: ٢/٥: ٦٨٨ -٦٩٣، وفي كتاب إفادة النصيح لابن رشيد السبتي:٩٦-١٠٤. ثم قام الدكتور بن شريفة بآخرة باستخراجها والتعليق عليها وطبعها في كتيب في العدد الخامس من سلسلة " كتاب دعوة الحق" . طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٧١. صلة الصلة:٤٣/٣. والذيل والتكملة ١/٨: ٢٥٧ -٢٥٨. وبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد:١٠٥.

٧٢. ترجم له المراكشي في الذيل والتكملة، القسم الأول من السفر الثامن :٢٨٩ -٢٩٣؟، وابن الزبير في صلة الصلة:٤١/٣ - ٤٢ ، وذكر عرضا في برنامج الوادي آتشي: ٦٤، وبرنامج القاسم التجيبي:٢٧٩.

٧٣. راجع ترجمته في شجرة النور الزكية :١٩٠ رقم ٦٢٧.

٧٤. ترجم له ابن القاضي المكناسي في جذوة الاقتباس :٥٥٤/٢، رقم ٦٤٥، وتكررت ترجمته في درة الحجال لابن القاضي:٤٥٢ رقم ١٤٨٠، وفي نيل الابتهاج: ٣٢٥/٢، وملخصه : كفاية المحتاج:٢/ ١٦٥ -٢٦٦ كلاهما لأحمد بابا التنبكتي، ثم ورد ذكره كذلك في تراجم بعض تلامذته، في رحلة العبدري:٣٢، والديباج المذهب لابن فرحون: ١٤٧ رقم ١٦٠، وملحق صلة الصلة: ٣٥٥/٥ رقم ٩١ ودرة الحجال رقم ١٤٨١.

٧٥. صلة الصلة : ٢٦٧/٥ -٢٦٨.

المبحث الخامس: وصف مخطوطة الجزء الرابع من رحلة ابن رشيد[٧٦]:

هي نسخة تحمل رقم ١٧٣٧بخزانة دير الأسكوريال، وتتألف من ١١٨ورقة، ومتوسط عدد الأسطر من الصفحة ٢٦.

بداية المخطوطة: " كان سفرنا على بركة الله تعالى ورجاء صنيعه الجميل وحفظه الكفيل يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول عرف الله بركته، ولم يكن توجهي للإسكندرية عازمًا على التغريب، ولكن لأخذ كتب كنت أودعتها هناك، ونيتي العودة إلى مصر برسم القراءة بها، فغلب علي من يلزمني حقه وموافقته من فضلاء الأصحاب، وكان سفرنا في جفن صغير لأهل إطرابلس، والله تعالى الواقي والعاصم".

نهاية المخطوطة: " وبالجملة كنت أستمتع به وبمجالسته ومجالسة إخواننا التونسيين تولى الله شكرهم، وأطاب ذكرهم وأسعدهم بمصرهم".

هذه النسخة كتبت بخط المصنف كما كتب القسم الأخير من الرحلة[٧٧]. إذ يوجد بآخر الورقة (٦٣وجه) من هذا القسم تعليقان: أحدهما بخط المؤلف، والثاني بخط الفقيه الأديب: عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي (ت٧٤٩هـ)[٧٨].

وهذا نص التعليق الأول بخط ابن رشيد:

" قاله وخطه العبد المستغفر الشاكر محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وحسبنا الله المفوض إليه التوفيق".

وأما نص التعليق الثاني بخط الحضرمي:

" بلغتُ قراءة لجميعه على المصنف أبقى الله حياته، ونقلاً ومعارضةً معه بأصله هذا في الأربعاء من منتصف جمادى الأخرى عام عشرين وسبع مائة. وكتب عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي بمدينة فاس حرسها الله تعالى، حامدًا الله ومصليًا على نبيه محمد المصطفى ومسلمًا تسليمًا كثيرًا كبيرًا"[٧٩].

لقد اشتمل هذا الجزء الرابع من الرحلة على فوائد علمية جمّة مما قيده ابن رشيد عن العلماء الذين لقيهم بتونس في رحلة الإياب إلى وطنه.

وما قيده ابن رشيد عن لقائه بابن رزين يقع ضمن الأوراق (٦٤-٨٣) ويشغل البرنامج الذي نحققه الأوراق(٦٤-٨٣).

---

٧٦. اعتمدت في وصفها على الصورة التي زودني بها الفقيه العلامة: أبو أويس محمد بن الأمين بوخبزة حفظه الله تعالى وجازاه خير الجزاء على تفضله على طلبة العلم بذلك وغيره، آمين.

٧٧. محفوظ بخزانة الأسكوريال تحت رقم ١٧٣٥.

٧٨. له ترجمة في : درة الحجال لابن القاضي المكناسي :٣٦٨، ١١٤٩، وبغية الوعاة: ١١٦/٢ -١١٧.

٧٩. ولم تذكر الدكتورة نجاح صلاح الدين القابسي (الجمعية التاريخية العربية الليبية) هذين التعليقين أثناء وصفها لنسخ هذه الرحلة في مقالها: " رحلة ابن رشيد" بمجلة التاريخ العربي، ع٣ (الرباط) صيف ١٤١٨هـ -١٩٩٧م، ص٢٤٣ -٢٥٩.

لقد التزمت في تحقيق نص البرنامج بالقواعد المتعارف عليها، فقد نسخته عن الأصل، ثم قابلت ما نسخت بأصله. وجعلت بين المعقوفات كل ما أضفته للنص بقصد التبويب أو التوضيح أو التحديد لنهايات صفحات الأصل. واستفدت من بعض نقول العبدري عن برنامج ابن رزين، كما تجد ذلك مبينًا في حاشية النص. وأفردت ابن رزين بترجمة وافية اجتهدت فيها قدر المستطاع ثم شفعتها بالتعريف بشيوخه الثلاثين.

وختامًا أقول:

أسأل الله تعالى أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجازي عني خير الجزاء شيخي الفقيه العلامة سيدي محمد بو خبزة الحسني التطواني، حفظه الله لأهل العلم بالمغرب الأقصى، وبارك الله لنا في علمه وحياته، وهو المثابر على نشر العلم بلسانه وقلمه، كما أشكر العالم الشاب العامل بعلمه الملتزم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله، أخي محمد ياسر الشعيري التطواني، وهو من أخص تلاميذ شيخنا الجليل أبي أويس محمد بوخبزة.



[illegible]

[illegible]

وهذا ما خطه به شيخنا الكاتب الأديب العلامة أبو الحسن [illegible]
وزين حمى الرسالة مشرع في احد حروف كلمته السادسة الرجز
البالي لشرفي بابن رشيق وشهرته بابن [illegible]
آثار لي ابن رشيق بان مفخرها ويبرز مأثور انبائه وارتشاد
معينك شرع آداب ومكمن [illegible] بمستهش [illegible]
اقتضيتك اخبية للعجائب من زرع والجناب الادمع
جنات موقفها المتبع ومنال العذب المشرع وشهاب ابتهاشا في
واستصحاب الدر البديع عن عقد الخطاب الكريمة [illegible]
النجم الثاقب محمد لباب عن الآداب ومحمد لباب العلم [illegible]
[illegible] الغياب للربع الخباب الشامخ [illegible]
ازدلف للعجاب [illegible] الساحر للالباب [illegible]
لمهيمن وبراز [illegible] شنب الجرع يمسك المغارب
وداعي باختيار وعضبي شكر جانبك وبشهادة [illegible]
ومزاهرك وذكر [illegible] وخطارك [illegible] مسطارك [illegible] و
جوانح ابارك وحكم ابانك وعلم انبائك وتشرعك [illegible]
المشارع باتباع الاثر المتبوع وتوقع مساعاتك دولة البلاغة
والبراعة بمنحب المأثور والمبتدع والكرة وتنجيمك لشعراء
وحسبتهم للمنى بالمطلع عن [illegible] السيرة والزكى [illegible]
اعاريضهم المنبية [illegible] وبشرهم [illegible] انوار ابرابه
بتقريبك وعنايتهم اقراعك والبطاعك وذواتهم متبعون جادة
تبيينك وتعبيرك فما ابتاعهم رعيتك واتباعك وشعراؤهم
ابن هم ذو [illegible] استعارتك المنبثة ذوائبهم وابن [illegible]
حسن وحبيب وطرفة وعنترة والمرجحى وابن حجر [illegible]
ونصيب الاصمعي والمعطي وتوبة وذهبي [illegible] وابن خراش
وابن رياش والنوابغ والمرقش وابن الدمينة وشبيب وغامض
وابن جعفر متناخر وحبيب والخليل واعراب النوادر

وابن شهيد القيسي وقطرب والمتنبي والشريف والمهلبي وعمرو
التغلبي ومنصور وابي منصور وابن [illegible] العقيلي و[illegible]
وابو [illegible] وعنترة [illegible] النبيات وعمرو البيان و[illegible]
الشيبك والصريع وطرفة [illegible] والبديع و[illegible] حبانا
الغريض والحيك [illegible] الراح جحابا مستتر [illegible] العارض
فلانا بيب من احكام انتهاب الرواية واستيعاب الدراية و
للنبي الخطيب بيان معارف وبيان رواية وابن [illegible] كتابها
شغله حبك وتوقيرك باطنها وظاهرا ولا كتاب عليها
بواجبات قدرك وحسنات شكرك غايبا وحاضرا وتكلف
[illegible] لمعنى مشتهر شوارك ومكارما ومقتنيات انوارك
بيانك دار ولا [illegible] انتشارها واشتراء عنايته [illegible] بان يعرضه
للمناوب بيتقي بالواجب المفترض وتبركتم فعنيت بيانه
مجموعة المتنبية والعرف بيان جمعهما [illegible]
النصب وافتراق الخشيئة وازدرت فتتبط استعراء الشبه
وارتياد او سرع [illegible] تجنب حرم ادبه [illegible] انشادا
ونعوت [illegible] والحمراء ومعادنه [illegible]
والاستفسار احابته الذي بان يسمى حرمة البلد و[illegible]
فيما تشترط اوجب اخص لما بينك اشتراك انتسابها
وذاي نيل [illegible] ورح انتسابها جمع بعث رفعها [illegible]
نبايتها تقريبا باستحباب شكرك وبسط عذرك وبث امرك
واستمالة [illegible] عن لسان الكاتب الكبير واستشعار [illegible]
الكارث بغرور [illegible] و[illegible] في سببها
ونعمها [illegible] الترجمة العجلة [illegible] نسبها [illegible]
فيها بك وتيسير انشادي وحرم بتشفيعك واقرع جنابك
وذاب بيانا معارفك وادابك وسعيا و[illegible]
والمتنبي منهم [illegible] وابن [illegible] الجنايات
معطر [illegible] والمطرحة [illegible] للنعاقبة رواجا

النص المحقق





(١) تعريف ابن رشيد بابن رزين

قال ابن رشيد السبتي:" ومنهم الشيخ الأديب الحسيب الفاضل السري الكامل أبو الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن رزين التجيبي، أحد الأدباء الفضلاء والرواة السراة من أهل مرسية، وانتقل منها - فيما أراه - قبل الدجن القديم بمرسية، وكان هذا الدجن في شوال عام أربعين و ستمائة، وسكن سبتة مدة مع ابن عمته القاضي العدل أبي القاسم أحمد بن أبي الحسن نبيل، وكان أبو القاسم بن نبيل مولى جد الشيخ أبي الحسن. ثم انتقل إلى بجاية عام ثمانية أو تسعة وأربعين وستمائة، ثم إلى تونس واستوطنها. وكان مقدورًا عليه (رزقه)[٨٠] صابرًا على الفقر المدقع، مع سراوة ونزاهة وسخاء نفس. وربما استعمل في بعض الشهادات المخزنية، وربما كتب عن بعض خدام صاحب إفريقية، ولم يحصل من الدنيا على ما يقيم به أوده، أو يعول به أهله وولده. دخلت منزله يومًا عائدًا فما رأيت فيه ما له قيمة، ولاما يستر أهله عن أعين النظار إلا سترًا دريسًا كنسيج العنكبوت - نفعه الله - وكان مع ذلك محتملاً متجملاً. صحبته أيام مقامي بتونس قافلاً، وكان يوليني برًا حافلاً، وتردد إلى منزلي في كثير من الأوقات مفيدًا ومتحفًا بأنواع من الآداب، وأجناس من الإفادات، وقرأت عليه وسمعت، وأجاز لي جميع رواياته ومصنفاته، ولبنيَّ وإخواني المذكورين قبل، وكتب لي خطه بذلك غير مرة، وبعض كَتْبِه في يوم منى عام خمسة وثمانين وستمائة، وسألته أن يكتب لي أسماء شيوخه فكتب لي في ذلك جزءًا جمعه برمته يحتوي على نحو من عشرين قائمة، حلى فيه شيوخه، وأسند عنهم وأنشد ما تلقاه منهم، وقرأته عليه في يوم منى المذكور، وكتب لي بخطه جملة من شعره ونثره، وخاطبني وراجعته.

(٢) نص برنامج ابن رزين برواية ابن رشيد

(قال ابن رشيد) وسمى لي من شيوخه: (١) القاضي أبا القاسم ابن نبيل، فقال فيه:

(١) **القاضي العدل: أبو القاسم أحمد بن أبي الحسن** مولى جدي للأب أبي القاسم بن محمد التجيبي رحمهما الله. هو ابن عمتي الذي تولى بي - بعد أبي رحمه الله - صغيرًا، واختصني اختصاص بُنُوَّة أوجب من حقها كبيرًا، فارتويت من سجله، ورويت فضل حديثه وحديث فضله".

(قال ابن رشيد) ثم ذكر ما أخذ عنه وما سمعه منه.

سمع وقرأ عليه الكثير ومنه جل استفادته، وقد استجاز له، وأشركه في أكثر شيوخه.

(٢) **والقاضي العدل: أبا عيسى محمد بن محمد بن أبي السداد موفق**[٨١] مولى زاك اللمتوني، سمع عليه الكثير، من ذلك: الموطأ، وسنن أبي داود، والسيرة لابن إسحاق، وغير ذلك وأجاز له.

(٣) **والحاج المقري: أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الملك الأزدي، عرف بالقارجي، وبابن القرشية** نزيل مرسية، وأصله قيجاطة، وكان مقدمًا في علم القراءات . تلا عليه بالسبعة بما تضمنه

---

٨٠. زيادة من المحقق للتوضيح.

٨١. ترجم له ابن الأبار في التكملة.

التيسير[82]، وتلا القارجي على (٦٤ و) أبي جعفر الحصار ببلنسية عن ابن هذيل[83]، عن أبي داود عن أبي عمرو.

{قال ابن رشيد} أخبرنا أبو الحسن الكاتب الأديب[84]، قال: أخبرني شيخي القارجي أنه لقي بطبرية أبا الحسن علي بن محمد التجيبي، فأخذ عنه القراءات السبع في ختمة واحدة، وكتاب التيسير لأبي عمرو، وحدثه بجميع ذلك عن أبي الربيع سليمان بن طاهر بن عيسى[85]، عن أبي عمرو.

قال أبو الحسن: وهي من هذا الوجه طريق عالية، ويعرف الإسناد حالته".

قلت[86]: «هذا الطريق مجهول، وتبعد صحته، وقد أسند القارجي أيضًا عن التجيبي عن مجهول آخر عن أبي عمرو، فيما بلغني، وكأن الطريقين لا يعتمد عليهما، وأبو جعفر الحصار غاية للقارجي كيف أن يساويه».

قال أبو الحسن:" وأجاز لي القارجي بخطه ما يحمله ويرويه بتاريخ شهر ذي القعدة من سنة ثنتين وأربعين وستمائة".

(٤) والكاتب الكامل الخطيب المصقع: أبا عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن الجنان الأنصاري المرسي، تدرب به وكتب عنه كثيرًا من شعره وخطبه، وارتوى كما قال من معين أدبه.

(٥) والقاضي المتفنن الخطيب: أبا بكر محمد ابن القاضي المشاور أبي القاسم الطيب بن محمد ابن الطيب بن الحسين بن هرقل الكناني، أحد أعيان أهل مرسية، وصدر جلتها، تفقه به، وأجاز له مشافهة، ثم أجاز له الإجازة العامة بعد مدة من لقائه، وكتب له خطه بالإجازة بتاريخ شعبان سنة أربع وخمسين وستمائة.

(٦) والحافظ الحافل الكاتب: أبا عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي، ابن الأبار، لازمه كثيرًا واستفاد منه، وأخذ الحديث والأدب عنه.

قال : وأنشدني من شعره قصيدته التي أولها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسًا[87]

إلى آخرها، وغيرها من مقطعات كأنها من الحسن مقتطعات.

قال: وسمعت عليه من مصنفاته وإنشاءاته: الأربعين حديثًا، وتكرر لي سماعها من لفظه، وكتاب المعجم

---

٨٢. هو كتاب التيسير في القراءات، لأبي عمرو سعيد بن عثمان المقرئ الداني، راجع فهرسة ابن خير الإشبيلي: ٢٨.

٨٣. أبو الحسن علي بن محمد بن هذيل المقرئ {ت٥٦٤هـ} له ترجمة في صلة الصلة: ١٠٣/٤، والذيل والتكملة :٣٦٩/٥- ٣٧٢.

٨٤. يعني شيخه أبا الحسن ابن رزين التجيبي.

٨٥. قال ابن عبد الملك المراكشي:" سليمان بن طاهر بن عيسى: أندلسي أبو الربيع؛ روى عن أبي عمرو المقرئ. روى عنه أبو الحسين علي بن محمد التجيبي نزيل طبرية من بلاد الشام؛ قال أبو عبد الله ابن الأبار: حكاه أبو عبد الله القيجاطي، قال وفيه عندي نظر". الذيل والتكملة:٧٠/٤ رقم ١٦٩.

٨٦. يعني ابن رشيد نفسه.

٨٧. تتمة البيت: إن السبيل إلى منجاتها درسًا . القصيدة مروية في الذيل والتكملة:٢٥٩/٦- ٢٦٢.

في أصحاب أبي علي الصدفي[88]، الذين رووا عنه، بقراءة صاحبنا الفقيه أبي عبد الله ابن الجلاب، وكتاب درر السمط في خبر السبط، وتكرر لي سماعه من لفظه، وسمعت من لفظه- من تواليفه- كثيرًا من كتاب التكملة لكتاب الصلة، وناولنيه؛ وبعض كتاب إعتاب الكتاب، وكثيرًا من تحفة القادم، وجملة من الكتاب المحمدي، وكثيرًا من كتاب خضراء السندس{٦٤ظ} في شعراء الأندلس، وما كان شرع فيه من شرح البخاري، وقرأت عليه – من تواليفه- جميع أرجوزته التي وسمها بنفاضة العياب ولُفاظة العُباب[89]، وأجاز لي جميع ذلك من سائر تواليفه، وجميع تصانيفه التي منها: معدن اللجين في مراثي الحسين، والمأخذ الصالح في حديث معاوية بن صالح[90]، والمورد السلسل في حديث الرحمة المسلسل، وقصد السبيل وورد السلسبيل - في المواعظ، والإيماء إلى المنجبين من العلماء، وقطع الرياض في بدع الأغراض، والحلة السيراء في شعراء الأمراء، وإيماض البرق في شعراء الشرق، ونهاية[91] المعتسف في المؤتلف والمختلف، واعتصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب، وبرنامج روايته، ومعجم شيوخه. وهي نيف على خمسين تأليفًا، وقد خلد منها ما راق نظامًا وحَسُن افتتاحًا واختتامًا. قال:" وسمعت منه قصيدة مدرك الشيباني المزدوجة في عمرو بن يوحنا[92]، وأجاز لي جميع رواياته وإنشاداته ومؤلفاته، وكل ما صدر عنه من منظوم ومنثور، وكتب لي بذلك بخط يده، بتاريخ شهر ربيع الأول من عام أربعة وخمسين وستمائة. وآخر ما أنشدني من شعره قوله:

إلى مَ في حل وفي ربط ... تخبط جهلاً أيما خبطِ

دع الورى وارج إله الورى ... فإنه ذو القبض والبسطِ

ليس لما يعطيه من مانع ... ولا لما يمنع من مُعطِ[93]

٨٨. راجع فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني: ٦١٨/٢ رقم ٢٣٩.

٨٩. وقد ورد اسمها في الذيل والتكملة:٦/٢٥٨-٢٥٩ هكذا: فضالة العباب ونفاضة العياب". وما ذكره ابن رزين أصح.

٩٠. قال محمد بن حارث الخشني :" هو معاوية بن صالح بن عثمان المعروف بحدير بن سعيد بن فهر الحضرمي، كان من أهل الشام ثم من أهل حمص، وكان من جلة أهل العلم ورواة الحديث ، شرك مالك بن أنس في بعض رجاله: يحيى بن سعيد وغيره . وروى عن معاوية من صالح جملة أهل العلم وروى عه سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد. دخل معاوية بن صالح الأندلس فنزل بإشبيلية حتى قدم عبد الرحمن بن معاوية (صقر قريش) فأرسله إلى الشام مع أخته، فلما قدم ولّاه القضاء بقرطبة. قال ابن حارث الخشني : رأيت في كتاب أخبار حمص أن معاوية بن صالح بن حدير الحضرمي خرج من حمص إلى الأندلس سنة ١٢٥، وتوفي رحمه الله بالأندلس سنة ١٥٨". أخبار الفقهاء والمحدثين لمحمد بن حارث الخشني:١٣٩-١٤١.

٩١. قال ابن رشيد في الحاشية معلقًا:" كذا وقع بخط شيخنا أبي الحسن وصوابه " وهداية أ.هـ.

٩٢. قال أبو بكر ابن خير: قصيدة مدرك بن عمرو (كذا والصواب علي) الشيباني: حدثني بها القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله ، قال: حدثنا أبو محمد بن السراج المقرئ البغدادي بها، قال أنشدنا أبو القاسم التنوحي، قال أنشدنا القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء بلفظه، في دار الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبري قال: أنشدنا أبو القاسم مدرك بن عمرو الشيباني في عمرو النصراني". فهرسة ابن خير:٣٧٠. وفي برنامج الوادي آشي:٣١٩ تعليقان ٣-٤ زيادة بيان عن تلك القصيدة مستفادان من معجم الأدباء لياقوت الحموي:١٩/١٣٥ -١٤٦ وغيره.

٩٣. هذه الأبيات الثلاثة نقلها العبدري أيضًا عن ابن رزين وقال:" وقرأت عليه لأبي عبد الله القضاعي، قال: وهو آخر ما أنشدني من شعره". رحلة العبدري:٢٥٤.

{قال ابن رشيد} أنشدت هذه الأبيات على شيخنا أبي الحسن وكتبها لي بخطه.

(٧) **والراوية المعمر:** أبا الحسين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله، ابن قاسم بن السراج الأنصاري الإشبيلي نزيل بجاية، قرأ عليه شيخنا أبو الحسن وسمع وتناول منه، وأجاز له جميع رواياته، وكتب له ذلك بخط يده. قال:" وكان رحمه الله ثقة في أخباره، ثبتًا في روايته، ورزق صحة في جسمه وضوء بصره، فكان يبصر أدق الخطوط مع كونه، عُمِّر حتى ناهز المائة من السنين، وحدثني بالسبب في ذلك أنه رمدت عينه رمدًا شديدًا اختل منه ضوء بصره، فرأى النبي ﷺ في منامه [...] [٩٤] لعينيه لذلك، فكأن النبي ﷺ أشار إلى عينه- أُنْسِيتُ حقيقة ما ذكر لي من ذلك - فبرئت عينه في الحين، ولم ترمد له بعد، ولم تزل صحيحة - ببركة الرؤيا الكريمة النبوية - إلى أن توفي رحمة الله عليه".

{قال ابن رشيد} قرأت هذه الحكاية على شيخنا أبي الحسن - وكتبها لي بخطه -، قال: أنشدت على شيخنا أبي الحسين بلفظي قراءة فيما (٦٥و) وكتب لي بخطه، قال وأنشدني - يعني أبا الحسين ابن السراج-، قال أنشدني القاضي الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن أغلب الخولاني الزوالي لنفسه:

ونهار بنهر قلعة جابر	كان مني لواهن الأنس جابر
بطيور كأنها خطباء	في غصون كأنهن منابر
سترتها الأغصان[٩٥] فهي تغني	فسمعنا القيان خلف الستائر
نوبة تبرئ المنوب حتى	لو غدا ميتا لأصبح ناشر
كيف تدعون قينة الروض أمًّا	وهي بكر رضيع ثدي الأزاهر

(٨) **والقاضي الحبر المتفنن:** أبا المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عميرة المخزومي. قال: لقيته بسبتة ثم بتونس، وسمعت عليه، وأجاز لي بخطه في جميع ما يحمله من أنواع العلوم، وكل ما صدر عنه من منثور ومنظوم، بتاريخ جمادى الأولى من سنة خمس وخمسين وستمائة.

(٩) **والقاضي الحسيب: أبا القاسم أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقي القرطبي.**

قال: ومولده بمراكش، لقيته ببجاية مقدمه علينا لغايته الحجازية، فسمعت عليه فهرسة جده أبي القاسم أحمد بن يزيد بقراءة أبي عبد الله الأبار، وتلفظ لي، ولمن حضر المجلس بالإجازة العامة في جميع ما يحمله ويرويه.

(١٠) **والمحدث أبا العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف بن فرتون السلمي،** الفاسي الدار، نزيل سبتة، لقيته بها فسمعت عليه - بقراءة ابن عمتي أبي القاسم بن نبيل - تأليفه الذيل لصلة ابن

٩٤. كلمات غير واضحة.

٩٥. في رحلة العبدري"الأوراق":٢٥٢.

بشكوال، وفهرسة شيوخه، وسائر تواليفه، وكتاب الصلة لابن بشكوال، وأجاز لي ما رواه وأنشده وألفه، وكتب لي بذلك.

(١١) **والفقيه المحدث: أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الأزدي** من أهل سبتة. لقيته بها غير مرة، وسمعت عليه، وأجاز لي جميع ما يحمله ويرويه.

(١٢) **والأستاذ العلامة أبا عبد الله محمد بن الحسن بن عمر الفهري المعروف بابن المحلي**. لقيته بسبتة، وحضرت مجلس إقرائه، وأجاز لي جميع ما يحمله ويرويه، وكل ما صدر عنه من منثور ومنظور، وكتب لي بذلك بتاريخ عام أربعة وخمسين وستمائة.

(١٣) **والحاج الراوية المحدث أبا زكريا وأبا بكر يحيى بن عبد الملك بن محمد بن يحيى اللخمي المعروف بابن أبي الغصن**، بلده مُولة من أعمال مرسية، ونزيل مرسية. سمعت عليه، وأجاز لي جميع ما يرويه {٦٥ظ}. ومما سمعت عليه- بقراءة ابن عمتي أبي القاسم بن نبيل- الأربعون حديثًا لأبي الفتوح الطائي[٩٦]، حدثني بها عن أبي محمد يونس بن يحيى الهاشمي، سماعًا عليه بمكة، عن مؤلفها. وسمعت عليه من تأليفه كتاب الأربعين في تعويذ الخائفين، وشفاء المتعوذين.

(١٤) **والمحدث الحسيب: أبا إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، ابن الحاج، السلمي، البلفيقي** نسبة إلى بلفيق، حصن من حصون المرية، جالسته وأجاز لي جميع ما يحمله ويرويه، وكتب لي بخطه بذلك بتاريخ شهر ذي القعدة من عام أربعة وخمسين وستمائة، واستجاز لي من أهل المشرق في رحلته نحوًا من سبعين[٩٧] كتبوا إلي بذلك.

(١٥) **والقاضي الخطيب الحسيب: أبا محمد عبد الله، ابن القاضي أبي بكر عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي المعروف بابن بُرْطُلُهْ** - بالهاء المُسَكَّنة -. قال: كذا ثبت عنه رحمه الله، وهو الأشهر. بيته ببلدنا مرسية قديم الحسب كريم المنتسب، سمعت عليه، وأجاز لي جميع ما رواه وما صدر عنه من منظوم، ومنثور، وأجاز لي جميع خطبه التي من إنشائه، وقد كنت سمعت أكثرها من لفظه، وهو يخطب بها بالمسجد الجامع من بلدنا مرسية.

{قال ابن رشيد} أنشدت بلفظي على شيخنا أبي الحسن بتونس يوم منى عام خمسة وثمانين وستمائة، وكتبه لي بخطه قال: وأنشدني - يعني أبا محمد ابن برطله- بالمسجد الجامع من بجاية في رجب سنة خمس وخمسين وستمائة، قال: أنشدني الحافظ أبو عمر بن عات، سنة ثمان وستمائة، قال: أنشدني العالم أبو المفضل المقدسي سلخ شهر ربيع الأول سنة ثنتين وستين وخمسمائة بثغر الإسكندرية حماها الله تعالى:

٩٦. ورد ذكر هذا الكتاب في برنامج الوادي آشي: ٢٨٧، هكذا " الأربعون - لأبي الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي {ت٥٥٥هـ-} في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين". راجع ترجمة أبي الفتوح الطائي في طبقات الشافعية للأسنوي:٢/١٧٢ -١٧٣.

٩٧. وقفت في برنامج الوادي آشي:٢٩٩ -٣٠٠. على تسمية رجل منهم ، وهو: أبو العباس أحمد بن عبد الله بن علوان الأسدي، يروي عنه ابن رزين بالإجازة قصيدة في الزهد على حروف المعجم - بالزيادة التي أضافها لها ناظمها - الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن السراج البغدادي (ت٥٠٠هـ) مؤلف كتاب : مصارع العشاق.

أيا نفس بالمأثور عن خير مرسل — وأصحابه والتابعين تمسك

عساك إذا بالغت في نشر دينه — بما طاب من عرف له أن تمسك

وخافي غدًا يوم الحساب جهنما — إذا لفحت نيرانها أن تمسَّك[٩٨]

قال وهذه الأبيات ختم بها أبو الحسن المقدسي المذكور تأليفه **الفوائد المنتخبة**.

{قال ابن رشيد} أنشدت بلفظي على شيخنا الكاتب أبي الحسن رحمه الله، وكتبه لي بخطه، أنشدني الخطيب أبو محمد، ابن برطلة - قراءة مني عليه - لنفسه:

بأربعة أرجو خلاصي(٩٩)، وإنها — لأكرم مذخور لديّ وأعظم

شهادة إخلاصي وحبي محمدًا — وحسن ظنوني ثم أني مسلم[١٠٠]

(١٦) والحافظ المحدث صاحبنا الكريم ومالك ناصية النثر والنظم: أبا عبد الله محمد بن أحمد ابن محمد بن الجلاب الفهري[١٠١]، أصله من المرية أو وادي آش، ونشأ {٦٦و} بتونس. وقال: صحِبتُّه في السفر والحضر أعوامًا أباهي به إخوان الصفا فضلاً ونبلاً، وكرم عشرة وسراة أخلاق، وكمال مروءة، وعلو همّة، وحسن إمتاع، وسعة معارف، وحضرت معه مجالس بعض شيوخنا، فآنس بحق معه في كثير من قراءة وسماع، وأسمعني من لفظه كتابه الذي ألفه **بثغر منرقة في الأبيات النونية**، وأجازه لي، وكان قد حدث عني فيه بمقطعات مما رويته وقيدته، وكذلك كتابه الذي وسمه ب: إيثار **النقل لآثار الفضل**، نقلته من خطه، وقرأته عليه، وأجازه لي، وأراني تأليفه المترجم: **رَوْح الشحر ورُوح الشعر**، في مسودة تخريجه، فأسمعني أكثره، وأجاز لي سائره مع سائر تواليفه وانشاداته، وكل ما صدر عنه من منظوم ومنثور، وأنشدني من شعره مُقطَّعات، وبيني وبينه محاورات، ومراسلات، له فيها الفضل علي، والمزية التي أثرها نور يسعى بين يدي من رسائل أنيقة تضمنت من شذور منظوم ومنثور ما هو لدي أكرم عتاد، وأعظم مستفاد، وآخر ما كتب به إلي صدر رسالة يعتب علي إبطاء كتبي عنه، قوله:

بيني وبين الدهر فيك عتاب — سيطول إن لم يمحه الإعتاب

يا غائبا بكتابه ولقائه — هل يُرتجى من غيبتك إياب

لولا التعلل باللقاء تقطعت — نفس عليك شقاؤها الأوصاب[١٠٢]

{قال ابن رشيد:} أنشدت هذه الأبيات على شيخنا أبي الحسن وكتبها لي بخطه، وأعارني **كتاب روح الشحر** المذكور بخطه، ونقلت منه فوائد، وكذلك أيضًا أعارني كتابه الذي عارض به **روح الشحر**، وسماه **جني الزهر وسني الدرر**، وهو أكبر حجمًا منه، ونقلت منه أيضًا فوائد بل فرائد.

---

٩٨. هذه الأبيات رواها العبدري في رحلته في ترجمة شيخه ابن رزين: ٢٥٤.

٩٩. بالأصل: "نجاتي"، والمثبت من رحلة العبدري.

١٠٠. البيتان وردا أيضًا في رحلة العبدري: ٢٥٤.

١٠١. ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة: ٣/٤٠-٤١، والمراكشي في الذيل والتكملة: ٦/٥٢-٥٤.

١٠٢. الأبيات وردت كذلك في رحلة العبدري: ٢٥٤.

(١٧) والحاج الفقيه المحدث الضرير: أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي شهر بابن الخضار، قرأت عليه وسمعت، ومن ذلك كتاب معرفة علوم الحديث لابن الصلاح، وحدثني به عن مؤلفه رحمه الله.

(١٨) والشيخ الراوية: أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم، الأنصاري، البلنسي، المعروف بابن جُوبر، نزيل سبتة. أجاز لي جميع ما يحمله ويرويه.

(١٩) والقاضي الحسيب: أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن عياش، التجيبي، سمعت منه، وحدثني وأنشدني، وناولني، وتلفظ لي بالإجازة العامة في جميع ما يحمله ويرويه عن شيوخه المذكورين في فهرسته{٦٦ظ}.

(٢٠) والكاتب الأديب: أبا عثمان سعد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن خلف، الأنصاري، المعروف بالأكوبي البلنسي، صاحبنا، سمع من أبي الربيع بن سالم، مصباح الظُلم من تأليفه، وكتاب الشهاب للقضاعي، وغير ذلك.

{قال ابن رشيد} قال شيخنا أبو الحسن: وجمع شعر الأديب المتصوف أبي الحسن نَجَبَة[١٠٣] بخطه وصححه عليه ورواه عنه.

قال : وهو عندي بخطه. قال: وكان رحمه الله كاتبًا مُجيدًا، وشاعرًا بليغًا نبيل المقاصد والتخيل في شعره، مطبوع النادرة فيه، حسن الخط، بارع الأدب، وكان لي صديقًا صفيًا وصاحبًا وفيًا. أنشدني أكثر موشحاته، وما قيَّدت وسمعت عليه من شعره في فنون شتى، من ألغاز وتعميات، وغيرها، وأجاز لي جميع ما يحمله ويرويه.

{قال ابن رشيد} أنشدني شيخنا أبو الحسن قال أنشدني لنفسه - يعني أبا عثمان الأكوبي - في نسوة مر بهن يتباكين على قبور في أيام عيد:

برزوا بأحسن زينة وعرتْهُم ... ذكرى من الأهلين والخلان
فتهافتت درر الدموع لما رمت ... من شت شملهم يد الحدثان
فاعجب لضدي حالتين تلاقيا ... زي السرور وعبرة الأحزان[١٠٤]

{قال ابن رشيد} وأنشدت على شيخنا أبي الحسن بتونس بلفظي، وكتبه لي بخطه، وقرأته عليه، قال: وأنشدني - يعنيه - بخارج تونس - حرسها الله - في شهر صفر سنة أربع وستين وستمائة، قال: أنشدني شيخنا الخطيب أبو الربيع بن سالم ببلنسية - أعادها الله - قال أنشدني أبو بكر عتيق بن علي بن الحسن، الصنهاجي المعروف بالفصيح، بمراكش سنة إحدى وتسعين وخمسمائة قال: أنشدنا الحسن بن أبي الفتح ابن أبي النجم بن وزير الواسطي ببغداد ببعض رباطات نهر مُعَلّى سنة إحدى وثمانين ، قال: أنشدني أحمد

---

١٠٣ لعله: أبو الحسن بن نجبة بن يحيى بن خلف بن نجبة الرعيني: إشبيلي سكن مراكش، وكان متين الأدب شاعرًا مجيدًا كاتبًا بليغًا بارع الخط" راجع الذيل والتكملة:١/٥: ٤١٤.

١٠٤ الأبيات رواها أيضا العبدري في رحلته: ٢٥٤.

ابن محمد بن علي، الواسطي، قال: أنشدني صدقة بن الحسين بن أحمد بن وزير، قال: أنشدني ابن البندائي، قال: أنشدني أبو محمد الحريري- رحمه الله- لنفسه، وكتب بها إلى صهره أبي زيد السروجي، واسمه المطهر، كان مدمنًا – ينهاه عن ذلك:

أبا زيد اعلم أن من شرب الطّلى	تدنس فاسمـع قـول واع مهـذبِ
ومن قبل سميت المطهر والفتى	يصدق بالأفعال تسمية الأبِ {٦٧و}
فلا تحسوُنّها ما دُعِيت مطهرًا	وإلا فغيرْ ذلـك الاسمَ واشـربِ

قال شيخنا أبو الحسن: ثم قرأت بعد ذلك تصحيح هذا السند بخط الخطيب أبي الربيع ابن سالم على ظهر كتاب مقامات الحريري لأبي عثمان المذكور.

{قال ابن رشيد} قلتُ:" وهذا الذي وقع في هذا الإسناد بخط شيخنا أبي الحسن، من قولهم:" قال أنشدني ابن البندائي: تصحيف إما من أبي الحسن أو من أبي عثمان، أو من أبي الربيع ابن سالم، لا ممن فوقهم، وصوابه ابن المندامي، واسمه أحمد بن بختيار، يكنى أبا العباس، يروي المقامات عن الحريري، ويروي هذه الأبيات عن الحريري، وروايته لها معروفة، وعلى الصواب وقع في رواية الإمام أبي الحسن ابن القطان[١٠٥] عن أبي بكر الفصيح، رحم الله الجميع».

(٢١) والكاتب الأديب الفاضل أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن، الجذامي، المعروف بابن العطار: من أهل قرطبة. خرج به أبوه منها صغيرًا قبل الفتنة، ورحل به إلى الإسكندرية، واستوطنها زمانًا، وبها قرأ العربية، والآداب، وقرأ على رشيد الدين أبي محمد عبد الوهاب بن ظافر بن علي بن رواج، وروى عنه الأربعين لأبي الطاهر السلفي في محرم سنة أربعين وستمائة، سماعًا عن مؤلفها، وحج مع أبيه، ثم توفي أبوه، رحمه الله، وتجول أبو عبد الله ببلاد المشرق شابًا إلى أن نزل فاس، وسكنها زمانًا، ثم انتقل منها إلى تونس، ولم يزل بها ورّاقًا لخزانة السلطان، ثم رحل عنها في حدود عام أربعة وأربعين وستمائة، لأمر نقم عليه، ونسب كله أو جلّه إليه، ودخل الأندلس وتجول ببلادها، ودخل قرطبة، ثم عاد إلى تونس، واستوطنها، وتأهل بها، ونال بأدبه من خدمة السلطان حظًا سنيًا، وكان رحمه الله شاعرًا مجيدًا، وكاتبًا بليغًا، وأديبًا متفننًا، حسن الخط، أنيق الوراقة، مشاركًا في علم العربية واللغة والآداب بالقدح المعلى، وكان مع هذا كريم النفس، عالي الهمّة، حسن الخلق، وفيَّ العهد، ذكي المحاضرة، فَكِه المجالسة، ظريف الدعابة، وكثيرًا ما كان يستطردها في شعره، ويسميه تلبيسًا، وهو الدرع الحصينة والدرر الثمينة. وقد كان شيخنا أبو عبد الله القضاعي[١٠٦]- رحمه الله - كثيرًا ما يعجب به، ويستحسن فيه ظرف منزعه، ولطافة مذهبه، وربما أثبت منه في بعض تواليفه ما يشهد بنبله، ويدل على فضله. وله

---

١٠٥ هو علي بن محمد بن عبد الملك يعرف بابن القطان الفاسي (ت٦٢٨هـ) المحدث المغربي المشهور صاحب كتاب بيان الوهم والإيهام. راجع عنه الذيل والتكملة، لابن عبد الملك المراكشي٨/١: ١٥٧ -١٩٥.

١٠٦ يعني ابن الأبار صاحب التكملة لكتاب الصلة.

أرجوزة في الأدب على حروف المعجم، وتقييد مفيد في العربية. صحبته بتونس أعوامًا {٦٧ظ} فاستفدت منه، ورويت عنه، وجمعت ما ألفيت من شعره من أماليه، على اختياره. ثم قرأته عليه، وأجازه لي مع جميع ما يحمله ويرويه من العلوم على الخصوص والعموم.

{قال ابن رشيد} قرأت على شيخنا أبي الحسن قال: ومما أنشدني من شعره - يعني أبا عبد الله ابن العطار-:

لهفي على طيب ليال خلت ... بجانب البطحاء من قابس

كأن قلبي عند تذكارها ... جذوة نار بيدي قابس[١٠٧]

وقوله في ذي فلج:

قالوا به فلج يشين وما دروا ... أن الذي عابوه فيهم يرغب

ما ذاك إلا أن عذب رضابه ... لما حل طفا عليه الطحلب

وقوله ملغزًا في سكين:

أحاجيك ما شيء إذا ما سرقته ... وفيه نصاب ليس يلزمك القطع

على أن فيه الحد والقطع ثابت ... ولا حد فيه هكذا حَكَم الشرعُ

وقوله أيضا مُعَمِيًا في اللغز نفسه:

ما اسم تحار به الأوهام والفكر ... ويعترى اللسن فيه العي والحصر

يستبشر المرء إذا يبدو له فإذا ... لم يبد يعتاده الوسواس والسهر

يغري به كل نِحرير وذي فطَنٍ ... ويفتدي منه من لا عنده النظر

هذا هو اللغز قد جليته لكم ... كما يجلي سوادَ الحندسِ القمر[١٠٨]

{قال ابن رشيد:} قرأت على شيخنا أبي الحسن جميع هذه الأبيات.

وتوفي رحمه الله يوم السبت الثالث لشهر جمادى الآخرة من سنة سبع وسبعين وستمائة، ودفن عصر اليوم المذكور بحومة المصلى من خارج تونس كلأها الله.

{قال ابن رشيد} وممن أجاز له[١٠٩] ولم يلقه:

(٢٢) الخطيب: أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الله بن خيرة البلنسي. قال ذكر: لي ذلك ابن عمتي أبو القاسم بن نبيل أنه استجازه لي فأجازني.

---

١٠٧. ورد البيتان منسوبين إلى ابن العطار أيضا في رحلة التجاني:١٧٨. وأنشد له ٣ أبيات أخرى في الرحلة نفسها: ٧٣.

١٠٨. الأبيات الخمسة الأخيرة وردت بنصها في رحلة العبدري:٢٥٥.

١٠٩. الضمير عائد على ابن رزين.

برنامج شيوخ علي بن محمد بن رزين التجيبي الأندلسي

قال وكذلك:

(٢٣) **الخطيب الحسيب : أبو الحسن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسي**، ذكر لي ابن عمتي أبو القاسم أنه استجازه لي فأجاز لي.

(٢٤) **والأستاذ الأوحد: أبو علي الشلوبين**، كتب إليه بالإجازة العامة.

(٢٥) **والقاضي أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن قطرال** كتب إليه بالإجازة العامة.

(٢٦) **والقاضي العالم أبو الفضل: ابن القاسم بن علي بن البراء التنوخي**، كتب إليه بالإجازة العامة في جميع ما يحمله ويرويه، وكل ما صدر عنه مما شرح واختصر، فبيَّن وأوضح، وذلك بتاريخ عام خمسة وخمسين وستمائة. قال : ثم لقيته بعد ذلك {٦٨و}.

(٢٧) **والحَبْر أبوعبد الله محمد بن أبي محمد عبد الجبار بن محمد الرعيني، ثم السوسي**، كتبها إليّ - ولم ألقه - بتاريخ شهر جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وستمائة.

(٢٨) **والحاج المعمر: أبو عمرو عثمان بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم، العبدري الفاسي، عرف بابن الحاج**، نزيل سبتة، كتب إلي مجيزًا **بتاريخ عام أربعة وخمسين وستمائة.**

(٢٩) **والمحدث: أبو يعقوب** يوسف بن موسى بن أبي عيس المحسَّاني، كتب إليَّ مرتين، آخرها عام سبعة وخمسين وستمائة، ولم ألقه.

(٣٠) **والرئيس المتفنن:** أبو عثمان سعيد بن أبي عمرو حكم **بن عمر بن حكم القرشي**[١١٠] ذو الهمم العليا، واحد رجال الدين والدنيا. أصله من طبيرة، ونزل جزيرة منرقة، فسَدَّ ثغرها، وسدد أمرها، وأعادها من قطره عز الشاهد، وحرم المجاهد الجاهد، حتى عاد إليها شبابها بعد المشيب، وفاه ثغرها من إيالته بأبهى من الثغر الشنيب. كتب إليَّ بخط يده من قاعدته بثغر منرقة بالإجازة في جميع رواياته، وكل ما صدر عنه من نثر ونظم، بتاريخ ليلة يوم الخميس الثالث عشر لشهر ربيع الأول عام ثمانية وخمسين.

{قال ابن رشيد} **هذه جملة ما سمَى لنا شيخنا أبو الحسن ابن رزين من شيوخه.**

١١٠.أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام:٢/ ٢٤٤ -٢٤٥.

- **الإحاطة في أخبار غرناطة**، للسان الدين ابن الخطيب، تح. محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٣ -١٩٧٦م.
- **أخبار الفقهاء والمحدثين**، لمحمد بن حارث الخشني، بيروت، ١٩٩٩م.
- **اختصار القدح المعلى لابن سعيد المغربي**، تح. إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩م.
- **أزهار الرياض في أخبار عياض**، لأبي العباس أحمد المقري التلمساني، تح. سعيد أعراب، الرباط، ١٩٧٨م.
- **الإعلام بنوازل الأحكام**، للقاضي عيسى بن سهل الجياني، (في جزأين)، تح. رشيد حميد النعيمي المحامي، الرياض ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، للسان الدين ابن الخطيب، تح. سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- **أعلام مالقة**، لأبي عبد الله ابن عسكر، وأبي بكر ابن خميس، تح. عبد الله المرابط الترغي، بيروت، ١٩٩٩م.
- الأعلام، لخير الدين الزركلي.
- **الإكسير في فكاك الأسير**، لمحمد بن عثمان المكناسي، تح. محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٥م.
- **إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح لابن رشيد السبتي**، تح. محمد الحبيب، ابن الخوجة. الدار التونسية للنشر. د.ت.
- **برنامج الوادي آشي**، تح. محمد محفوظ، بيروت، ١٩٨٠م.
- **برنامج القاسم بن يوسف التجيبي السبتي**، تح. عبد الحفيظ منصور، تونس - ليبيا ، ١٩٨١م.
- **برنامج شيوخ الرعيني**، تح. إبراهيم شبوح . دمشق ١٩٦٢م.
- **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، لمحمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم، تح. محمد بن أبي شنب، الجزائر ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.
- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ليحيى بن خلدون، الجزء الأول، تح. عبد الحميد حاجيات . الجزائر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لجلال الدين السيوطي ، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٤م.
- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لأحمد بن عذاري المراكشي:
  الأجزاء (١- ٤) بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م. الجزء (٥) بيروت ١٤٠٦/١٩٨٧م.
- **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، لأبي الوليد ابن الفرضي، تح. عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٨٨م.
- **التكملة لكتاب الصلة**، لأبي عبد الله ابن الأبار البلنسي، تح. عبد السلام الهراس، الدار البيضاء، ١٩٩٠م.
- **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، لمحمد بن أبي نصر الحميدي الميورقي، تح. إبراهيم الأبياري، بيروت - القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٨٤م.
- **الحلة السيراء لمحمد بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار**، تح. حسين مؤنس، الإسكندرية، ١٩٦٣م.
- "**حول ابن رزين مؤلف كتاب الطبيخ**"، مقال للدكتور محمد بن شريفة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، عدد ٨، ١٩٨٢/ ٩٥ -١١٥.
- **خلاصة تاريخ تونس**، حسن حسني عبد الوهاب، تونس، ٢٠٠١م.
- **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، لإبراهيم بن فرحون، تح. مأمون بن محيي الدين الجنان، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لعلي بن أبي زرع الفاسي**، الرباط، ١٩٧٢م.
- **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لمحمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي**:/ الأسفار (١-٤-٥- ٦- ٨)، تح. محمد بن شريفة - إحسان عباس. ١٩٦٥ -١٩٨٤م.

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، لابن القاضي، الرباط، ١٩٧٤م.
- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، تح. عبد السلام هارون، بيروت، ١٩٨٣م.
- درة الحجال في غرة أسماء الرجال، لأحمد بن محمد، ابن القاضي المكناسي، تح. مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ٢٠٠٢م.
- درر السمط في خبر السبط، لمحمد بن عبد الله ابن الأبار، تح. عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٧ /١٩٨٧.
- رحلة التجاني (عبد الله بن محمد)، تقديم : حسن حسني عبد الوهاب، ليبيا - تونس ١٩٨١م.
- الرحلة المغربية، لمحمد بن محمد العبدري، تح. محمد الفاسي ، الرباط ، ١٩٦٨م.
- سير أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تح. شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي وآخرين، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد خلوف، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٠هـ/١٩٤٩م.
- صلة الصلة لابن الزبير الغرناطي (القسم ٣-٤- ٥) تح. عبد السلام الهراس - سعيد أعراب ، الرباط ، ١٩٩٣- ١٩٩٥م.
- طبقات المفسرين، لمحمد بن علي بن أحمد الداودي، بيروت، ٢٠٠٢م.
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأحمد بن محمد بن عبد الله الغبريني، تح. عادل نويهض، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، لأبي الحسن ابن رزين التجيبي، تح. محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.
- فهارس الخزانة الحسنية، فهرس مخطوطات الأدب (جزآن)، إنجاز ، سعيد حنشي- عبد العالي لمدبر. إشراف الدكتور أحمد شوقي بنبين، الرباط ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، تأليف عبد الله المرابط الترغي، الدار البيضاء، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، باعتناء الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة بالرباط، إنجاز: علوش وعبد الله الرجراجي القسم الثاني (١٩٢١ -١٩٥٣م)، الجزء الثاني، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- فهرسة أبي بكر محمد بن خير الإشبيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- فهرسة محمد بن عبد الملك المنتوري القيسي، نسخة الخزانة الحسنية بالرباط، رقم : ١٥٧٨.
- قضاة قرطبة لمحمد بن حارث بن أسد، الخشني، القيرواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد.
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، تح. محمد مطيع، الرباط، ١٤٢١/٢٠٠٠م.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، للسان الدين ابن الخطيب، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- مستودع العلامة ومستبدع العلامة، لأبي الوليد ابن الأحمر، تح. محمد التركي التونسي، بمراجعة وتعليق: محمد بن تاويت، تطوان، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لعبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ، طبع في ٤ أجزاء بالمطبعة التونسية، ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م.
- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، لأبي الحسن بن عبد الله البناهي المالقي، تح. إ. ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٤٨م.
- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، لابن رشيد السبتي، الجزء الثاني، تح. محمد الحبيب، ابن الخوجة، تونس ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- نسختان خطيتان من ملء العيبة بالأسكوريال، رقم ١٧٣٧ .١٧٣٥ -
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكروزيرها لسان الدين ابن الخطيب، لأبي العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١هـ، تح.إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٣٨٨-١٣٩٢هـ/١٩٦٨ -١٩٧٢م، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، تح. علي عمر، القاهرة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م.
- هدية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي ، استانبول، ١٩٥١م.
- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الجزء السادس، طبع المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

